المناهل



17

المناهل

تصدرها
وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية
الرباط - المغرب

العدد السابع عشر
السنة السابعة

جمادى الأولى 1400
مارس 1980

تهنئة المناهل
بعيد العرش السّعيد

يشرّف أسرة "المناهل" ويسعدها أن ترفع بمناسبة عيد العرش السعيد، أسمى آيات التهاني والتبريك، إلى ملك البلاد، وقائد مسيرة الوطن، وراعي الفكر والثقافة، وحامي حمى العلم والعرفان والبيان، حضرة صاحب الجلالة أمير المومنين الحسن الثاني المؤيد المنصور بالله.

و"المناهل" إذ ترفع عواطفها الجياشة الزاخرة بالمحبة، إلى مقام حضرة صاحب الجلالة مقرونة بولائها وإخلاصها، تضرع إلى الله العلي القدير، أن يسعد العاهل العظيم بهذا العيد الميمون ويعيده مرّات ومرّات على أسرته وشعبه بما يرضيه ويبتغيه، كما تضرع إلى الله أن يقر عينه الكريمة بولي عهده سيدي محمد وصنوه مولاي رشيد الأميرين العزيزين المحبوبين، وبأخواتهما الأميرات الجليلات، وتسأل الله سبحانه أن يمتعه بدوام العافية والسعادة، ويحقق ما يطمح إليه شعبه من تقدم ورفاهية وازدهار.

"المناهل"

فهرس

اليوسي
بين الامتياح من الذات والانصهار في المجتمع

د. عباس الجراري

اتيحت لليوسي عوامل وظروف كثيرة صقلت قدراته الابداعية ونظمت فعلها الخلاق ، بعضها كان ذا طبيعة ذاتية الهامية ، وبعضها الآخر كان ذا طابع خارجي مكتسب .

وعلى الرغم من ان هذا الاطار المكتسب تسنى ـ كله أو بعضه ـ لكثير غير اليوسي من أقرانه ومعاصريه ، الا انه كان عنده أقوى نفاذا وتاثيرا وذا دلالة متميزة ، بسبب ما كان له من طاقة عقلية وشعورية جعلته يربط بين ذاته والعالم الخارجي بعلاقة توظيفية انتاجية لم تلبث ان افضت الى سلوك معين وابداع خاص .

(*) في العدد الخامس عشر من المناهل ، الخاص باليوسي ، كنا وعدنا بنشر البحث الذي كتبه الدكتور عباس الجراري بعنوان : « اليوسي رائد عصره ومجدده » . ونظرا لطول البحث الذي يتكون من عدة فصول ، والذي يعتبر القسم الأول من كتاب سيصدر عن اليوسي في القريب ؛ فقد ارتاى الكاتب ـ وفاء لوعد المجلة ـ ان يكتفي بنشر احد تلك الفصول في هذا العدد . (المناهل)

وقد عرف اليوسي كيف يقوي هذه الطلاقة بما كان له مـــن فكـــر منفتح حي ومشاعر حساسة عميقة ، اي بما تبلور عنده من خلال معاناة مريرة فى الحياة العامة والخاصة ، وممارسة علمية وادبيـــة متعـــددة الجوانب والملامح ، لا سيما وان المعاناة والممارسة اللتين مر منهما كانتا تتسمان بالضغط العنيف المثير عنده للتوتر والتفجير الايجابيين ، اي من حيث انهما جعلاه يخوض غمار مصيره بثقافة وشخصية متميزتين ، وجعلاه بالتالي يبدع انتاجا متكاملا ومنسجما فى شكله ومضمونـــه مـــع تلـــك الشخصية والثقافـــة .

واذا تركنا جانبا سلوك اليوسي المعبر بوضوح عن ذاتيـــة خاصة ، سواء ما كان من هذا السلوك مرتبطا بعلاقاته مع معاصريه من العلماء (x) أو ما كان متعلقا بمواقفه وآرائه (x) ، ونظرنا بعمق وتمعن الى التكويـــن الفكري والنفسي لليوسي ، فاننا نجد ان التصوف يشكل العنصر الذي يتمحور حوله هذا التكوين . وهي حقيقة ترجع الى عوامل بيئية وراثية - داخلية وخارجية - واستعدادات مزاجية فطرية ومكتسبة ، نستطيع ان نذكـــر منهـــا :

اولا : الطبيعة القاسية لموطنه الأصلي فى ملوية العليا وما خلفـــت فى طبعه من صلابـــة وصرامـــة .

ثانيا : البداوة ونوعية التركيب الاجتماعي فى قبيلة آيت يوسى والقرية التي نشأ فيها وما ترتب عليهما فى نفسه وتكوينه من بساطـــة ووضوح ورهافة احساس ورقة ذوق وصفاء نفس .

ثالثا : حب الطبيعة والفرار اليه منذ الصغر حين كان يهرب من الكتاب القرآني ويلتجيء لا شك الى البراري والحقول ، فى ميل للتحرر والانطلاق واعمال النظر والتامل .

رابعا : تالمه فى سن مبكرة لموت والدته وما كان لهذا الموت من اثر على كيانـــه غير مجرى حياتـــه .

(x) تناول الكاتب هذين الجانبين فى مباحث مستقلة سيضمها كتابه عن اليوسي .

خامسا : قراءته في المرحلة التعليمية الاولى لكتب التصوف ، وتعرفه الى احوال العباد والزهاد ، وهو في فترة المراهقة على استعداد للتأثر السريع .

سادسا : الخروج في رحلات متعددة للتعلم والزيارة .

سابعا : اقامته في زوايا ، وخاصة الناصرية والدلائية ، واتصاله فيها بعلماء متصوفة كمحمد بن ناصر الذي اخذ عنه عهد الشاذلية ، وعلماء الزاوية الدلائية التي كانت صلتها قوية بالشاذلية وبشيوخ فيها كبار كالجزولي وزروق .

ثامنا : تعميق ماساة الدلاء لكل ما في نفسه من مشاعر واحاسيس .

وعلى الرغم مما قد يكون لهذه العوامل من ابعاد ذاتية ، فانها كانت تتحرك في عملية متشعبة داخل مجال اوسع بكثير مما نتصور ، يصل في اتساعه الى احتواء كل التنظيم الاجتماعي بجميع ما يؤلفه من ظواهر وانماط .

واذا كانت هذه العملية تتصدع عند كثيرين الى حد يفصل فيه بين الجانب الفردي والجانب الجمعي العام حتى ليستحيل الجمع بينهما في غالب الأحيان ، كما يحدث عنه بعض المتصوفة والشعراء ـ وقد يكونون شعراء متصوفة في نفس الآن ـ اولئك الذين ينفصلون عن مجتمعاتهم ويشعرون نحوها باحساس فوقي يجعلهم يبتعدون عن الواقع ، منطوين على انفسهم في ابراج عاجية وصوامع نائية ، زاعمين انهم ملتزمون بفنهم او عبادتهم لذاتهما ليس غير ، فاننا نجد تلك العملية عند اليوسي ـ وهو الجامع بين الشعر والتصوف ـ تلتئم بناء وتشكلا ورؤية وهدفا لتجعل منه في النهاية الشاعر الصوفي الذي يمتاح من ذاته في تعمق لهذه الذات بكل ما يعمل فيها من مثيرات ، دون ان يفقد خيوط الاتصال بالمجتمع والانصهار فيه لامداده بالعطاء والتزود منه كذلك ، طالما انه يفكر فيه وينسجم معه ويستقي منه ويعبر عنه ، بل طالما انه يحاول التغلب على لزماته التمزيقية ويسعى للحفاظ على تكامله .

ومن ثم ، فانه مهما بدت ملامح شعر اليوسي وتصوفه متسمة بالفردية ، فانها فى حقيقتها ذات ابعاد اجتماعية ضمنية ، من حيث انه عبر فى هذا التصوف وذاك الشعر عن حياته ، ومن خلالها عن حياة المجتمع او خلاصتها على الاقل ، وكانت النزعات الصوفية طاغية عليه .

ومع ان اليوسي تناول فى شعره بعض الأغراض التقليدية المعروفة ، من مديح ونسيب وفخر ورثاء وحتى الهجاء (1) ، فان موضوع التصوف ظل طاغيا عنده بكل ما يخدمه من مديح نبوي ومدح لأشياخه ، فضلا عن جوانب الأسى والتامل التي انبثقت من حنينه الدائم الى موطنه وحزنه على الزاوية الدلائية وبكائه عليها فى تاثر عميق .

وتنطلق الشاعرية الصوفية لليوسي من التعلق بالله وبحماه فى حب تكشف عنه تعابير مستقاة من أدعية المتصوفة وأذكارهم التي يرددون ، على حد قوله : (2)

يا حبيب القلوب انت ملاذي	يا رفيع النفوس انت عمادي
انت حصني وانت كنزي وذخري	انت سؤلي وبغيتي ومرادي
انت ركني اذا تعدد بالشعـ	ـب نسيب وانت ذخري وزادي
انت سعيي وانت جندي اذا ما	جار اهل السيوف والاجناد
انت انسي وانت منية نفسي	دون كل المنى وانت استنادي
يا طبيب القلوب داو فؤادي	واسقه ما سقيت اهل الوداد
انت حسبي وحجتي وظهيري	ونصيري من كل جان وعاد

وهو فى غمرة هذا الحب ، يسعى للوصال ، ملتذا ومنتشيا بالخمر الصوفية التي يقول فيها : (3)

---

(1) يبدو الهجاء عند اليوسي محصورا فى ابيات معدودة قالها يدعو على بعض خصومه ، فى شبه رد على ما قد يكون صدر منهم ضده ، مثل ما وقع له مع بني عبد الواحد (الديوان ص 54) واحد السجلماسيين (ص 77) واحد اولي الامر (ص 137) ، ومثل ما وقع له كذلك فى فاس .

(2) الديوان ص 49 .

(3) الديوان ص 7

قد سقينا من المدام كؤوســـــا   مترعات صرفا وصرفا تشـــاب

من مدام بها الألبـــاء تحيــــا   ورؤوس الحفاة منها تشــــاب

مرة فى النفوس كالصبر المــــــ   ــر وفى القلب حلوة تستطـــاب

تزدهي نشوة عليهـا وطــــورا   تشتكي من خمارهـا الأوصـــاب

وفيها يقـــول كذلـــك : (4)

وكانت مداماة الوصـــال مدامـــة   على القوم صرفا لا مزيجا ولا نزرا

تجاذب اخوان الصفاء كؤوسهـــا   فلا تختشي منها خمارا ولا سكرا

بل انه يسعى اليها بلهف وهيام فى مثل هذه الأبيات : (5)

واسقنا خمرة تعاطي قديمـــــا   صرفها الناتقون صفو الشمـــال

من كؤوس كانــت تـــــدار على   الفتيان فى كل ما زمان وجيـــل

من يذقها يوما يهـم بهواهــــا   ويصر حلف لاعـــج وهمـــــول

كم فتى سائح بها فى البــــراري   راغب عن حليلـــه وخليــــــل

ويح من ضاع عمره وهو صـــاح   لم ينل جرعة بها من منيــــــل

ياالساقي الصهباء للذابـل الضـــ   ــاح تمنـى ارتواءه فى مقيـــل

يا غياث اللهفان انــت غياثــــي   يا دليل الحيران انت دليلــــــي

انت وردى اذا ظمئت وخصبـــي   عند ما انتحي بسرج هزيــــــل

وفى حب مفعم بالروح الصوفية ينسج اليوسي مديحـــه للرسول عليـــه السلام فيقـــول : (6)

---

(4) الديـــــوان ص 73

(5) الديـــــوان ص 106

(6) الديـــــوان ص 68 ـ 69

محمد المهدى الى الناس رحمـة | وسر الوجود الطاهر المتخيـر
نبي اتي والكون اسود مظلـم | فاصبح منه وهـو ابلج نيـر

* * *

هو الغرة البيضاء والكون ادهـم | هو الدرة العصماء والكون جوهـر
هو الروح فيه والحيـاة وكلمـا | سواه من الأكوان جسم وصـور
وان كان حرز الانبيـاء محصنـا | فاحمد فيه بابـه المتنظـر
وما هم سوى عين يرى بشماعها | وانسانها هو النبي المطهـر
له المعجزات الباهرات ووجهـه | يرى صدقه من يستبين وينظـر
بيان تادى للاصـم سماعـه | وابصره للناس من ليس يبصـر

* * *

ابعد ثناء الرب يرجى لواصـف | ثناء وان جاء البليغ المكثـر
فاحمد خير الخلق غير مدافـع | واحمد حصن المتيقن المسـور
واحمد انسان بالاسـم وانـه | ليعلو على الاملاك فضلا ويكبـر
وبالحجر الياقوت يسمى توسعـا | واين من الياقوت فى الفضل احجر
واحمد سر الله فى الخلق صانـه | فلم يره اعمـى ولا متبصـر

* * *

وما هو الا الشمس تشرق ضحوة | وانوارها تغشي العيـون وتبهـر
محاسنه فوق الذي يعرف الورى | فمن رامه بالمدح فهـو مقصـر

وقد ينطلق المديح عنده من التوسل الى الله بنبيه الكريم ، على حد قوله : (7)

توسل الى الرحمن فى كل نائب	ملم بخير المرسلين الأطايب
وخير عباد الله شرقا ومغربا	وبرا وبحرا من ذؤابة غالب
من آختصه الله العظيم بسورة	من المجد تسمو فوق هام الكواكب
ومن ملأ الله الوجود بنوره	وطهره من كل رجس وعائب
وادحض اوهام الأضاليل كلها	بفرقانه والمرهفات القواضب
واجلجه فى كل خطب وموطن	وايده بالمعجزات العجائب
محمد المختار من ختمت به	النبوة والأخبار من كل غائب
عليه صلاة الله ما در شارق	وما جنحت شهب الدجا للمغارب

ويعتبر مدح أشياخه من الموضوعات التي تجلت فيها شاعرية اليوسي وصوفية حبه وصدقه فى التعبير ، كقوله يخاطب ابا عبد الله محمد بن ابي بكر الدلائي المعروف بالمرابط ، فى اسلوب يتوسل بالصورة والتشبيه والرمز : (8)

يايها الحب الذي ساقول	قولا اليه مجازه مقبول
اني لأصبحت منك كما اتى	شعر قديم لفظه معسول
واشد ما لاقيت من الم الهوى	قرب الحبيب وما اليه سبيل
كالعير فى البيداء يقتلها الظما	والماء فوق ظهورها محمول

وتكاد تكون داليته فى ابى عبد الله الناصر الدرعي ابرز قصائده فى هذا الباب ، وهي تضم اكثر من خمسمائة بيت ، ومطلعها :

(7) الديوان ص 7

(8) الديوان ص 103

مرج بمنعرج الهضاب الـــــورد   بين اللصاب وبين ذات الارمـــد

فقد استهلها على طريقة القدماء في السفر الى ديار الحبيبة والمرور بهذه الديار وتذكر الأيام وتعزية النفس عما يصير اليه الانسان . ولكنـــه حين يصل الى المدح يحول معانيه التقليدية الى افكار صوفية تلقي الضوء على العمل الاصلاحي التصحيحي الذي كان ينهض به ممدوحه ، فيقـــول مثـــل هـــذه الابيـــات : (9)

غيث الورى الشيخ ابن ناصر الذي   نصر الالاه به شريعة احمـــــد

واعاد وجه الدين ابيض مسفـــرا   بهجا مقرا عين كـــل موحـــــد

واقام سمك بنائه حتى سمـــــا   فوق السماك على الأواسي الوطد

وازاح عنه كل حنـــدس شبهـــة   وضلالـــة وخلاعـــة وتشـــــدد

كم سنة احييـــت بعد اماتـــــة   وضلالة اخمدت بعـــد توقـــــد

وافيت والبدع الحوادث قد دجت   ظلماتها والجهـــل وارى الأزنـــد

والدين مطموس المعالم والهـدى   بيض الأنوق ولقطة لـــم تنشـــد

والسنة الغراء قفر مـــــوحش   ما فيه من هاد ولا من مهتـــــد

اما حزنه على الزاوية الدلائية فله في نفسه اثر عميق لا يجد ما يعبر عنه غير البكاء ، وان كان لا جدوى منه : (10)

اكلف جفن العين ان ينثر الــدرا   فيابى ويعتاض العقيق بها حمـــرا

واساله ان يكتم الوجد ساعـــــة   فيفشي وان اللوم آونة اغـــــرا

وقد كنت استصحيه حتى توقدت   جذى الوجد فاستسقيته يطفىء الجمرا

على أن دمع العين فضل حشاشة   تذاب فماذا ينفع الدمع ان يجرى

---

(9) الديـــــوان ص 29

(10) الديـــــوان ص 73

ولكنه فى ميل لاستخراج الحكمة والوصية ، لا يرى ملاذه الا بالله ، على حد قوله فى خاتمة القصيدة :

وفى الله للمرء اللبيب كفايـــة عن الناس والمحروم من حرم الأجرا

فكن رائيا بالنفس عنهم ومغضيا بعين الحشا عما تكنفت الغبـرا

ولا تجهلن فى غير مولاك همة فمنه ترى لو تعلم النفع والضـرا

ويبدو ميل الشاعر الى التامل والتفلسف واضحا فى داليته الناصرية ، اذ يقول متحدثا عن صراع الوجود الانساني بين علوية الروح وسفلية الجسم (11) :

ما المرء الا ابن الثرى ولو ارتقى افق السماء بسلم لم يخلـد

شخص تكنفه الثريا والثـرى فالجسم كون من خسيس الجرمد

والروح كان نشوءه ونزوعـه من ذلك الملأ العلى الأمجـد

فيحن ذاك لارضه بتسفـل ويحن ذا لسمائه بتصعـد

والمرء بينهما مخافة فرقـة ونوى قذوف فى المقيم المقعـد

وهو يوجه طاقته التاملية فى نفس القصيدة للنظر فى حال المجتمع ، ويدين ما فيه من نفاق وتزييف ووهن فى النفس وضعف الايمان : (12)

ويح المشرف للخسيس مجلـه ومذيل ذى الشرف الأثيل الاقعد

وحفيظ من هو للصداقة خائـن وخؤون ذى الود الصفى الأتلـد

ولبائع حورا حسانا خـردا عربا بعظم فى التراب مـدود

ولراضع ثدى الهوى وسنـاه فى ليل الضلالة خابط متـردد

(11) الديـوان ص 22

(12) الديـوان ص 23

متخبط فی تیهه متصلف | ومذبذب فی نوکه متلدد
فطن بدنياه بصير ناقد | متغافل فی دينه متبلد
حرد اذا ما سيم خسفا جاهه | واذا يسام الاهه لم يحرد
متكاسل عن كل حق عاجز | متشمر فی كل ما بطل اد

ولعلنا لا نحتاج الى كبير عناء لندرك ما يتسم به هذا الشعر من جزالة ووضوح وبعد عن الاغراب ، الا ما كان منه مغرقا فی بعض المعاني الصوفية . وحتى حين يرغب فی استعمال الصور ـ وهي عنده قديمة تكاد تكون جاهلية ـ فانه يستحضرها بعفوية وتلقائية ودون اى تكلف ، على حد ما تكشف هذه الأبيات التي توسل فی تدقيق صورها بكل ما تسعفه به الطبيعة وبالحركة والتجسيم والتشخيص : (13)

ما دوحة فينانة او روضة | بخميلة او فی يفاع انجد
سحبت عليه ذيولها مزن الحيا | وسخت عليه بكف واكفها الندى
يسقى من الوسمى مترع كاسه | ويصان من نسج الولى ببرجد
من كل سابغة الذيول كانها | عكر تسام على الربى بالمرعد
نثر الجنوب جمانها فتقلدت | لب الرياض بحليها المتبدد
فتفقدت انهارها وتفتقت | ازهارها في روضة المستاسد
وتساجلت اطيارها وتمايلت | اشجارها كالمثمل المتميد
وجرى لطيف نسيمها برياضها | جري الزلال بفصنها المتاود
ما شئت من ثمر يلذ ومنظرا | فق وصوت فی الفصون مجسد
وحباب جريال يخلخل ساق امله | ود بها فحم الدوائب مماد
او امن ذی فرق خليع لبه | او غفوة الاصباح للمتهجد

---

(13) الديوان ص 20 ـ 21

بالله من تلك الليال لو محـــــا ماخطه الدبران سعـد الأسعـد

وكما جاء معظم شعره سهلا ، فكذلك اتت قوافيه فى الغالب ، الا ما فرضه موقف معين ، كهذه الابيات التي التزم فى قافيتها ما لا يلزم ، والتي قال عنها انها جاءت ارتجالا أو شبه ارتجال ، ولعله انشاها فى سيـــاق مساجلة مع الغير : (14)

يابن الكرام ما لليـل الهجـــــر من نحوكم ليس له من فجـــــر

ومـا للمزفـــى او لهجـــــــر يصـــدر ثم من لئـــام بجـــــر

من كل خب غير زاكي النجـــــر ولا كريم ليس قـــط يجـــري

على التقى فى سعيه والأجـــــر اقسم بالكهـــف وآى الحجـــر

وبالمقام والصفـــا والحجـــــر وبالذكاء والنهـــى والحجـــر

ان لم تلج ضباعهم فى الوجـــر ولم تلد من خيفـــة بحجـــر

واذا كان اليوسي قد اودع تصوفه اشعاره ، فان ولعه به جعلـــه يكتب عنه فصولا فى كتابيه (المحاضرات) و (القانون) ، كما جعلـــه يحرر رسائل فى موضوعه ، على حد ما تكشف عنه سيرته البيبليوغرافية(x) بل آن صوفية روحه وشفافية هذا الروح جعلتاه فى مجال الكتابة والتحليل يتشرب المعاني ويتسرب الى اعماقها ، محللا ومستنبطا ورابطـا بيـــن المتناقضات فى بعض الأحيان . ويتجلى ذلك فى وقوفه مثلا عند بيـــت امــرىء القـــيس :

الله انجـــح ما طلبـــت بـــــه والبر خير حقيقـــة الرجـــل

فقد كتب يقول : « خطر لي ذات ليلة بيت للملك الضليل امـــرىء القيس بن حجر فوجدته قد احتوى على مقتضى الشريعة الظاهرة والباطنة وتضمن كل ما تحصل من دواوين ايمة الدين واقاويل الصوفية ، فقضيت

(14) الديـــــوان ص 90 ــ 91

(x) المنشورة فى العدد 15 من المناهل ، الخاص باليوسي .

العجب من ذلك ، وعلمت ان الله تعالى من باهر قدرته وعجيب حكمتـــه يبرز الحكمة على لسان من شاء وآن لم يكن من اهلها ... فالشطر الأول قد احتوى على الحقيقة كلها وهي باطن الشريعة ، فان معناه ان ما طلبته بالله فانت منجح فيه ، وهو كما قال في الحكم العطائية : ما تعسر مطلب انت طالب بربك وما تيسر مطلب انت طالبه بنفسك . ومعلوم انـــك لست تروم ذلك الا وانت تعرف الله تعالى وانه حق لا شريك له وانه هو الفاعل المدبر النافع الضار ، ثم تفنى عن نفسك وعن حولها وقوتها وتدبيرهـــا واختيارها وتبقى بربك ، وهذا هو سر العبودية ، وهو الكنز الذي يحوم حوله المريدون ويعنو اليه السالكون ، وهو المشار اليه في قولـــه صلى الله عليه وسلم : لا حول ولا قوة الا بالله كنز من كنوز الجنة . وهذا هو كلية الأمر ... والشطر الثاني قد تضمن الشريعة كلها ، وهو أن البـــر خير ما تحمله العبد وادخره ، أى والفجور شر ما تحمله ، ويدخـــل فى البر بر العبد مع ربه بطاعته له قولا وفعلا ، وكذا مع من اوجب الله طاعته من نبي وامير وملك ووالد ونحوهم ، وبره مع الناس بالاحسان فعلا وقولا وخلقا ، وهو مجموع ما يطلب شرعا » (15) .

ومثل ذلك فعل مع بيت لبيـــد : (16)

الا كل شيء ما خـــلا الله باطـــل   وكل نعيم لا محالـــة زائـــــل

ومع بيتـــي ابي نـــواس :

تغطيت من دهرى بظل جناحـــه   فعيني ترى دهري وليس يرانـــي

فلو تسال الأيام عنـــي مـــا درت   واين مكاني ما عرفـــن مكانـــــي

فقد علق عليهما بقوله : « هذا مشرب عندهم فى حق كهف الايـــواء من الأصفياء الأخفياء » (17) .

---

(15) المحاضـــــرات ص 53 ـ 54
(16) نـــفس المصـــدر
(17) المحاضـــــرات ص 154

اما معنى بيتي نفس الشاعر المشهورين اللذين يقول فيهما :

اذا العشرون من شعبان ولـــت فواصل شرب ليلك بالنهـــــار

ولا تشرب باقـــداح صغـــــار فقد ضاق الزمان عن الصغـــار

ففي رأيه انه « صار عندهم موعظة في الاكثار من العمل الصالـــح والتشمير للتزود للمعاد ، ولا سيما عند ايناس قرب الاجل وخشية فوات الأمـــل » (18) .

ومثل هذه التحليلات التي يسلك فيها اليوسي تاويل اهل الطريق العارفين للكلام بما لم يرد على خاطر قائله ، كثيرة متشابهة ، يكفينـــا ان نضيف اليها تعقيبه على هذين البيتين :

لو كان لي مسعد بالراح يسعدنـــي

لما آنتظرت لشرب الراح افطـــارا

الراح شيء شريف انـــت شاربـــــه

فاشرب ولو حملتك الـــراح اوزارا

فعنده آن « الراح ... هنا هي الخمرة الربانية القلبية ، وهي لطف من الله تعالى ونور يرد على القلب ، فاستعاروا له اسم الخمر للشبـــه الواقع في اللذة والانفعال » (19) .

* * *

وبنفس هذه الشفافية الصوفية ، وبمعرفة دقيقة بالمجتمع واحواله ناتجة عن الملاحظة والادراك ، وعن التعايش والالتحام ، يتعامل اليوسي مع الناس والأرض والأشياء ، فيلتقط الظواهر والمظاهر ، ويحس بالفوارق

(18) نـــفس المصـــدر

(19) المحاضــــرات ص 156

والخصوصيات ، ويسجل السمات المميزة لمختلف البيئات التي جال فيها، ويرسم لوحات حية للحياة البشرية ، تبرز الملامح الاجتماعية والثقافية ، في انصهار مع المجتمع ينم عن نزعة جماهيرية تنساب عنـــده بعفويـــة وروحانيـــــة .

ويكاد كتابه (المحاضرات) يعطي وحده ـ فضلا عن بقيـــة كتبـــه ورسائله ـ صورة نابضة وناطقة عن المغرب الواسع الذي عرفه ، مـــن خلال لقطات عن عاداته وتقاليده ولغته وامثاله واشعاره وما اليها من الوان ثقافية شعبية لم يكن ليدونها غيره ، خاصة في هذا العصر الذي تجمـــد فيه الفكر المغربي وتقلصـــت أبعـــاده وتحجـــرت عقـــول الفقهـــاء عند علوم معينة يجترونها ، بعيدا عن اي تفكير في تجاوزها الى فنـــون مدرسية اخرى ، ودون اية قدرة على ذلك ؛ فكيف بما يدخل في نطـــاق العوام ، ولم يكن ينظر اليه ـ يومئذ وحتى عهد قريب ـ الا بمنظار الاحتقار والازدراء ، باعتباره لا يمثل غير الجهل والانحطاط والاسفاف .

ويعتبر الشعر الملحون في طليعة الآثار الشعبية التي لفت اليوسي الأنظار اليها والى معانيها ، من خلال نماذج اوردها في سياق موضوعات وقضايـــا متعـــددة .

منها انه أثناء رحلته الدراسية لقي في احدى قرى دكالة رجلا مسنا عابداً زاهدا ، معظما للعلم وأهله ، فاعجب به واكثر مجالسته والاستماع اليه . ومما سجل عنه هذان البيتان (20) . يصبره بهما على الغربة :

انـــا الغريـــب المتـــــــوح صابـــر أعلـــى كـــل هانـــــا
ايـــلا نخـــرج ما نقـــــول اح في كلـــب من قطعـــت انـــــا

وانشده كذلك في مـــدح العلـــم : (21)

(20) المحاضـــــرات 47
(21) المحاضـــــــرات ص 48

العلـم شمعـا منيــرا يتنـاولـوه الكيــاس
مـا فـوق منـو ادخيـرا ايزول عـن القلـب لدنـاس

واورد اليوسي قول احمد بن عبد الله بن مبارك ، نقلا عن اعرابي لقيـه :

ايلا برك لي الزمان واركبت عليـه
واللي راد بي المولى نلكاه اعراضـا
ابرك لي مركوب مانـي داري بـه
ما نحساب ايامي اعلـي مفتاضـا
نصبر لحكام المولى حتـى تتقاضـى

واضاف شارحا : ((قوله مفتاضا من الغيظ ، وابدل من الظاء هنـا ضادا ... وقوله : نصبر لحكام المولى حتى تتقاضى ، هذا هو ادب العبد، وهو الصبر لأحكام الله تعالى والسكوت تحت مجاري الاقدار)) (22) .

وانشده ابو القاسم بن بوعتل الشيباني الزراري هذا المقطع لبعض الأعـراب :

يا راسي عيبـك بـان واللي عيبو الوجهو ما يصيب ايدسو
كالوا علت ابنادم شيطـان ونا نقول علـت ابنـادم نفسـو
اقبل لا يزيغ ابليس اش يكـون ابليسـو

وقد علق عليه بقوله : ((فانظر الى هذا الاعرابي كيف غاص على معنى كبير ، وهو أن نفس الانسان سبب هلاكه باذن الله تعالى الا من عصمه الله، وكيف وقع على حجة برهانية وقياس منظوم في النـفس ، وتقريـره ان

---

(22) نـفسـه

تقول لو كان كل زائغ انما يزيغ بشيطان لكان ابليس حين زاغ انمـــا زاغ بابليس آخر ، والتالي باطل للزوم التسلسل ، فالمقدم مثله » (23) .

وبلغه « ان جماعة قدموا على سيدي محمد الشرقي التادلاوي ... فخرج اليهم وتحرك سماع ، فلم يشعروا به الا وهو في وسطه يتواجـــد وليس عليه الا القميص ، فقال بعض الجالسين لآخر سرا : هذا رجـــل خفيف ، فاذا هو على الفور تكلم على خواطرهم فقال :

« اللــــه اللـــه يالله
اللــــه اللـــه يالطيـــف
الحـــب ايهـــز الرجـــال
والله مانــــي اخفيف » (24) .

وكما عنى اليوسي بالشعر الملحون ، فكذلك عنى بالأمثال الشعبية ، اذ اثار الانتباه اليها مرة باللفظ واخرى بالمعنى ، كلما اقتضى الأمر ذلك ، وخاصة في كتابه (زهر الأكم في الأمثال والحكم) حيـــث قال شارحـــا منهجه في التاليف : « فاذا فرغت من الأمثال ذكرت شيئا ممـــا يجـــري مجرى الأمثال الوقتية من غير تكلف ولا كبير تامل ولا مراجعة... » (25).

ففي تناوله للمثل : « اذا اشتريت فاذكـــر السوق » ، قـــال : « وفي معناه قول العامة اليوم لاشترى تبيع » (26) .

وحين اورد المثل : « ياكلك الأسد ولا ياكلك الكلـــب » ذكـــر ان « هذا المثل باق اليوم في السنة العوام ، يقولون من اكله السبع خيـــر ممن اكلـــه الذيب » (27) .

---

(23) المحاضـــــرات 49
(24) المحاضـــــرات ص 103
(25) زهـــر الاكـــــم 71 د I ص 56
(26) زهـــر الاكـــم II ص 73
(27) زهـــر الاكـــم I ص 78

وعلق على المثل « يبلغ الخضم بالقضم » بقوله : « وللعامة فى نحو هذا أمثال كثيرة منها قولهم : المهل يبلغ ، وقولهم : الراحة تنزل شيئا فشيئا ، وأصله فى المريض ؛ وقولهم : لا يجيء دفعة واحدة الا الموت ، وقولهم : قطرة الى قطرة فيسيل النهر ، وقولهم : امش بالنعلين حتى تجد السباط ، اى الخفين » (28) .

وعلى ذكره للمثل : « الذئب يغبط بذي بطنه » عقب بان « نحو هذا فى امثال العامة قولهم : من راى الجمل الابيض ظنه كله شحما » (29) .

كما عقب على المثل : « رب عجلة تهب ريثا » بانه « فى السنة العوام اليوم موجود معناه ، يقولون : من عجل ابطا » (30) .

وعناية اليوسي بالأمثال الشعبية جعلته يسوقها فى غير (زهر الاكم) ، على حد ما فعل فى (الفهرست) ، اذ اورد منها : « ينسى الراس ولا ينسى الكراس » (31) . و « لو كان فى المغرب خلتين ما تباع القمح بدرهمين » (32) .

وهو فى هذا المضمار ، يعير اهتماما دقيقا لخصائص النطق فى التعبير العامي لهذا الاقليم او ذاك ، على نحو ما تكشف عنه هذه الفقرة التي يقول فيها : « من جملة ما اتفق لي فى هذه السفرة الى جبال الزبيب وسفرات اخرى لزيارة الشيخ عبد السلام بن مشيش رضي الله عنه اني سمعت لغة لأهل تلك الجبال يكسرون آخر الموقوف عليه ، فتتبعتها استقراء فوجدتها لها ضابط . وقد رايت غيرهم من اهل الآفاق يسمعون عنهم ذلك فيحكونه على غير وجه ، وينسبون اليهم ما لا يقولون ، جهلا منهم بضوابطه ؛ فانهم لا يكسرون الا الفتحة بعدها الف . اما الألف المقصورة كالدنيا ، أو الممدودة كالسماء والطلباء والشرفاء ، والأصلية

---

(28) زهر الاكم II ص 204 والخضم الاكل بجميع الفم
(29) زهر الاكم II ص 266
(30) زهر الاكم II ص 298
(31) الفهرست ص 104
(32) الفهرست ص 143 والخلة موضع اسفل درعة

كالماء ، او المقلوبة عن هاء التانيث في مجرى العرف كالبقرة والشجـــرة والصفحة ، فان العوام من غيرهم يقولون في الوقف على هذه : البقـــرا والشجرا بالف ، وهؤلاء يكسرون فيقولون : البقرى والشجرى ، وتنقلب الألف ياء ، وهذا كله في الوقف ، فان وصلوا نطقوا بالألف كغيرهم ، وان لم يكن الفتح ولا الف كالشجر والبقر مرادا به الجنس وقفوا بالسكـــون كغيرهـــم » (33) .

ويدخل في هذا النطاق ذكره لبعض الكلمات ك : « الخليع » (34) و « الشراويـــط » (35) و « الزربيـــة » (36) و « الخالـــص » (37) و « الكسكسو » الـــذي قال عنـــه آنه يكتـــب كذلـــك بالنـــون : « الكسكسون » (38) .

وحديثه عن الطعام جعله يتحدث عن التداوي ببعض الأكلات الشعبية المعتاد عليها ، على حد ما يحكي عن نفسه اذ يقول : « ... دخلنا مدينة فاس ... فاصابني اسهال مفرط وطال بي ، وكان الطبيب يعتني بامري ، فلم يترك من دواء يستحسنه الا صنعه لي ، فلما لم يفد ذلك ارسل في غيبة مني الى عيالي يقول لهم آن كان لهم من الطعام ما يعتاده في بلده ، فذكروا له الاقط واصطنعوا عليه طعاما فاكلته فعافاني الله تعالى . وقد اصابني مرة اخرى ذلك فدخلت على السلطان رشيد بن الشريف ... فراى تغيرا في وجهي فسالني فاخبرته ، فقال : وماذا صنعت من علاج ؟ فقلت له ان الطبيب يصنع لي شراب الريحان ، فتضاحك ثم قال : سبحان الله ما لك ولشراب الريحان واين عهدته ؟ خذ سويق الشعير واخلطه بالماء فـــذاك دواؤه » (39) .

---

(33) المحاضـــــرات ص 141
(34) المحاضـــــرات ص 77
(35) المحاضـــــرات ص 91
(36) المحاضـــــرات ص 107
(37) المحاضـــــرات ص 68 ورسالة (جواب الكتاب) ص 25
(38) المحاضـــــرات ص 66 ـ 67
(39) نـــفســه

كما ان حديثه عن الأطعمة جعله يتحدث ـ من خلال حكاية شعبية ـ عن بعض الأكلات وارتباطها بالعادات ، وفى ذلك يقول : « دخلت فى اعوام الستين وألف مدينة مراكش عند رحلتي فى طلب العلم ، وانـــا اذ ذاك صغير السن ، فخرجت يوما الى الرحبة انظر الى المداحين ، فوقفت على رجل مسن عليه حلقة عظيمة ، واذا هو مشتغل بحكاية الأمور المضحكة ، فكان اول ما قرع سمعي منه ان قال : اجتمع الفاسي والمراكشي والعربي والبربري والدراوي ، فقالوا : تعالوا فليذكر كل منا ما يشتهي من الطعام. ثم ذكر ما تمناه كل واحد بلغة بلده وما يناسب بلده ، ولا ادري اذا كـــان ذلك فى الوجود ام شيء قدره وهو كذلك يكـــون . وحاصله ان الفاسي تمنى مرق الحمام ولا يبغي الزحام ، والمراكشي تمنى الخالص واللحـــم الغنمي ، والعربي تمنى البركوكش بالحليب والزبد ، والبربري تمنـــى عصيدة ايلي وهو صنف من الدرة بالزيت ، والدراوي تمنى تمر الفقوس فى تجمدرت ، وهو موضع بدرعة يكون فيه تمر فاخر ، مع حريرة امه زهرا، وحاصله تمر جيد وحريرة . ولو عرضت هذه الحريرة على العربي لـــم يشربها الا من فاقة ، اذ لا يعتادها مع الاختيار ، ولو عرضت العصيدة على الفاسي لارتعدت فرائصه من رؤيتها ، وهكذا » (40) .

وقد عرض لبعض هذه العوائد في رسالته (جواب الكتاب) ، وهو يعدد أسباب استثقاله لسكنى مدينة فاس ، اذ ذكر « منها فساد طبـــع العيال والأولاد والأصحاب ونخشى ذلك نحن ايضا فى انفسنا من جهات : احداها تعلم الشهوات والاتساع فيها ، وان كنا بالباديـــة لا نعرفهـــا ، ووجدنا آباءنا يعيشون بما وجدوا قانعين به ، يلبسون الصـــوف الخشن وياكلون البر تارة والشعير اخرى والدخن اخرى والتمر اخرى والبلوط وحب العرعار اخرى ، حامدين شاكرين ؛ ما راوا قط لباب البر ولا ابزارا ولا عطرا ولا كتانا ولا ملفا ... ثانيها الوقاحة فى ذلك وقلة الحياء ، فقد كنا فى البادية تستحي المراة ان تطلب اللحم فكيف بما وراءه ، ولكـــن تتشوف الى المواسم او ضيف نزل فيذبح له او يشتري له او انفاق ياتي به الله من غير استدعاء ، فوجدنا المراة فى الحاضرة تراعي الباب وتقول

---

(40) المحاضـــــرات ص 68

للرجل : انفق وارجع للسوق ، ولا تسمع الا سوق اللحم ، سوق الحوت ، سوق الزعفران ، وهكذا . وان لم يكن ذلك وقع التداعي وجـاء رجـل القاضي ... ثالثها ان يتعلم الصبيان اللؤم والبخل وقلة السماحة كما هو داب أهل الحاضرة ، وما فسدت طبائع العرب الا في الحواضر ... » (41).

ومن العادات والتقاليد الشعبية ذكر اليوسي عادة عقد الأنكحة في المسجد بسجلماسة (42) ، وعادة اطعام الطعـام في الزوايا ، فقـد « شاع اليوم اقامة الصوفية في الزوايا باطعام الطعام ، ولا سيمـا في بلادنا المغربية ، وخصوصا في البوادي ، وما يكون من فتوح ياتي به الى يد الشيخ ، وهو ينفق منه على المجاورين والواردين . وهذا قـد كان فيهـم من قديـم » (43) .

كما ذكر عادة التطيـر من السواد كعـدم زجر الكلـب الأسود ، والتشاؤم من الغربان ، وعدم ارتداء الثوب الأسود ، وعدم ركوب الفرس الأدهم (44) . وانطلق منها ليتناول الحديث النبوي الشريف : « لا عدوى ولا طيرة » ، وفي ذلك قال : « فالحق عندنا في تاويله انه اثبات لانفراد المولى جل بكل التاثير وألا تاثير لشيء مما يتوهم العرب أنه مؤثر لا في باب العدوى ولا في باب الطيرة لا انه نفي لما جرت العادة بوجوده » (45).

ومع ذلك فهو يحارب العادات القبيحة ، ممثلا لذلك بما « حكى عن بعض الناس أنهم ما يذبحون الضحية وأنهم متى ذبحوها اصابتهم مصيبة ، فلما اعتادوا ذلك تركوها ، فتمادوا على هذا الضلال حتى انتهى الأمر الى رجل منهم موفق فقال : والله لا أترك السنة ولأضحين . فلمـا ضحـى يبست يده اليمنى ، فقالوا : هذا الذي حذرناك ؛ فقال : لا ابالي . فلمـا اتته الضحية من قابل ضحى ايضا ، فيبست يده الأخرى . فلما ضحـى الثالثة يبست رجله . ولما ضحى الرابعة يبست رجله الأخرى . ولمـا

---

(41) رسالة (جواب الكتاب) ص 22 ـ 23
(42) المحاضـرات ص 60
(43) المحاضـرات ص 117
(44) المحاضـرات ص 80
(45) المحاضـرات ص 82

ضحى الخامسة انطلق ولم يبق به باس ، وانقطعت تلك العادة الباطلة ، وتبين انه شيطان يعبث بهم ويفسد عليهم دينهم » (46) .

واذا كان اليوسي ينطلق في نزعته الشعبية هذه بشيء من العفوية والتلقائية ، كما ذكرنا من قبل ، فانه كان يتحرك كذلك بوعي يجعله يراعي الجماهير ويدخلها في اعتباره ، على حد ما تكشف عنه الفقرة التي يتحدث فيها عن التبرك بآثار الصالحين ، والتي يقول فيها : « ورايت في بلاد المصامدة ، وخصوصا في بلد رجراجة من هذا كثيرا ، بقي عندهم موروثا خلفا عن سلف ، عند ما يدورون على صلحائهم زائرين . ولما حضرت معهم في الدور ... سنة خمس وتسعين والف ، لم ارافقهم في فعل كثير مما يفعلون ، مخافة ان يتخذني العوام حجة فيبالغون في ذلك » (47).

وهو من اجل ذلك يرى ضرورة تبسيط القضايا عند تلقينها للعامة ، وخاصة في مجال العقيدة ، منطلقا من ان « ... من كانت له قابلية في الفهم والنظر فحسن من ان ينظر لكل عقيدة في دليل اجمالي تطمئن به النفس ، ومن لا طاقة له بذلك فلا يطلب به ، وانما لم اذكر لكم الأدلة في هذه الرسالة مخافة ان اهول بها على من لا يقدر عليها » (48) .

وكمثال على منهجه التبسيطي في التلقين نورد ما حكى عن احدى زياراته لسجلماسة ، حيث وجد ان طلبتها « نظروا في كلام من حرص من الأيمة على النظر في علم التوحيد وحذر من الجهل فيه ومن التقليد ، فجعلوا يسالون الناس عما يعتقدون ويكلفونهم الجواب والابانة عن الصواب، فربما عثروا على قاصر العبارة عما في قلبه او متلجلج اللسان لدهش ناله او جاهل بشيء مما يقدح في العقيدة او يظنونه قادحا ، وان لم يقدح فيشنعون عليه الجهل والكفر ، ثم اشاعوا ان الفساد قد ظهر في عقائد الناس ، وجعلوا يقررون العقائد للعوام ، فشاع عند الناس ان من لم يشتغل بالتوحيد على النمط الذي يقررونه فهو كافر ؛ وشاع عندهم ان من

(46) المحاضرات ص 85 – 86
(47) المحاضرات ص 37
(48) الرسالة الأسفية ق 302 ص 336

لم يعرف (لا اله الا الله) اي النفي والاثبات على التقرير الذي يقـــرره العلماء فهو كافر . فدخل من ذلك على عوام المسلمين امر عظيم وهـــول كبير . فلما دخلت البلد جاءني الناس افواجا يشتكون من هذا وان ليس

كل احد يبلغ الى فهم تقارير العلماء ، فاقول لهم ان الله تعالى انما تعبدكم باعتقاد الحق فى انفسكم ، افلا تشهدون ان الله تعالى حق ؟ فيقولون : بلى ، افلا تعلمون انه واحد فى ملكه لا شريك له ولا اله معه وكل معبـــود سواه باطل ؟ فيقولون : بلى هذا كله يقين عندنا لا نشك فيه ولا نرتاب . فاقول لهم : هذا هو معنى كلمة الاخلاص المطلوب منكم اعتقـــاده سواء عرفتموه من لفظها اولا ... ولا يشترط فهم الفاظها التي يعبر عنهـــا فى كتب العلماء ولا ادراك حدودها ورسومها التي تعرف بها ، فان فهم هـــذه العبارات والاحاطة بهذه الحقائق والتقريرات علم آخـــر لم يكلف بـــه العـــــوام ... » (49) .

ولم يكن منهج اليوسي فى التلقين يعتمد التبسيط فقط ، ولكن كان يعتمد التدريج كذلك مع مراعاة شعور الملقن له . فقد حدثه « بعـــض الفقراء عن شيخ لـــه من اهل العصر المتصدر لصحبة المريدين انـــه بينما هو جالس فى محله جاءه فقير غريب واظنه قال من ناحية السوس الاقصى ، فلما قرب منه تكلم لبعض من كان حاضرا بلسانه البربـــري ، فقال له : قل لذلك الرجل ــ يعني الشيخ المذكور ــ أما بقيت فى الدنيا مصابيح يقتبس الضوء منها ؟ فبلغ الرجل ذلك للشيخ ، فقال الشيـــخ : قل له قد بقيت ولكن من جاء يقتبس اتى بفتيلة مبلولة . فقال الفقيـــر : قل له ما معنى بللها ؟ فقال الشيخ : قل له لا اقل من ان يطلب او يترجى الولاية . قال : فوضع الفقير يده على جبهته ساعة ثم انصرف من هناك . فلما رايت الفقير الذي حدثني تبجح بهذا الكلام الصادر من شيخه وجعله من التنبيهات المهمة للسالك ، وكنت جاريته كلاما فى استحلاء الطاعـــة فقال : ان تلك الحلاوة علة . وعلمت انه ايضا قد بنى على ذلك ، وانهـــم سمعوا نحو قول الواسطي رحمه الله : استحلاء الطاعات سموم قاتلة ،

---

(49) المحاضـــــرات 76 ــ 77

فاردت ان انبه على غلط يخشى فى هذا الامر ، فاقول ... ان كلا من الكلام الواقع للواسطي والواقع من هذا الشيخ صحيح فى نفسه ، وهو تحقيق فى بابه وعند اربابه ، اما القاؤه لعوام المتوجهين فغلط فى التربية اما جهلا وقصورا واما تمويها وتظاهرا بالنهايات ، اما حديث الولاية فمن وجهين : الأول ان التدريج معتبر عند الناس وهو حكمة الله

البالغة الجارية في الناميات الحسيات والمعنويات ، ثم ارتكاب اخف الضررين مطلوب شرعا ... » (50) .

ويضيف اليوسي فى شرح رايه بضرورة التدريج فى تلقين العوام واغرائهم وعدم تنفيرهم انه لو « ... الزمنا هذا عزل النفس عن الحظوظ وتجريد القلب للحقيقة ، او شك ان تحيص نفسه حيصة وهي لم تزل قوية، فيعود من حيث جاء . ولعلك تفهم بهذا سر امتلاء كتاب الله تعالى بذكر الجنة وما فيها من الحور والقصور والغلمان والانهار . فان الدعاء بمثل هذا هو مشرب النفس ، وهو حال عامة الخلق ، والله تعالى اعلم بمصالح عباده . ثم انه اذا ارتفع المريد عن هذه الحالة واشراب الى ما وصل اليه العارفون وانتهض لسلوك هذا المسلك والاشتغال بعمله من العزلة والصمت والجوع والسهر ؛ فلو توهمنا فيه التشوف الى حصول الوصول او الولاية او المعرفة او الفتح او القرب او نحو ذلك ، فلا ينبغي ايضا ان نعاجله بالتحقيق ونطالبه بالعبودية والفناء عن الأغيار من اول وهلة ، بل نرخي له العنان حتى يتمكن فى الرياضة وتنقاد نفسه ويقشعر جلده وقلبه لذكر الله ، فعند ذلك يسهل اشالته مع السابقة والتوفيق اما على لسان شيخ ناصح او اخ صالح او بعض من ينصره الله به » (51) .

ولعلنا بعد هذا لا نستغرب من تجاوب الجماهير معه واقبالها عليه بشكل كان يزعج السلطة الحاكمة باستمرار . فقد « كان حيثما قرا يطبق

---

(50) المحاضرات ص 149 - 150

(51) نفس المصدر

الناس عليه ويغص مجلسه بالخلائق مع ميلان العامة اليه ، فكان لاجـــل ذلك ينقله السلطان من موضع الى آخر » (52) . « ورزق الاقبال من الخلق فيجتمع عليه الجم الغفير حيث اقام ، حتى كان السلطان لا يتركه ان يقر فى مزار ، بل يامره بالرحيل فى اقرب مدة من الموضع الذي استقر فيه الى موضـــع آخـــر » (53) .

الربـــاط د. عباس الجراري

---

(52) الدر المنضد للكردودي 1584 د الورقة 317 و

(53) التقـــاط الدرر للقـــادري 676 د ص 64

ألفاظ مركبة

محمد العربي الخطابي

1 - الجمال بلا قبح

أجمل ما في الحكمة ، صمتها.

وأجمل ما في العدل ، سلطانه.

وأجمل ما في الحرية ، شموخها.

وأجمل ما في الحب ، نزوعه إلى المطلق اللامحدود.

وأجمل ما في اليقين ، الشك الموصّل إليه.

وأجمل ما في الارض ، التراب.

وأجمل ما في السماء ، الفضاء واللانهائية.

وأجمل ما في النجوم ، أفولها.

وأجمل ما في الزمان ، أسراره.

وأجمل ما في الحياة : مالم تمنحه قط.

وأجمل ما في الموت ، الأمل في حياة أبقى.

ꕥ ꕥ ꕥ

2 ـ الشيء ونقيضه

أغلى ما أتمناه أن أكون دوما عاشقا. يجتمع في قلبي حب الشيء ونقيضه فلا يكون نفور أو صراع بينهما.

أن أحب الوردة ، طلعها وأكمامها وشوكها.

أن أحب الصحو والغيوم، والهدوء والعاصفة.

أن أحب القافلة لكونها تسير والكلاب لكونها تنبح.

أن أحب الشمعة تضيء لتحترق، وتحترق لتضيء.

أن أحب النملة لعظمة تركيبها الصغير والفيل لتفاهة بنيته الضخمة.

أن أحب النجوم لكونها في السماء، والسراب لكونه في الارض.

أن أحب الطيب من الناس والخبيث منهم.

أن أحب المراة الجميلة تنفث شرا، والمرأة البشعة تتضوع خيرا.

أن أحب الكلمة الصامتة لما فيها من حكمة، والكلمة المنطوقة لما فيها من لغو.

أن أحب العدل وحده، والحرية وحدها، لأن العشق الصافي يتنافى مع النقيض.

٥ ٥ ٥

3 ـ الضمير المتصل والمنفصل

«أنا» لفظ قد يدل على الاتصال والامتزاج، وقد ينطوي على الاثرة والأنانية.

«أنا» ضمير قد يذوب في الغير حتى ليصبح الكل واحدا، وقد ينحبس في الذات فيجعلها في سجن لا أبواب له ولا منافذ.

حينما أقول : «أنا أحب»، فالمعنى أنني أرتبط بذات من أحب، لا حاجز ولا انفصال.

وحينما أقول : «أنا مؤمن»، أحقق اتصال ذاتي بالذات الأزلية العليا، منبع كل الذوات.

و «أنا» لست أنا وحدي حينما أتألم أو حين يغمر عشق الحرية صدري، أو تعتريني الخشية فأحس بضعفي وأقول ، أنا عبدك يارب فارحمني على علات نفسي.

«أنا» لست «أنا» وحدي، حينما أثور لظلم يصيب غيري.

وحينما أقول لولدي ، أنا أبوك .... تمتزج الانا بولدي فينشأ عن هذا الامتزاج أكسير الاتصال والمحبة.

ولا يكون «أنا» ضمير انفصال الا حينما يقول المرء ، أنا خير منك، أو كل شيء لي أنا وحدي.

4 ـ المنظور والمحسوس

كانت أمي تحب الاعشاب والزهور، وتفرح بالخضرة تُوشّي وجه التربة في نهاية الشتاء، وتقيم لتفتح كل وردة أو فلة عيداً.

وكانت تراقب العصافير وهي تحلق في السماء أو تتنقل خفيفة بين الاغصان والصخور، فتبتسم لها بحنان وتتمتم بكلام لا ترتاب في أن الطيور تفهمه وتتجاوب معه.

وكانت أمي تبدي إعجابها بسنابل الحنطة حينما ينضح النور والهواء حبوبها وأوراقها فلا تسأل أبداً عن السر الذي جعل تلك السنابل تشق البراعم فتنمو وتشتد.

وكنت أنا، على عكس أمي، اهتم بالعلة والسبب أكثر مما أحفل بمظاهر الاشياء، تتراكم الأسئلة في ذهني : كيف تتفتح أكمام الزهور ؟ كيف ينبثق العشب من التربة فينمو ويتفرع ؟ ما هو سر الاخضرار الذي يكسو سوق الزرع وأوراق الشجر وقشر الثمار ؟ كيف يتكون الرحيق في أرحام الزهور ثم يتحول في بطن النحل إلى عسل ؟ وكيف يصبغ الضوء والظل أجنحة الفراشات بألوان متناسقة بهيجة ؟.

وكثيرا ما كانت أمي تقول لي وهي تصغي إلي وأنا أسأل :

ـ حسبك من الياسمينة بياضها الطاهر، وعطرها العبق وأعطافها الرقيقة، لا تسأل كيف تتفتح أكمامها وينتشر في الهواء شذاها أو كيف تذبل بعد ذلك وتتلاشى، فإنك لو علمت كل هذه الأشياء لازداد فضولك وتكاثر حتى يفوق مقدار مالا تعلم مقدار ما تعلم.

وما كان هذا القول ليقنعني، لذلك لم أنقطع عن مراقبة الظواهـــر والأشياء بعين الاستطلاع والاستفسار. فأقلب النظر في الضوء الذي تمتصه النباتات، وفي الماء الذي يرويها والهواء الذي تستنشقه محاولا أن أعرف سر الخضرة في الاخضر، والصفرة في الأصفر، والنعومة في الناعم، وأن أعرف مصدر الحركة وسر السكون والتحول في الأشياء.

وذات يوم، قالت لي أمي ـ وكان الفصل شتاء ونحن نشاهد من النافذة الرذاذ يتساقط فوق التربة والعشب وأوراق الشجر، فيبدو في تساقطه وكأنه خيوط متقطعة من ذوب الفضة :

ـ تأمل، يا ولدي، هذا الماء الذي ينزل من السماء رهاما خفيف الوقع رقيق الاسلاك، انه يحمل في كل قطرة لقاح الحياة يلقيه في رحم التربة فتخصب وتحبل بالكلأ والزرع وشتى أصناف الزهور. إنه حفل الحياة الذي لا ينقطع ولا يسكت نا يه.

كلمات قالتها أمي على سجيتها فجعلتني أدرك أنها، هي أيضا، تهتم بماهية الأشياء وأسرارها الخفية، وذلك بمحض إحساسها الشديد بالحياة وامتلاء نفسها الساذجة منها، بينما كان العقل عندي هو المحرك والدافع.

أسلوبان في النظر للحياة لم أعرف قط أيهما الأصلح.

٥ ٥ ٥

5 ـ منـــام

رأيت مرة في منامي أنني أركب عربة تجرها مجموعة من كلاب القطب الشمالي، وكانت العربة تتزحلق بي فوق الثلج برشاقة والبـــرد يلسع أنفي وأناملي، والكلاب تنبح نباحا متواصلا.

ورأيت فيما يرى النائم أناساً من الاسكيمو ـ نساء ورجالاً يرقصون فرحين . أو يبنون بالطوب بيوتهم وينقشون على الجليد أغانيهم المرحة. لم تكن تحيط ببيوتهم الخضرة بل بياض لا نهاية له تلمع فوقه أضواء خافتة شديدة البرودة.

وبينما أنا سائر فوق الثلج تذكرت قصة حمامة جريحة عرفتها فبكيت قليلا ثم جعلت أحث الكلاب على السير، والعربة تتزحلق بخفة. والشمس ثابتة في مكانها لا تريم.

قلت ، ياله من منظر جليل ! بياض . وبيوت من طوب، وشمس شحيحة الضوء والحرارة. وأناس لا يعرفون الأعشاب والجداول المنسابة فوق الحجارة الصغيرة. أناس ليست لهم كتب ولا تعاليم .ولا رايات أو شعارات ... وهم أناس طيبون يغنون ويصطادون ويبنون ... وعربتي سائرة ... سائرة حتى استيقظت من نومي مذعورا بسبب ضجيج كان يسمع في حينا.

الرباط — محمد العربي الخطابي

الحصانة الدبلوماسية
في مفهوم السيرة النبوية

د. عبد الهادي التازي

لئن ظهرت حصافة راي النبي صلى الله عليه وسلم فى شتى انواع السلوك التي كان ينتهجها ، لكنها ظهرت بارزة شامخة فى طلائع الدبلوماسية الاسلامية ، وخاصة فيما يتعلق بالتعامل الذي كان يعرف به صلى الله عليه وسلم ، ليس فقط ازاء معارفه واصدقائه ، ولكن كذلك ازاء محاوريـــه ومناوريه ومناوشيه كذلك . فقد كان فعلا على جانب كبير من الاطلاع على نفسية الناس ومزاجهم وما اليه يميلون وما عنه ينصرفـــون ، وما بـــه ينضررون ، وهو الامر الذي تعنيه الآية الشريفة « وانـــك لعلى خلـــق عظيـــم » ...

لقد تحدث القانون الدولي باسهاب كبير عما نسميه اليوم بالحصانة الدبلوماسيـــة Immunité Deplomatique وفصلوا القـــول فى اسبابها ودواعيها ، كما اهتموا بابراز مظاهرها ومعالمها ، واجتهدوا فى تصوير انها ارق وارفع وادل على درجات التمدن والتحضر والرقي ... وحاولوا الى جانب هذا ان يجدوا لهذه الظاهرة الحضارية مبدا ومنطلقـا حتى يتوصلوا بذلك الى استعراض ظروف تطورها ونموها ...

ومن تمت وجدنا الموسوعات العالمية تتقفى آثار اليونان والفرس والرومان لتعرف سنن تلك الامم وعاداتها فى تقبل الرسل والسفراء ... لكن تلك الموسوعات وجدت نفسها امام مرجع ثري صاف غير مشوب باية صنعة او افتعال ، ونعني بهذا المرجع سيرة الرسول الاكـــرم صلى الله عليه وسلم ، فقد فرض نفسه على الباحثين والمتتبعين وغدا يكون لذاته اساسا قويا من اسس التعامل الدولي منذ العصر الوسيط .

لقد ادرك الناس جميعا ان النبي عليه الصلوات كان على اطلاع جيد على ما يجري بالجزيرة وخارج الجزيرة كذلك ، وما زلنا الى الآن ونقول هذا مقرين بالعجز ومعترفين بالقصور ـ ما نزال نكتشف من وقت لآخر ، المعاني المقصودة لبعض الالفاظ وبعض التراكيب التي عرفها المفسرون والمحدثون بالامس على نحو نستطيع القول انها فهوم متجاوزة وانا بحاجة الى اعـــادة نظـــر .

وحتى لا نتيه فى الموضوعات التي نشير اليها ... نرجـــو ان لا نهمل هنا انطباعنا عن طريقة استقباله صلى الله عليه وسلم للوفود التي كانت ترد عليه بقصد الاستطلاع والاستفسار او بقصد الوقوف على حقيقة الامر واستمزاج الراي ...

لقد لاحظنا من خلال تلك الاستقبالات نوع المعاملة التي كان (ص) يؤثر بها اولئك الواردين عليه ، وهذا جانب آخر من مظاهـــر الحضـــارة الاسلامية التي تعترف للسفير بالامان او الحصانة كما يسميها العـــرف الجديد ، وهي الرعاية والعناية التي ينبغي ان يتمتع بها المبعوث وهـــو يؤدي مهمته فى البلاد التي ارسل اليها ...

وقد ظلت سيرته (ص) فى تعامله مع اولئـــك الرسل ، الاساس الذي اعتمد عليه الفقه الاسلامي من بعد للاجابة على كثير من المشاكـــل المطروحة بسبب امتداد الفتح وتداخل المصالح بين الدول الاسلاميـــة والامـــارات المجـــاورة ....

لقد اخذنا فكرة منذ البداية عن احداث صلح الحديبية عندمـــا ورد

عليه صلى الله عليه وسلم عدد من رسل قريش كان فيهم من تطاول على جلس رسول الله مثل عروة بن مسعود الثقفي الذي حاول ابو بكر الصديق (رضي الله عنه) ان يرده الى صوابه ... لكن الرسول عليه السلام منع رفقاءه من أن يسموا عروة بسوء ((مع العلم ان قريشا عقرت مطية سفيره الذي راح اليها وهمت بقتله)) .. ! انها فروق تعبر عن البون الشاسع بين الذين كانوا يعدون انفسهم لمقامات الجد ، وبين الذين كانوا يتهافتـــون ويتحركون على غير هدى ... وقد ورد انه (ص) كان يفرش وداءه لبعض الواردين عليه ويشركهم فى الجلوس امعانا فى ازالة الدهشة وادخـــال السرة على نحو ما فعله مع مالك بن مرة (او مرارة) سفير حمير ...

وينبغي أن نتصور معنى اشراك الناس فى المقعد وما يدل عليه من تواضع وتمازج ، بل ومحاولة لاقتحام نفس اولئك الذين يردون عليـــه ، فليس هناك روح استعلاء ، وليس هناك من رغبة فى التسلط ، وينبغي ان نتصور بعد هذا مشاعر مالك بن مرة وقد ترك خلفه قوما كان يحتاج فى الحديث معهم الى من يرفع الحجاب ويكشف النقـــاب وينتصـــر فى الجـــواب ... !

ولنودع سفير اليمن على بساط رسول الله (ص) لنشهد لقطـــة اخرى من استقبال آخر لوفد جديد ورد عليه هذه المرة من بلاد المغرب، نعم من بلاد الغرب ... من قبيلة ركراكة ، حيث رأيناه (ص) يقبل على البعثة المغربية ، وهي ترتدي ثيابها الصوفية بالرغم من خوف الصحابة عليه يقبل عليها ليتحدث اليها عن آفاق الستقبل : ((تغزون جزيرة العرب فيفتحها الله ثم فارس فيفتحها الله ثم تغزون الدجال فيفتحه الله ...

ينبغي كذلك ان نتصور الصدى الذي يخلفه عدم تردد الرسول فى استقبال قوم وردوا من أقصى الدنيا بل وفى ضمان الحرية لهم والرعاية ، بالرغم من الهواجس التي حامت حولهم من طرف بعض الصحابة الكرام ..

ولنستعرض بعد هذا وفدا آخر ورد عليه هذه المرة من بني حنيفة ويتعلق الأمر بمبعوثين اثنين كانا يحملان اسم عبد الله بن النواحة وابـــن اثال بن بحر ، وقد اتيا النبي (ص) رسولين لمسيلمة الكذاب ...

لقد كان مما راج من حديث بين الرسول وبين المبعوثين المذكورين اللذين وردا يحملان للنبي (ص) رسالة غريبة من مسيلمة يخبر فيها رسول الله « بانه اشرك معه في امر الرسالة ، ونتيجة لذلك فان له نصف الامر ولقريش النصف الآخر .. ! » وكان الامر يتعلق بصفقة تجارية قام بها نبي الاسلام !

وهكذا وجدناه صلى الله عليه وسلم يتوجه بالسؤال الى المبعوثين : اتشهدان اني رسول الله ؟

فاجاباه بكل عنجهية : اتشهد انت أن مسيلمة رسول الله ؟ وكان الكل يتصور ان الرسول سيفقد اعصابه كما حصل بالنسبة لعدد من القادة في مثل هذه الاحوال (1) ، لكن النبي عليه الصلوات لم يزد على أن اجابهما بكلمة ظلت الى الآن شعار التعامل الدولي فيما يتعلق بالامان او الحصانة ... لقد قال لهم رسول الله : « آمنت بالله ورسله ، ولولا ان الرسل لا تقتل لضربت اعناقكما .. ! »

ومعنى هذا ان سنة النبي عليه السلام جرت على أن السفراء لا يهانون وبالاحرى لا يقتلون على ما يؤكده الهيثمي في (مجمع الفوائد ومنبع الفوائد) .

---

(1) لم يملك ملوك الروم احيانا اعصابهم ازاء ما يسمعونه من السفير ، وهكذا نرى نقفور ملك الروم يحرق أوراق اعتماد سفير طرسوس على راسه حتى أصيبت لحيته ، وقال : امض ما عندي الا السيف . وقد كانت مثل هذه التصرفات مدعاة للاحتجاج حينا وللانتقام حينا آخر ! ونجد الملك الظاهر مثلا عندما ضيق على سفرائه ببلاد الروم يحضر لديه ممثلي لاروم ببلاده ليضعهم امام مسؤوليتهم ازاء اذاية السفراء ، كما نرى من جهة اخرى ان سلطان مصر لما شعر بان ملك القسطنطينية ميخائيل الثامن موق سفراءه عن اداء مهمتهم جمع البطارقة والاساقفة الذين افتوا بتجريد ملك القسطنطينية من الدين الامر الذي ارجع الامور الى نصابها ، وعلى نحو ما كان من المعتمد بن عباد في الاندلس راينا ان ملك مصر يقوم عام 658 ، جوابا عن تجديد سفراء هولاكو ، باستشارة العلماء والاجهاز على المبعوثين ، ولما اهين فخر الدين عثمان سفير سلطان مصر الى اراغون قام السلطان بالقبض على كل من يرد على الاسكندرية من فرنج برشلونة .

لقد كانت قولة الرسول عليه الصلوات صريحة واضحة في هـــذا الباب ، وغدت اللازمة الدائمة لكل نقاش حول اسس معاملة الدبلوماسيين والمبعوثين السياسيين .

ومما يدخل في اطار الحصانات والرعايات ضمـــان حرية العبــادة اللذين وردا يحملان للنبي (ص) رسالة غريبة من مسيلمة يخبر فيها رسول بامر أصحابه أن لا يتعرضوا اليهم وهم يؤدون واجباتهم الدينية ، وكان هذا باعث تقدير من الجهات التـــي ترسل بمبعوثيهـــا لرسول الله ، ورد معظمهم عليه بالمثل فكان سفراءه (ص) هناك يزاولون شعائرهم على ما كانوا يعتـــادون ..

على أن مما يندرج في موضوع أمان البعثات كيفما كان مشربهـــا ووردها وصدرها ، قضية تكريم الواردين وضمان الحياة الكريمة لهم ، وهكذا راينا ان الوفود غالبا ما كانت تنزل على دور الصحابة رضوان الله عليهم ، بلال ابن رباح احيانا ، وعثمان بن عفان حينا آخر ، وليس هـــذا فقط ،ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم قلما كان يرد عليه مبعوث لملك او عظيم دون أن يرجعه مكرما بالهدايا والتحف ، وقد سمعنا عن اجازتـــه لمبعوث عامل كسرى على بلاد اليمن ، ويتعلق الامر بالعامل الـــذي كان يحمل اسم (باذان) الذي ارسل ـ تنفيذا لاوامر شاهنشـــاه كسرى ـ قهرمانه مصحوبا برفيق له من بلاد فارس لينقل لكسرى صورة حقيقيـــة عن هذا النبي الذي كان بعث بعبد الله بن حذافة السهمي رسولـــه الى كسرى ؟ لقد رده النبي صلى الله عليه وسلم بمنطقة من ذهب وفضة كانت قد اهديت له من بعض الملوك ، بالرغم من انه تضايق منه ومن زميله لمـــا كانا عليه من زي يخالف زي العرب !!

وكما كان موقفه رائعا مع مبعوث فارس ... راينا ابن كثير يسجل له موقفا لا يقل روعة عن الموقف السابق ، وكان الموقف هذه المرة مع التنوخي سفير هرقل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم جوابا عـــن ارسال دحيـــة الكلبـــي ...

لقد روى شاهد عيان هو سعيد بن ابي راشد الذي لقي للتنوخـــي رسول هرقل لدى رسول الله ، لقيه في حمص ، وكان جارا له قد بلـــغ

العقد أو قرب ، فاخبره المبعوث الرومي بانه اجتمع بالنبي صلى الله عليه وسلم في تبوك في اعقاب مفاتحة الرسول لهرقل ... لقد حمل المبعوث المذكور رسالة من هرقل علاوة على التعليمات التي زوده بها ملكه هرقل.. لقد ساله النبي صلى الله عليه وسلم عن هويته وساله اضافة لذلـــك : « هل لك الى الاسلام والحنفية ملة ابيك ابراهيم فاجابه السفير بصراحة اني رسول قوم وعلى دين قوم ولا ارجع عنه حتى ارجع اليهم » فضحك صلى الله عليه وسلم قائلا : « انك لا تهدي من احببت ولكن الله يهدي من يشــــــــاء ...

وبعد ان يمضي معه (ص) في أحاديث حول ردود الفعل لدعوته الى الاسلام يخاطب مبعوث هرقل بهذه الكلمات التي تظل ايضا غرة في جبين التعامل الدولي وتظل قاعدة رفيعة من قواعد اللباقة والكياسة ، قال لـــه رسول الله (ص) معتذرا عما وجده عليه من ضيق وكانه ياسف لعـــدم اجرائه مجرى رسول كسرى :

« ... ان لك حقا وانك لرسول ، فلو وجدت عندنا جائزة لجوزناك بها ، ولكن جئتنا ونحن مرملون (يعني في ظروف صعبة ...) ! فهـــل وقفت الحادثة عند هذا الحد ؟ ان مدرسة الرسول كانـــت قد شقـــت طريقها في باب المجالات ...

وهكذا انتصب رجل ـ كما يروي ابن كثير ـ كان هو عثمـــان بن عفان ، فقال : انا أجوزه يا رسول الله ، ففتح رحله فاذا هو ياتي بحلـــة صفورية فوضعها في حجر التنوخي ...

ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ايكم ينزل هذا الرجـــل ، فقال رجل من الانصار : وانا علي ضيافته ...

وهكذا راينا مظهرا آخر من مظاهر الحصانة بل ظاهرة راقية تنم عن النفس العالية التي كان يتحلى بها نبي الاسلام والتي كانت السر الحقيقي الذي يكمن وراء نجاح رسالته في اكتساح الآفاق .

ان مثل هذه المعاملة التي دفعت بالمبعوث المذكور الى تمديد المقام وتلقين بعض كتبة الرسول اللغة الفارسية .

تلك هي سننه التي سنها بالنسبة لمن يستقبلهم .. وكانت هـي نفس السنة التي كان يشترطها اساسا للتعامل مع رسله وسفرائـه الى العشائر والقبائل والامم والشعوب ... وامامنا ، على سبيل المثـال ـ وهو من اقدم الأمثلة التاريخية ـ وفد نجران الذي ورد على الرسول الكريم والذي زوده بمبعوثين خاصين كان فيهم عمر بن حزم ... لقد كان فيما اشترطه على نجران « مؤنة رسله ... وضمان الحرية لهم ... وهكذا نراه يتتبع رسله اينما اتجهوا ملحا ان تكون معاملتهم على نحو ما كان هو يعامل الوآردين عليه ... على نحو ما نقراه في جواب الامـام ابي يوسف الى امير المؤمنين هارون الرشيد في كتاب الخراج .

تلك سننه التي خطها صلى الله عليه وسلم فكانت اللبنة الاولـى للتعامل مع رسل الامم وكانت الاساس لما اثر عن آسماعيل الجهضمـي قاضي المالكية في بغداد ، وما اثر عن ابن القطان الاندلسي فيما الفـه لملوك المغرب حول طقوس الاستقبالات ... وقد ورد في شرح كتـاب السير الكبير للشيباني في باب الامان : ان المسلمين اذا نادوا اهـل الحرب بالامان فان هؤلاء آمنون جميعا اذا سمعوا الصـوت باي لسان نادوا به ! واذا قال المسلمون للحربي انت آمن او لا تخف او باس عليك او كلمة تشبه هذا فهو كله امان ، وان الأمان التزام الكف عن التعـرض لهم بالقتل والسبي حقا لله تعالى ...

وعندما يتناول الشيباني امان الرسول بالذات ، يذكـر انـه اي الرسول او السفير اذا ادلى بكتاب يشبه ان يكون كتاب ملكهم وادعى انه فعلا كتاب ملكهم ، فان الرسول آمن حتى يبلغ الرسالة لأن الرسول ينبغي ان يكون آمنا من الجانبين . وعلى هذا جرى الرسم في الجاهلية والاسلام فان امر الصلح او القتال لا يلتئم الا بالرسول ولا بد من ان يكـون هـذا الرسول آمنا يتمكن من اداء الرسالة ، وهكذا يستنتـج الشيبانـي : « لما تكلم رسول قوم بين يدي رسول الله (ص) بما كان لا ينبغـي ان يتكلم به » قال : « لولا انك رسول لقتلتك » فتبين بهذا ان الرسول آمن على كـل حـال ...

ولا بد ان نلاحظ ان خفر الذمم يعتبر ابدا دلالة على الجبن والمكر

وليس دلالة على الشجاعة والدهاء ... وقد قرانا جميعا قصة ام هانـــي التي لم ترض ان ترفض عون من استجاروا بها بالرغم من انهم مشركون... وعرفنا ان النبي عليه الصلوات اكبر فيها هذا الخلق الرفيع وقال لها : ((اجرنا من اجرت يا ام هاني)) !

وهل ننسى في هذا الباب موقف النبي (ص) غداة فتح مكة مـــن اولئك الذين استسلموا امامه متسائلين متصاغرين ، وقـــد كانوا بالامس مستكبرين متجبرين ، لقد قال لهم : اقول لكم كما قال اخـــي يوسف : لا تثريب عليكم اليوم ، اذهبوا فانتم الطلقاء !!

ومن هذه المنطلقات السليمة نص الفقهاء نصا على أن الحصانـــة مضمونة للسفراء من طرف الاسلام برا وبحرا ، ولو ان المناطق الجويـــة كانت مستعملة لكانت هي ايضا داخلة في معنى الحصانة والصيانة .

وقد ظلت الحصانة بالنسبة للرسل مضمونة بصفة تلقائية ، لكن ومع مرور الزمن وقلة الخلق اضطر المشرعون الدوليون الى التنصيص على هذه الحصانة اسوة بما فعله النبي مع اهل نجران ... وعلى نحو ما نجده في فقرة من اتفاق بين سيف الدين قلاوون وبين صاحب القسطنطينيـــة سنة 680 هـ ــ 1282 م ونجده في هدنة ايضا تمت بين سيف الديـــن قلاوون وبين (خيمي) صاحب اراغون سنة 692 هـ ــ 1293 م .

* * *

تلكم ومضة من ومضات السيرة النبوية فيما يتعلـــق بالحصانـــة الدبلوماسية ولا شك ان لها اشباها ونظائر ، ولكنها تظل الركيزة التـــي يعتمدها القانون الدولي عندما يتحدث اليوم عن واجبات الدبلوماسييـــن والمبعوثين على الدولة التي تستضيفهم ... وسيظل الدين الاسلامـــي شامخا متعاليا بمبادئه المثلى ، وسنظل نحن المسلمين على درب التقدم ما دمنا معتزين بهذه المبادىء متشبثين بها متعلقين باهدابها .

الربـــاط　　　　　　　　　　　　د. عبد الهادي التازي

الصلات الثقافية
بين المغرب وتونس الحفصية (*)

محمد المنوني

تربط اجزاء المغرب العربي روابط ثقافية يتجلى فيها مدى الصلات الوثيقة التي كانت ـ ولا تزال ـ عاملا قويا في تمكيـــن وحدة الغــرب الاسلامــــــي .

والموضوع الذي يقدمه هذا البحث برسم الذكرى الزيتونية ، محاولة لتحليل هذه الظاهرة في نطاق العلاقات المغربية الحفصية ، مع الأمل في ان تتاح فرص مواتية لعمل مماثل في قطاع الصلات الثقافية بين المغرب والجزائر ، وبين المغرب وليبيا .

* * *

وحسب المعطيات المصدرية للموضوع ياتي التحليل حسب الابواب التاليـــــة :

(*) اعد برسم الندوة العلمية بتونس : مـن 25 محرم الى 2 صفـر 1400 / 15 ـ 21 ديسمبر 1979 ، بمناسبة ذكرى مرور ثلاثة عشر قرنا على تاسيس الزيتونة .

مدخـــــل قصيـــــر
العصـــــر الاول

مساهمة الرحلات المغربية المكتوبة فى تمتين الصلات الثقافية بين تونس والمغرب ـ الوأن من التجاوب الأدبي بين مدينة العزفيين والعاصمة الحفصية ـ تبادل الاجازات بين تونس والمغرب ـ رحلات طلابية متبادلة بين الجهتين ـ اعــــلام مغاربة مقيمون بتونس ـ اعــــلام مغاربة زائرون للحاضــــرة الافريقيــــة .

العصـــــر الثانــــــي

اعلام تونسيون يرحلون الى المغرب ـ نخبة مغربية مقيمة بتونس ـ رحلات مغربية عابرة ـ راحلون مغاربة يثيرون منافشات منوعة .

مـــلاحـــــق

1 ـ تبادل الكتب الدراسية بين المنطقتين .
2 ـ تبادل فى الثقافــــة الصوفيــــة .
3 ـ نص من رحلة ابن رشيد يحتفظ بمجموعــــة من الاجــــازات الموضوعيــــة .

* * *

مدخـــل البحــــث

يبتدي العصر الحفصي باسناد امارة البلاد التونسية الى الشيـــخ ابي محمد عبد الواحد بن ابي حفص الهنتاتي عام 603 هـ ـ 1207 م .

ولما خلفه ابنه الامير ابو زكرياء استهل ولايته باعلان استقـــلال تونس ، ثم استمر حكم الحفصيين الى عام 981 هـ ـ 1573 م ، حيث

امتد نطاق الدولة ــ ايام قوتها ــ الى ليبيا شرقا ، والى بجاية وقسنطينة وما اليهما غربا (1) ، وهي المنطقة التي ستكون مجالا لتحليل الصــلات الثقافية بين الزيتونة والقرويين ، في حقبة تزيد على ثلاثمائة وخمسين عامــــا .

على أن يعنى بكل من الجامعتين جامعتا الزيتونة والقرويين وفروعهما، بسائر جهات منطقتي تونس والمغرب خلال فترة الحكم الحفصي .

العصــــــر الأول

مساهمة الرحلات المغربيــة المكتوبــة في تمتين الصلات الثقافية بين تونس والمغـــرب

يمتد العصر الحفصي الأول من عام 603 هـ ــ 1207 م ، حتى نهاية عام 750 هـ ــ 1350 م ، وفي أواسط هذه الفترة كان الرحالون المغاربة في مقدمة العاملين لتمتين الروابط العلمية بين الجهتين ، والمعني بالأمر ثلاثة أعلام مغاربة : اثنان من سبتة ، وواحد من منطقة حاحة : الواقعــة بالجنوب الغربي من مدينة مراكش .

وثلاثتهم زاروا تونس أواخر المائة الهجرية السابعة ، واتصلــوا بالنخبة العلمية ، وتبادلوا الافادات المنوعة ، ثم دونوا ذلك في رحـــلات مكتوبــــة .

وكان سابقهم هو ابن رشيد السبتــــي : محمد بن عمـــر بن محمد الفهري ، فتبتدي رحلته من اوائل عام 683 هـ ــ 1284 م انطلاقا مـــن مرسى المرية ، وهو مؤلف « ملء العيبة . بما جمع في طول الغيبة . في الوجهة الوجيهة الى الحرمين الشريفين : مكة وطيبة » ، تقع ــ أصالة ــ

(1) انظر « وصف افريقية والاندلس اواسط القرن الثامن للهجرة » ، مقتطف من « مسالك الأبصار » للعمري ، نشر وتعليق المؤرخ التونسي حسن حسني عبد الوهاب ــ ص 2.

فى سبعة اجزاء ، يعرف منها خمسة مخطوطة بالاسكوريال (2) ، تتناول ثلاثة منها ارتسامات المؤلف عن تونس فى الذهاب والاياب .

ثم كان الرحالة الثاني هو العبدري : محمد بن محمد بن علي الحيحي ، وقد خرج من بلدته حاجة أواخر عام 688 هـ ـ 1289 م ، « ورحلته » منشورة ـ فى جزء ـ بتحقيق الأستاذ الكبير محمد الفاسي عام 1968 م .

الثالث : ابو القاسم التجيبي : القاسم بن يوسف بن محمد السبتي: ابتداء من عام 696 هـ ـ 1296 م ، وتحمل رحلتـــه أسم « مستفـــاد الرحلة والاغتراب » ، والمعروف منها مجلد واحد يتناول سفر المؤلف للديار المصرية وجدة ومكة المكرمة عام 696 هـ ـ 1296 م ، وهو منشور ـ بتونس ـ عـــام 1395 هـ ـ 1975 م .

* * *

غير انه يلاحظ ان القسم التونسي من رحلة التجيبي لا يزال غيـــر معروف ، فلذلك سنستقي معلوماتنا عن اتصالاته الزيتونية من برنامجه(3)، مع بعض الاشارات بالنص المنشور من الرحلة ، حيث لا يعدو جميع ذلك ستة أسماء من الذين التقى بهم المنوه به فى مدن تونس وبجاية والقيروان :

1 ـ ابو العباس البطرني : أحمد بن موسى بن عيسى الأنصـــاري التونســـــي (4) .

2ـ ابو عبد الله الدكرية : محمد بن ابراهيم بن احمد التجيبـــي ، المراكشي المولد ، التونسي الاستيطان والوفاء (5) .

---

(2) هي الثاني والثالث والخامس والسادس والسابـع ، انظـر عن وصفهـا « فهـــرس الاسكوريال » بالمجلد الذي وضعه الا فى بروفنصال ارقام : 1735 و 1736 و 1737 و 1739 .

(3) مخطوط بالاسكوريال وموصوف بالفهرس الأنف الذكر رقم 1756 .

(4) « برنامج التجيبي » بواسطة مصورة الأستاذ العالم محمد ابراهيم الكتاني : لوحة 8 ب.

(5) نفس « المصدر » : لوحة 24 . ب و 127 أ ، وورد ذكره ـ أيضا ـ فى « برنامج الوادي‌اشي » ءاتي الذكـــر .

3 ـ أبو عبد الله الكناني : محمد بن صالح بن احمد الشاطبي نزيل بجاية (6) .

4 ـ أبو اسحاق السلوي : ابراهيم بن يحيى بن يوسف القرشي الحسني التونسي (7) .

5 ـ الناصر المشدالي : منصور بن احمد بن عبد الحق الزواوي ثم البجائي (8) .

6 ـ ابن الدباغ : عبد الرحمن بن محمد بن علي الأنصاري الأسيدي القيرواني ، مؤلف « معالم الايمان » ، حيث ينفرد بالاشارة له القسم المنشور من رحلة التجيبي (9) .

* * *

وقد اثارت النهضة العلمية بتونس (العاصمة) اعجاب الرحالة العبدري ، وكان مما قال عنها : « ... ولولا أني دخلتها لحكمت بان العلم في افق الغرب قد محي رسمه ، وضاع حظه وقسمه ، ولكن قضى الله بان الأرض لا تخلو من قائم له بحجة ، يرى سبيل الحق ويوضح المحجة .

وما من فن من فنون العلم الا وجدت بتونس به قائما ، ولا مورد من موارد المعارف الا رأيت بها حوله واردا وحائما ، وبها من أهل الرواية والدراية عدد وافر ، يجلو الفخار بهم عن محيا سافر (10) ... »

وقد اتصل العبدري ـ في هذه المدينة وبالقيروان ـ بنخبة كريمة بلغ تعدادها ثلاثة عشر كالتالي :

---

(6) « برنامج التجيبي » : لوحة 62 . ب و 115 . أ و 117 . ب ؛ واشار له ـ ايضا ـ في « مستفاد الرحلة والاغتراب » ص 235 .
(7) « برنامج التجيبي » : لوحة 76 . ب .
(8) « المصدر » : لوحة 124 . أ .
(9) ص 319 مع اشارة عابرة ص 239 .
(10) « رحلة العبدري » : ص 42 .

1 ـ ابن هارون : عبد الله بن محمد الطائي القرطبي نزيل تونس(11)

2 ـ ابو جعفر اللبلي : احمد بن يوسف بن علي الفهري نزيل تونس (12) .

3 ـ ابن الغماز : أحمد بن محمد بن حسن الخزرجي البلنسي ، قاضي القضاة بتونس (13) .

4 ـ ابو القاسم اللبيدي بن حماد بن ابي بكر الحضرمي التونسي (14) .

5 ـ ابن رزين : علي بن محمد بن ابي القاسم التجيبي المرسي نزيل تونس (15) .

6 ـ ابن زيتون : ابو القاسم بن ابي بكر بن مسافر اليمني التونسي قاضيها (16) .

7 ـ ابو الحسن التجاني : علي بن ابراهيم التونسي (17) .

---

(11) « رحلة العبدري » : ص 42 و 271 .
« رحلة ابن رشيد » . جزء 1737 : لوحة 84 . ب ، وقد افدت منها بواسطة مصورة المكتبة العامة بتطوان .

(12) « رحلة العبدري » : ص 43 .
« رحلة ابن رشيد » 1737 : لوحة 63. ب .

(13) « رحلة العبدري » : ص 240 .
« رحلة ابن رشيد » 1737 : لوحة 16 . ا .

(14) « رحلة العبدري » : ص 243 .
« رحلة ابن رشيد » 1737 : 26 . ب .

(15) « رحلة العبدري » ص 252 .
« رحلة ابن رشيد » 1737 : 64 . ب .

(16) « رحلة العبدري » : ص 256 .
« رحلة ابن رشيد » 1737 : 9 . ب .

(17) « رحلة العبدري » ص 257 .
« رحلة ابن رشيد » 1735 : 13 . ب .

8 ـ ابن عقـــاب : يوسف بن أبراهيم بن احمد الجذامي الاندلسي نزيـــل تـــونس (18) .

فهؤلاء ثمانية يشترك العبدري في لقياهم مع ابن رشيد ، ومن الأعلام الذين ينفرد العبدري بلقياهم في مدينة تونس :

9 ـ ابن هريرة : محمد بن عبـــد المعطـــي بن محمد النفـــزي التونســـــي (19) .

10 ـ الخلاسي : عبد الله بن يوسف بن موسى البلنسي نزيـــل تـــــونس (20) .

11 ـ الوادي ءاشي : جابر بن محمد بن القاسم القيسي نزيـــل تـــونس (21) ووالد الرحالة محمد .

12 ـ ابن السكـــان : احمد بن محمد بن ميمون الأشعري المالقي نزيـــل تـــونس (22) .

13 ـ ابو العباس البطرني سالف الذكر عند لائحـــة ابي القاسم التجيبــــــي (23) .

14 ـ وقد اتصل العبدري ـ في القيروان ـ بعالمها ومؤرخها ابي زيد بن الدباغ ، سابق الذكر بنفس اللائحة (24) ، ويقول عنه الرحالـــة المغربي : ((ومن عجيب أخلاقه اني قلما طلبت منه جزءاً لانقل منـــه الا وهبه لي ، وقد اعطاني اكثر من عشرة أجزاء من فوائده وفوائد شيوخه

---

(18) ((رحلـــة العبـــدري)) : ص 271 .
((رحلـــة ابن رشيـــد)) 1737 : 25 . ب .
(19) ((رحلـــة العبـــدري)) : ص 44 .
(20) نـــفس المصـــدر : ص 244 .
(21) المصدر : ص 265 ، وهو والد محمد صاحب البرنامج .
(22) المصـــــدر : ص 267 .
(23) المصـــــدر : ص 275 .
(24) المصـــــدر : ص 66 .

وفهارسهم ، وقال لي : انت اولى بها مني ، فاني شيخ على الوداع ، وانت في عنفوان عمرك ، ومن حين رأيتك انفرز حبك في قلبي » (25) .

* * *

وبعد هذا : فان ابن رشيد ينفرد عن العبدري بلقاء طائفة من اعلام البلاد التونسية ، ومنهم :

1 – ابن عبد القادر : عبد الوهاب بن يوسف البجائي مستوطن تونس (26) .

2 – ابو بكر بن حبيش : محمد بن حسن بن يوسف اللخمي التونسي (27) .

3 – ابن معطي : احمد بن عبد الله بن عمر الجزائري نزيل تونس (28) ، وصاحب الألفية النحوية .

4 – ابو عبد الله السلوي : محمد بن ابراهيم القيسي نزيلها (29).

5 – ابن راس الحجلة : عبد العزيز بن عبد الرحمن الجعدي نزيلها (30) .

6 – ابو العباس الكتاني : احمد بن يوسف بن يعقوب السلمي (31).

7 – ابن القصير : احمد بن الاشبيلي نزيل تونس (32) .

---

(25) المصدر : ص 67 .
(26) « رحلة ابن رشيد » 1737 : 28 . ب .
(27) المصدر 1737 : 34 . ا .
(28) المصدر 1737 : 55 . أ .
(29) المصدر 1737 : 85 . ب .
(30) المصدر 1737 : 88 . ب .
(31) المصدر 1737 : 89 . ب .
(32) المصدر 1737 : 96 . ب ، وقد بيض المؤلف لاسم ابيه .

8 ـ ابن حبي : ابراهيم بن اسماعيل بن يحيى الايادي القرموني ثم المالقي نزيل تونس (33) .

9 ـ ابو الفضل التجاني : محمد بن علي بن ابراهيم التونسي ، وقد أطال ابن رشيد فى ترجمة هذا الأخير ، مبرزا ملامح من التلاقح الثقافي المغربي التونسي ، وكان مما قال عنه :

« صحبته ـ جزاه الله خيرا ـ ايام مقامي بتونس بعد رجوعي من الحجاز ، وذلك الزمان من أشرف ما اعتدت من أيامي ، وكان يتردد الي واتردد اليه ، وبايته كثيرا ، وذاكرته وشاعرته ، واستفدت منه ، واخذ عني وأخذت عنه ، وسمع بقراءتي وسمعت بقراءته ، واولاني من بره المبر ما يعجز عنه شكر الشاكر ، ويعد مختصرا وان أطال ذكره الذاكر ، وكان لي صفيا ، وبجانبي حفيا ... » (34) .

وباثر هذا تاخذ الرحلة المغربية فى التعريف بالأديب التونسي ، اقتباسا من الترجمة الذاتية التي كتبها بقلمه ، فيعرض الرحالة قطعا من حر نثر المترجم وبديع نظامه ، ويدون كثيرا مما جرى بينهما من المخاطبات النثرية ، والمناشدات الشعرية ، كما يذكر أن أبا الفضل الف كتابه : « الحلى التجانية » باسمه واسم رفيقه ابن الحكيم الرندي (35) .

الوان من التجاوب الادبي
بين مدينة العزفيين والحاضرة الحفصية

بالاضافة الى معطيات رحلة « ملء العيبة » ، فان ابن رشيد نشر بسبتة بعض الآثار الأدبية ، فكان بين مؤلفاته شرح رسالة عروضية لأحد أساتذته بتونس ، وذلك هو الذي يسميه « وصل القوادم بالخوافي . فى

(33) المصدر 1737 : 104 . أ .
(34) المصدر 1735 : 4 . ب .
(35) المصدر 1735 : 4 . ب ـ 45 . ب ، وتسمية الكتاب وردت في « شجرة النور الزكية » ص 206 .

ذكر امثلة القوافي »، حيث شرح فيه « كتاب القوافي » لأبي الحسن حازم القرطاجنـــي (36) .

وقد تبع هذا ان وصل لبلدة ابن رشيد ديوان شاعر الخضراء المنوه به وضمنه مقصورته المعروفة ، فانتزعت المجموعة القرطاجنية اعجـــاب ثلاثة من اعلام سبتة : مالك بن المرحـــل . وابي القاســـم ابن الشاط ، وثالثا : ابو القاسم الشريف السبتي (37) ، الذي وضع شرحا موسعا على المقصورة الحازمية (38) ، وقال في تقريظها :

« ... فاني لما تاملت مقصورة الامام الأوحد : ابي الحسن حازم بن محمد بن حسن بن حازم الأنصاري القرطاجني ، ألفيتها تجمع ضروبا من الاحسان ، وتشتمل على افانين من البيان ، وتتضمن فوائد جمة من علم اللسان ، وتشهد لمنشئها – بما انتظمته من غرائب الأنواع ، واتسمت به من عجائب الابداع – بانه سابق الميدان ، وحائز خصل الرهان ... »(39).

* * *

ونذكر – الآن – وجهة أبي بكر بن شبرين السبتي الى تونس ، حيث لقي بها قاضي الجماعة ابا اسحاق ابراهيم بن عبد الرفيع وغيره ، فاتسع – بذلك – نطاق روايته (40) ، كما اتصل بالأديب اللامع عبد الله التجاني مؤلف الرحلة التجانية ، فيقول فيها عن الزائر المغربي :

« ... وهذا الرجل من اعظم من رأيت تحقيقا ، واحسنـــه – في النظم والنثر – طريقا ، وقد كنت اجتمعت به بتونس ، ووصل الينا في الخامس لذي القعدة من عام ثلاثة وسبعمائة ، وكان في نيته التوجه الى

---

(36) منه مخطوطة ءاخر مجموع خ. ع. د. 3507 .
(37) طالعة « شرح مقصورة حازم » : ءاتي الذكر وشيكا – ص 2 .
(38) باسم « رفع الحجب المستورة . في محاسن المقصورة » ، وهو منشور في مطبعة السعادة بمصر سنة 1344 هـ في جزءين يجمعهما سفر .
(39) طالعـــة شرح مقصـــور حـــازم ص 2 .
(40) « المرقبة العليا » للنباهي ، نشر دار الكتاب المصري بالقاهرة : ص 153 ، مـــع « الاحاطـة » نشر مكتبة الخانجي بالقاهرة ، 2 / 240 .

الحج فلم يقض له ذلك ، فاقام بتونس مدة ثم ارتحل عنها عائدا الى وطنه سبتـــــة ... » (41) .

وبعد هذا يذكر التجاني انه بعد فصول ابن شبرين من تـــونس ، استمرت المكاتبات بينهما شعرا ونثرا ، وتكاثرت حتى ملات سفرا ، حيث جمعه المؤلف التونسي فى كتاب باسم « نفحات النسرين . فى مخاطبة ابن شبرين » (42) ، ومن نماذج هذه المخاطبات ، قصيدة سبتية يقـــول فيها الأديب المغربي عن ذكرياته بمدينة الخضراء :

...ولئن نسيت فلستانسىجيرة	راضعتهم در المنـــى فى تـــونس
هيهات ما ان شاقني بعد النـــوى	ـ زمن تصرم ـ للظباء الكـــنس
لكن تذكر سادة قـــد انطقـــوا	ـ بصفات مجدهم ـ لسان الاخرس
يا نسمة سحبت فضول ذيولهـــا	ما بين ورد بالعذيـــب ونـــرجس
والورق قد صدحت على افنانهـــا	والارض قد لبست ثياب السندس
حطي رحال تحيتـــي فى معهـــد	بين الجوانح منه عهد ما نســـي
والحي من تيجان فاشرح عندهم	فرط استياقي نحو ذاكالمجلس(43)

ومن قصيدة تجانية فى مخاطبة ابن شبرين :

هاك سلامي على البعـــاد أبـــــا	بكر فقلبي اليك قـــد نزعـــــا
وثق بود اديـــن فيـــك بـــــه	ملتزما منـــه كل ما شرعــــا
ان حال خـــل عن المـــودة او	اجاب داعي السلو حين دعـــــا
فاعلم باني ـ والصدق من شيمي ـ	ممن راى حفظ عهـــده ورعـــــا

(41) « رحلـــة التجاني » ، المطبعة الرسمية بتونس : 164 .
(42) المصـــــدر ص 164 .
(43) المصـــــدر ص 165 .

وانني ما قطعت ذكـــرك بـــــل ما زلت للشكر فيك منقطعــــــا
أقمست بالركن والمقــام ومـــن قد طاف بالبيت نحوها وسعـــى
ما طاب لي بعـــدك البقـــاء ولا وجدت لي في الحياة منتفعا (44)

تبـــادل الاجـــازات بين تـــونس والمغـــرب

وهو لون ءاخر من الاتصال بين الجهتين بواسطة السند العلمـــي ، فكان المغاربة يستجيزون التونسيين ، كما أن هؤلاء يستجيزون المغاربة.

وتمدنا سبتة بثلاثة أسماء يروي أصحابها ـ بطريق الاجازة ـ عن اعلام من الخضراء ، انطلاقا من ابن الشاط : القاسم بن عبد الله بن محمد الأنصاري (45) ، فعبد المهيمن الحضرمي (46) ، فمحمد بن أحمـــد بن ابراهيم الأنصاري الشهير بالتلمساني (47) .

وعن التونسيين نشير الى قاضي فـــاس : محمد بن محمد بـــن عيسى بن معنصر المومناني ، قال ابن حجر في ترجمته : « وءاخر مـــن حدث عنه ـ بالاجازة ـ مسند تونس أبو الحسن البطرني » (48) .

ومن تونس ـ ايضا ـ أبو الفضل التجاني سابق الذكر ، وهو الذي استجاز اعلاما من سبتة ، وكان ذلك بواسطة ابن رشيد لما ازمع الرحيل الى وطنه ، فاصحبه أبو الفضل التجاني استدعاء بخطه ، يلتمس فيه من شيوخ سبتة أن يكتبوا له الاجازة بالرواية عنهم ، وهو يصدر رسالتـــه بقطعة سباعية الأبيات يقول فيها :

---

(44) المصـــــدر ص 170 ـ 171 .
(45) « الاحاطة » نشر مكتبة الخانجي بالقاهرة ـ 4 / 259 ـ 260 .
« الديباج المذهب » لابن فرحون : مطبعة المعاهد بمصر : ص 226 .
(46) « الاحاطـــــة » : 4 / 13 .
« فهرس يحيى السراج » : المجلد الاول : مخطوط خ. ع. ك 1242 .
(47) « الاحاطـــــة » : 3 / 202 .
(48) « الدرر الكامنة » مطبعة مجلس دائرة المعارف في حيدر ءاباد الدكن : 4 / 206 .

ايهـا السادة الأباعـــد عنـــــا	اقبسونا من نوركم بالاجـــازة
صلتي عائـدا لسؤال مجابـــا	فاجيزوا لكي تحوزوا مجـــازة
لم يحصل لنا حقيقـــة علـــم	قربكم فابعثوا الينـا مجـــازه
وعدتنـــا ءامالنـــا بلقـاكـــم	ولعل الأيام تدنـــي نجـــازه
وعلى الفكر ان يقـوم بمـــدح	فيه أرضى تقصيده وارتجـــازه
مع انى حرمت مدح بني الدهــ	ـــر فشعري قد جازه ما اجازه
وعلاكم تقضي امتداد امتداحـــي	واعتلال الأفكار يقضي الوجـــازه

وقد حرك هذا الاستدعاء قرائح العلماء والأدباء بسبتة ، فانتهزوها فرصة سانحة لتحقيق تجاوب علمي أدبي مع الاستجـــازة التونسيـــة ، وهكذا تنافس السبتيون المعنون بالامر فى صوغ الاجازة شعرا على روي الاستدعاء ، وبلغ ـ حسب ابن رشيد ـ عدد المجيزين المغاربة ثمانية :

- ابو القاسم خلف بن عبد العزيز الغافقي القبتوري .
- ابن الشاط : القاسم بن عبد الله الأنصاري سابق الذكر .
- يوسف بن علي بن محمد الأنصاري الطرطوشي .
- ابو بكر محمد بن عبيدة الأنصـــاري .
- ابن أبي الربيع : عبيد الله بن أحمد الأموي العثماني .
- ابن المرحـــل : مالـــك بن عبد الرحمـــن .
- ابراهيم بن أبـــي بكـــر التلمسانـــي .
- ابن الـــدراج : محمد بن عمـــر .

وتحتفظ رحلة ابن رشيد بنصوص هذه الاجازات (49) ، حيـــث سيذيل بها فى ملحق لهذه الدراسة .

---

(49) « رحلة ابن رشيد » 1735 : لوحة 45 . ب ـ 50 . ا ، ومن الجدير بالذكر انني اعددت نصوص الاستدعاء التجاني والاجازات بعده : لنشرها منذ مدة ، ومهدت لذلك بالاشارة لها اثناء بحث منشور فى مجلة « البحث العلمي » : بالعـدد 10 سنـــة 1387 هـ ـ 1967 م ، غير انني شغلت عن ذلك حتى سنحت هذه الفرصة .

ونشير – في هذا الصدد – الى اثنين من التونسيين الراحلين الى لقاء شيوخ المغرب ، بدءا من الرصافي : احمد بن عبد الله الأنصـــاري المرسي نزيل تونس ، حيث لقيه – بها – خالد البلوي عام 736 هـ .

وقد قال عنه في رحلته : « ... رحل الى المغرب زمان شبابه ... فلقي جماعة من جلة العلماء ، وعلية الفضلاء : منهم – بسبتة – الشيـــخ العالم العلم : ابو القاسم ، بن الشيخ الفقيه المحدث ابي العباس العزفي اللخمي ، سمع عليه طائفة من كتاب الدر المنظم تاليف أبيه ، وكتب لـــه بالسماع والاجازة العامـــة .

والشيخ العالم الصالح ، الامام في علم العربية : ابو الحسين بـــن الربيع القرشي ، سمع عليه كثيرا من كتاب سيبويه . ومن الايضاح ومن الجمل . ومن شرحيه عليهما ، وأجازه وكتب له بخطه .

والشيخ العالم الناثر الناظم : ابو الحكم مالك بن المرحل ، سمـــع عليه كثيرا من تآليفه . ومن امداحه في النبي صلى الله عليه وسلم . ومن نظمه ونثره ، واجازه اجازة تامة مطلقة ...

والشيخ الفقيه الفرضي : ابو اسحاق ابراهيم بن ابي بكر الانصاري التلمساني ، قرأ عليه قصيدته اللامية الشهيرة ، المتضمنة النسب النبوي الكريم ، والمعشرات التي له على اعاريض الشعر ، والرجز الذي نظمه في الفرائـــــض » (50) .

ومن الرصافي ننتقل الى ثاني الراحلين الى المغرب مـــن تونس ، وهو الوادي ءاشي : محمد بن جابر بن محمد القيسي ، التونسي المولد والاستيطان ، المتوفى – بها – عـــام 749 هـ .

---

(50) « تاج المفرق » للبلوي مطبعة فضالة بالمغرب : 2 / 95 – 96 .

رحل الى المغرب مرتين ثانيتهما عام 734 هـ ، واخذ – بسبتة – عن جماعة من اعلامها وادبائها : ما بين رواية ودراية :

فيهم ابراهيم التلمساني (51) الآنف الذكر .
والحسين بن طاهر بن رفيع الشريف الحسيني (52) .
ومحمد بن عبد الله بن عبيدة الأنصاري التلمساني الأصل (53) .
ومحمد بن عبد الله بن أحمد العنسي (54) .
ومحمد بن ابراهيم بن يربوع الكلبي (55) .
وابن الحاج : محمد بن ابراهيم بن محمد السلمي البلفيقي (56) .
وابن الخضار : محمد بن محمد بن عبد الله الكتامي التلمساني الأصل (57) .

وابن خليل : محمد بن محمد بن ابي عمر محمد السكوني (58) .
وابن الدراج : محمد بن عمر بن محمد الانصاري التلمساني الأصل (59) .
ومحمد بن مالك بن عبد الرحمن بن المرحل (60) .

---

(51) برنامج الوادي ءاشي ، وهو من مخطوطات الاسكوريال رقم 1726 ، والنقل هنا عن نسخة منها مرقونة : ص 31 ، وبالمناسبة نشير الى فقرة وردت عند العالم المغربي المرحوم محمد المختار السوسي ، في رحلته ببعض جهات سوس ، المدونة باسم « خلال جزولة » ، فقد وصف بها بعض الذخائر التي وقف عليها بخزانة الشيخ عبد العزيز الادوزي بسوس ، وجاء ضمن ذلك – 4 / 10 – ذكر فهرست ابن جابر القيسي ، اجاز بها ابا البركات : محمد بن الشيخ محمد بن عبد الله اللمتوني بمراكش – عام 727 هـ ، على ما في ظهر هذه النسخة المنقولة عن الاصل مباشرة، بخط الحسن بن عيسى الكرامي السملالي عام 981 هـ ، فهل هذه نسخة اخرى من برنامج الوادي ءاشي ؟ .

(52) « برنامج الوادي ءاشي » ص 35 .

(53) « المصدر » ص 36 .

(54) ـ المصدر » ص 36 .

(55) « المصدر » ص 81 .

(56) « المصدر » ص 81 .

(57) « المصدر » ص 84 .

(58) « المصدر » ص 85 .

(59) « المصدر » ص 85 .

(60) « المصدر » ص 87 .

ومالـــك ابـــــوه (61) ٠
وابن حكم : عبد الله بن ابي القاسم الأنصاري (62) ٠
وعلي بن محمد بن علي بن حسن الأنصاري (63) ٠
وابو القاسم ابن الشاط (64) سابق الذكر ٠

والى هذا : لقي الوادي ءاشي افرادا من المغاربة خارج المغرب : ففي تونس اخذ عن ابي القاسم القبتوري : خلف بن عبد العزيز بن محمد ابن خلف الغافقي : سمع منه واجازه في خطرتيه على تونس (65) ٠

ثم الحاج ابو محمد عبد المهيمن بن عبد الله بن محمد الأنصـــاري السبتي : اخذ عنه ـ يسيرا ـ بتونس مرجعه من الحج واجازه (66) ٠

وفي بيت المقدس : اخذ عن نزيله محمد بن ابراهيـــم بن يوسف الانصاري القصري السبتي واجازه (67) ٠

وبالأسكندرية : عن امام الفرضيين بها : عبد الله بن ابي بكـــر بن يحيى بن عبد السلام الصودي (68) ٠

* * *

ونشير ـ الآن ـ الى جماعة من المغاربة الراحلين الى تـــونس ، انطلاقا من الامام ابي الحسن الصغير : علي بن عبد الحـــق الزرويلـــي ثـــم الفاســـي (69) ٠

---

(61) « المصـــــدر » ص 91 .
(92) « المصـــــدر » ص 92 ـ 93 .
(63) « المصـــــدر » ص 109 .
(64) « المصـــــدر » ص 116 .
(65) « المصـــــدر » ص 44 .
(66) « المصـــــدر » ص 45 .
(67) « المصـــــدر » ص 74 .
(68) « المصـــــدر » ص 93 ، وللتاكد من مغربية الصـودي ، يرجـع الـى محمد المنوني : « حضارة وادي درعة من خلال النصوص والآثـار » : القسم الثانـي ، مجلة « دعوة الحق » : العدد 3 من السنة 16 ص 158 ـ 159 .
(69) « الميعاد » للونشريشي ، ط. ف. 11 / 61 ـ 62 في اشارة عابرة .

وبعده رحل احمد بن محمد بن شعيب الجزنائي التازي نزيل فاس ، واخذ بمدينة الخضراء الطب والهيئة عن الشيخ يعقوب بن الدراس (70) .

ثم كان مه توجه لنفس المدينة ابن أبي حاج : محمد بن علي بن عبد الرزاق الجزولي ثم الفاسي قاضيها : ويقول عنه ابن خلدون : « وارتحل الى تونس فلقي القاضي أبا اسحاق بن عبد الرفيع ، والقاضي ابا عبد الله النفزاوي ، واهل طبقتهما ، واخذ عنهم وتفقـــه عليهـــم ورجـــع الى المغـــرب » (71) .

وفي تعبير ابن مرزوق : « ثم رحل الى تونس ، فاخذ بها عن جماعة من علمائها : كاليفرني . والبـــودري . وابن جماعـــة . وابن سرور . وغيرهـــم » (72) .

* * *

والظاهر ان هؤلاء الراحلين لم يتجاوزوا القاعـــدة الحفصيـــة الى المشرق ، وهناك أفراد وفدوا عليها في طريقهم للحج .

ومن نماذجهم : من مدينة القصر الكبير : ابن مسلم : عبد الله بن احمد بن أبي بكر نزيل سبتة ، فياخذ بتونس عن جماعة من شيوخهـــا ، وفيهم ابو علي ابن قداح . وابن البرا . وابن النمار . وابن برال . وابن جابر الوادي ءاشي . وابن سلامة الأنصاري (73) .

ومن فاس نشير الى ثلاثة : ابن ءاجروم : محمد منديـــل بن محمد صاحب المقدمة الأجرومية ، حيث لقي ابا العباس الرصافي . وابن برال. وابن معاوية . وابن عبد السلام الهواري . وابن جابر الوادي ءاشي (74) .

---

(70) « الاحـــاطـــــة » 1 / 272 — 273 .
« جذوة الاقتباس » ط. دار المنصور بالرباط : ع. 51 .

(71) « التعريف بابن خلدون » ، مطبعة لجنة التاليـــف والترجمـــة والنشـــر بالقاهـــرة ص 65 — 66 ، وفي المرقبة العليا أن ابن عبد الرزاق رحل الى المشرق ص 35 .

(72) « المسند الصحيح الحسن » لابن مـــرزوق غ. ع. ق. 111 عند الفصـــل 3 مـــن البـــــاب 20 .

(73) « فهرس يحيى السراج » مج 1 .

(74) « المصـــــــدر » .

ثم محمد بن سعيد بن محمد الرعيني : عن ابي اسحاق بن عبد الرفيع . وابن قداح . وابن عبد السلام (75) .

وثالثا : محمد بن ابي الفضل بن عبد الله بن أبي مدين العثماني ، فيسمع على ابن جابر الوادي ءاشي قصيدة البردة البوصيرية — بتونس — عام 741 هـ ، مع قصيدة للصفي الحلي (75 مكرر) .

وفى ناحية فاس نلتقي بابي الحجاج يوسف بن الحسن بن ابي بكر التسولي الورتناجي ، وقد اعتمد ابن جابر الوادي ءاشي ، فاكثر من السماع عليه واجازه عامة (76) .

ومن الجنوب المغربي : ابو محمد الزكندري : عبد الله بن محمد بن عبد الله الهرغي المراكشي قاضيها ، لقي من التونسيين ابا عبد الله بن دمعون . وابن هارون . وابن عبد السلام . وابن جابر الوادي ءاشي (77).

اعلام مغاربة مقيمون بتونس

الى جانب الرحلات العلمية العابرة الى تونس ومنها : نلتقي — الآن — مع راحلين مغاربة مقيمين ، يضطلعون بتدريس انواع من العلوم فى جهات من افريقية الحفصية : فى بجاية ، وتونس العاصمة ، والقيروان .

غير ان للمدينة الأولى تمتاز بوفرة — نسبية — لأعداد النازلين بها من اعلام المغاربة : بدءا من الامام الحرالي : علي بن احمد بن الحسن التجيبي للمراكشي ، المتوفى — بحماة — عام 638 هـ — 1241 م .

وقد درس فى بجاية عدة مواد تعليمية من الطراز العالي ، بينها كتاب النجاة لابن سينا ، وكان من الذين حضروا هذه الحلقة عبد الحق بن ربيع ابن احمد الانصاري البجائي ، فيصف منهجية استاذه قائلا : « كنا نقرا عليه النجاة لابن سينا ، فكان ينقض عراه نقضا ، وذلك بعد ان يوضح منه ما يليق ، ويقرره باحسن طريق ، ثم ينقضه ويوهنه » (78) .

---

(75) « المصدر » .
(75 مكرر) مقدمة شرح البردة البوصيرية للجادري ، مخطوط القرويين 643 .
(76) « المصدر » .
(77) « نفاضة الجراب » لابن الخطيب ، دار الكاتب العربي بالقاهرة : ص 64 .
(78) «عنوان الدراية» للغبريني ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر : ص 146—47

ومن طلاب الحرالي بنفس المدينة : عبد العزيز بن عمر بن مخلوف ، وهو يشخص طريقة استاذه في تدريس الفقه المالكي : « فكان اذا اقــرا التهذيب يبين فى كثير من مواضعه انه مخالف لأصل للمدونة ومغاير لها، ويامر بالأصل فيقاس فيبين المخالفة بينهما ، وبين ما وقــع لمالــك واصحابه فى الكتب التي وقع فيها النقل حتى يقررهم فى طريقهم » (79).

اما المغربي الثاني النازل فى بجاية : فهو ابو سعيــد بن تونــارت الدكالي ، ويقول عنه الغبريني : « كان من المدرسين ببجاية ، وحافظــا للفقه ، محصلا للمدونة ، جيد الالقاء ، مليح التفهيــم ، حسن الابتــداء والتتميــــم » (80) .

الثالث : عبد الرحيم بن عمر اليزناسني الفاسي ، ويقول عنه نفس المصدر : « ووصل الى بجاية واشتهر بها وعكف على التدريس ، وكان محصلا لمذهب مالك ولأصول الفقه على طريقة الأقدميــن ، ومن اهــل الاجتهـــاد » (81) .

الرابع : ابو محمد عبد الله بن محمد بن يحيى الأغماتي ، درس فى بجاية كتاب سيبويه فما دونه ، مع المنطق ، وقليلا من مادة الفقه ، وكان بارعا فى هذه العلوم (82) .

الخامس : أبو العباس الغماري : أحمد بن عيسى بن عبد الرحمن ، المنوفى - بتونس - عــام 682 هـ رحــل الى المشرق واتصــل

بجملة من عيون الآخذين عن الفخر الرازي واستفاد منهم ، وكان يوثــر قراءة مؤلفاته على غيرها من كتب المتقدمين والمتاخرين (83) ، وقد اخذ

(79) « المصــــدر » ص 147 .
(79) « المصــــدر » ص 147 .
(80) « المصــــدر » ص 222 .
(81) « المصدر » ص 223 ، وتصحف فيه اليزناسني باليزناتي ، وورد على الصواب عند ابن القاضي مسميا لابيه محمد بدل عمر ، حسب جذوة الاقتباس رقم 431 .
(82) « عنوان الدراية » ص 196 - 197 .
(83) « المصــــدر » ص 113 .

عنه ــ بمدينة بجاية ــ ابو العباس الغبريني ، فيذكر عن دروسه انها كانت منقحة الايراد ، عذبة الموارد بقريب ما يستفاد ... (84) .

وللغماري اثر في الرحلة الشرقية التي قام بها ابو القاسم بن زيتون احد مؤسسي المدرسة التعليمية الجديدة بتونس ، وهذا ما يشهد بـــه المقري قائلا عن المنوه به : « وبسبب ما قفـــل به من الفوائـــد رحـــل ابو القاسم بن زيتون » (85) .

وقد شارك ابن زيتون في تاسيس المدرسة المشار لهـــا : عالـــم مغربي استوطن تونس العاصمة ، وكان هو محمد بن شعيب الهسكوري المشتهر بالدكالي ، وكان درس بالمغرب حتى بلغ درجة الأستاذية : بما يتبعها من الحفظ الكثير (86) ، ثم ارتحل الى الشرق وعاد منه للسكنى بالقاعدة الحفصية ، قال في عنوان الدراية : « وبها ظهر حالـــه ، وعرف علمه وجلاله ، وتبسط للاقراء ، ودرس عليه الناس وانتفعوا بـــه ، وكان اصحابه أفضل الطلبة وانجبهم ، وولي المدارس فزانها بنظره ، وجملهـــا بحميـــد أثـــره » (87) .

وفي المقدمة توضيح أكثر لمعطيات المدرسة التي خلفها ابن شعيب بهذه المدينة ثم بتلمسان ، فبعد ما يذكر ابن خلدون رحلة ابي القاسم بن زيتون الى الشرق ورجوعه الى تونس ، يعقب هكذا : « وجاء على اثـــره ــ من المشرق ــ ابو عبد الله بن شعيب الدكالي ... ورجع الى تونس واستقر بها ، وكان تعليمه مفيدا ، فاخذ عنهما اهل تونس ، واتصل سند تعليمهما في تلاميذهما جيلا بعد جيل ، حتى انتهى الى القاضي محمد بن عبد السلام ــ شارح ابن الحاجب ــ وتلميذه ، وانتقل من تـــونس الى تلمسان في ابن الامام وتلميذه ... » (88) .

---

(84) « المصـــــــدر » ص 112 .
(85) « نفح الطيب » المطبعة الازهرية المصرية : 3 / 118 .
(86) « عنـــوان الدرايـــة » ص 173 .
(87) « المصـــــــدر » ص 173 .
(88) « المقدمة » المطبعة البهية المصرية : ص 376 .

وننتقل من تونس الى القيروان : مع محمد بن سحنون الدكالي مستوطن مدينة عقبة ، وكان من الآخذين عنه مؤرخها ابو اسحاق العواني، فيقول عن شيخه من فقرة مطولة : « وكان عالما باصول الدين والعلوم الظاهرة والباطنة ... » ، ثم ارتحل الى مدينة سوسة ، وبها كانت وفاته عام 696 هـ (89) .

اعلام مغاربة زائرون للحاضرة الافريقية

من المعروف ان ابا الحسن المريني قام بحملة وحدوية قصدا لتوحيد تونس مع المغربين الأوسط والأقصى ، وكان وصول هذه الحملة للعاصمة الحفصية يوم السبت 11 جماذى الأخيرة عام 748 — 1347(90)، ثم امتدت ايامها عامين اثنين وستة أشهر وخمسة عشر يوما ، اعتبارا من التاريخ المشار له حتى ءاخر يوم من ذي الحجة عام 750 — (91) 1350 .

وقد اصطحب العاهل المريني بهذه المناسبة مجموعة ضخمة من اعلام المغربين ، يرتقي البعض بتعدادهم الى ارقام عالية ، غير ان ابن خلدون لم يحدد عددهم ، ويذكر انه كان فى معية ابي الحسن — مقدمه لتونس — جماعة كبيرة من أهل العلم يلزمهم شهود مجلسه ، ويتجمل بمكانهم فيه (92) .

وفى هذا الصدد يعلق مؤرخ تونسي معاصر بالملاحظة التالية : « من غريب ما اتفق للسلطان ابي الحسن : انه اصطحب الى افريقية اكابر العلماء ، مثل ما فعل نابليون فى زحفته الى مصر » (93) .

ولم يعتن المؤرخون باستيعاب اسماء هذه الهيئة العلمية ، وانما حافظوا على ذكر اعيانهم بالمغربين ، ونعرض — هنا — اسماء المعروفين

---

(89) « معالم الايمان » للدباغ ، المطبعة الرسمية العربية بتونس : 4 / 39 — 43 .
(90) « العبر » لابن خلدون ، دار الطباعة بالقاهرة : 7 / 269 .
(91) « الأدلية البينة النورانية » للشماع ، لجنة الطلبة للنشر والتعريب ص 122 .
(92) « التعريف بابن خلدون » ص 19 — 44 .
(93) عثمان الكعاك فى احد تعاليقه على « الادلة البينة » ... للشماع ص 122 .

من اهل المغرب الأقصى ، حيث لا يتجاوز عددهم خمسة اعلام موزعين بين أربع جهات مغربية :

فمن مدينة سبتة : عبد المهيمن الحضرمي .
ومن مكناس : محمد ابن الصباغ الخزرجي .
ومن فاس : محمد بن علي بن سليمان السطي ، واحمد بن محمد ابن علي الزواوي الأصل .
ومن تازا : محمد بن شعيب الجزنائي (94) .

ويهمنا – الآن – ما كان لهؤلاء ومن اليهم من لقاءات علمية مدة اقامتهم بتونس فى فترة الزحفة المرينية ، وقد تجلى هذا النشاط فى أكثر من مناسبة .

وياتي – فى الطليعة – المجالس العلمية التي دأب ابو الحسن على عقدها بالمدينة الخضراء ، فيحلق – بها – اعلام الأقطار الثلاثة : المغرب والجزائر وتونس ، وتجري محاورات علمية يتداول المجتمعون فيها الأنظار ، ويتبادلون الافادات ، ويتجاوب طابع ثقافة كل من الجهتين : المغاربة بانقالهم وحفظهم الغزير ، والتونسيين بابحاثهم ومناقشاتهم الرصينة ، مما خلف اصداء فى المؤلفات التالية لهذه الفترة .

ومن مجالات التبادل الثقافي بهذه المناسبة : ما قام به بعض المغاربة من القاء دروس بمدينة تونس : فكان عبد المهيمن الحضرمي قد انتصب للتدريس بها ، حيث كان عبد الرحمن ابن خلدون ممن افاد منه ، وهو يقول عن مقروءاته على العالم السبتي : « لازمته واخذت عنه – سماعا واجازة – الأمهات الست ، وكتاب الموطا ، والسير لابن اسحاق ، وكتاب ابن الصلاح فى الحديث ، وكتبا كثيرة شذت عن حفظي » (95) .

كما ان ابن خلدون اخذ عن المقرىء المغربي ابي العباس احمد الزواوي ، وقرأ عليه القرءان الكريم بالجمع الكبير بين القراءات السبع :

---

(94) « التعريف بابن خلدون » ، حيث ترد تراجم أعيان الاعلام الذين اصطحبهم أبو الحسن فى وجهته : مغاربة وسواهم – ص 19 – 55 .
(95) « المصدر » ص 20 .

من طريق الداني وابن شريح : في ختمة لم يكملها ، وسمع عليه عـــدة كتب ، واجازه بالاجازة العامة (96) .

وقد كان المؤرخ الافريقي ينتاب مجلس الامام السطي ويستفيـــد منه (97) ، وهو يذكر عن أخيه محمد ابن خلدون انه كان يقرأ على الفقيه المغربي من كتاب (التبصرة) لأبي الحسن اللخمي ، ويصححه عليه ـ من املائه وحفظه ـ في مجالس عديدة (98) .

ومن الآخذين عن السطي الامام ابن عرفة التونسي ، وفي هذا يقول الرصاع : « ... ثم لما قدم الشيخ السطي ـ رحمه الله ـ مع السلطان أبي الحسن اجتمع به وطلب منه أن يقرأ عليه الحوفي ، فقال له : اني لا اجد محلا للاقراء الا في ساعة بين الظهر والعصر في باب جامع القصبة العلية ، فكان الشيخ (ابن عرفة) ـ رحمه الله ـ يبكر ويجلس هنالـــك ينتظره ، فاذا قدم فتح عليه الكتاب وقرأ عليه ... » (99) .

والى جانب الفرائض قرأ على السطي الفقه المالكي ، وفي تعبيـــر المجاري خلال عرضه لأشياخ ابن عرفة : « ومن شيوخه الشيخ الفقيـــه الحافظ : ابو عبد الله محمد بن سليمان السطي ، قرأ عليه جملة مـــن كتاب التهذيب : قراءة بحث ونظر .

وجميع كتاب القاضي أبي القاسم الحوفي : قراءة بحث وتحقيـــق لأحكامه الفقهية ، وتصوير لأعماله الجزئية ، بانواع أعماله الثلاثة : العدد . والكفات . والجبر والمقابلة ، الا يسيراً من ءاخر باب الولاء » (100) .

هذا مع العلم بأن ابن عرفة درس هذه المادة الفقهيـــة في تونس على الأشياخ ابن عبد السلام . وابن القداح . وابن هارون (101) .

---

(96) « المصـــــدر » ص 20 ـ 21 .
(97) « المصـــــدر » ص 19 ـ 20 .
(98) « المصـــــدر » ص 32 .
(99) « شرح حدود ابن عرفة » للرصاع ، ط. تونس : ص 534 .
(100) « فهرس المجاري » : محمد بن محمد بن علي الغرناطي ، مخطوطة خ. م. 1578 ضمن مجموع ص 269 ، مع الرجوع الى نسخة دار الكتب الوطنية بتونس .
(101) « شرح حدود ابن عرفة »للرصاع ص 5 .

وابن عبد السلام المذكور هو شارح المختصر الفقهي لابن الحاجب ، وشيخ اعلام تونس في هذه الفترة ، وقد جاء ذكره ـ ايضا ـ فى مجال لقاء ثنائي بينه وبين ابن الصباغ المكناسي ، وقد اطلع هذا الأخيـــر على شرح العلامة التونسي للمختصر الحاجبــي ، فناقشه فى اربعـــة عشر مسالة لم ينفصل ابن عبد السلام عن واحدة منها ، واقر بوجاهة الاعتراضات جميعهـــا (102) .

* * *

ومن الجدير بالذكر ان الأدب التونسي تجاوب ـ بدوره ـ مع هذه اللقاءآت ، وساهم فى التعريف بالهيئة العلمية التي واكبــت الحملــة المرينية ، وكان الذي ترجم هذا الى لغة الشعر ، هو اديب الخضراء ابو القاسم الرحوي ، فيقول عن العلماء القادمين من قصيدة مطولة :

هم القوم كل القوم اما حلومهـــم ... فارسخ من طودي ثبير وثهـــلان
فلا طيش يعروهم . واما علومهـم ... فاعلامها تهديك من غير نيـــران
بفقه يشيم الأصبحي صباحـــه ... واشهب منه يستـــدل بشهبـــان
وحسن جدال للخصوم ومنطـــق ... يجيئان فى الأخفى باوضح برهان
سقت روضة الآداب منهم سحائب ... سحبن على سحبان اذيال نسيان
فلم يبق ناي ابن الامام شماخـــة ... على مدن الدنيا لانف تلمســـان
وبعد نوى السطي لم تسط فاسه ... بفخر على بغدآن فى عصر بغـدان
وبالأبلي أستسقت الأرض وبلهـا ... ومستوبل ما مال عنه لاظعـــــان
وهامت على عبد المهيمن تـــونس ... وقد ظفرت منه بوصل وقربـــان
وما علقت مني الضمائــر غيـــره ... وان هويت كلا بحب ابن رضوان (103)

---

(102) « نيل الابتهاج » المنشور بهامش الديباج ، مطبعة المعاهد : ص 245 ، واصل ذلك عند الونشريشي فى المعيـار 3 / 285 .
(103) « التعريف بابن خلدون » ص 24 ـ 25 .

ويمدح نفس الشاعر عبد المهيمن بقصيدة يقول فيها :

... وارى الفضل قد تجمع كـلا   في ابن عبد المهيمن الحضرمـــي

الى ان يقـــول في ذكر معارفـــه :

سالك في النظام درا وطـــورا   نـاثــر دره بنشـــر وطـــي
بدع للبديع ترمـــي بحصـــر   ولصابـــي بني بويـــه بعـــي
ويرى اخرس العراق لديـــه   انـــه بالشـــام كالأعجمـــي
وعلـوم هـــي البحور ولكـــن   ينثني الواردون منها بـــري
تصدر الأمة العظيمـــة عنـــه   بحديـــث مجـــود مـــروي
وبفقـــه فيـــه وحسن مقـــال   يضع النور في لحـــاظ العمـــي
وبنحو ينحـــو على سيبويـــه   ببيان في المبهمات جلي ...(104)

* * *

والى هنا راينا اصداء النشاط المغربي في هذه اللقـــاءات ، والى جانب ذلك وجد المغاربة في التونسيين اعلاما في القمة ، يضيفـــون الى معارفهم الواسعة ، تضلعا في ميادين البحث والحجاج ، وذلك ما يلاحظه احد المعلقين وهو يصف مجالس ابي الحسن بتـــونس : « ... فظهـــر فقهاء المغرب ممن صحبه (ابا الحسن) على فقهاء تونس ، لحفظهم كتاب التهذيب عن ظهر قلب ، وزعيم فقهاء المغرب ــ حينئذ ــ الرجل الصالح ابو عبد الله السطي ــ رحمه الله ونفع به ــ الى ان جاءت نوبة الشيخ ابن عبد السلام ، وعقد مجلسه بمحضر السلطان المذكور ، ومـــن معه مـــن الفقهاء والنحاة والكتاب والرؤساء ، وتوجهت مطالبة فقهاء المغرب له ، فكان ــ رحمه الله ــ على ما وصفه به من ارخ الواقع : كانه بحر تلاطمت امواجه ، فكان يقطعهم واحدا بعد ءاخر ، وتلميذه ابن عرفة كذلك ، الى

(104) « المصـــــدر » ص 25 ــ 26 .

ان قال ولي الله المنصف : ابو عبد الله السطي للسلطان : يا علي ، كـــذا يكون التحصيل ، وكذا يقرأ الفقه ، ولو لم يكن بتونس الا هذا الامام لكان بها كل خير ، فلا بد من ملازمة هذا لهذا المجلس ، حتى ينتفع به أصحابنا وننتفع بطريقــــه ... » (105) .

واذا كان السطي ينوه بابن عبد السلام فى هذا الاتجاه ، فهو يشيد ـ مرة اخرى ـ بالفقيه الرماح : محمد بن عبـــد الرحمـــن القيســـي القيرواني ، من جهة تضلعه ـ أكثر ـ فى المسائل الفقهية ، قال ابـــن ناجي : « قيل للشيخ أبي عبد الله السطي : من رأيت بافريقية ؟ قال : ما رأيت فيها افقه من الرماح بالقيروان ، فقيل له : فابن عبد السلام ؟ فقال: لا ابن عبد السلام ولا غيره » (106) .

ومن مبادرات أبي الحسن لاثراء التلاقح الثقافي بهذه المناسبة ، انه امر بعقد دروس بتونس يحضرها جميع الفقهاء وغيرهم ، ووقعت البداءة بابن عبد السلام ، فعقد درسه ، وحضره سائر الفقهاء وسواهم ، ومرض باثر ذلك مرض موته ، ثم انتكس السلطان بالقيروان ، فوقفت المبادرة عند الدرس الأول (107) .

* * *

وقد تبينا من هذا العرض اثنين من شيوخ تونس الذين يحضرون هذه المجالس العلمية ، وهما ابن عبد السلام وتلميذه ابن عرفة ، وربما كان منهم ـ ايضا ـ الفقيه الرماح ، ويمدنا ابن بطوطة باسمين لعالميـــن وجدهما فى مجلس أبي الحسن بقصبة تونس ، وهما قاضي الجماعـــة بالخضراء : أبو علي عمر بن عبد الرفيع ، وعالمها ابو عبد الله (محمد) ابن هارون (الكناني) (108) .

(105) « أزهار الرياض » للمقري ، مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر بالقاهرة :3/28
(106) « معالـــم الايمـــان » 4 / 114 .
(107) « المصــــدر » 4 / 113 .
(108) « تحفة النظـار » نشر المكتبة التجارية الكبرى بمصر : 2 / 179 .

ولما توفي هذا الأخير حضر لدفنه السلطان ابو الحسن ومعه الفقيه السطـــــي (109) .

وفي صدد الكتاب الذي كان يتداول في المجالس المنــوه بها ، نشير الى مناقشة جرت مع ابن عرفة في احد هذه التجمعات ، وورد فيها أن العالم التونسي كان يقرأ على الحاضرين صحيح الامام مسلم (110) .

* * *

والى هنا : تبينا بعضا من معطيات هذه اللقاءات المغربية التونسية ، ومن المتوقع ان ما اهمله التاريخ عن هذه المناسبة اكثر مما دونه ، غير ان المعروف يلوح للمجهول ، والمذكور يشف عن المهمل .

العصـــــر الثانـــــي

يبتدي العصر الحفصي الثاني بعد نهاية الحملـــة المرينية عـــام 751 هـ ـ 1350 م ، ثم يمتد الى انقراض الدولة الحفصية عام 981 هـ ـ 1573 م .

وعرفت هذه الفترة ـ بدورها ـ نشاط الصلات الثقافية بين المغرب وتونس ، غير أن معطياتها جاءت دون واقع العصر الاول ، تاثرا ـ بصفة عامة ـ بالتراجع الذي أصاب الثقافة الاسلامية بعد الوباء العـــام سنـــة 749 هـ ـ (111) 1348 م ، وهذه هي الأبواب التي يسير عليها عـــرض ءافاق الصلات الثقافية بين الجهتين :

ـ اعلام تونسيون يرحلون الى المغرب ـ نخبـــة مغربية مقيمـــة بتونس ـ رحلات مغربية عابرة ـ راحلون مغاربة يثيرون منافشات منوعة.

---

(109) « تاريخ الدولتين » للزركشي ، مطبعة الدولة التونسية : ص 74 .
(110) « المصـــــدر » ص 72 .
(111) يشرح ابن خلدون عواقب هذا الملم الفادح بالنسبـــة الى الغـــرب الاسلامـــي ، حسب مقدمة « المقدمـــة » ص 27 .

أعـــلام تونسيـــون يرحلـــون الى المغـــرب

1 ــ ابو اسحاق الحسناوي : ابراهيم بن عبد الحــق التونسي ، المتوفى عـــام 795 ــ

اشتغل بالتدريس فى فاس (112) ، وقال الشعـــر فى احـــدى المناسبات ايام ابي عنان (113) ، وكان من الآخذين عنه أبو الوليد ابـــن الأحمر ، حيث عقد له ترجمة وجيزة حدد فيها تاريخ وفاته ، وذكر مـــن مشايخه ابا العباس أحمد بن موسى البطرني (114) ، كما اجرى ذكره ابن خلدون باسم أبي اسحاق الحسناوي (115) .

2 ــ أبو يزيد عبد الرحمن ابن خلدون ، لقي ــ بفاس ــ جملة من مشايخ المغرب ومن الواردين فى غرض السفارة ، وحصل ــ حســب تعبيره ــ من الافادة منهم على البغية (116) ، وكان فيهم محمد بن الصفار المراكشي (117) ، وابو القاسم الشريف السبتي (188) ، وقاضي فاس محمد بن عبد الرزاق (199) ، وابو البركات البلفيقي (120) .

ومن أغرب من روى عنهم : السلطان ابو عنان ، فيذكر انه اخذ عنه معظم الجامع الصحيح للبخاري ، فى مجالس متعددة بين يديه فى دار ملكه من فاس ، واجاز له سائره : عن اشياخه الذين كتبوا لـــه بالاجازة العامة من الديار المصرية وغيرها (121) .

---

(112) حسب اشارة عند النباهي فى « المرقبة العليا » ص 170 .
(113) « فيض العباب » لابن الحاج النميري ، مخطوط خ. م. 3267 : ص 77 .
(114) « نيـــل الابتهـــاج » ص 46 .
(115) « التعريف بابن خلدون » ص 337 .
(116) « المصـــــدر » ص 59 .
(117) « المصـــــدر » ص 310 .
(118) « المصـــــدر » ص 61 .
(119) « المصـــــدر » ص 65 .
(120) « المصـــــدر » ص 61 .
(121) « فهرس المجاري » : المخطوطة المغربية ضمن مجموع ص 272 ــ 273 ، مــع الرجوع الى المخطوطة التونسية .

ومن هنا نتبين ان ابن خلدون كان يحضر المجلس العلمي الذي داب ابو عنان على عقده ، وهو ما يؤكده ــ بنفسه ــ مرة اخرى (122) ، كما يسجله أبو الوليد ابن الاحمر (123) .

والى جانب هذا كان المنوه به مدة اقامته بالمغرب : له اتصالات ثقافية افاد بها ومنها (124) .

ومن اصدقائه بفاس احد اعلامها اللامعين : ابو يحيى ابن السكاك : محمد بن أبي غالب بن احمد العياضي ، وقد تاثر هذا ــ الى حد ــ بالفلسفة الخلدونية ، وبدا ذلك ــ واضحا ــ في ثلاثة من مؤلفاته (125) .

ومن الجدير بالملاحظة ان هذه العلاقة الثقافية حافظ عليها ابن خلدون بعد ما ارتحل عن المغرب واستوطن القاهرة ، ومنها أهدى للمغرب تاريخه الكبير : في نسخة من سبعة أجزاء (126) .

3 ــ البحيري : عبد الله بن سليمان بن قاسم التونسي ، اخذ بفاس عن الشيخين : محمد السماتي شهر بالفخار ، ومحمد بن عمر (127) .

---

(122) « التعريف بابن خلدون » ص 58 ــ 59 .

(123) نقل ذلك عنه الجادري داخر « شرح البردة البوصيرية » ، مخطوط خزانة القرويين رقم 643 .

(124) انظر في هذا الاتجاه « التعريف بابن خلدون » ص 66 س 9 ــ 10 ، مع « المقدمة» ص 157 ــ 158 .

(125) انظر توضيح ذلك عند محمد المنوني : « التيارات الفكرية في المغرب المريني » ، مجلة « الثقافة المغربية » : العدد 5 ، ص 86 ــ 88 .

(126) بقي منها في خزانة القرويين ثلاثة تحمل رقم 362 ، وهي الثالث والخامس على بتر يتخللهما ، مع قطع من الجزء السابع ، وثلاثتها تبتدي بصيغة وقف المؤلف لها على خزانة القرويين مذيلة بتوقيعه بخطه ، والغالب ان ضياع بقية اجزاء هذه النسخة انما وقع بعد صدر المائة الهجرية الحادية عشرة تقريبا ، حيث يذكر المقري انه عاين نسخة هذا التاريخ ــ كاملة ــ بفاس وعليها خط المؤلف ، حسب « نفح الطيب » 4 / 17 .

(127) « فهرس ابن هلال » خ. ع. ك 271 ضمن مجموع : ص 470 .
« ثبت احمد بن علي البلوي » الوادي آشي » ، نسخة مصورة عن مخطوطة الاسكوريال رقم 1725 : لوحة 26 . ا .
وانظر عن ترجمة البحيري « فهرس الرصاع » ط. تونس ص 178 ــ 180 .

نخبـــة مغربيـــة مقيمـــة بتـــونس

وقد وازى الأعلام الزائرين لفاس ، وجود نخبة مغربيـــة مقيمـــة بتونس مدة طويلة او قصيرة ، حتى تتجسم ظاهرة التبادل التلقائي بيـــن الجهتين ، فينشر ابن خلدون معارف جديدة بين المغاربة ، بينما ينقـــل بعض هؤلاء ثقافة متنوعة الى تونس ، وفي هذا الصدد يؤكد احد أعـــلام الديار التونسية : ان المغرب المريني كان يتوفر على فحول مبرزين في المعارف ، وبالأخص في مادتي الهيئة والمنطق ، على حين أن هذه الثقافة المتنوعة كانت قليلة بتونس الحفصية (128) ، وهذه لائحة بستة أسمـــاء للأساتذة الزائرين :

انطلاقا من أبي القاسم عبد العزيز بن موسى العبدوسي الفاسي ، وكانت دروسه التي أملاها بهذه الحاضرة قد أثارت الاعجاب ، وذلك مـــا يشهد به الشيخ محمد الزنديوي ، في فقرة مطولة جاء فيها :

« ... فلما اجتمعنا واقام عندنا ازيد من عام راينا منه العجـــب العجاب ... فما راينا ولا سمعنا من يشبه العبدوسي في حفظه » ، الى أن يقول : « تركت مجلس تدريسي وحضرت عنده لأخذ شيئا من طريقه ، واقتطف من يانع تحقيقه ، فلما حضرت رايت شيئا لا يدرك الا بعنايـــة ربانيـــة ... » (129) .

— وبعد العبدوسي نشير الى ابي يوسف يعقوب المصمـــودي ، وقد اقام بالقاعدة الافريقية مدة طويلة أقرأ فيها بضع مؤلفات في المنطق وأصول الفقه ، وكانت له معرفة بالهندسة ، ومشاركة تامة في سائـــر العلوم المتداولة في عصره وبالخصوص مادة المنطق (130) .

---

(128) مقدمة« الفارسية » لابن القنفذ القسنطيني ، تقديم وتحقيق الشيخ محمد الشاذلي النيفر والدكتور عبد المجيد التركي ، الدار التونسية للنشر : ص 35 .

(129) « نيل الابتهاج » ص 180 .

(130) « فهرس الرصاع » ص 126 و 130 و 136 .

وهو من أساتذة العلامة التونسي محمد الرصاع ، وقد درس هـــذا الأخير على مغربي عاصر سابقه ، واستوطن حاضرة تونس حتى توفي بها، ويسميه الرصاع بمحمد بن ابي بكر ويقول عنه :

« ... وكان عالما بالعربية وبعروض الشعر والحساب وبالفرائض ، وقد اخذنا عنه وحضرنا مجلسه ، وقرات عليه ـ بلفظي ـ كتاب ابن البنا مرتين بشرحه ، وحضرت عليه الحوفي فى الفرائض ـ سماعا ـ مرارا ، وحضرت عليه الحصار حتى ختم مرارا ، فقرات عليـــه الأطرابلسي فى الفرائض ، وقرات عليه ابن بدر والياسمينية فى الجبر والمقابلة ، ولازمته سنين فى هذه العلوم ، وكانت بين يديه مشايخ فى هـــذه العلـــوم ... واجازني فى ذلك ـ كله ـ بلفظه وخطه ... » (131) .

وهذا مغربي من مدينة سلا يعرف بابي العباس احمد السلاوي ، وقد قرا عليه مشايخ تونس ، منهم الأشيـــاخ عمر القلشانـــي . ومحمد الواصلي . والرصاع (132) ، ويعرض هذا الأخير درجة استاذه فى مادة العربية هكـــذا :

« ولما حصل لي بعض المشاركة فى علم العربية وجلست مع جماعة من الأقران وتذاكرنا ، وجدت عندهم زوائد بحث وغرائب نكث ، فسالت عن ذلك اشدهم مشاركة ، فدلني على الحضور عند الشيخ ... ابـــي العباس احمد السلاوي ، فحضرت عنده ورايت مجلسه فى علم العربية ..

وله فى هذا العلم قدم عظيم ، بقي يقرئه بتونس المحروسة ـ بعد قدومه من المغرب ـ ازيد من خمسين عاما ... وهو من افضل الشيوخ واكثرهم تواضعا ، قرا عليه كبار العلماء ... » (133) .

ومن الجدير بالذكر ان هذا غير السلاوي تلميذ ابن عرفة ، واحـــد الثلاثة الذين قيدوا عنه تفسير القرءان الكريم ، كما الف ـ ايضا ـ اكمال

(131) « المصـــــدر » ص 114 ـ 115 .
(132) « المصـــــدر » ص 126 .
« الضوء اللامع » للسخاوي نشر مكتبة القدسي بالقاهرة : 2 / 263 .
(133) « فهرس الرصاع » ص 122 و 126 .

الاكمال على صحيح مسلم ، واسمه ـ كاملا ـ ابو القاسم الشريف الادريسي السلاوي (134) .

ونختم هذه اللائحة بالطبيب الفاسي : محمد الشريف الزكراوي الحسني ، ويقول عنه السخاوي : « وكان اديبا طبيبا لبيبا ، ولي البيمارستان بتونس ، واقرأ العقليات ، مع مشاركة في الفقه واعتناء بالتاريخ » (135) .

رحلات مغربية عابرة

1 ـ محمد بن علي العكرمي القرشي : من الآخذين عن الامام ابن عرفة (136) .

2 ـ عبد الرحمن المجدولي الشهير بالتونسي ، لرحلته الى تونس وقراءته على ابي عبد الله الأبي ، قال ابن غازي : كان قد برز في علم المعقول ، وعنه يوخذ بفاس (137) .

3 ـ محمد بن سليمان بن داود الجزولي نزيل مكة المكرمة ، بعد ما دخل الى تونس واخذ بها عن ابي القاسم البرزلي وغيره (138) .
ويذكر للرصاع عن البرزلي : ان الواردين على تونس من الاندلس والمغربين كلهم ياخذون عنه (139) .

---

(134) ترجمته في « نيل الابتهاج » ص 225 ، وينبغي ان يفرق بين هذا وسابقه ، وبين ابي عبد الله محمد السلاوي نزيل تلمسان وشيخ مدرستها ، وترجمته ادمجها ابن خلدون خلال ترجمة المقري الكبير ، حسب التعريف بابن خلدون ص 59 ـ 60 . وهنالك محمد بن ابراهيم السلاوي تلميذ الحرالي ، حيث يتكرر ذكره في « عنوان الدراية » .

(135) « الضوء اللامع » 10 / 122 ـ 123 .

(136) « فهرس ابن غازي » تحقيق الاستاذ التونسي محمد الزاهي ، نشر دار المغرب : ص 66 ، مع « نيل الابتهاج » ص 300 ، و «درة الحجال » مطبعة السنة المحمدية بالقاهرة : رقم 809 .

(137) « فهرس ابن غازي » ص 83 .

(138) « الضوء اللامع » 7 / 258 ـ 259 .

(139) « فهرس الرصاع » ص 60 .

4 ـ احمد زروق بن احمد بن محمد البرنسي الفاسي ، روى بتونس عن محمد بن قاسم الرصاع ، وابي العباس حلولو : احمد بن عبد الرحمن اليزليتني القروي (140) .

5 ـ محمد بن احمد بن عبد الرحمن اليسيتني الفاسي ، اخذ ـ بها ـ عن بقية مشايخ العلوم البيانية والعقلية (141) .

6 ـ ابو علي بن حرزوز المكناسي ، روى عن بعض الأعلام النازلين بالقاعدة الافريقية (142) .

راحلون مغاربة يثيرون مناقشات منوعة

نذيل ـ الآن ـ بذكر ثلاثة رآحلين مغاربة آثاروا مناقشات علمية مع بعض اعلام تونس ، بدءا من ابي العباس القباب احمد بن قاسم الفاسي ، فيذكر آنه ناقش ابن عرفة فى منهجية تاليفه للمختصر الفقهي ، على آن ابا العباس الونشريشي يقطع بتكذيب الواقعة (143) ، بينما يعرضها السوداني فى شيء من التحفظ (144) ، غير انه من الثابت ان القباب اعجب بملكة التونسيين فى التحصيل والتصرف (145) .

ومن عالم المغرب ننتقل الى عالم تونس أبي القاسم البرزلي ، وقد تناقش ـ بالأسكندرية ـ مع العالم أبي عبد الله الدكالي فى مسالة اخذ المرتب ـ من الأوقاف ـ على الامامة (146) .

والبرزلي ـ مرة اخرى ـ يناقش ـ بتونس ـ الشيخ ابا حفص عمر الركراكي فى مسائل منوعة ، وقد اثبت هذا الاخير اعتراضاته خلال

---

(140) « فهرس الفهارس » للشيخ الكتاني 1 / 342 ، ونضيف هنا ان الشيخ زروق أكمل بتونس شرحه الثاني على « الحكم العطائية » ، ثم الف بها كلا من الشرح الثالث والثامن ، وفي بجاية كتب الشرح التاسع والخامس عشر ، حسبما اشار لهذا نفس المؤلف طالعة شرحه ـ السابع عشر ـ على « الحكم » ، المنشور بعناية مكتبة النجاح فى طرابلس الغرب : ص 26 .

(141) « فهرس المنجور » نشر دار المغرب : ص 32 .

(142) « فهرس الفهارس » 1 / 266 .

(143) « ازهار الرياض » 3 / 35 .

(144) « نيل الابتهاج » ص 73 .

(145) « ازهار الرياض » 3 / 32 .

(146) « نوازل البرزلي » مخطوط خ. م. 8441 : عند اوائل الجزء الاول .

رسالته : « هداية من تولى ... » ، عند البابين 3 و 4 ، ثم عرض ذلك الشيخ التونسي واجاب عنه مسالة مسالة ، فى رسالة اثبتها ـ بنصها ـ فى نوازله (147) ، ولخص ذلك تلميذه البوسعيدي فى اختصار النوازل البرزليـــــة (148) .

* * *

الملحــــــق الأول

تبـــادل الكتـــب الدراسيـــــة بيـــن تـــونس والمغـــرب

وياتي عرضها على امتداد ايام الحفصيين : خلال العصريـــــن الأول والثاني ، بدءا من الكتب الدراسية التونسيــــــة ، ومنهـــا : الرسالـــة القيروانية (149) ، وكان ابن عباد يقول عنها : « طلبوا الفقه فى غيـــر الرسالة فاضلوه » (150) ، وقد شرحها ـ فى هذه الفترة من المغاربة : كل من ابي عمران الزناتي (151) . وابن ابي يحيـــى التـــازي (152) . وزروق (153) . وابي حفص عمر التمزي (154) . وغيرهـــم (155) ،

(147) نفس المصدر والمخطوط والجزء : ءاخر كتـاب الصلاة قبـل كتاب الجنائـز ، أما رسالة « هداية من تولى » فلا تزال محطوطة : خ. ع. ك 383 ضمن مجموع .

(148) « شجــرة النـــور الزكيــــة » ص 250 .

(149) من مظاهر تقدير المغرب للرسالة القيروانية فى شخص حفدة مؤلفها : ما يسجله ابن ناجي فى « تكملة معالم الايمان » 4 / 225 ، فيرد بها ـ عرضا ـ اسم أبي الحسن علي المعروف بالمجهام من ذرية الشيخ ابن ابي زيد ، وهنا يذكر المؤلف أن هذا الحفيد اعتاد زيارة فاس بقصد الاحسان اليه ، فكان يذهب اليها سنـــة وياتي بكساوي ودراهم كثيرة ، ويقيم بالقيروان ـ بلدته ـ سنة ، الى ان حضره أجلـــه بالمغـــرب .

(150) نقله الشيخ احمد زروق فى شرح الرسالة القيروانية ءاتي الذكر : 2 / 423 .

(151) ورد ذكـره فى ترجمـة مؤلفـــه من « نيـــل الابتهـــاج » ص 342 ، واشار لـــه بلـــوشة E.Blochet فى « فهرس مخطوطات المكتبة الوطنيــة » بباريس رقـــم 5336 .

(152) ورد النقل ـ مباشرة ـ عن السفر العاشر منه عند أبي القاسم بن خجو فى جواب له نقله الشيخ محمد كنون فى كتابه « الزجر والاقماع » ، ط. ف : عند الملزمة 29 ص 8 ، ونقل عنه ـ دون تحديد السفر ـ الشيخ الكتاني فى كتاب « تبليـــغ الامانـــة » ، مطبعة فاس بالمدينة الجديدة ص 108 .

(153) شرحه منشور فى مطبعة الجمالية بمصـــر عـــام 1332 هـ ـ 1914 م فى جزءيـن يجمعهما مجلد ، ومعه شرح الرسالة لابن ناجي .

(154) أشار لشرحه فى « سلوة الأنفاس » 2 / 125 .

(155) منهم أبو محمد صالح الهسكوري ثم الفاسي ، المتوفـى ـ بهـا ـ عام 653 هـ ،

زيادة على تقاييد عن كل من أبي زيد الجزولي وسيدي يوسف بن عمر (156) ، كما نظمها ميمون الفخار (157) ، ورجز ابن غازي مشكلاتها (158) .

وقد صار تهذيب المدونة للبرادعي في طليعة الكتب الدراسية العالية ، وكان موضوع تعاليق مغربية عديدة من جهة طلبة أبي الحسن الصغير فمن بعدهم (159) .

وهذه مقدمة ابن جماعة التونسي في أحكام البيوع ، وهي التي هذبها أبو العباس القباب وشرح تهذيبها (160) ، ثم نظمه جماعة من المغاربة وسواهم .

حسب « سلوة الانفاس » 2 / 42 ـ 43 ، ثم التادلي : أحمد بن عبد الرحمن الفاسي ، المتوفى ـ بالمدينة المنورة ـ عام 741 هـ ، فيذكر البعض أنه علق على الرسالة شرحا موسعا ، بيض منه نصفه في ثلاثة أسفار ، وتوفي ، والنصف الثاني في مسودته ، « طبقات المالكية » لمؤلف مجهول الاسم ، مخطوطة خ. ع. د 3928 ص 387 .

وممن شرح الرسالة يوسف بن يعقوب بن محمد الرجراجي ، باسم « المفيد . على الرسالة للطالب المستفيد . والراغب المستزيد » ، وهو خال من تاريخ التأليف ، ووقع الفراغ من نسخة بتاريخ 7 صفر عام 924 هـ ، ولا يزال مخطوطا في مجلد يحمل رقم 3442 خ. م.

ثم سعيد بن سليمان السوسي الكرامي : باسم « مرشد المبتدئين الى معرفة ألفاظ الرسالة » ، فرغ منه عام 864 هـ ـ مخطوط خ. ع. ك 724 .

ولمحمد بن منصور بن حمامة المغراوي السجلماسي « شرح غريب الرسالة » ، خ. ع. ك 815 : أول مجموع .

(156) التقييدان ـ معا ـ مخطوطان في الخزائن الوقفية وسواها بالمغرب .

(157) « الضوء اللامع » 7 / 99 .

(158) شرح هذا الترجيز محمد بن عبد الرحمن الحطاب ، باسم « شرح نظائر الرسالة . وتحرير المقالة » ، ولا يزال مخطوطا في عدة نسخ بالخزانات المغربية .

(159) في جواب لابن مرزوق الحفيد عند ذكر « تقاييد التهذيب » المنسوبة لأبي الحسن الصغير : « ... ويقال ان الطلبة الذين كانوا يحضرون مجلسه هم الذين كانوا يقيدون عنه ما يقوله في كل مجلس ، فكل له تقييد ، وهذا سبب الاختلاف الموجود في نسخ التقييد ، والشيخ (أبو الحسن) لم يكتب شيئا بيده ، وأكثر اعتماد أهل المغرب ـ من تلك التقاييد ـ على تقييد الفقيه الصالح أبي محمد عبد العزيز القروي ، فانه خيار طلبته علما ودينا ، ومن خيارهم » ، نقله الونشريشي في المعيار : 1 / 173 .

وعن المغاربة الآخرين الذين شرحوا التهذيب : ينقل الونشريشي هذه الاشارة أثناء كلام : « ... ولهذا قال شراح الكتاب (التهذيب) : كأبي محمد صالح والصرصري واليزناسني والشوشاوي والطنجي ... » ، المعيار 2 / 192 .

(160) مخطوط بالخزانات المغربية .

وينتهي المطاف الى المختصر الفقهي للامام ابن عرفة ، فيعلق عليه شيخ الجماعة بفاس : عيسى بن علال المصمودي (161) ، ثم يقول ابو العباس زروق ختام شرح الرسالة القيروانية : « ... قد كتبت هذا الكتاب وجمعته من أصول معتمدة جلها كتب المتاخرين ، والعمدة مختصر الشيخ الفقيه الصالح سيدي أبي عبد الله بن عرفة التونسي ... » (162).

ولابن غازي : « تكميل التقييد وتحليل التعقيد » ، كمل به تقييد ابي الحسن الصغير على المدونة ، وحل مشكل كلام ابن عرفة في مختصره الفقهي (163) .

هذا الى أن ابا العباس الونشريشي يؤكد ان ملوك المغرب أوقفوا - من هذا الكتاب - نسخا عديدة بخزانتي القرويين والأندلس (164) .

والمختصر الأصلي لابن عرفة ايضا : يذكر ابن هارون انه درسه على استاذه ابن غازي (165) .

وفي القراءات نشير الى القصيدة الرائية في قراءة نافع من نظم ابي الحسن الحصري ، وقد اشتهرت - بالمغرب - في هذه الفترة وقبلها ، وتداولها الناشئون بحفظها في الكتاتيب (166) ، وشرحها ابو عبد الله الأموي المعروف بالخراز (167) .

---

(161) « نيل الابتهاج » ص 193 .

(162) « شرح الرسالة القيروانية » : الطبعة المشار لها سلفا : 2 / 423 .

(163) « نيل الابتهاج » ص 333 ، ولا يزال مخطوطا باسم « اتحاف ذوي الذكاء والمعرفة . بتكميل تقييد ابي الحسن وتحليل تعقيد ابن عرفة » .

(164) « ازهار الرياض » 3 / 36 ، هذا ومن اغرب ما تحتفظ به خزانة القرويين من هذا المختصر الفقهي : نسخة اكثر اجزائها من تحبيس القائد المريني عبد الله الطريفي ، على الجامع الاعظم بمدينة سبتة عام 812 هـ ، اي بعد ثمانية اعوام من وفاة ابن عرفة ، ورقمها في هذه الخزانة 376 .

(165) « فهرس المنجور » ص 42 .

(166) طالع شرحها للخراز .

(167) « سلوة الأنفاس » 2 / 114 .

وفى مادة الأدب : كتاب ((زهر الآداب)) لابراهيم الحصري ، حيثقام باختصاره أبو الحسن بن بري التازي فى سفر متوسط (168) .

* * *

ومن جهة اخرى فان الرصاع يستعرض ـ فى فهرسه ـ جملة من المؤلفات المغربية التي كانت تستخدم فى الدراسات التونسية .

ومنها الشفا للقاضي عياض ، وارجوزة الدرر اللوامع لابن بري التازي فى القراءات ، ومنظومة الخراز فى الرسم القرءاني (169) ، وشرح الخلاصة للمكودي (170) ، وشرح القصيدة الخزرجية لأبي القاسم الشريف السبتي (171) .

وارجوزة ابن الياسمين فى الجبر والمقابلة ، والتلخيص لابن البنا فى المادة ذاتها (172) .

* * *

هذا الى بعض مؤلفات يتسلسل تاليفها بين المغرب وتونس ، فيعلق المازري على صحيح مسلم بكتاب ((المعلم)) ، ثم يكمله عياض باسم ((اكمال المعلم)) ، ثم يتمم هذا التكميل :

محمد بن ابراهيم البقوري المراكشي دفينها .

---

(168) يقول فى أوله : ((... وبعد فهذا كتاب سميته اقتطاف الزهر واجتناء الثمر اختصرته من كتاب زهر الاداب ... على وجه اخترته لنفسي ... وقد ضممت فيه الشكل الى شكله ، واضفت الشيء الى مثله ... وربما اضفت زيادات يسيرة من غيره)) .
يعرف منه ـ الآن ـ أربع مخطوطات : اثنتان خ. م. 374 ر 2544 ، واثنتان بدار الكتب المصرية : 14094 ز و14417 ز .

(169) ((فهرس الرصاع)) ص 56 .

(170) ((المصدر)) ص 181 .

(171) ((المصدر)) ص 119 .

(172) ((المصدر)) ص 114 .

وابو القاسم السلوي نزيل تونس .
ومحمد بن خلفة الأبي التونسي .
ولشرح هذا الأخير مختصر من تاليف ابن الشاط البجائي (173) .

ومن ناحية اخرى فان عبد الله التجاني صاحب الرحلة : ابتدا شرح الشفا لعياض باسم ((كتاب الوفا . ببيان فوائد الشفا)) ، غير انه لم يتمه ، وذلك ما يؤكده السخاوي وهو يذكر كتاب الشفا : ((... وقد كتب عليه بعض المغاربة ـ أيضا ـ وهو ابو محمد عبد الله بن محمد بن احمد بن محمد بن ابي القاسم التجاني شرحا حافلا ، لكنه لم يكمله ، والموجود منه ـ في أوقاف المؤيدية ـ من أوله الى بعد قوله : فصل في حسن خلقه صلى الله عليه وسلم : في نحو خمسة عشر كراسا)) (174).

كذلك قام أبو العباس احمد بن يحيى الونشريشي نزيل فاس ودفينها: باختصار نوازل البرزلي مع زيادة من بعض المؤلفات ، ولا يزال مخطوطا .
وفي اتجاه ءاخر نشير الى تحميس القصيدة الشقراطسية : لمحمد بن حسن بن عطية بن غازي الأنصاري السبتي . (174 مكرر) .

* * *

الملحق الثاني

تبادل في الثقافة الصوفية

وقد كان في طليعة من يمثل ذلك الامام أبو الحسن الشاذلي : محمد بن عبد الله بن عبد الجبار الحسني ، قال في ((سبك المقال)) (175) : ((وهو من غمارة ، وكان يقرا كتاب سيبويه وابن عطية في التفسير)) .
وصحب بالمغرب الامام الأكبر المولى عبد السلام بن مشيش الحسني وعليه تخرج ، ثم لقي ـ في تونس ـ الشيخ العارف أبا سعيد

(173) شرح الأبي منشور ، والبقوري والسلوي غير معروفين الآن ، والباقي مخطوط .
(174) ((الجواهر والدرر . في ترجمة شيخ الاسلام ابن حجر)) ، مخطوط خ. م. 1500 : 2 / 121 ـ 122 ، أما شرح التجاني على الشفا فيوجد السفر الاول منه ضمن مخطوطات خ. م. 4016 ، مع قطعة منه في دار الكتب الوطنية بتونس .
(174) مكرر مقدمة شرح القصيدة الشقراطسية لمؤلف غير مذكور ، مخطوط خ. ع. ق 1050 .
(175) مخطوط خ. م. 103 .

خلفا الباجي التميمي (176) ، فتحقق بهذا اللقاء تبادل الثقافة الصوفية بين المنطقتيـــن .

وقد بدأ أبو الحسن الشاذلي دعوته في تونس ، وكان يربي أتباعـه فيها وبمصر بعدة كتب موضوعية ومنها :

الرسالـــة القشيرية .
وقوت القلوب لأبي طالب .
والاحيـــاء للغزالـــي .
والشفـــا لعيـــــاض .
والمحرر الوجيز لابن عطية (177) .

قال في « شجرة النور الزكية » عن الشاذلي : « ... وقدم تونس وأقام بها سنين ، وبها اشتهر أمره وعلا ذكره ، وله بها اتباع كثيـــرون ، واعتقده الخاص والعام ، ثم انتقل لمصر وبعد صيته بها ، وكان يحضـــر مجلسه ـ بتونس ومصر ـ أكابر العلماء ...

كان جامعا لجميع علوم الظاهر ، لا سيما علم التفسير له فيه نفس عال ، والحديـــث ، أما علـــوم الأسرار فقطـــب رحاهـــا وشمـــس ضحاهـــا ... » (178) .

وفي درة الأسرار وردت أسماء كثيرة من الآخذين عنه بتونس ، وفي مقدمتهم خديم الشيخ وتلميذه ماضي بن سلطان المسروقي (179) ، وعن هذا يتفرع السند المغربي الشاذلي : عن طريق جماعة من ائمة تونس : بدأ من تلميذ الشيخ ماضي : أبي العباس البطرني : أحمـــد بن مـــوسى الأنصاري ، فابنه أبي الحسن البطرني محمد الآخذ عن والده ، ويروي عن

(176) « درة لأسرار » ءاتي الذكر عند التعليق رقم 182 ـ ص 6 .

(177) « المفاخر العلية في المئاثر الشاذلية » لابن عياد ، المطبعة الشرقيـة بمصـر عـــام 1323 هـ : ص 33 و 66 .
أبو الحسن الشاذلي تاليف الدكتور عبد الحليم محمـود ، رقـم 72 من سلسلة أعـــلام العـــرب : ص 52 ـ 54 .

(178) « شجـــرة النـــور الزكيـــة » ص 187 .

(879) انظر الاسماء الواردة في « درة لأسرار » ص 8 و 9 و 21 و 24 و 25 و 26 و 29 و 35 و 37 و 38 و 158 و 169 و 170 و 171 و 172 ، وفي هذه الصفحة الاخيرة جاء تاريخ وفاة الشيخ ماضي بن سلطان ؛ وفي ص 3 يسجل المؤلف انه من تلاميذ خديم الشيخ ابي الحسن الشاذلي .

الابن تونسيان : ابو الطيب بن علوان : محمد بن احمد الشهير بالمصري ، ثم ابو القاسم البرزلي ، وعنه تلميذه محمد بن قاسم الرصاع (180) .

وقد ساق الشهاب النخلي السند الشاذلي مسلسلا بالمغاربة من الاقطـار الثـلاث :

فهو يرويه عن ابي مهدي عيسى بن محمد الثعالبي الجزائـرى .
عن أبي الحسن علي بن عبد الواحد الأنصاري السجلماسي .
عن أبي العباس المقري : احمد بن محمد التلمساني .
عن عمه سعيد بن أحمد المقري التلمساني .
عن محمد بن محمد بن عبد الجليل التنسي ثم التلمساني .

عن ابيه محمد بن عبد الجليـل ...
عن ابن مرزوق الحفيد : محمد بن احمد العجيسي التلمساني .
عن ابي الطيب بن علوان : محمد بن احمد التونسي الشهير بالمصري.

عن أبي الحسن البطرني : محمد بن احمد بن موسى التونسي .
عن والـده أ حمـد بن مـوسى ...

عن أبى العزائم ماضي بن سلطان التونسي تلميـذ أبـي الحسـن الشاذلـي (181) .

* * *

ومن الجدير بالذكر أن المعطيات الشاذلية استمرت ملامحها حيـة

---

(180) « فهرس الرصاع » ص 90 ، مع السند الشاذلي ءاتي الذكر وشيكا .
(181) « بغية الطالبين » للنخلي ، مطبعة مجلس دائرة المعـارف النظاميـة فى مدينـة حيدر اباد الدكن بالهند : ص 65 ـ 66 ، ونقله ابن عياد فى « الأذكار العليـة والاسرار الشاذلية » ، المطبعة السعدية (الحجرية) بالاسكندرية عام 1288 هـ : ص 122 ـ 123 .

بتونس عبر الأجيال ، ممثلا ذلك في تدويــــن أخبار امامهـــا ونشرهـــا بالتاليف (182) والمقالـــة (183) .

وفى احترام ماقمه ومغارته فى جبانة الزلاج بالعاصمة .
وفى الأسطوانة التي كان يدرس عندها فى جامع الزيتونة (184) .
هذا فضلا عن انتشار دعوته بالحاضرة وسواها .

الى وفرة المرموقين من التونسيين الذين يحملون أسماء تلمح الى التيمن بلقب أو كنية قطب رحى الثقافة الصوفية بالمغرب الكبير .

* * *

ومن ابي الحسن الشاذلي ننتقل الى مدرسة ابي محمد صالح دفين اسفي ، وكان من المنتسبين لها الشيخ ابو عبد الله محمد بن أبي القاسم السجلماسي نزيل بجاية خلال المائة الهجرية السابعـــة ، ويقول عنـــه الغبريني : « صحبته كثيرا ، وأخذت عنه واستفدت منه ، وهو احد من اخذت طريق التصوف عنه ، عن الشيخ أبي محمد صالح ، عن الشيخ أبي مدين ، عن الشيخ أبي يعزى ، عن مشايخهم ، رضي الله عنهم » (185) .

---

(182) من ذلك « درة الاسرار وتحفة الابرار ... » لابن الصباغ : محمد بن أبي القاسم الحميري ، وهو منشور بالمطبعة التونسية الرسمية عـام 1304 هـ فى 173 ص سوى الفهـــــرس .
ومن المخطوط : رسالة بعنوان « أصحاب أبي الحسن على الشاذلي الاربعـــون » لمؤلـــــف مجهـــول الاسم .
ورسالة بعنوان « اصحاب ابي الحسن الشاذلي الاربعين ، وفضائل جبـل الزلاج والمغارة الشاذلية بتونس » ، مؤلفها غير مذكـــور .
وقد وردت هي وسابقتها ضمن « رصيد مكتبة حسن حسني عبد الوهاب » ، اعداد الأستاذ عبد الحفيـظ منصـور : ص 371 .

(183) من ذلك بحث للمؤرخ التونسي محمد بن الخوجة بعنوان « الرجال الاربعون أصحاب الامام الشاذلي » ، نشره فى « المجلة الزيتونية » ج 9 من المجلد 4 ص 283-286، مع نشرة تكميلية ج 10 من المجلد 4 ص 312 - 313 .

(184) « أصفى الموارد فى تهذيب نظم الرحلة الحجازية للشيخ الوالد » عمــل محمد المختار السوسي ، مطبعة النجاح بالدار البيضاء : ص 46 و 52 .

(185) « عنوان الدراية » ءاخر ترجمة المذكور : ص 132 - 133 .

وفي أوائل المائة الهجرية العاشرة يزور تونس ابو الحسن علي بن ميمون الغماري الحسني ، فيلقى ـ بنفزاوة ـ شيخ التربية الصوفية في عصره : ابا العباس أحمد بن محمد الدباسي ، فكان هو استاذه في الاتجاه الصوفي ، وكان اجتماعه به اول جمادى الأخرة سنة 902 هـ (185) مكرر.

* * *

الملحـــــق الثالـــــث

نـــص مـــن رحلـــة ابن رشـــد

وهو يحتفظ بمجموعة من اجازات علماء سبتة وأدبائها لأبي الفضل التجاني من علماء تونس وأدبائها ، حيث يفتتـــح النص باستدعائه لهـــذه الاجـــازات .

وقد اشاد به ابن رشيد طويلا جز 1735 من رحلته ، ثم ختم حديثه عنـــه هكـــذا :

« (45 ب) واصحبني ـ عند ارادة الانصراف ـ استدعاء بخطه ، لاخذ به خطوط الشيوخ والاصحاب ، (46 . ا) ونص الاستدعاء المذكور : بسم الله الرحمن الرحيم ، اللهم صل على نبيك محمد وءال محمد .

ايهـا السادة الأباعـــد عنـــا ... اقبسونا من نوركم بالاجـــازة

صلتي عائـد السؤال مجابـــا ... فاجيزوا لكي تحوزوا مجـــازه

لم يحصل لنا حقيقـــة علـــم ... قربكم فابعثوا الينـا مجـــازه

وعدتنـــا ءامالنـــا بلقاكـــم ... ولعـل الأيام تدنـــي نجـــازه

وعلى الفكـر ان يقوم بمـــدح ... فيه أرضى تقصيده وارتجـــازه

مع اني حرمت مدح بنـي الدهـــ ... ــر فشعري قد جازه ما اجـازه

وعلاكم تقضي امتداد امتداحـــي ... واعتلال الافكار يقضي الوجـــازة

(185) مكرر مخطوطة « رسالة الاخوان من أهل الفقه وحملة القرءان » لأبي الحسن علي ابن ميمون الغماري الحسني ، المترجم عند ابن عسكر في « دوحـــة الناشر » ط. دار المغرب ص 28 ـ 30 ، ثم عنـد الغـزي في « الكواكـب السائـــرة » 1 / 271 ـ 228 .

أنتم – أعزكم الله – العلماء بان هذه الصناعة عند القوم من اصلح مفاخر الفاخر واعظم مطالب الطالب ، وان هذه البضاعة فى العلم من اربح متاجر التاجر واسلم مكاسب الكاسب ، ولما كانت بهذه الرتبة ، وفى هذه النسبة ، تشرف بالتخلق بخلائق اهلها ، وتشوف للتعلق بعلائق حبلها : مخاطبكم وخاطبكم : محمد بن علي بن ابراهيم بن محمد بن ابي القاسم بن محمد بن ابي القاسم ، التجاني ، التونسي ، وفقه الله ، واليكم طمحت هماته ، وفى الأخذ عنكم والاقتباس منكم قد انحصرت ممهاته ، وها هو سدد سهمه للاصابة ، فوفروا أسهمه من الاجابة ، مرغوبين غير مامورين ، مثابين خير الثواب جزاء على اجازآتهم ماجورين ، والله – تعالى – يجعل مطالبنا له خالصة ، وأفعالنا – كلها – تامة لا ناقصة ، بمنه .

خط هذه العجالة بتونس – حرسها الله – محمد بن علي المذكور،ليلة يوم الاثنين الحادي عشر لشهر ربيع الثاني، من عام ستة وثمانين وستمائة، حامدا لله ، ومصليا على رسوله ، ومسلما وراضيا ، وداعيا .

فلما وافيت سبتة – وطني – حامدآ لله وشاكرا ، عرضت هذا الاستدعاء على جماعة أشياخنا وأصحابنا ، فكتب فيه – نظما – جميع أدبائهم ، ولم يحضرني الآن جملة الاجوبة ، ووجهتها اليها (كذا) بجملتها ، فشكر واثنى .

فمن أجل من كتب فيها من الشيوخ : شيخنا ، الكاتب ، البليغ ، الفاضل ، ابو القاسم القبتوري (186) ، – وهو من له فى هذه الصناعة الاقدم والقدم والتقدم والرسوخ – فقال : « وعدل عن عروض أبياته وآن التزم القافية ، موصولة بغير ما وصل به السائل رويه » :

(46 ب) البي من اهاب لان يجازى	ابا الفضل المعجز أن يجازى
أمام معارف وكفى اماما	بحلبة اهلها الغايات جازا
ولم أر مستجازا قبل مثلي	يرى هذا لديه مستجازآ
وكيف أجيز وأصل غاية لم	اجز لمبادي منها مجازا
وعدو من معيدي بهير	تعاطي أن يجيز بل أن يجازا

(186) ترجمته فى « بغية الوعاة » للسيوطي ، مطبعة السعادة بمصر ص 242 – 243 .

ولولا حق اجـــلال المجلــــــي ... على السكيت حقــا لا مجــــــازا
وأن لمجـــده باجـــازة ابنـــــــ ... ـــي بعدي منة ما أن تجـــــازا
لما رمت احتجابا عن بـــــروز ... الى ابراز نقصي واحتجـــــازا
فيا علما تجافى عــن تعاطـــــي ... مجاراة له اعتمــد النجـــــازا
وما ان غاب عن ناديه جسمـــــي ... فقلبي فيه لم يــرم النجـــازا
ومن قد طبق الأفاق صيتـــــا : ... مغاربها ، مشارقها ، الحجــازا
اجازك سيدي : خلف بن عبد الـ ... ـعزيز الغافقي بما أجــــازا
على ما سن أهل الشان قدمــــا ... فما عن نهجهم ابغي نجــــازا
بعقب الست تاليـــة الثمانيـــــ ... ـــن والست المئات عدت مجازا
وعل الله يجعلنـــي مجيـــزا ... برحمي منه شاملة ، مجــــازا
وعل الله يمنح منــه رحمـــــي ... يعم بها المجيز ومــن أجــــازا
وبالتحميـــد تتلـــوه صـــــلاة ... وتسليم حوى قولي انتجــــازا

انشدها لي قائلها ، وكتبها بخطه البارع ، الذي برز فيه من هـــذه الطائفة على العلية ، واستحق ـ كما قيل ـ ان يقوم لصاحبه مقام النسبة والطيبـــة .

واجابه ـ ايضا ـ شيخنا ابو القاسم بنظم ثان ، واتبعه بنثر كـــل كاتب عنانه عنه ، والتزم عروضه وقافيته لما رأى الأصحاب التزموا ذلك :

ايها السيد الذي طال طــولا ... فارانـــا صـــدوره اعجــــازه
وجـــلا من بنـــات افكــاره رو ... دا حباهـــا كمالــه اعجــــازه
لم نرد بعدها احتجاجـــا على بـــا ... هر فضل ارت اليه احتجـــازه
وردت تستجيز من لا ارانــــــي ... لتعاطي مداهم ذا استجــــازه
لأبي الفضل واصل الغاية المــؤ ... تى وابني منه اسنى آجــــازه
غير أني وان غــدوت معيـــد ... يا ، مقالا نفى اليقين مجـــازه
رمت تعريف جانبي بانتظــــام ... مع من من اعلا منا قد اجــازه
ومكافاة بعض افضالــه المعـــ ... ـــجز تقصيد مقولي وارتجــازه
فله حمل ما يشا من انشائــــي ... ان زيفه ارتضى واستجــــازه
ولو آني لم اعص فيه الحجـــا ... كنت له عن خطابــه ذا حجــازه
(1.47) ولقد هاج ذكره البعدلي شو ... قا بقلبــي له اجـــد نجـــازه
فهو ان غاب عن نــدي عـــلاه ... الجسم ثاوبه مديـــم نجــازه

خلف ثم نجل عبد العزيز الـــــ	ـــفافقي المختط هذي الاجــازه
بالشروط التي متى ما خلت منـــ	ـــها الاجازات لم تكن مستجازه
صدر شعبـــان ستة وثمانيـــ	ـــن وست من المئات مجـــازه
حامـــدا للاله حمــد مـــرج	به منه على الصراط مجـــازه
وعلى مصطفاه احفـى صـــلاة	وسلام يباينـــان الـوجـــازه
والرضى عن كرام اهليه والصـــ	ـــب به قصدي استتم نجـــازه

أيها السيد العلم ، والامام الذي منه الأعلام تتعلم ، والأوحد الذي بوجوده ولاجادته فخرت الصفيحة الصحيفة والرمح القلم ، أبقاكـــم الله بسماء العلاء بدرا تحسد كماله البدور ، وبنادي ملا الاملاء صدرا تنشرح من الصدور باخذهم عنه : الصدور .

ورد استدعاؤكم الذي بر ، وأبدى نظما ونثرا سر الابداع واظهر ، فتلمح كل من مسطوره ، المزري بمجود الروض وممطـــوره ، العجـــب العجيب ، ووالى لجلالتكم التعظيم والترحيب ، واشادوا بشكر الزمـــن الذي ولد منكم لطبقاتهم الأب الحاني والشقيق الشفيق والولد النجيب ، وسالوا الله تعالى لكما لكم الذي هو لهذا الزمن غاية الزين : كلاءة تقيه ما يحذر على مثله من العين ، وقد استمدوا الخواطر مواطر ، وامطوا بنانهم الأنابيب يعابيب،وهدوا اليكم من ابكار الأفكار واهدوا من الأزاهر الزواهر ما تحسد العيون الأذان على اجتلائه ، وترتاح الأرواح لاستجلائه ، لتسقوها بجيد مجدكم الباهر على ، حلى يا لها من حلى ، تروق الحور ، وتشوق النحور ، وتود الدراري والدرر ان تحور مثلها ولن تحور ، وما الو بما منها على الأسماع تلوا ، وللأبصار والبصائر جلوا ، قضاء لحـــق مراجعـــة ابتدائكم ، وتلبية مهيب مهيب ندائكم ، وارضاء بالارتسام في اشياعكـــم واودائكـــم .

وعرض على مكبركم الاجراء في هذا الميدان ، والانبراء لمبـــاراة سوابقه التي ما لي بها يدان ، فاحجمت ــ لعلمي بفشلي ونضوب وشلي ــ كل الاحجام ، وخفت ان زحمت نهضتهم ــ على ضعفي ــ ان اكون قتيل ذلك الزحام ، وتغافلت لو غفل عني منتقاض (47 . ب) حملني مما كلفني ما يعني ، ولما لم يبلعني ريقا ، ولا اوجدني للتواري وستر عواري طريقا ،

وأرتج ابواب الاعتذار ، عما لدي من مقبولات الأعذار ، وذكر بما لكم قبلي من سابق حق ما زال مني على ذكر ، ولا اغفلت ولا أغفل عن الله القيـــام بما يجب له من شكر : أهبت من خاطري بهبيت ، واستعرضت منه معسرا لا يبيت على بيت ، فناجاني : أساه أنت أم حالم ؟ اما انت بشاني عالم ، متى أغاث كهام ، او غاث جهام ، ايعرض لمجاراة الجياد طليح حسيـــر ، وظالع كسير ، ويهدي للخاطر الوقاد ، زيف لا يخفى عوار عيـــاره لـــدى الانتقاد ، فما برحت أسكن شماسه ، وأمكن ايناسه ، بما لديكم من فضل يقبل العفو ، ويقيل الهفو ، ويورد معتهد ارضائه من مورد اغضائه الصفو، فسمح على علاته ، واستيلاء خلاته ، بما فضلكم يتلقاه عند لمحه ، باتـــم صفحه وسمحه ، منعما متطولا ان شاء الله تعالى ، وهو ــ سبحانـــه ــ يزيد قدركم علوا ، ويبقي شكركم متلوا ، والسلام الكـــريم ، المبـــارك العميم : عليكم ورحمة الله ــ تعالى ــ وبركاته .

* * *

وكتب فيها صاحبنا الفقيه الجليل ، المتفنن ، صدر الأصحـــاب ، وقدوة أهل الآداب ، الآخذ من كل فن من العلوم بالّلبـــاب ، أبو القاسم : القاسم بن عبد الله بن محمد الأنصاري ، شهر بابن الشاط (187) ، حرس الله رتبته العالية ، ووفى ذاته التي هي بالمحاسن حالية ، وكتبه لـــي بخطه وأنشده لي ، الا بيتين الحقهما فأملاهما على فزدتهما في الحاشيـــة بخطـــي :

أيها المستجيز هاك الاجـــازه	فاقتبس نورها وراع الاجـــازة
انت معا حدثت عنه مجـــازى	فارو مما حكى الرواة مجـــازه
واذا صرت من طريقـي مجـــازا	فاحو من عائد الصلات مجـــازه
واحملنها عني حقيقـــة علـــم	أوجب البعد قربها لا مجـــازه
هي مثل السماع مهما توفـــى	لازمات الشروط جازت مجـــازه
فارو ما قد رويتـه ونثـــاري	ونظامي : تقصيده وارتجـــازه

(187) ترجمته في « الاحاطـة » 4 / 259 ــ 262 .

وقليلا ما خضت في النظم لكـــن ... رب يوم قد آرتجزت ارتجـــازه
انا لا اقرض المديـح ولا أعـــ ... ــرف من رد مادحا أو اجـــازه
واذا ما حرمت مدح بني الدهـ ... ــر فشعري ما جازه مذ اجـــازه
انتم منهـــم فلـــم لا اوفـــي ... مدحهم في اطالة أو وجـــازه
(48.أ) أي عذر لناظم حاد عن منـ ... ــهج تقريظه علاكم وجـــازه
ذكركم في العراق اعرق لمـــا ... سار عن مصره وجاز حجـــازه
فحقيق وقف المديح عليكـــم ... فقد القى الحجا لديكم حجـازه
تاج «تجان» واصل الغاية القصـ ... ــوى وقد خامت الجياد المجازه
اقض بالعذر في قضية نظـــم ... لا اراها من القضايا المجـــازه
يابا الفضل : إنت للفضل اهـــل ... فاجيزوا لخلكم ما استجـــازه
واقبلوها اجـازة من حقيـــر ... لو درى قدره امرؤ ما استجـازه
واسمحوا لي فيما ارتكبت فانـــي ... لست ممن تنهى اليه استجـــازه
وانـــا استقيلكـــم فاقيلـــوا ... لائذا في جوابكـم بالوجـــازه
خطـه قاســـم بن عبـــد الالا ... ه بن محمد مستجيزا مجـــازه
وجرت عـام ستـــة وثمانيـــ ... ــن وست من المئين الاجـــازه
وعلى المصطفى صـلاة وتسليـ ... ــم يوكنان للنظـــام نجـــازه

* * *

ومما نظمه — في ذلك — صاحبنا ، الأديب البليغ ، الناظم الناثـــر ، ذو الفضائل والمآثر ، ابو الحجاج يوسف بن أبي الحسن علـــي بن محمد الأنصاري ، الطرطوشي (188) ، وانشده لي وكتبه لي بخطه ، الا بيتا واحدا الحقه فاملاه علي وكتبته بخطي :

يا وحيدا ءاياته في المعالـــي ... لمجاريـه اظهـــرت أعجـــازه
لك منا ركائب الشوق تحـــدو ... حين أصبحت للعلاء حجـــازه
وردت منكم حقيقة نظـم الـــ ... ــدر في الشعر لم تنظم مجازه
فراينا صـدوره في صـــدور ... ورأينـــا اعجـــازه اعجـــازه

(188) ترجمته في « الاحاطة » 4 / 422 — 423 .

كان عندي سحر الكلام حراما فاتاني نظامكم فاجازه
أعربت حين اعربت عن معال في اتصال الكمال اضحت مجازه
حسنها يقتضي لها طول مدحي وقصوري قد اقتضى ايجازه
اخجلتنا ـ جميعنا ـ حين جاءت منكم تستجيز منا الاجازه
فاجبنا لما اردت وللمقـ ـول في القول ـ من حياء ـ لجازه
يابا الفضل ثم يا واصل الغا ية بل حاز خصلها ثم جازه:
انني قد انجزت وعدك فيما شئت لما كلفتني آنجازه
فارو عني ما صح عندكم انـ ـي لي فيه رواية مستجازه
وباي الأنواع احمله : مقـ ـروه ، أو مسموعه ، او مجازه
(48.ب) ثم ما قال أو يقول لساني حين ينحو تقصيده وارتجازه
ولتقل ما تشاء في ذاك لكن حسب الشرط في كتاب الوجازه
كاتب الطرس يوسف بن علي وفي الانصار بيته ذا احتجازه
قالها عام ستة وثمانيـ ـن وست من المئين مجازه
وبشعبان منه كان كتابي قائلا : قد اجزت فيمن اجازه
طالبا حين مال بي حمل جهلي ان تمنوا ـ من سمحكم ـ برجازه
ونطيل الصلاة ـ دابا ـ على خيـ ـر البرايا ولا نجيز الوجازه
وعلى ءاله ، رجاء بها من كل وعد من النجاح نجازه

* * *

وكتب ـ في ذلك ـ الأستاذ المقرىء ، الأديب ، النحوي البارع ، ابو بكر محمد بن عبيدة الأنصاري ، الاشبيلي ، نزيل سبتة (189) ، ونقلتها من خطه رحمه الله :

ايها المبتغي الاجازة حدث عن اخيكم محمد بالاجازه
بابي بكر الكناية اذ قد يبتغيها المجاز ممن اجازه
وله في عبيدة نسب ان ذكر ابن ، وآن عراه وجازه
ملجئي الانصار يعزى انتسابا والذي قاله بحكم الوجازه

(189) ترجمته في « بغية الوعاة » ص 72 .

شيخه في القرءان شيخ جليـــل هو اسنى شيوخه المستجـــازه
عن علي بن جابر وهـــو الديـــــ ـــباج فاسمع من مؤثر ايجـــازه
وله في ايمة النحـــو شيـــخ لم يفارقه منذ جـــاز مجـــازه
فخر حمص ، ابو الربيـــع ابـــوه منتهى الحبر ان يكون مجـــازه
فليجـــد محمـــد بـــن علـــي عـــن مجـــل مبادر انجـــازه
اي نوع من الاجـــازة يبغـــي بعد شرط المعروف فيما استجازه
يابا الفضل : شكركم لي قريـــن مدة العمر لا اغـــب نجـــازه
خط هذا المكتوب في رجب في عشره اللائي ابرزت اعجـــازه

ذاك من عام ستـــة وثمانيـــــ ـــن توالت فليس فيها حجـــازه
وميات ست بها ابـــرز اللـــــ ـــه تعالى لخلقـــه اعجـــازه

وقد كتب في هذا الاستدعاء غير هؤلاء من اصحابنا ممن لم اجـــده مقيدا عندي ، فمن وقعت اليه فليلحقها ان خطر له .

* * *

(١٠49) قلت : ثم وقع الي بعد : ما كتب به ـ في ذلك ـ شيخنا الأديب الشهير ، شيخ الأدباء ، وامام الشعراء البارع الفارع ، ابو الحكـــم ملك بن عبد الرحمن بن المرحل (190) ، قال على لسان شيخنـــا امـــام النحاة ، وصدر العلماء السراة ، ابي الحسين بن ابـــي الربيـــع (191) رحمهما الله ، وهو لي منه مناولة واجازة ، ان لم يكن سماعا :

اكرم الله مستجيـــزا اتانـــا منه شعر سامي السماك وجـــازه
صدرت عنه قطعة سحرتنـــا اي سحر احلـــه واستجـــازه
اطلعت سبعة كمثل الـــدراري حقرت عند رؤيـــة ارجـــازه
يا ابا الفضل يا فتى ءال تجـــا ن عنينا بما طلبـــت نجـــازه
ان تكن توثر الاجازة فاقبـــل عن عبيد الالاه هذي الاجـــازه

(190) ترجمته في « الاحاطـة » 3 / 302 ـ 324 .
(191) ترجمته في « بغيـة الوعـاة » ص 319 .

هو ينمي الى قريش ويكنـــــى
جده بالربيع ، فاغد مجـــــازه
وارو عنـــه ما قالــــه ورواه
فالكلام المنظوم فيـــه وجـــازه
وعلى الشرط فى حقيقـة نقـــل
اننا لا نجيـز فيـــه مجـــازه
قاله عـــام ستـــة وثمانيـــــ
ـــن وست من المئات مجـــازه
احمد الله ثم اهدي سلامــــــي
لرسول بـــه أعـــز حجـــازه

* * *

وقال ـ ايضا ـ مجيزا ودخل فى المناولة :

ما راينـــا كطالـــب للاجـــازه
بروى ارى الـورى اعجــــازه
واصل غاية المـدى بجـــواد
احرز الخصل فى الجياد المجازه
هو يدعى محمدا وأبا الفضـــــ
ـــل لفضل لا يرتضى ايجـــازه
واذا ما انتمى الى ءال تجـــــا
ن ، فنجم سامي السهى ثم جازه
جاءنا شعره محلـــى بحلــــي
بالغ من صـــدوره أعجــــازه
سبعة كالنجوم تهدي الى النظـــ
ـــم ابتداء من قائل أو اجـــازه
قل له : أيها البليــغ سمعنـــــا
فاسمع الوعد ثم خذ انجــــازه
فاخوكم يجيزكم عن شيـــــوخ
حاسنوا الشرق : شامه وحجازه
مثل قاضي الجماعة ابن بقـــــي
عن أبيـــه وجـــده باجـــازه
(49.ب) وعن ابن الدباج وابن الشلوبيـ
ـــن ، اجلزاه قبل خطب الاجازه
وعن ابن الفحام شيخ جليـــــل
علم الناس نسكه وانحجــــازه
فارو عنه ، عنهم وان شئت أيضا
فارو اشعـــاره وزد أرجـــازه
انه ناظـــم اسن وقـــد ســـ
ـــن من النظم كنهه ومجـــازه
مالك ابن المرحل اختط هـــذا
وهو اولى ان يستجيز مجـــازه
قاله عـــام ستـــة وثمانيـــــ
ـــن وست من المئات مجـــازه
وبحمد الالاه فى كـــل حـــال
وبمدح الرسول نرجو الاجـــازه

* * *

وما كتب به شيخنا الأديب ، الفرضي ، البليغ ، المتقن ، المحقق ، الفاضل ، ابو اسحاق ابراهيم بن ابي بكر التلمساني (192) ، وقد تناولته منه ان لم اكن سمعته :

انا سكيت حلبة قد اجابوا | فاجازوا ما استوهبوا من اجازه
لسري دعا لذلك نظما | فاجابوا جوابه بوجازه
ان تنوسيت او نسيت فاهل | لقصوري عما انتحوا انجازه
مظهر العجز عن اجازة ندب | هو في النظم مظهر اعجازه
واصل في العلوم غاية فخر | حاز فيه مدى السماك وجازه
اطلعت منه ((تونس)) بدر علم | حاجزا عن مناظر احجازه
وعلى ذاك قد اجزت ابا الفضـ | ـل اخا ((تجين)) الرضا ما استجازه
فتوليت منه ما كنت اولى | أتولى احتجاته واحتجازه
فليحدث محمد بن علي | بعد ، عني على الشروط المجازه
بالذي قد رويت او فيه روا | ت قريض النظام او ارجازه
قائلا : كيف شاء عني فاهل | للذي اختار قائلا واجازه
قاله ابراهيم بن أبي بكـ | ـر بن عبد الله المري ايجازه
بتلمسان مولد وبالانصا | ر انتساب له فحقق مجازه
وبشعبان ستة وثمانيـ | ـن وست من المئين مجازه
بعد حمد الالاه ثم على الها | دي صلاة بها اوفى مجازه

* * *

وما كتب به صاحبنا الأديب ، الكاتب البارع ، ذو الخط الرائع ، والفضل الذائع ، المتقن ، المتفنن ، ابو عبد الله محمد بن عمر بن الدراج (193) ، وناولنيه ان لم يكن انشدنيه :

---

(192) ترجمته في ((الاحاطة)) 1 / 326 – 329 .

(193) ترجمته عند الصفدي في ((الوافي بالوفيات)) : الطبعة الثانية : 2 / 141 ، باسم محمد بن احمد بن عمر ، مع برنامج الوادي اشي ص 85 من نسخة منه مرقونة .

حسن در نظمتموه استجـــــازه   قد احل استرقاقنا واستجـــازه
(50.أ) وبه عدتم ـ امتنانا ـ علينا   بصـــلات وعائـــد وآجـــازه
وسالتم ـ بفضلكم ـ ان تجازوا   فلتجازوا بمثلهـا من اجـــازه
ان ترووا لنا ارض جـدب   من سما علمكم ترجت اجـــازه
وعلينا جـواب ذالك وجوبــــا   اذ حكمتم له بحكـم الاجـــازه
وابتدأتم بـه ، سراوة نـــفس   فليكن منكم السماح اجـــازه
واعرفوني : اخا اعتراف بضعف   يعتري شعره ويغشى ارتجـــازه
وقوافي اجازتـــي بالتـــزام   هي ـ فيما ارى ـ كذات الاجازه
فلك الفضل يابا الفضل حقـــا   حزت فيه حقيقـة لا مجـــازه
تاج ((تجان)) واصل الأمد الأفـــ   ـــصى الذي لم يصل مجار مجازه
ابن نور الدين العلـــي علـــي   من علا مرقب العلا واجـــازه
قد اجزنا ـ رعيا لكم ـ ما روينـا   واخذنا عن الشيوخ مجـــازه
واختصصنا فيه بنظم ونثـــر   مطلقا : ذا اطالـة او وجـــازه
وعلى شرط من اباح ـ الأنا ـ الاطـ   ـــلاق فيها ـ ترخصا ـ واجازه
قال هـــذا وخطـــه بيميــــن   لأمين يومي لقصـدي انتجـــازه
راجيا فضل ربه فيه جـــازا   ه عليـه بفضلـــه واجـــازه :
مغربي بسبتة قصده المشـــــ   ـــرق ينتاب شاما وحجـــازه
كلمـــا شد للترحـــل عزمـــا   منه حلت يد الخطـوب حجـازه
المسمـــى محمدا ، وابــــوه   عمر بن الدراج نال احتجـــازه
فى قريب من الزمان ويســــر   لا بعسر يحتاج فيه احتجـــازه
وبتاريـــخ ستـــة وثمـانيـــ   ـــن وست من المئيـن مجـازه
بعد عشرين ليلة قد خلت مــن   رجب فيه كان كتب الاجـــازه
ولمولاي حمد عبـــد لمولـــى   نال منه على الصراط الاجـــازه
وصـلاة على رســول اتانـــا   بكتـاب منـــه ارى اعجـــازه
وسـلام عليكـــم من محـــب   حل نهج الوداد فيكم وحـــازه
صحـــت من خطـــه)) .

توضيحـــــــات :

1 ـ الاختصارات التي استخدمت فى التعاليق هـــي :

ط. ف. : طبـــع فـــاس

خ. ع. د. : قسم حرف الدال من الخزانة العامة بالرباط .

خ. ع. ك. : قسم حرف الكاف من نفس الخزانـــة .

خ. ع. ح. : قسم حرف الحاء من نفس الخزانة .

خ. م. : الخزانـــة الملكيـــــة .

خ. م. ز. : قسم المجموعة الزيدانية من نفس الخزانة .

2 ـ المصادر والمراجع تذكر وضعيتها عند اول اشارة ولا يتكرر ذلك فى الاحالات التاليـــة .

الربـــاط محمد المنونـــي

كتاب الإحاطة

لابن الخطيب

-5-

محمد ابن تاويت

بعد تعرضنا لما وقع فى الجزءين الاول والثاني ، من تصحيف وتحريف ، نتناول الجزء الثالث ، سائرين معه حسب صفحاته هكذا :

الصفحة 12 جاءت هذه الكلمات « أفديت » « واخذ » « صبا » « ابلغي » فى ابيات لابي القاسم العزفي ، الاولى بضم الهمزة ، والصواب فتحها والثانية صوابها « واحدى » من حدا يحدو ، والثالثة صوابها « صيبا » والرابعة بهمزة الوصل ، لا القطع ، ليتزن بذلك الشطر الذي ينتهي عند كلمة « عن » . ولا تدوير فى البيت . ثم ينبغي ضبط كلمة « وليت » فى بيت أخير ، بفتح الواو وتخفيف اللام ، لا بالضم فالشدة .

الصفحة 13 وردت الكلمات الآتية فى قصيدة للعزفي المذكور ، هكذا : « لين » بالبيت الثالث ، بتشديد الياء ، والصواب تسكينها بلا تشديد ، « مثبتا » فى البيت الرابع ، ولا يستقيم به وزن ولا معنى ، « رقت » فى البيت السادس ، بضم الراء ، والصواب فتحها وتشديد ما بعدها ، « تمزجنها » فى السابع ، بتشديد النون ، والصواب تخفيفها

« فم » جاءت اول المصراع الثاني من الثامن ومكانها انما هو آخر المصراع الاول منه ، وبعدها « لكن » بالتشديد ، والصواب التخفيف « مطالعها » بفتح العين ، والصواب ضمها وفى البيت العاشر « رفت » بالتخفيف والصواب التشديد ليتأتى بذلك الوزن «خضر» فى البيت الحادي عشر،بفتح الخاء وكسر الضاد ، والصواب ، الضم فالسكون ، « سرى » فى الثاني عشر ، والصواب « يسرى » مضارعا . ثم الصواب بعده « مؤرخ » بالهمزة على الواو والبيت الرابع عشر ، ينتهي المصراع الاول منه ، بفعل « بادرت» وفى السادس عشر « حفته » بالتشديد والصواب التخفيف ، وفى السابع عشر « ردانات » بكسر الراء ، والصواب فتحها،مصدر رد،ثم همز أنات ، جمع انة ، فهما كلمتان . وبعده ياتي بيت هكذ :

ان جس مثلثه بان بغنـــــــة   فى اليم منه ثقيلة النغمات

ولا يستقيم لمصراعه الاول وزن ولا معنى ، وزاد الطين بلة ، تسكين الغين بغنة ، والثاني ان استقام وزنه فلا يتضـــح لـــه معنـــى لائق بـــــه . وفى آخر البيت التالي وردت « للقينات » بكسر القاف ، والصواب فتحها.

الصفحة 14 البيت الثاني فيها مدور ، ثم جاء البيت الثالث مـــن القصيدة الميلادية هكذا :

محل بها فى الحلال التي ضحى   اصبح القوم فيها حلـــولا

والصواب انتهاء المصراع الاول عند « التي » ، وفى السابع ورد «بالقضب» مضموم الضاد ، والصواب تسكينها . وفى البيت التاسع ورد « تاني » والصواب « نأى » بمعنى بعد ، فعلا .

الصفحة 15 ينبغي تشديد الميم من « أملوا » فى أول بيـــت ورد فيها ، وفى البيت الخامس ، شكلت كلمة « غر » بالضم والصواب الكسر وفى أول المصراع الثاني من التاسع ، ورد « ليظهر » والصواب « ليظفر » بالفاء ، ثم جاء البيتان الثاني عشر والثالث عشر هكذا :

نبى كريم سما رفعة وقـــــــــدرا جليلا ومجدا اصيلا

وكان لامته لأحمة رحمة بفضـــــــل الشفاعة فيهم كفيلا

ولا تدوير فى البيتين ، فالمصراع الاول من الاول ينتهي عند « رفعة » ومن الثاني ينتهي عند « رحمة » وفى نهاية الرابع عشر شكلـــت كلمـــة « وصولا » بضم الواو ، والصواب فتحها ، ثم جاء البيت السابـــع عشر هكـــــــــذا :

له معجزات اذا عددت تفـــــــوت النهى وتكل العقولا

ولا تدوير فى البيت ، فحق المصراع الاول انهاؤه بفعل « عددت » وكذلك جاء البيت التاسع عشر هكذا :

وقس البيان وسحبانه يرى ذهنه فى مداه كليـــلا

والصواب انتهاء المصراع الاول عند « سحبانه » ثم ورد البيت العشرون والحادي والعشرون هكذا :

تخيره الله فى خلقـــه فـــــــكان الخطير لديه المثيـــلا

ولم ير فى الناس ندا لـــه ولا فى الخلايق منه بديـــــلا

فالاول لا تدوير فيه ، بل ينتهي المصراع الاول منه عند « خلقـــه » وفى الثاني عند « له » ويفتح حرف المضارعة من « ير » على أن الفاعل هو الله الوارد ذكره فى الاول ، والا فيجب رفع « ند » نائب فاعل « ير » لا نصبه حينئذ والتقدير الاول أوفى وأيسر لما قبله وبعده ، من البيتين .

الصفحة 16 ورد أولها بيتان هكــــذا :

وكان ظلام وظلم بها على الفـــــور لما اتـــى قـــد ازيـــــلا

وكانت كثار لظي فتنــة فعــــــادت من الامن ظلا ظليــــــلا

والبيتان لا تدوير فيهما ، فالمصراع الاول منهما ينتهي عند « بهاء » فى الاول ، وعند « فتنة » فى الثاني ، وكذلك ورد البيت الرابع هكذا :

وأيامه غرر قد بدت بوجـــه الدنا والليالـــي حجـــولا

والصواب فيه انتهاء المصراع الاول عند « بدت » وفي البيت السادس ، شكل « يجر » بضم ففتح ، والصواب العكس ، وجاء البيت التاسع هكذا :

هو المستعين أبو سالم مليك　　ترفع قدرا جليلا

والصواب انتهاء المصراع الاول عند « سالم » . وفي البيت الثاني عشر شكل « عطاء » بالضم والصواب الفتح . وجاء الثالث عشر هكذا :

حلاه الوقار ولاقيه اذا　　ارتاح للجود يلفي عجولا

والصواب في المصراع الثاني ابتداؤه « باذ » ويبقى المصراع الاول على كساحة وغموضه ، و « حلاه » في أوله بالتخفيف لا بالتشديد وجاءت الابيات الثلاثة هكذا :

وجاء لطاعته اهلها سراعا　　يرومون فيها الدخولا

فنبه قدر المولي بها　　واكسف فيها المعادي خمولا

ومهد بالامن افكارها وامن　　بالعدل فيها السبيلا

فالمصراع الاول ينتهي عند « اهلها » ويجعل « سراعا » بكسر السين ، لا ضمها ، وبتخفيف الراء ، لا تشديدها ، وفي أول المصراع الاول من البيت الثاني شكل « فنبه » بضم الباء مع التخفيف ، ولا يستقيم الوزن بذلك فهي بالفتح والتشديد كما شكل « أكسف » أول الثاني بضم الهمزة وفتح السين ، ولا وجه لهذا الفتح مع الضم قبله فهو بالفتح كذلك ، ثم صواب المصراع الاول من الاخير ، انهاؤه عند « أفكارها » .

الصفحة 17 ورد بيتان هكذا :

وراعى لمن جاءه داخلا حماهمن القاصدين الدخيلا

فكان بأفعاله قصده الى　　منهج الفضل قصدا جميلا

والصواب في المصراعين الاولين من البيتين ، انتهاء الاول منهما عند « داخلا » وانتهاء الثاني منهما عند « قصده » .

الصفحة 18 ورد بيت هكذا :

ولا ادري لنفسي من كمال سوى انى لعهدك غير ناس

والصواب انتهاء مصرعه الاول عند « كمال » . ثم جاء مصراع لآخر هكذا :

بعثت بما فيه رايحة الخمر

والصواب فيه « بماء » ، لا بما ، وفى المصراع الاول يضبط « ماء » بالضم لا بالكسر ، ثم جاء آخر « فقل عليه الشكر اذ قل سكرنا » وشكل « فقل » فعل امر من القول ، والصواب انه فعل ماض من القلة ، فهو بفتح القاف ، وتشديد اللام المفتوحة كذلك .

الصفحة 19 ورد أولها مصراع هكذا « هوى اكابد منه حرة الكبر » وعلق على « حرة » بانه فى النفح « حرقة » وهذا هو الصواب . ثم جاء بيت هكذا :

حللت عقد سلوى فى فؤادي اذ حللت منه محل الروح فى جسد
والصواب فيه :

حللت عقد سلوى عن فؤادي اذ حللت منه محل الروح من جسدي

وقد علق المحقق نفسه بانه فى النفح « عن » وهذا هو الاوفق والابلغ فى البيت . وفى البيت بعده ، شكل « اضماري » بفتح همزته والصواب كسرها ، وجاء بعد ذلك مصراع هكذا :

« لا تحسبن فؤادي عنك مصطبر » والصواب فيه « مصطبرا » على النصب ، لا الرفع ، وجاء بيت هكذا

شكوته علتي منه فقال لأمر للطبيب فما برء الضنا بيدي
والصواب فيه :
شكوته علتي منه فقال الا سر للطبيب فما برء الضنا بيدي

الصفحة 20 تصحف السطر التاسع ، وتصحيح ما تصحف فيه هذا: « كانت لجدهم يحيى رياسة » ولا محل للواو قبل كانت .

الصفحة 22 ورد بيت هكذا :

ولو ان كل العالمين تألفوا على مدحه لم يبلغوا بعض واجب

والصواب انتهاء المصراع الاول عند « تألفوا » وعلق بأنه فى النفح « تسابقوا على » وليس هذا فى النسخة التي بيدنا .

الصفحة 23 ورد مصراع هكذا :

ولا تذيقني حر الجحيم غدا

وصوابه : « ولا تذيقنني » ،،، بنون التوكيد الثقيلة ، فيستقيم الوزن والنحو معا ، والفعل فى حيز النهي .

الصفحة 27 يجب اسقاط الواو قبل «جمل» فى الصفحة الرابعة،ثم جاء بيتان هكذا :

خل دمع العين ينهمل بأن من تهواه وارتحل

اى دمع صانه كلف فهو يوم البين ينهمل

ولعل المصراع الثاني من الاول : « بأن من تهواه وقد رحلوا » والا فيجب قطع همزة « ارتحلوا » للضرورة وهو جائز كما فى « الكتاب »

الصفحة 29 ورد بيت هكذا :

أيا ملك الغر التي سيب جودها يفيض كفيض المزن بالصيب القطر

وصوابه :

أناملك الغر التي سيب جودها يفيض كفيض المزن بالصيب القطر

ويضبط « سيب » بفتح السين ، وتشكل الطاء فى « القطر » بالتسكين ، لا الكسر ، الذي شكلت به الكلمتان فى حرفيهما المذكورين ، وتلاه بيت هكذا :

أتتني منها تحفة مثل عدها اذا انتضيت كانت كمرهفة السمر

والصواب انتهاء المصراع الاول عند « عدها » ، ثم الصواب فى كلمة

« الصفر » بالبيت التالي ، أنه بضم الصاد لا كسرها ، والصواب في البيت الاخيـــــر منهـــا « ومثلـــت » .

ثم جاء بيت هكذا من ثلاثة :

دعى ذكر روض زاره سقى شربه صباح ضحى طير طما عصايـــــب

وعلق على « زاره » بأنه في النفح « زانه » وهذا هو الصواب فيه ، ثم علق على « طير طما » بأنه في النفح « طي ظباء » وهذا هو الصواب ، ولا وجه لاثبات غيره ، والابيات كلماتها تشير الى ترتيب حروف الصحــــاح واردة اوائلهــــــــا .

ثم جاءت ابيات ثلاثة اواخر الصفحة ، محرفة في ضبطها وحرفها ، صححناهــــا كمـــا يلـــي :

ديار خطها مجد قديــــــم وشاد بناءها شرف صميـــم

(بناءها بثبوت الهمـــزة)

وحل جنابها الاعلـى عـــلاء يقصر عنه رضوى أو شميـــم

(بتشديد صاد يقصر للوزن وباثبات همزة « علاء »)

سقى نجدا بها وهضاب نجد عهاد ثرة وحيـــا تميــــم

(بضم عهاد ، لا عماد ، وثرة بالضم وليس مضافا اليه)

الصفحة 30 جاء بيت مصراعه الاول هكذا

اهـــم بملتقـــى الـــوادي نجـــد

وصوابه : اهيم بملتقـــى الـــوادي بنجـــد

ثم جـــاء مصراع ثان لآخـــر هكـــذا :

وانصـــار للنبـــــي لــــه اروم

وصوابه : وانصـــار النبـــــي لــــه اروم

وفي التالي شكل « عدلا » بضم الدال ، بدل التسكين ، ثم جاء مصراع آخر: ويبدو في ندى الملك بدرا وشكل « ندى » بفتح الدال ، والصـــواب كسرها وتشديد الياء ، بمعنى النـــادي ، ثم آخـــر هكـــذا :

يضي بنوره الليل البهيم   والصواب « يضيء » بالهمز ، وتشكيل الليل بالضم ، لا الفتح ، على الفاعلية ، وبعده بيت غيره هكذا :

وتلقاه للعفاة لـه ابتسام   ومنه للعدى أخذ لليم

وصوابه « العفاة » وقد علق على « لليم » بأنه في الاسكوريال « لليم » والتصويب ارجح ، كما قال ، ولم ندرك هذه الأرجحية ، كما لم يتضح لنا غيرها ، ولعلها « اليم » ، ثم جاء بعد ذلك آخر هكذا :

وآمالي املت لمليك حتى   وردن على نداك وهن هيم

فالمصراع الاول لا يستقيم وزنا ولا يبدو له معنى ، وكذلك هذا :

فللظما ورودك خير ورد   فلعل صوابه :
فللظمآن وردك خير ورد

الصفحة 31 ورد فيها :

سوى ثمر للفؤاد ذهبت عنه   ولا يستقيم وزنا الا بنحو « الفؤاد » ولكنه لا معنى يتضح به ، وفي آخر الابيات :

تعرف الروض جادته الفيوم   ولا يستقيم « تعرف الروض » ولعله : كعرف الروض ....

الصفحة 32 جاء أولها « بعيد القرين ، آخذا في الادب ، حفظة للاناشيد » بضم بعيد ثم فتح وآخذا ، والصواب الفتح ثم ضبط « حفظة » بضم الحاء . وورد فيها بيت هكذا :

سلام كما ارتاح المشوق مبشرا   برؤيا من يهواه من دون ما وعد

وصوابه هكذا :   برؤية من يهواه ،،،   ،،،

ثم آخر هكذا :

ومن اطلع البدر التمام جبينها يرى   تحت ليل من دجا الشعر مسود

والصواب انتهاء المصراع الاول عند « جبينها » وتشكيل « أطلع » بفتح اللام ، لا ضمها ، وورد في بيت آخر :

فلله عينا من رأى بدر أسعد ونون « عينا » مع أنه مثنى عيـــن ،
ثم آخر الصفحة مصراع هكذا : وراحت فراح الـــروح اثـــر رحلهـــا
فحرف « رحيلها « برحلها ، ولا يستقيم وزنا .

الصفحة 33 جاء أولا :

وقد كان ليل الوصل صبحا بها يبد والصواب « يبدي » بالياء اخيرا ، لا بحذفها ، وضم الدال وبذلك يخالف حركة الروى التي هي الكسرة فى القصيدة الوارد فيها هذا البيت . ثم جاء بيت آخر هكذا :

وهل ترعى ذمتي ومودتي كما أنا ارعاها على القرب والبعد

والصواب فى المصراع الثاني ابتداؤه « بكما » ، ويبقى الاول على نقصان فيه . ولعله هكذا : وهل هي ترعى ذمتي ومودتي .
أو يؤكد الفعل بالثقيلة هكذا : وهل ترعيـــن . . .

الصفحـــة 37 ورد :

الا يا حمام الأيك ساعدني بالبكا ولا يستقيم ، وصوابه : « ساعدي » .
ويليه بيت هكـــذا :

على اني لو استطعت الفدا فديته بأنفس آل من طريف وتالد

ولا يستقيم وزنه الا هكذا :

على أنني لو استطعت فديته بأنفس مالي من طريف وتالـــد

وبعده بيت آخر هكذا :

(محمد ما للنعمى لموتك غضة توقف ولا ماء الحياة ببـــارد)

ولا يستقيم وزنا ومعنى ، ولعله هكذا :

(محمد ما النعمى لموتك غضة تروق ولا ماء الحياة بارد)

وفى النفس شيء من « غضة » . وبعد ذلك هذا المصراع :
« ليس الذي تحت التراب بباعد » ولعه « وليس الذي تحت الترابباعد»
او « فليس » ،،، ثم بيت هكذا :

لتبك العلوم بعدك شجوها ويقفر لها ربع العلا والمعاهـــد

ولا يستقيم الا بنحو : « لتبك علوم الدين بعدك شجوها » ثم يجـــزم المضارع اول المصراع الثاني ، عطفا على المجزوم بلام الامر .

الصفحة 38 جـــاء بيـــت هكـــذا :

عليك سلام الله ما دامت الصبا بغصن فى الأراكة مايـــد

ولا يستقيم مصراعه الثاني الا بنحو : (تهب بغصن فى الأراكة مايد)أو(تروح)

الصفحة 41 جاء مصراع هكذا :

« عمر امسيت ممن ضيعه » بتسكين ميم عمر ، والصواب ضمها ليتزن ، ثم بيت هكـــذا :

يا صاحبي قفـــا المطايـــا واشفقا فالعبيـــد عبـــده

ولعــــل صوابـــه : « ثـــم اشفقـــا فالعبيـــد عبـــده »

الصفحة 43 جاء فى السطر 15 :

« ونالته نبوءة لحق بسببها بالمشرق » والصواب « ونالته نبوة »،» (بفتح النـــون وتسكيـــن الـــــواو)

الصفحة 45 جاء بالسطر الاخير :

« اذا حدث أحدكم بلا كذب » والصواب « اذا حدث أحدكم فلا يكذب » .

الصفحة 46 ورد مصراع هكذا :

« بخمرة خد بالمحاسن معلم » وصوابه : بحمرة »،» (بالحاء لا بالخـــاء وقبله « معلما » بفتح اللام) ، ثم جاء بيت هكذا :

فقال مولاي انا البخاري فمن المسلم فقلت له انت البخاري وانا مسلم

ولا يستقيم وزن مصراعيه ، ولعله كان حكاية نثرية اتت بعد الابيـــات ، فظنت من تمامها ، والا فهي بعيدة جدا عن وزنها ومختلفة فى حركة رويها.

الصفحة 47 جاء بيت هكـــذا :

هزت له أسمرا من خوط قامتها فما انثنى للصب الا وهو مقتول

وصوابه : « فما انثنى الصب الا وهو مقتول » ثم جاء بالبيت الثالث فعل « فصل » بالبناء للفاعل ، والصواب بناؤه للمفعول . ثم في البيت :

من اللواتي غذاهن النعيم فما يشقين اباؤها الصيد البهاليل

ورد البيت بتشديد « غذاهن » وفتح الصاد من « الصيد » والصواب تخفيف الاولى ، وكسر الصاد من الثانية وفي البيت التالي ضبط الصاد من « حصر » بالضم والصواب تسكينها ، وبعد ذلك جاء بيت هكذا :

حلت بمنعقد الزوراء زارة شوسا غدارى فعقد الصبر محلول

والصواب : حلت بمنعقد الزوراء زائرة (الزوراء بالكسر لا بالفتح ، وزائرة بالهمزة وبالفتح على الحال ، لا الضم كما اثبت) ويتلوه آخر هكذا :

فعد عن ذكر ليلى ان ذكرها على التنائي لتعذيب وتعليل

والصواب فيه : فعد عن ذكر ليلى ان ذكركها

الصفحة 48 جاء بيت هكذا :

جفر حوافره معر قوايمه ضمر أياطله وللذيل عكثول

والصواب فيه اسقاط اللام من « للذيل » فيكون « والذيل عثكول » يتلو بيت هكذا :

اذا توجه أصغى وهو ملتفت ساعر اعتقا فيهن تاليل

والمصراع الثاني منه لا يستقيم وزنه ولا يبدو معناه والاقرب الى رسمه هو : مسامعا عتقت فيهن تاليل ، وكذلك البيت الذي يليه :

وان تعارض به هوجا هاج له جرىء يرى البرق عنه وهو مخذول

ولعله : وان تعارض به هوجا تهيج له جرى يرى البرق عنه وهو مخذول (بضم هاء هوج وتسكين واوها ، لا بالفتح فيهما ، وجرى ، فعل ماض ، وليس صفة مشبهة من الجراة ، ثم جاء بيت هكذا :

يحمي حوزة الاسلام ملتقيا كتائبا غص منها العرض والطول

وصوابه : يحمي به حوزة الاسلام ملتقيـــا ، وفعل « غـــص » بالبنـــاء للمعلوم ، لا للمجهول ، وبعده آخر هكـــذا :

في رماقط ضرب الموت الزوام بـــه والصواب فيه :

« في مأزق ضرب الموت الزؤام به » ، وبعده بيت هكـــذا :

هيجا يشرف فيها المشرفي على هام العدو ويصحب النقع تضليل

والصواب : هيجاء يشرف فيها المشرفي على (والمشرفي بفتح الميم لا بضمها، ثم يتكسر المصراع الثاني بفعل « يصخب » ولعله « ويعلو ») ، ثم آخر :

واذا قضيت غزاة فالتف عملا (ولعله : واذ قضيت غـــزاه ،،، او « اذا قضيت ،،، بدون واو قبلها » ويلاحظ انه عدى التفت الى المفعول ، مما يؤكد ما استظهرناه سلفا . وفي البيت التالي ضبط « خضارة » بفتح الخاء والصواب ضمها . ثم جاء بيت هكذا :

واصل بسر يابن اندلس والطـــــرف ادهم بالاشطان مغلول
والصواب فيه : « واصل بسر يا ابن اندلس » وهنا ينتهي المصراع الاول، على ان تجعل همزة ابن قطعية لضرورة الوزن ، ثم جاء آخر :

يلاطم الريح منه ابيض نفق له من السحب المزبد اكليل

وصوابــــــه :

يلاطم الريح منه ابيض يقق له من السحب المربد اكليل

(يقق بفتح اوله وثانيه) ، ثم اتى بيت هكذا :

كانما هو في طخيا لجته أيم يعرو اديم السيل شمليـــل

ولعل « طخيا » مصحف عن « طغيان » فيكون المصراع بذلك هكـــذا : كانما هو في طغيان لجته ، فاذا الصواب انتهاء المصـــراع الاول عنـــد « لجته » ويبقى التصحيف في كلمة « يعرو » ولعله بالباء ، ثـــم جـــاء بيـــت هكـــــذا :

وكبر الناس اعلاه الرنيم وكلهم طرفه بالشهد مكحـــول

ولا يستقيم له وزن ولا يبدو له معنى ، ثم الصواب « السهد » بالسين
وبعد ذلك جاء ببيت آخر كلمة « سبل » بضم الباء والصواب تسكينها .
وتلاه آخر هكذا :

على نجايب تتلوه اجنابها خيل بها الخير معقود ومعقول

والصواب ابتداء المصراع الثاني بكلمة « خيل » ويبقى آخر المصراع الاول على تصحيفه ولعل « أجنابها » محرفة عن « جنائبها » .

وقد شكلت كلمة « غرب » بضم الراء بدل تسكينها ، للوزن فى البيت الثاني والعشرين بالصفحة .

الصفحة 49 ورد اولها مصراع هكذا :

« يعفرون وجوها طالما سمت » وهو غير تام الوزن ولعله « سلمت » .
ثم جاء البيت السادس منها هكذا :

شدنا الى الشد قميات التي سكنت ابدانهن وافناهن تنقيل

ولعله : سرنا الى الشدقميات . . . (نسبة لشدقم علما على جمل)، ثم جاء:

الى الرسول تزجى كل تعلمة اجل من نجوة تزجى المراسيل

وصوابه : يعملة (مع تشديد تزجي) وبعده تصحف المصراع الثاني منه فاصلحناه هكذا : واورثت فيه توراة وانجيل ثم جاء فى تلوه « كل » بالفتح بدل ضمها وبعده « العلوى » بضم اللام ، بدلا من سكونها .
وبعد ذلك جاء بيت هكذا :

لقد تسامى وجبريل مصاميه الى مقام راخي فيه جبريل

ولعله « مصاحبه » ثم « تراخى » ، وفى البيت التالي لعله « عن كثب » بدل « من كثب » وبعده « ظاهر » ، ثم جاء مصراع هكذا :
وموثق فى حبال الغد مكبول (وصوابه ،،، الغدر ،،) وكذلك جاء آخر:

حتى انثنى العصب منهم وهو مغلول (وصوابه ،،، العضب ، بالضاد)
واخيرا أتى المصراع هكذا :

« أصم الوشج وخانتها العوامل » ولعل صوابه « صم الوشيج ،،،»
الصفحة 50 جاءت أبيات من القصيدة السابقة ، ضبط فى الاول منها

« البتر » بفتح الباء والصواب ضمها ، جمع أبتر ، وفى الثاني منها وجب تسهيل القران ؛ للوزن وتفتح الراء ، ثم جاء البيت الرابع والخامس والسادس هكـذا :

ونبع ماء فرات من أنامله كالعين ثرت فجا الهتان ماء النيل
رووا الخميس وهم زهاء سبع مي مع الركاب فمشروب ومحمول
ربى عين بكف جاء يحملها قتاده وله شكوى وتعويل

والصواب فى الاول انتهاء مصراعه الاول عند « انامله » ولا يتأتى الثاني الا بنحو : « كالعين ثرت فجا الهتان والتيل » وتسقط الواو من « رووا » أول البيت الثاني . وينتهي المصراع الاول منه عند « مي » يريد مى ، جمع مائة ، كما قال الشاعر « وحاتم الطائي وهاب المىء » واضافه السبع اليها شاذ على قياسه من حيث القاعدة العامة فى اضافة الثلاثة حتى العشرة الى الجمع . وصواب الاخير « ورد » مصدر رد ، وقتادة بالرفع فاعل ، وليس بالنصب ، كما اثبت . وتصحف أول التاسع « أشبع » بفعل « اشيع » بالياء مبنيا للمجهول ، مع انه للمعلوم ، وشكل « الكثر » بالفتح، مرتين ؛ وهو بالضم وكذلك « قل » بينهما ، فهو بالضم ، لا بالفتح ، ثم جاء بيت فى منتهى التصحيف بمصراعه الاول :

وفى جراب لي هن عجايب كم يمتار منه فمبدول ومأكول

(ولعل وفى جراب تولى من ، ثم يمتار بضم ياء المضارعة للمجهول) وبعده :

وفى ارتواء لي ذر بزمزم ما يكفي تبدن منه وهو مهزول

وصوابه :

وفى ارتواء أبي ذر بزمزم ما يكفي تبدن منه وهو مهزول

ثم جاء :

قد انقضت معجزات الرسل منذ قضوا نحبا واعجم منه ذلك الجيل

والمصراع الاول منه ينتهي عند « قضوا » .

الصفحة 51 ورد بيت هكذا :

به يعرف القرءان والسنة التي هما   اصل دين الله ذو انت عابـــــده

والصواب انتهاء المصراع الاول عند « التي » وبعده مباشرة ، ضبــط « علي » و « مشيد » بالكسر في قوله :

وناهيك من علم علي مشيــد   مبانيه اغزز بالذي هو شايده

والصواب فيهما الرفع ، على الجملة الابتدائية ، الواقعة نعتــا لعلــم ، وبعده جـــاء مصراع هكذا :

« وساد عطا نجله وابن هرمز » ولا يستقيم وزنه الا بهمزها وهو في سياق الكلام على ابي الاسود ، وكان لهذا من تلاميذه نصر بن عاصم وابن هرمز عبد الرحمن ، ويحيى بن يعمر وميمون الاقرن ، وجميع هؤلاء ، الا الاول ، ذكروا بالبيت ، اما عطاء ، فهو غلط اللهم الا ان يكون عاصم ، ذكر خطأ ، عصام ، وبه يستقيم هكذا « وساد عصاما نجله وابن هرمز » كما انه يتكرر بنصر في المصراع الثاني « ويحيى ونصر ثم ميمون ماهـــده » ؛ وفي اول البيت الرابع عشر تحرف « بأذكى » بالياء محل الباء وبعده : « وما ان يروى بل جميع علومه » وعلـــق عليـــه بأنـــه في الزيتونـــة « وما ان يرى مثل تجمع علومه » ولا يستقيـــم وزن لهمـــا الا بنحـــو « وما ان يرى مثل له في علومه » و « ان » بكسر الهمزة زائدة ، وليست بفتحها ، واخيرا يجب ان يضبط صؤم وقؤم ، بضم الهمزة .

الصفحة 52 ورد االولها مصراع هكذا :

« يقيم منه دهره في مثوبة » وعلـــق عليه بأنـــه في الزيتونـــة : « الدهر » ولا يستقيم وزنه في الحالتين ، نعم انه بتشديد الياء يستقيم وزن ما اثبت ، ويبقى الغموض يكتنفه ، وجاء أول السادس « عزوبا عـــن الدنيا » ولعله « عزوفا » بالفاء وفي المصراع الثاني من الثامن ، حـــق « كأن » التخفيف ، لا التشديد ليستقيم الوزن ، وفي الثاني عشر كذلك « النحو » بدل « للنحو » وفي الرابع عشر « وثابت » بالثاء لا التـــاء ، وفي أول الخامس عشر « قران » بدل « قرءان » اذ لا يستقيم بهذه وزن ، وفي الثامن عشر ، حق « الفرا » الفتح ، لا الكسر ، تضمينـــا للمثـــل « كل الصيد في جوف الفرا » .

الصفحة 53 تصحف في البيت الخامس « المبرد » « بالمبـــرد »
وفي الذي يليه ضبط « ضحكة » بكسر الضاد ، والصواب ضمها ، وجاء التاســع هكـــذا :

ولم يشتغل الا بنزر مسايل مـــن   الفقه وفي اوراقه هو راصـــــده

والصواب انتهاء المصراع الاول عند « مسايل » ثم يتكسر المصـــراع الثاني بالواو والواجب حذفها ، ثم جاء المصراع الثاني من الذي يليه هكذا:

« والهاك عن نيل المعالي ولا بده » بكسر آخره ، ولا يستقيم مـــع باقي القوافي ، وصواب « الهاك » الهاه ، بضمير الغيبة وان « ولا بـــده » تصحفت عن ولا يده بالياء . وبعده جاء بيت هكذا :

وما ذاق للآداب طعما ولم   يبت يعني بمنظوم ونثر يجاوده

وصواب المصراع الاول انهاؤه بفعل « يبت » ثم يضبط « يعنـــى » اول الثاني بالتشديد ، لا بالتخفيف ، كما اثبت ، وتلاه آخر هكذا :

فينكح ابكار المعاني ويبتغي لها   الكفو من لفظ بها هو عاقده

وصواب المصراع الاول انهاؤه بفعل « يبتغي » ثم « الكفو » بضم الكاف لا بفتحها . وجاء آخر الذي يليه « لا تحل معاقده » بفتح التاء وكسر الحاء وفتح الدال ، والصواب الضم فالفتح فاضم ، وبعده مصراع هكذا :

« فقلت اتيت ما انت أهـــل لفهمـــه » ولا يستقيـــم الا بنحـــو « فقلـــت له ما انـــت اهـــل لفهمـــه » وهـــو مناســـب لقولـــه : « وما انت الا غايض الفكر رائده » . وجاء بيت بعد ذلك هكذا :

وايهامك الجهال انك عالم   وانك فرد في الجود وزاهـــده

فان ضمير الخطاب فيه محرف عن ضمير الغيبة ، الذي ينساق مع مـــا تقدمه ، من البيتين : لعمرك ما ذو لحية وتسمت . . . .

الصفحة 54 جاء بالمصراع الاول من البيت الاول « مخذل » بسكون الخاء ، والصواب كسرها مع التشديد . ثم جاء في اول الثاني من البيت الثاني « فلم تشم » وعلق عليه بانه في الزيتونة « فلا تسافر » وكلاهما لا يستقيم ، ثم جاء الاول من الخامس هكذا : لهم أسوة فيها على لغد مضى « ولم يبد له معنى ولا استقام وزنا ، بتسكين الغين فيه ، وبعده بيت هكذا :

مضى بعده عنها الخليل فلم ينل كفافا ولم يعدم حسودا يناكده

والصواب انهاء المصراع الاول بفعل « ينل » وبعده مصراع هكذا :
« ولاقى أبا بشر سفيهها » وهو لا يستقيم وزنه وربما سقط منه « عليا » بعد « بشر » ، كما أن « تمالت » ربما تصحفت عن « تمادى » والابيات تشير الى ملاقاة الكسائي مع سيبويه ، وبعده جاء بيت هكذا :

أتى نحو هارون يناظر شيخه فنفحة حتى تبدت مناكده

فعلق على « هارون » بأنه هارون بن موسى وكان يهوديا من أهل البصرة مع ان المقصود هو الرشيد ولعل « فنفحة » فنفحه على غموضه في المعنى. ثم جاء آخر هكذا :

« وكاد علي عمرا اذا صار حاكما » وقد ما على كان عمر يكايده

وصوابه « اذ » لا « اذا » هكذا « وكاد علي عمرا اذ صار حاكما » ثم « قدما » بكسر القاف وليست كلمتين : « قد » و « ما » وفيما يليه ضبط « خمارها » بكسر الخاء ، والصواب ضمها ، ثم تلاه آخر هكذا : « ولابن رشيد بشرك للقلب رابده » ولا يستقيم له وزن ، خصوصا بفتح راء « بشرك » ولا معنى له ، وبعده بيت هكذا :

هما جرعا الى علي وقنبر افاويق سم لم تنجد اساوده

وعلق على افاويق بأنه في الزيتونة « اباريق » قال : والاولى أرجح ، ونحن نرى العكس ، ولا نجد تصحيحا للمصراع الاول المختل في تركيبه ووزنه، وبعده : « ابكي على عمرو ولا عمر مثله » والصواب ابكي ، بفتح البا‍ئ وتشديد الكاف ، ثم يثبت « ولا عمرو » وليس ولا عمر ، كما أثبت ، وفي المصراع الثاني من الذي يليه يجب ان يضبط « ولم تعلق بذام » بفتح اللام ، وتخفيف الميم من « ذام » لا تشديدها ، كما أثبت ، وفي البيت قبل الاخير ، يجب تسهيل « الآن » ليستقيم بذلك الوزن .

الصفحة 55 جاء أولها : وما زال منا أهل أندلس له برفع « أهل » والصواب نصبها على الاختصاص .

وجاء البيت الثامن من هذه الصفحة هكذا :

وسوف يلاقي من سعى فى جلوسهم عقبى ما اكنت عقايـــــده

ولا يتم المصراع الثاني الا بنحو « بآخر عقبـــى ما اكنـــت عقايـــده »
وجـــاء بيـــت آخـــر هكـــذا :

اقمنا بمصر عشرين حجة يشاهدنا ذو امرهـــم ونشاهـــــده

والصواب كما بالاسكوريال : « نحو عشرين » وينتهي المصراع الاول عند « حجة » ، ثم جاء البيت الخامس عشر هكذا :

مبيد العدا قتلا وقد عمر شرهم ومحيي الندى فضلا وقد رم هامده

والصواب فى المصراع الاول « وقد عم شرهـــم » . وفى اول السابـــع عشر ، تحرف « عمم » بعم .

الصفحة 56 ورد البيت الاول منها هكذا :

مؤرخة نحوية وامامة محدثـــــة جلـــت وصحـــت مســانـــــده

وصوابــــــه :

مؤرخـــه نحويـــه وامامـــــه محدثه جلت وصحت مســانــده

وتـــلاه آخـــر هكـــــذا :

جاه عظيم من ثقيف وانما بـــــه استوثقت منه العرى ومساعـــده

وصوابــــــه :

وجاه عظيم من ثقيـــف وانمـــــا به استوثقت منه العرى ومساعده

وجـــاء بيـــت آخـــر هكـــذا :

واني وان شطت بنا غربة النـــوى لشاكرك فى كل وقت وحامـــده

وصوابـــــه :

« لشاكره فى كل وقت وحامده »

وفى البيت بعده ضبط «يثنى» بسكون الثاء والصواب فتحها وتشديد النون وفى البيت الثامن ، ضبط « حسنها » بالنصب والصواب الرفـــع ، وفى الحادي عشر ، حرف « مفوفا » « بمفوقا » مع كسر الواو .

واخيرا كتـــب بيـــت هكـــذا :

لنقضي بها ما فات من طيب انسنا بها وننال الجمع بعد شتات

والصواب انتهاء المصراع الاول بأنسنا .

الصفحة 57 سقط من أول البيت الثالث حرف الجر فى « بمهجتي» فانكسر الوزن ، ثم جاء بيت هكذا :

فبلقطه برء الأخيـــذ ولحظـــــه   اخذ البرى فما يطيق براحـــــا

وصوابـــــه :

فبلفظه برء الأخيـــذ ولحظـــــه   اخذ البرىء فما يطيق براحـــــا

(اخذ البرىء بالاضافة لا فعلا ومفعـــولا بـــه)

وجاء بيت آخر الأبيات هكذا :

يا حسنها من ليلة لو أنها دامـــت   ومـــدت لتوصـــال جناحـــــا

والصواب انتهاء المصراع الاول عند « أنها » ، ولعل الثاني كان هكـــذا « دامت ومدت بالوصال جناحا » أو « للوصال جناحا »

وجاء بيت آخر من اخرى هكذا :

جمعت معاني الحسن فيك فقـــد   غدت قيد القلوب وفتنة الابصـــار

والصواب فيه :

جمعت معاني الحسن فيك فقد غدت قيد القلوب وفتنة الابصـار

الصفحة 58 ورد بيت هكـذا :

وزهدني فى جمعي المال انـه اذا ما انتهى عند الفتى فارق العمـرا

والصواب انتهاء المصراع الاول عند « أنه » والبيت الرابع ، كالخامس من ابيات أخرى ، مقيد القافية ، ولهذا يسكن « عجب » منها ، ولا يضم ، كما اثبت ، وجاء مصراع هكذا « وجدت بها برد النعيم وان » وصوابه « وانني » ثم جاء آخر هكذا « تسمى بمظلـوم وظلـم جفاؤه » ، وصوابـه « يسمى بمظلوم وظلم جفاؤه » وتلاه آخر ، ضبط فيه « الصبا » بفتـح الصاد ، والصواب كسرها هكذا : « الى ان دعاني للصبا فأجبته » .

الصفحـة 59 جـاء بيـت هكـذا :

وذو شفة لميا زينت بشامـة من المسكفىرشافها يذهب النسك

وصوابـه :

وذو شفة لمياء زينت بشامـة من المسك فىرشفاتها يذهبالنسك

(زينت بكسر الزاي ، لا بضمها وتشديد الياء المكسورة ، كما اثبت ، ولا يتـزن بـه البيـت) ، ثم جاء بيت بعد آخر هكذ :

تعل بمعسـول كأن رضابـه مدام من الفرد وسر خاتمه مسك

والصـواب :

مدام من الفردوس خاتمـه مسك
الصفحة 62 جـاء أولها بيت هكذا :

لقد حاز اصحاب الحديث واهلـه شاوا وتوقيرا ومجدا مخلـدا

وصوابـه :

ثناء وتوقيرا ومجـدا مخلـدا

وفى البيت السادس ينبغي تسهل الهمزة فى « أصبح » من هذا الشطر « من أصبح ذا أخذ بها فقد اهتدى » وفتح النون قبلها ، وجاء مصراع العاشر هكذا : « ونسله سبحانه نهج هديهم » وصوابه « ونساله سبحانه نهج هديهم » .

الصفحة 71 تحرف فيها « أبي » بأبو ، فى السطر الحادي عشر .
الصفحة 77 ورد بيت هكذا :

تسح عليه من نداه غمامة تروى ثرى المعروف بالعل والنيل

وصوابه :

تروى ثرى المعروف بالعل والنهل

ثم جاء بعد آخر ، بيت هكذا :

تعم اياديه البرية كلها فدان وقاص جود كفيه قد شمل

والصواب انتهاء المصراع الاول عند « كلها » وفى البيت التاسع ينبغي ضبط ياء « يفصح » بالضم ، لا الفتح ، كما اثبت .

الصفحة 788 ينبغي ضبط « وعد » بسكون العين وضم الدال ، فى السطر الرابع عشر .

الصفحة 80 يضبط فى السطر الخامس عشر « السوق » بضم السين لا بفتحها .

الصفحة 81 جاء بالسطر الاول منها « وللرجل فقيه » ولعله (وللرجل فقه » أو (والرجل فقيه) .

الصفحة 83 صواب المصراع الثاني من البيت الثاني « أم لشيء وصلك » وليس « يوصلك » .

الصفحـــة 84 جـــاء بيـــت هكـــذا :

يا سيدا طاب في العلياء محتـــده   ماجدا رسخت فيه أواصـــــره

صوابـــــه :

وماجدا رسخت فيـــه أواصـــره

وبعـــده آخـــر هكـــذا :

سريت في الفضـــل مسنـــا على   سنن في الفضل ما ربه حقا وسامره

والصواب انتهاء المصراع الاول بكلمة « سنن » وهي بفتح السين ، بدليل ما بعدها ، وكذلك يفتح العين والـــلام من « علـــم » فيمـــا يليـــــه ،

وبعده بيت آخر ورد بيتان هكذا :

موفق بكفيل من عنايتـــه مرفـــع   العذر سامي الذكـــر طاهـــــره

رعيت في الفضل حق الفضل مجتـــــهدا مفهوم مجدك هذا الحكم ظاهره

والصواب انتهاء المصراع الاول من الاول عند « عنايته » ومن الثاني عند « مجتهدا » وينبغي ضبط « ينم » أول الحادي عشر من أبيات القصيدة بفتح الياء وكسر النون ، لا بضمها ، كما اثبت ، وقبل البيت الاخيـــر ، يخفف لام « وليت » مبنيا للمعلوم ، ويصلح « فللناس » هكذا « فالناس » ثم تضم راء « مكرمة » في آخر بيت منها .

الصفحة 85 ورد بيتان أولها هكذا :

عذرا لك الفضل عما جيت من خطا   ان يخط مثلي يوما انت عـــاذره

ثم السلام على علياك من رحـــل   تهدي الذي يخفـــى ضمائــــره

والصواب في « ان » أول المصراع الثاني من الاول ، كسر همزتها ، لانها للشرط ، وجرد جوابها من الفاء على قلة ، ويبقـــى الثانـــي متكســـرا

ولا يستقيم الا بنحو « تهدي الوفاء الذي يخفي ضمائره » وفاعل كالذي هو ضمائره والموصول مع صلته صفة للوفاء .

الصفحــة 87 ورد بيت هكــذا :

عابوه بالزرق الــذي يجفونــه والماء ازرق والعينان كذلكــا

والصواب فيه :

والماء ازرق والسنان كذاكــا

ثــم آخــر هكــذا :

وكذلك فى اجفانه سبب الــردى ولكن أرى طيب الحيــاة هنالكــا

ولا يستقيــم الا بنحــو :

وكذاك فى أجفانه سبب الــردى لاكن راى طيب الحياة هنالكــا

ثم جاء « الصبا » فى المصراع : « لا تكترث بفراق أوطان الصبا » بفتح الصاد والصواب كسرها .

الصفحة 88 ضبط « انه » فى المصراع « وما قلت اني سامع ومطيع » بفتح الهمزة ، والصواب كسرها .

الصفحة 91 جاء مصراع هكذا : « لقلب تدني شكرا ـ وصوابــه » بالقلب يعدل شكرا « .

الصفحة 95 جاء آخر فتحت فيه تاء « فتحتــه » الثانيــة فى : « قد فتحته نضارة فبدا له » والصواب ضبطها بالتسكين .

الصفحة 99 جاءت أبيات ، ضبط بالثاني فيها « فلم » بفتح الميم ، فى قوله « فلم حرمت فؤادي نيل مطلبه » والصواب تسكينها ليتأتى الوزن

ثم ضبط فى الرابع « مجدد » بسكون الجيم وتخفيف الدال ، والصواب فى الجيـــم فتحهـــا ثـــم الفتـــح فالتشديـــد للـــدال هكـــذا : « مجدد قد صفا لي عذب مشربه » ، وجاء السادس هكذا :

ألأنت تمنعني نيل الرضى كرمـــا ولا نؤادي بـــوان فى تطلبـــــه

وصوابـــــه :

لا أنت تمنعني نيل الرضى كرمـــا

وجـــاء التاســـع :

يا ابن الخطيب الذي قد فقت كل سنا ازال عن ناظـــري اظلام غيهبـــه والصواب انتهاء المصراع الاول عند « سناء » وفى البيت بعده ضبـــط « الحسن » بفتح فكسر ، وصوابه ضم فتسكين ، وضبط « البعـــاد » فى الثاني عشر ، بضم الباء ، كما تنطقه عامية مصر ، والصواب كسرها .

واخيرا بيتان هكـــذا :

يا من احسن ظني فى رضاه ومـــا ينفك يبدي قبيحا مـــن تفضبـــه

ان كان ذنبي الهوى فالقلب منـــي لا يصغي لسمع ملام من مؤنبـــه

فى الاول منهما ضبط « أحسن » بتسكين فكسر وتخفيف ، والصـــواب الفتح فكسر مشدد ، وضبط ضاد « تغضبه » بفتح وصوابـــه الضـــم مع التشديد . والثاني صواب المصراع الاول منه ، انهاؤه بحرف « لا » .

الصفحة 101 جاء فى السطر الثالث منه « بتلاوة قانونه وورشه » والصواب « بتلاوة قالونه » ، وقالون هو عيسى بن ميناء قارىء شهير .

الصفحة 202 ضبط « حلي » فى البيت السابع ، بتسكين اللام ، والصواب ، كسرها ، وتشديد الياء أخيرا ، لا تخفيفها ، كما أثبت به ، وفى البيت الاخير ، ورد « ثم السلام عليك يترى » وهو لحن فاحش ،

وقع من الناظم أم بن غيره ، توهما أن تاء تترى للمضارعة ، وانما هي منقلبة عن واو ، فاصل « تترى » وترى ، اذ الكلمة اسم وليست فعلا .

ثم جاء بيـــت آخـــر هكـــذا :

ابا عبــد الاله نــداء خـــل وفى جـــاء يمنحـــك النصيحـــة

والصواب فيه انتهاء المصراع الاول عند « خـــــل » .

الصفحـــة 103 ضبطـــت كلمـــة « جـــدا » فى المصـــــراع « ولم تقصد بها جدا ولكن » بفتح الجيم ، والصواب كسـرها ، كما منعت من الصرف كلمة « مصابيح » فى المصراع « واوجههم مصابيح صبيحه » والصواب صرفها للضرورة ، وفقا لقاعدة : ولاضطرار او تناسب صرف ذو المنـــــع »»»

الصفحة 107 تصفحت كلمة « نجاح » فى أول الابيات الحائية بها ، وضبط « نداه » فى السادس منها ، بكسر النون ، والصواب فتحها ، ثم فتحت فى البيت التالي همزة « ان » والصواب كسـرها ، وفى الثامن ضبط « جناح » بكسر الجيم ، والصواب فتحها ، وبآخرها جاء بيت كذا :

فنواله وجلاله وفعاله فاقت واعيت السن المــــداح

والصواب انتهاء المصراع الاول عند « فعاله » .

الصفحة 108 جاء بيت هكذا :

وبه الدنا اضحت تروق واصبحت كل المنى تنقاد بعد جمـــاح والمصراع الاول فيه ينتهي بالفعل « اصبحت » ، وفيـــه وردت كلمـــة « جناح » هكذا ، والصواب فيها « جناحي » وان كان هذا مغفورا تمشيا مع الصنيع المصحفي ، ثم ضبط « دملج » بفتح الدال ، والصواب « ضمها » اذ اصله « دملوج » على وزن عصفور .

الصفحة 109 ضبطت « تزهى » فى البيت الثالث ، بفتح التـــاء ، والصواب ضمها ، ثم ضبطت « حياة » اول البيت الذي يليه ، بضم التاء ، والصواب كسرها ، لانها فى حيز القسم ، وفى الخامس ضبط « ريحاني » بكسر الراء ، والصواب فتحها ، وفى السابع ، حق الهمزة فى « ولو أنني » الوصل للوزن ، وفى آخر هذا البيت ، ضبط ايضا « جناح » بكســـر الجيم ، والصواب فتحها ، وفى الذي يليه ضبطت تاء « ايقنت » بالضم ، والصواب تسكينها ، وفى العاشر تصحفت « جنت » هكذا « خيت » ، ثم جاء أول الحادي عشر « فأليكها » بفتح الهمزة ، والصواب كسرها .

الصفحة 111 جـــاء بيت هكـــذا :

مخلـــق الاذيـــال بالعبير او بالعنبـــر

والصواب انه مدور هكذا :

مخلق الأذيـــال بالـــــــعبير او بالعنبر

والبيـــت الحـــادي عشر :

وباالليل فيه مـــــا عيب بغير القصـــــر

شددت لام «لليل » والصواب تخفيفها ، ثم ضبط « عيب » بضم البـــاء ، والصواب فتحها ، فعلا ، لا اسما ، وفى الذي يليه ، ضبط « طلـــق » بكسر اللام ، والصواب تسكينها . وجاء البيت الخامس عشر :

ما بين اهل تقطـــف الأنس جني الثمـــــر

فالبيت أولا مدور ، ينتهي المصراع الاول عند لام « الانس » ، ثم فتحت فاء « تقطف » والصواب ضمها ، ثم فتح نون « جنى » والصواب كسرها ، وتشديد الياء بالفتح بعدها .

الصفحة 112 ضبطت « المغاني » فى البيت الاول منها ، بنصب الياء، والصواب اسكانها ، نحوا ووزنا ، وجاء البيت الرابع :

عهدي بحادي الركب   كالورقاء عند السحـــر

والبيت مدور ، عند لام « كالورقاء » ، ثم جاء السادس ، هكذا :

تخبط بالاخفاف مظلـــــوم البرا وهو بـــري

والصواب تدويره عند الظاء من « مظلوم » فتكون لامه بداية للمصراع الثاني، وتـــلاه بيـــت هكـــذا :

قد عطفت عن ميـــد   والتفت عن حـــــور

والصواب فيه فتح ياء « ميد » لا تسكينها ، ثم « والتفتت » من الالتفات ، وليست من « الالتفاف » بالفاء اخيرا ، اثبت بتشديد الفاء واسقاط التاء الاولى خطأ ، وجاء البيت التاسع ، هكذ :

« حتى اذا الاعلام حلست لحفي البشر » فتصحفت فيه « حلـــت » بحلست ، بكسر اللام وفتح السين ، ثم الابيات الستة من الثالث عشر حتى الثامن عشر ، كلها مدورة على غير الحروف التي دورت بها ، والاخير منها عند فاء « عرفات » هكذا :

وعرفـــوا في عرفـــــا   ت كل عرف اذفر

الصفحة 113 جاء في البيت الثاني « يافوزه » « ياربحه » بضم الزاى والحاء ، والصواب فتحهما ، منادى مضافا ، وجاء التاسع هكذا :

زاروا رســـول الله   واستشفعوا بلثم الجدر

البيت مدور عند سين « واستشفوا » من الشفاء ، وليست « استشفعوا » من الشفاعة ، كما اثبت خطأ ، وبعده آخر المصراع الاول تشدد ميـــــم « واملوا » ، والبيت الثاني عشر : « زيادة الهادي الشفيع جنة في المحشر» ضبط فيه الشفيع ، بضم الشين ، وجنة ، بفتح الجيم وهي بضمهـــا ، والبيت السابع عشر ، اثبت هكذا :

منتخب الله ومختار الـــورى من مضـــــر

والصواب تدويره عند الخاء من « مختار » .

الصفحة 114 جاء بيت هكذا :

يا حجة الله على الرا ئـــح والمبتكـــــر

والصواب تدويره عند الراء الاولى من المشددة ، وكذا :

يا من لدى مولـــــــده المقدس المطهـ ر

فهو مدور عند لام « المقدس »

ثـــم جـــاء بيـــت هكـــذا :

ايوان كسرى ارتـــج اذ ضاقت قصور قيصـــر

وعلق عليه بانه فى النفح « ضاءت » وهذا هو الصواب .

والبيـــت الـــوارد هكـــذا :

يا من له اللواء والحـــــــوض وورد الكوثر

حقه انتهاء المصراع الاول منه عند اللام من « الحوض »، ثم جاء بيتان هكذا:

يا وبح نفسي كم ارى من غفلتي فى غمـــر

واحمري مـــن قلـــة الزاد وبعد السفـــر

لقد ضبطت فى الاول « ياويح » بالضم ، والصواب فتحها ، وفى البيـــت الثاني تحرفت « واحسرتا » بما هو مثبت فيه ، والبيت مدور عند الزاي وفى آخـــر الصفحـــة :

يحجني والله بالبرهـــــان وعظ المنبـــر

والبيت ينتهي مصراعه الاول عند اللام من « بالبرهان » ثم ضبط « وعظ » بضم العين ، بدل تسكينها .

الصفحة 115 ضبط آخر البيت الثاني « تمر » بضم الميم بدل فتحها ، وجاء البيت بعده هكذا :

اومل الأوبة والامر بكف القدر

والمصراع الاول ينتهي عند اللام من « والامر » وضبط « أؤمل » بفتح الهمزة الاولى بدل ضمها . وجاء السابع هكذا :

وليس ما مر من الايام بالمنتظر

والصواب انهاء المصراع الاول عند اللام من « الايام »

وبعد جاء البيت :

وقل ما ان حمدت سلامة في غرر

وضبط «حمدت » بفتح الحاء وتسكين الدال وضم التاء ، والصواب بناؤها للمجهول ، والتاء تاء التانيث . ثم نصبت « سلامة » وهي نائب فاعل وضبط « فابرد » اول البيت الرابع قبل الاخير من الصفحة ، بتشديد الراء ، ولا يستقيم الوزن الا بتخفيفها ، ثم البيت قبل الاخير :

نالوا جوار الله وهو الفخر للمفتخر

والبيت مدور عند الهاء من « وهو » بتسكينها .

الصفحة 116 ضبط « اكرم » اول البيت الثالث من الصفحة ، بفتح الكاف وكسر الراء ، والصواب تسكينها وفتح الراء ، وبعده بيت هكذا :

ممهد الملك وسيف الحق والليث الجري

والصواب انهاء المصراع الاول بالياء من « وسيف » ، وجاء البيت :

فصدق التصديق من مرآه للتصــــــور

وضبط « التصديق » بالفتح ، والصواب ضمها ، ويعني بـــه التصديـــق المنطقي المقابل بالتصور آخر البيت . وجاء آخر هكذا :

فاق الملوك الصيـــــد بالمجـــد الرفيع الخطر

والصواب انهاء المصراع الاول باللام من « بالمجد » ، وجاء الرابع قبـــل الاخيـــر هكــــذا :

يا ابن الامام الطــــاهر البر الزكـــي السيــــر

والصواب تدويره عند اللام من « البر »

واخيرا ضبط « مضمر » بكسر الميم ، والصواب فتحها ، مقابل « ظاهري » فى نهاية المصراع الاول .

الصفحة 117 وقع فيها اخطاء بالضبط ، واهمها ما وقع فى السطرين قبل الاخير ، فيجب فى أولهما ضبط الوزراء والامراء بالضم لا الفتـــح ، وفى الثاني ، نصب « الكل » لا رفعه ، ورفع « لحظه » لا نصبه .

الصفحة 119 ، ففي الثامن ، يجب رفع « شيء » لا خفضه ، وفى العشرين « تضطبنها » بتسكين الضاد ثم فتح الطاء لا كسرها .

الصفحة 120 يضبط فى السطر العشرين « يقعد » بضم الياء وكسر العين ، وفى الصفحة التالية اخطاء من هذا القبيل كما فى السطر الرابع والخامس والسادس والسابع والعاشر والحـــادي عشر والثانـــي عشر والرابع عشر والتاسع عشر .

الصفحة 122 صواب الكلمة اول السطر الرابع عشر « واستجفائها »

بالهمزة أو الياء ، لا النون ؛ وفى السابع عشر وردت « وحلوات » غامضة.

الصفحة 123 جاء بيت هكذا

والله ما احتقب الحريص ســـــوى الذنوب أو الملامة

والصواب تدويره عند الياء من « الحريص » .

الصفحة 124 تصحفت فى السطر العاشر « كفيا » بكفا فى العبارة « فلم ار لك الدنيا كفيا ، هذا لو كنت صاحب دنيا » .

الصفحة 127 فى أول بيت وردت كلمة « شفاء » مقصورة ، ولا يتزن بها، كما جاء أول البيت الثالث كلمة «وفى» مشددة والصواب تخفيفها ، وفى البيت السادس جاء مصراعه الاخير هكذا : « ويترك منها لليقين رفاء » والصواب بناء « يترك » للمجهول و « للبنيـــن » بـــدل « لليقيـــن » . تلاه بيتـــان هكـــذا :

هو الأثر المحمود ليس يناله دثـــــور ولا يخشى عليه عفـــاء

حرصت على الاطناب فى نشر فضله وتمجيده لو ساعدتني فاء

والصواب ان لا تدوير فى البيتين ، حيث ينتهي مصراعهما الاول ، عنـــد « يناله » و « فضلـــه » ، ويضبط « حرصت » بكسر الراء

الصفحة 128 جاء ابيات هكـــذا :

يا ابا الفضل ادر بـــأن الله عن سعيك راض

وصوابـــــه :

يا أبا الفضل ادر أن الــــــله عن سعيك راض

وجبت غز المزايا (صواب « وجبت » ان تكون فعلا ماضيا بتاء تأنيث ، ثم تصلح « غز » بغر ، بالراء مرفوعة)

سدد الله ابن مرزوق   الى تلـــك المــــراض

(شكل المراض ، بضم الميم ، وصوابه « المراضي » بفتح الميم ، وياء في الاخير ، وهو بيت القصيد المطلوب لابن مرزوق الذي لم يفتح بسابقه، حسبما في القصة المذكورة آنفا في قول ابن الخطيب : واستزاد من هذا الغرض لم يقنع منه بالقليل) .

ويجب اول البيت الحادي عشر ، أن تجعل كلمة « ساهر » حالا ، هكذا : « ساهرا لم يدر ،،، » وجاء بيت هكذا :

دام في علو ومن عدائـــه يهـــوى في انخفاض

والصواب ، ضبط « علو » بسكون اللام وتخفيف الواو ، ثم كتبه هكذ :

دام في علو ومن عـــا   داه يهوى في انخفاض

وجاء بيت من اخرى هكذا :

وحمل الريحان ريح الصبا   امانة في كل الى كـــل روح

والصواب ضبط « الريحان » بالرفع ، لا بالنصب ، ثم اثبات المصـــراع الثاني بما نص عليه في النفح ، وهو « أمانة فيك الى كل روح » .

الصفحة 129 وردت ابيات هكذا :

لله ما اجزلت فينا به من   منحة تقصر عنها المنوح

والصواب انهاء المصراع الاول عند « بـــه » .

ثم جاء « فمن بيان الحق زهر ند » ضبط « زهر » بلا تنوين ، ثـــم « ند » بكسر النون وتشديد الدال ، والصواب تنوينه ، وفتح نون « ند » وتخفيف داله ، وصفا لزهر ، وليس الاولم ضافا اليه . وجاء أول البيت الثامن « ومعلم » بضم الميم وفتـــح العين واللام مـــع تشديدهـــا ،

والصواب فتح الميم وتسكين العين ثم اللام المخففة بالفتح . وفى آخر بيت بالصفحة ، ورد « وفى » بتشديد الفاء ، والصواب تخفيفها ، اذ لا يتزن البيت بالتشديد .

الصفحة 130 جاء بالسطر الثامن « ينقل الفقه منسوبا الى امانة ، ومنوطا برجاله ، والحديث بأسانيده ومتونه)) وكلمة « امانـــة » ليست مستقرة ، وصوابه « امامه » . وفى الصفحة التالية ، شكل بالسطر الثالث عشر « آجروم » بالهمزة القصيرة ، وسكون الجيم وتخفيف الراء .

الصفحة 139 وردت ابيات هكذا :

ومن جود جدواهم يرى الليـــث يعمر ومن خوف عدواهم يذعــــر

وصواب الصراع الاول ان ينتهي عند « يعمر » وسقط فى المصراع الثاني نحو « يراعو » قبل « يذعر » على ان « يعمر » فيها شيء ؟

ثم جاء بيتـــان هكـــذا :

وللــــه ايـــام المصلى وطيبها وانفسنـــا بالانس والقــــرب تجبــــــر

بحيث يرى بدر الكمال وشمســـه وروضته فردوس وحوض ومنبر

الاول حق مصراعه الاول ان ينتهي عند « وطيبها » والثاني صواب المصراع الثاني منه ، هكذا : « وروضته الفردوس والحوض منبر »

وبعد ذلـــك جـــاء :

ووجه سروري سافر متهلـــــــل وحالي بهم محلل وعيشي اخضر

فطوبى لمن اضحى بطيبة ثاويـــا يجر اذيال الفخـــار وينشـــــــر

والصواب فى المصراع الثاني من الاول « حال » اسم فاعل من حلى ، وفى الثاني من الثاني « يجرر » بدل يجر ، اذ لا يستقغيم بهذا وزن .

وبعـــد ذلـــك :

واذ فات عيني أن تراهم فرددوا على مسمعي ذكر المصلى وكررو١

والصواب أن ينتهي المصراع الاول منه عند « فرددوا » .

وجاء بيت قبل الاخير بالصفحة هكذا :

والوى اليه الجيد حتى وجعته وظل فؤادي لوعة يتقطـــر

ضبط (وجعته) بفتح الجيم والتاء ، والصواب كسرها وضم التاء ، وهو ينظر الى قول يزيد بن الطثرية او الصمة بن عبد الله :

تلفت نحو الحي حتى وجدتني وجعت من الاصغاء ليتا واخدعا

الصفحة 140 ضبط في البيت الاول « لابت » بفتح الهمزة والبـــاء وتسكين التاء ، والصواب ضم الهمزة وتسكين البـــاء وضـــم التـــاء . وفي السابع ضبط « ازورها » بالضم ، والصوب الفتح ، بأن المضمرة بعد « أو » في قوله « سأقطع ليلي بالسرى او ازورها » لقول الخلاصة :

كذاك بعد « أو » اذا يصلح في موضعها « حتى » أو « الا ان » خفي

ثـــم ورد بيـــت هكـــذا :

واني اذا ما خطرة خطرت قضـــــــت بهمي وعزمي همة لا تأطر

والصواب انهاء المصراع الاول عند « قضت » وضبط « تأطر » بفتح الهمزة وتشديد الطاء ، وليس بسكونها وتخفيف الطاء .

ثـــم جـــاء آخـــر هكـــذا :

اذا ما بدت للعين اعلام طيبـــــة ولاحت قباب كالكواكب تزهر

والصواب نهاية المصراع الاول عنه « طيبة » بالخفض المنـــون ، وليس بالفتـــح النائـــب عنـــه ، للضـــرورة . وجـــاء مصـــراع : « فعوجوا على كمل الكمال وسلموا » فحرف فيه « فعوجوا » بعرجوا ، وينكسر الوزن به ، وضبط « كمل » بفتح الميم ، بدل سكونها . وجـــاء آخر هكذا : « وما قدر نفسي أن تكون كفا » فسقط « لها » منـــه .

الصفحة 141 ضبط فى البيت الثالث « وخيمن » بسكون اليـاء وكسر الميم ، والصواب كسرها بالتشديد ، وفتح الميم ، وتلاه بيت هكذا:

فخرت بمدحي للنبي محمد ومن مدحه المداح يزهى ويفخـر

والصواب انهاء المصراع الاول عند « محمد » ثم كسر حاء « مدحـه » فضم الحاء من « المداح » لا فتحها . ثم ضبط « يقصر » فى نهاية الذي يليه ، بضم الياء وفتح القاف وتشديد الصاد ، والصواب فتحها وتسكين القاف وضم الصاد ، وبعده بيت هكذا :

فما بلغت كف امري متناول بها المجد الا والذي نلت اكبر

والصواب انهاء المصراع الاول عند « متناول » بعد ان تصلح « امـري » بكلمة « امرىء » ثم تضم تاء « نلت » بدل فتحها .

واختتمت الابيات ببيت جاء مصراعه الاول هكذا :

« عليك صلاة الله ما مر سابق » والصـواب فيـه « ما ذر شارق »

وفى السطر التاسع من الصفحة ، كتـب « ابنـا » بهمزيـة ، والصـواب وصلها فى الابن .

وجاء فى نهاية الصفحة ثلاثة ابيات هكـذا :

فأين التفت فالشخص للعين ماثل وان استمع فالصوت للاذن طارق
وان ادع شخصا باسمه لضـرورة فان اسمك المحبوب للنطق سابق
وان تقرع الابواب راحـة قـارع يطير عندها قلب لذكركخ افـق

والصواب فى الاول « فان التفت » بكسر الفاء وتسكين التاء ، ثم تسكن الـذال مـن « للأذن » .

وفى الثانـي « فان اسمـه » بضميـر الغيبـة .

وفي الثالث ، تكسر عين « تقرع » وتسكن راء « يطر » بعد حذف الياء منها ، لالتقاء الساكنين : وكذلك تصلح « لذكرك » ب « لذكراه » .

الصفحة 142 وردت فيها ابيات ، ثلاثتها الاولى هكذا :

وكل كتاب قد حويت فمذكر ۔۔۔۔ وآثاره كل اليك توائق

سبقت كهولة في الطفولة لا تني ۔۔۔۔ وارهقت اشياخا وانت مراهق

فلو لم يغلك الموت دمت مجليا ۔۔۔۔ واقبل سكيتا وجيبة ولاحق

فالاول صواب « مذكر » كسر كافها ، والثاني صوابه « كهولا » لا كهولة ، والثالث « يغلك » بفتح الياء وضم الغين ، ثم تضبط « مجليا » بضم الميم وفتح الجيم وكسر اللام المشددة وتصلح « وجيبه » بكلمة « وجيه » مضمومة الهاء . وجاء من نفس القصيدة بيتان هكذا :

فبين .وبعد بالغريب توكلا ۔۔۔۔ قد رعي بما حملت والله ضائق

عسى وطن يدنو فتدنو منى ۔۔۔۔ واى الاماني والخطوب عوايق

نفي الاول يضبط « توكلا » بفتح الكاف المشددة ، وصواب اول المصراع الثاني « فذرعي » وتضبط « حملت » بضم الحاء وكسر الميم المشددة ، وسقط من البيت الثاني في نهاية مصراعه الاول « به » هكذا : « فتدنو منى به » ، وبعدهما ببيت ، جاءت أبيات هكذا :

نخط الاسى خطا تروق سطوره ۔۔۔۔ وتمحو البكا فالدمع ماح وساحق

فيا واحدا قد كان للعين نورها ۔۔۔۔ اتل ضيا بعد بعدك غاسق

عليك سلام الله ما جن ساجع ۔۔۔۔ وما طلعت شمس وما ذر شارق

وصواب الاول : يخط الاسى ،،، ويمحو البكا ،،، وماحق . وصواب الثاني « أكل ضياء » ،،، . وصواب الثالث « ماحن » بالحاء وانتهت القصيدة بمصراع جاء هكذا « عباد لرضوان الاله موافق » والصواب فيه «عهاد » بكسر العين وفتح الهاء .

الصفحة 145 جاءت أبيات ، الاولان منها هكذا :

لولا مشيب يغودي للفؤاد عصـا   نضيت فى مهمه التشبيب لي فلصا

واستوقف عبراتي وهي جاريـة   وكفاء توهم ربعا للحبيب قصـا

والصواب فى المصراع الثاني من الاول « أنضيت » بالهمزة وتسكين النون وفى « مهمه » بفتح الميمين وتسكين الهاء ، ثم الصواب فى البيت الثاني ضم همزة « وكفاء » وتاء وميم « توهم . وبعدهمـا ببيت جـاء آخـران هكـذا :

وكنت جاريت فيها من جرى طلقا   من الاجادة لم يحجـم ولا نكصـا

اصاب شاكلة المرمى حين رمـى   من الشوارد ما لولاه ما اقتنصـا

ففي الاول يفتح لام « طلقا » بدل السكون ، ويبدل « يحجم » بفعل « يجمح » ، وفى الثاني يبدل المرمى اسم مكان ، بالمرمي ، اسم مفعول وفى آخر الصفحة جاء بيت هكذا :

فظلت ارفل فيها لبسة شرفـت   ذاتا ومنتسبا اعزز به قمصـا

وعلق على « فظلت » بأنها هكذا فى الاسكوريال وفى النفح ، كأن ذلك كان منه استغرابا لها ، مع أنها استعمال « ظللت » كمـا بالخلاصـة :

« ظلت وظلت فى ظللت استعملا »

وصواب المصراع الثاني « أعزز بها قمصا » وبضم القاف ، لا بفتحها

الصفحة 146 ورد بيت هكذا :

لها حلى حسنيات على حلـل   حسنية تستبي من حل او شخصا

ضبط « حلى » بفتح الحاء وتسكين اللام وضم الياء ، والصواب الضـم ففتح اللام المنونة ، وضبط « حسنيات » بضم الحاء وتسكين السين ، والصواب فتحهما ثم ان « حسنية » بالكسر صفة لحلل ، وان كان القطع جائز فيها . وفى البيت الاخير ، ينبغي فتح تاء « بعثـت » للخطـاب .

وورد بيت هكذا « لا يلمني عاذلي حين يرى » والصـــواب للخطـــاب فى « تلمني » و « ترى » وعاذلي منادى ، وان صح غير هذا .

وجاء مصراع هكذا : « وذكا ذكري والسعود مقاصد » وصوابـــه « ذكاء » اي الشمس ، ثم اضافة « مقاصد » الى ياء المتكلم .

الصفحة 147 ورد مصراع هكذا : « اذلك ام زهر لاحت تخبر أن » وصوابه « اذاك أم زهر » بضم الهاء ، ثم تصفحت النون بالتاء من « نظمه » فى السطر الثالث . وفى السطر الخامس جاء بيت هكذا :

يا أوحد الأدبا او يا اوحد الفضـــــلا او يا اوحد الشرفاء

وصوابـــــه :

يا اوحد الأدباء او يا اوحد الـــــفضلاء او يا اوحـد الشرفاء

(بضـــم الشيـــــن) .

وفى السطر الثامن ورد بيت ضبط فيه « ظلـــم » بضم الظـــاء . وصوابه فتحها . وفى الحادي عشر ، ورد فى بيت ، ضبط به « زفت » بضم الزاي وتشديد الفاء الاولى وفتح الثانية ، والصواب ، فتح الزاي والفاء الاولى وتسكين الثانية . وتلاه بيت متسكع هكذا :

لا من قصور بل لتقصيهـــا من حيث لم يظفرن بالارفـــاء

(وزاد الطين بلة تشديد نون « يظفرن ») ، ولعل المصراع الثاني يبتدىء بمن ، فيتزن بذلك على ما به من غموض . أما الاول فقد أعضل وزنه بعد « لا من قصور » . وتلا هذا البيت بيتان هكذا :

لكن جبـــرن وقـــد جلبـــن على الرضا فالجبـــر للابكـــار للآبـــاء

هذا الى الشرف الذي قد فـــزت من عليائـــه بالعـــزة القعســـــاء

وصواب المصراعين الاولين منهما ، نهاية الاول عنـــد « الرضـــا » ونهاية الثاني عند « من » وضبط « للآباء » بسكون اللام الثانيـــة ومـــد

الهمزة المفتوحة ، لا كسرها . ثم ضبط في البيت الموالي لهما « سناء » بتشديد النون ، والصواب تخفيفها ، وجاء على التوالي كلمات « وابو حسن» ولا يستقيم الوزن الا باسقاط الواو ، ثم تدوير البيت عند اللام من « الهادي » وخفض « البرية » على الاضافة ثم انهاء المصراع الاول من بعده عند « من » ثم تزويد المصراع الثاني منه بحرف « قد » قبل « حزت » . وقبل البيت الاخير ورد مصراع هكذا : « من كان من آب لها او شاء » ولا يستقيم له وزن ولا يتضح له معنى ، زيادة على جعل « آب » مفتوحة الباء ، فعلا ماضيا .

الصفحة 148 جعل أول بيت فيها « الاعضاء » بالنصب والصواب الخفض ، وجاء خامس بيت فيها هكذا :

ذو الشيب يعذره الشباب فما لهم بذكا نبل او بنبل ذكاء
وصوابه هكذا :

ذو الشيب يعذره الشباب فمن لهم بذكاء نبل أو بنبل ذكاء

وبعد هذا ببيت جاء آخر هكذا :

ابني انك أنت اسدى من به يتعاظم الآباء بالابناء

وهو على ركاكته ، لعله ،،، أسدى ما به ، وفي البيت الحادي عشر جاء « مستوطن » وعلق عليه بأنه بالنفح « مستوطأ » (وهذا صواب) . كان أحق بالاثبات من غيره ، لو لم تراع احدى طرق التحقيق التي يتبعها المستشرقون في النصوص العربية لقصورهم فيها معذورين ، وبعده مصراع هكذا : « وسمى بها اسمي ساير فانا بما (وصوابه : وسما بها اسمي ساير ،،،، وهمزة « اسمي » همزة وصل لا قطع) . وفي المصراع الثاني ، من هذا البيت ، يجب ضبط « ذو الاسماء » بكسر الهمزة ، لا فتحها . وبعد هذا ببيت تحرف « يا حسن » بأحسن . ثم جاء بعده «فليهن» بضم الهاء ، والصواب تسكينها ، وفتحت همزة «ان» والصواب كسرها ، ثم بعد هذا ، ضبط « حليت » بضم التاء والصواب

فتحها ، وقد تركنا بعض الكلمات التي بنيت عليها القافية ، وكان حقها أن تضاف الى ياء المتكلم ، فلم تكتب كذلك ، مثل « ندائي » و « شوائي » لانه قد يتسامح في كتابتها كذلك ، في القوافي والفواصل ، بل يتسامح في كل ما ينتهي بهذه الياء ساكنة مثل « الرائي » التي وردت كذلك بدون ياء. فالخطب في نحو هذا سهل ، تركنا التنبيه عليه هنا وفي غير هذه القصيدة احيانا وسيتكرر كثيرا في قصائد عديدة ستأتي بهذا الجزء من الكتاب .

الصفحة 149 جاء أول سطر بها « الجالية للسـراء » والصـواب « الجالبة » بالباء ، وفي نفح الطيب « الجالبة السراء » ولكننا نراهـا أوفى بحرف الجر لتنساق مع « الآخذة بمجامع القلوب » اثرها، وفي السطر بعده « المتحلية بالحلى الحسنية » «العريقة المنتسب في العلى الحسنية». وعلق على « الحسنية » الاولى ، بأنها في النفح « السنية » وهذا هـو الصواب اثباته لا غيره . وفي السطر الثاني جاء « سهل ممتع ، مفترق مجمع» والصواب « سهل ممتنع مفترق مجتمـع » . وفي العاشر ، تحرفـت « بأياد » بالفتح ، الى « باياد » ، بالكسر للهمزة .

الصفحة 150 ورد أول السطر الثالث « درر ، ونظمت للبراعة ذرر »، بضم دال الاولى ، وكسر الثانية ، والصواب فيهما العكس . وجـاء في السطر السابع رؤاتها واروتها ، الصواب « رويتها وأرويتهـا » . ثـم « واصلتها » بتخفيف الصاد . والصواب التشديد . وفي الثامن جـاء « والمعصمة قلما» والصواب« ولمعصمه قلبا» بضم القاف. وفي التاسع« واتكبت روية صعبا » والصواب « ««« رويه ««« » وفي الحادي عشر ورد « نصبتني » وعلق عليها بأنها في النفح « صبتني » وهذا هو الصواب ، وفي الثالـث عشر ، يجب ضبط « رد » بفتح الراء فالدال مشددة .

الصفحة 151 جاء في السطر الخامس « واستغفر الله ربه من تلك الالهية » والصواب « الألية » اي الحلفة ، المرة من الحلـف والقسم . وفي السطر الخامس عشر صحف الكلمتان « يعد » و « فليهنك » بالضبط الخاطيء ، والصواب ضم الياء وفتح العين فالدال مع شدة في الكلمـة الاولى ، وتسكين اللام والهاء وكسر النون وفتح الكاف ، في الثانية .

الصفحة 152 ينبغي ضبط الكلمتين المضافين « أرقالك واغذاذك » في السطرين الثاني والثالث ، بكسر همزتهما ، وضم آخرهما .

الصفحة 153 ينبغي ضبط الكلمة « طلا » الوارد في البيت التاسع ؛ بكسر الطاء وفتح اللام المخففة . وفي الثاني عشر « جثم » بضم الجيم وفتح الثاء المشددة ، وفي الثالث عشر « ومرادنا » بفتح الميم ، لا بضمها، وفي نهاية البيت تحرف « البرود » بكلمة « برود » فعول من البرد ، وليس جمع بردة ، ثم تدوير الخامس عشر والسادس عشر ، عند اللام في الاول ، والنون في الثاني من « الاتراب ولأنكرني » .

الصفحة 154 ينبغي تدوير البيت السادس عند الطاء من « تخطتك » ثم جعل همزة « واقدم » من تاليه ، للوصل . وفي العاشر ، يضبط « لا تبعدن » بفتح العين وتشديد النون .

الصفحة 156 جاء في السطر السادس عشر « معروف رسمه يتكور بها » وهو غامض لم نهتد لاقامته او فهمه .

الصفحة 157 ورد بيتان هكذا :

نوالي الشكر للرحمن فرضا   علم نعم كست طولا وعرضا

وكم لله من لطفخفي لنا   منه الذي يشاء وامضا

والصواب في الاول تصحيح « علم » بحرف « على » وانهاء المصراع الاول من الثاني عند « خفي » ولعل صواب المصراع الثاني منه هكذا : « لنا منه الذي قد شا وامضى »

الصفحة 158 جاء بيت بالسطر الاول منها هكذا :

ويا لله من سفر سعيد قد   اقرضت المهيمن فيه قرضا

والصواب انهاء المصراع الاول عند « سعيد » ووصل همزة « اقرضت » ليستقيم الوزن . ثم جاء بعده البيت :

نهضت بنية اخلصـــت فيهـــــا فاتت بكل ما يبغـــي ويرضـــــا

بكسر هاء « نهضت » بدل فتحها في المصراع الاول . أما المصراع الثاني « فأتت بكل ما يبغي ويرضا » فلا يستقيم وزنه الا بنحو حذف الفاء منه . ثم أتى البيت الثالث هكذا :

وثبت لنصـــرة الاســـلام لمـــا علمت بأن الامر اليـك آفضـــا

ولا يستقيم المصراع الاول الا بنحو حذف الواو منه ، كما لا يستقيم الثاني الا بوصل همزة « الامر » فيه ، وبعد ذلك ينبغي تدوير الثامن عند اللام من « المسيىء » وبعده مباشرة جاء مصراع هكذا « فأعقبنا شفا وانبساطا » ولا يستقيم وزنه الا باثبات همزة شفاء وانبساطا ، وتصحف في البيت التالي « حوضا » بالخاء ، وتـــلاه آخر مصراعـــه الثانـــي هكـــذا : « حين ناب الفقر عضا » ولعله « منابي حين ناب الفقر عضا » ، ثم ضبط « الضعفاء » في السطر الرابع عشر من الصفحة التالية ، بالخفـــض ، والصواب ، النصب .

الصفحة 161 جاء في السطر العاشر كلمة « ملغزا » بفتح الـــلام وتشديد الغين ، وصوابها التسكين فالتخفيف ، ثم أتى المصراع الاخير لرابع أربعة هكذا : « به حين يطل هواه ان لم يطل خانـــا » فهذا مـــن المعضلات في وزنه ومبناه ومعناه ، زاده اعضالا كسر نون حين .

الصفحة 166 جاء مصراع هكذا : « حب حبر يكنى ابا المعالـــي » وصوابه « حب حبر يكنى ابا للمعالي » بتخفيف يكنى لا تشديدها .

الصفحة 167 جاء آخر هكذا : « فبت وللوصل لنا ثالث » وصوابه « فبت والوصل لنا ثالث » ثم ينبغي ضبط « الافق » في المصراع الثاني للبيت التالي ، بتسكين الفاء ليتزن بذلك .

الصفحة 168 ضبط في البيت أولها كلمة « قليب » بالتصغيـــر ، والصواب عدمه ، فهو قليب ، بمعنى البئر ، وجاء في مصراع أول لثانـــي بيتين كلمة « يذكو » وصوابها يزكو بالزاي ، وهذا يقع فيه من لا تفـــرق

لهجتهم بين الحرفين ، فينطقون الذال زايا .

الصفحة 169 ورد في مصراع اول « ومحى الكثيب سكوبه » بضم الاول وفتح الثاني ، والصواب العكس ، وكتابة « محا » بالالف الطويلة ، وورد في مصراع ثان لتاليه كلمة « بالجناح » مكسورة الجيم ، بدل فتحها وتكرر هذا كثيرا فيها . وجاء اول البيت الاخير ، كلمة « سح » بالفتح والصواب ضمها .

الصفحة 170 جاء آخر المصراع الثاني لاول بيت بالصحيفة « مضمونه » والصواب « مصونه » ثم في آخر الاول من تاليه ضبط « كاعب » بالضم ، والصواب الكسر ، ثم جاء المصراع الاول للسادس ، هكذا : « قلبي بذاك اللوى خلفته » ولا يستقيم وزنه الا بنحو : « بذلكم،،،»

وبعده :

لا تسل العذال عني فالهوى دا يخامر بالضلوع دفينه

وصوابه :

لا تسال العذال ،،، ،،، داء يخامر ،،، ،،،

وجاء آخر هكذا :

ان يخفعن شرحي حديث زميرتي فعلى الفنون فريضة تبينيه

صوابه : « فعلى الفنون فريضة تبيينه » بفتح فريضة وفتح تاء « تبيينه » وفي أول الحادي عشر ، تحرفت كلمة « يصغي » بكلمة « يضفي » بالضاد والفاء .

وجاء البيت الرابع عشر هكذا :

عمر الانام نواله ومحا الضلال رشاده وجلا الظلام جبينه

والصواب نهاية المصراع الاول عند « الضلا » ، وبعد هذا بيت ببيت جاء آخر هكذا :

شمس الهدى حتف العدا محي الندا بحر الجدا طول المدى تمكينه
والصواب انها المصراع الاول بكلمة « الندا » . وكذلك فى الذي يليـــه :
الصواب فيه انهاؤه بكلمة « السرى » ، وبعده ببيت جاء آخر هكذا :

« لا تسل الهيجاء عنه انه » والصواب ، كما تقدم « لا تسال » ثم
يضبط « الهيجاء » ، بالفتح لا بالضم ، وبعده تفتح ياء المضارعـــة مـــن
« يشغله » فلا تضم ، كما هي ، ثم جاء فى نهاية الصفحة بيتان هكذا :

واذا تطاولت الملوك بماجـد بمحمد دون الأنام يكونـــه

يابن الالى نصروا الرسول ومن بهم نطق الكتاب فصيحه ومبينه
والصواب أول المصراع الثاني من الاول « فمحمد ،،، » وانهاء الاول من
الثاني عنـــد « بهـــــم » .

الصفحة 171 ينبغي ضبط « وخليفة » بالفتح ، اول المصراع الثاني
من البيت الثاني ، ويضبط آخر الاول من الرابع « لاقيته » بفتح التاء ، وفى
البيت السادس ، ينبغي ضبط « مهذب » بكسر الباء ، على التبعية لشاعر
المجرور ، وان صح القطع فيه وفيما قبله .
الصفحة 172 يجب وصل همزة « اسمائنا » بثانـــي البيتيـــن ،

ليستقيم بذلك الوزن .
الصفحة 173 يضبط « مضطلعا » أول السطر ، بسكون الضاد وفتح
الطاء المخففة ، وفى الخامس يضبط « البكاء » بالكسر .

الصفحة 174 ورد بيت هكـــذا :

يا حرقة البين كويت الحشا حتى اذبـــت القلب فى اضلعه
والصواب انتهاء المصراع الاول عند « الحشا » ، ثم ضبط « يصر » فى
الرابع ، بكسر الصاد ، ولعله « ان يسر » بسكون السين ثم فى الذي يليه،
ضبط « ويبلغ » بتشديد اللام ، والصواب تخيفها .

الصفحة 175 جاء مصراع هكذا : « بطن وفخذ والفصيلة تابعـــة »

بكسر « بطن وفخذ » ، والصواب ضمها ، وفتح عين « تابعة » لا ضمها ، ثم جاء اثره : « فالشعب يجمع للقبائل كلها » ولعله « جمع للقبائل كلها »، وهو ينساق مع « ثم القبيلـة للعمارة جامعـة » بعـده ، ويتلـوه :

« والبطن يجمعه العمار فاعلمن » فسقطت التاء من « العمـارة » وبعده « والفخذ يجمع للفصائل كلها » ولعله : ««، جمـع لما سلف »»،

ثم اتى بيت هكذا :

وقريشها تسمو العبارة يا فتـى وقصي بطـن الاعـادي قامعـة
وصوابـه :

وقريشها تسمى العمارة يا فتـى وقصي بطن للأعـادي قامعـة

واخيرا جاء مصراع هكذا « ذا ما ثم فخذ وذا عباسها » (ولا يستقيم وزنه ولا يتضح معناه) .

الصفحة 179 ورد عنوان كتاب هكذا «قمع اليهودي عن تعدي الحدود» وواضح انه « قمـع اليهـود »»» » .

الصفحة 181 ضبط « قل » فى اول بيت ، بكسر القـاف ، بدل ضمها ، ثم جاء مصراع ، من ثالث اربعة ابيات اخرى هكذا :

«ومن يمت قبل المشيب فانه» وصوابه»ومن لم يمت قبل المشيب فانه
الصفحة 184 جاء اولها مصراع هكذا :

« ثمت قمتا الى جرد مسومة » (بفتح ثاء ثمت ، وضم راء جـرد ، والصواب الضـم فالتسكيـن) .

الصفحة 186 جاء اول بيت من قصيدة ضم باء البعاد بدل كسرها وقصر كلمة « اللقاء » ولا يستقيم الوزن بذلك ، وكذلك « للقاء » بالبيت وجـاء المصـراع الاول للبيـت السـادس هكـذا :

« ايا كعبة الحسن التي للنفس ترتجى »

وصوابه : « ايا كعبة الحسن التي النفس ترتجى » ببناء ترتجى للفاعل ، لا لنائبه . كما هي ، وضبط « خوف » بالضم فى العاشر ، والصواب فتحه

الصفحة 187 ورد بيت هكذا :

يقول سبتي ويحمد ربه مصل على هاد الى الناس ارسلا

ولا يستقيم مصراعه الاول ، وهو مستهل بيت لقصيدة منسوبة لابي العباس السبتي ، كما بالكتاب ، ولعله « سبيتي » بالتصغير .

الصفحة 188 ضبط « ويقسمها » فى السطر السادس بضم الياء ، بدل فتحها ، وفى التاسع صحف « بيت » ويجب مد « اللقاء » بالبيت الوارد فيها ، كما تصحف فى السطر الثالث عشر « فذكر لي » وفى العشرين ، شددت طاء « مضطربة » .

الصفحة 191 يجب ضبط « وجهته » اول السطر الخامس عشر ، بكسر الواو وتسكين الجيم وفتح الهاء وكسر التاء ، للاضافة .

الصفحة 197 ينبغي ضبط « تهنك » اول ثاني البيتين ، بفتح التاء ، لا ضمها .

الصفحة 198 ضبط الآية : « وان تعفو اقرب للتقوى » بكسر همزة « ان » .

الصفحة 199 ضبط « لومة » فى المصراع «لا تاخذنك فى الشديد لومة» بالفتح ، والصواب الضم ، وفى البيت التالي جاء المصراع :

« ربيته علمته ادبته » بضم تاءات الضمائر ، والصواب فتحها للخطاب

الصفحة 200 جاء اول السطر السابع « مخول » محرفا بفعل « تخول » وعلق على « معم » قبله ، بقوله « أعني الذي يعم بخيره الناس »

وهذا التعليق فى منتهى الخطأ ، ولا يخفى انه صاحب عم ، كما ان ما بعده صاحب خال ، كما قال امرؤ القيس « بجيد معم فى العشيرة مخول » .

الصفحة 205 كتب مصراع هكذا : « راجوتك بعد الله يا خير منجد» ولا شك أن الالف اتى من عمل الطباعة وحدها ، وفى البيت بعده يجب تشديد ميم « املت » واضافة « يد » فى آخره لياء النفس ، وكذلك يجب تشديد « مأملي » فى البيت الثالث ، وتسكين تاء « علقت » لا ضمها ، وجاء آخر الصفحة بيتان هكذا :

وما هو الا الليث والغيث ان اتى له خايف او جاء مغناه مجتد

وبحر علوم دره كلماته اذا رددت فى الحفل اي تردد

والصواب انهاء المصراع الاول من الاول عند فعل « اتى » ومن الثاني عند « كلماته » .

الصفحة 206 جاء مصراع اولها هكذا : «صقيل مراى الفكر رب لطايف» ضبط « صقيل » بضم الصاد وفتح القاف ، والصواب الفتح فالكسر ، وتصحيح « مراى » بمرايا ، وبذلك يتزن البيت ويستقيم المعنى ، ثم ضبط « عروج » فى البيت التالي ، بفتح العين ، والصواب ضمها ، وجاء المصراع الثاني للخامس هكذا : « ويا شربي متى ظميت وموردي » ولا يستقيم الا بنحو « وياشربتي » وهو يتلاءم مع « عمدتي وشدتي » قبلها ، وجاء البيت السابع هكذا :

رجاك رجا الذي انت اهله وواfاك يهدي الثنا الجمدد

ولا يستقيم وزنه الا بنحو :

رجاك رجا الأمر الذي انت أهله وواfاك اهداء الثناء المجدد

وجاء بعد بيت مصراع هكذا : « وعندي افتقار لانوال مواصلا »

ولا يستقيم الا بنحو : « وعندي افتقار للنوال مواصلا »

وكذلك نجد آخر هكذا : « بقيت لخير بانوال وعزه »

واستقامة وزنه يكون « بالنوال » بدل « بانوال » .

الصفحة 210 جاء مصراع هكذا : «فوق النجوم التي فوق الافق تعلين» ولا يستقيم الا بنحو : « فوق النجوم التي فى الافق تعلين » (وحذفت ياء النفس جوازا نحو قوله تعالى « من يخاف وعيد » (وكما وجدنا وسنجد فى كثير من القوافي) .

وسقطت الهمزة من « الثناء فى البيت السادس ، فانكسر بذلك الوزن ثم اتى المصراع الثاني للذي يليه هكذا : كفا افعاله الغــر الميامين وصوابه « كفؤا لافعاله الغر الميامين » . وجاء بيتان فى الاواخر هكذا .

وانت اكرم مــن ساس الانـــام ومن عم البلاد بتسكين وتهديـــن

ومن كمثل ابي عبد الاله اذا اضحى الفخار لنا رحـــب الميادين

والصواب فى المصراعين الاولين ، انهاء الاول منهما عند « ومن » الثانية وانهاء الثاني عند « اذا » ثم تضبـــط « رحـــب » بالفتـــح لا بالضـــم وجاء المصراع الثاني للذي يليهما هكذا :
« اهدي اليه مدحا بالسعد يحظين « ولا يستقيـــم وزنـــه الا بنحـــو : « اهدى له مدحة بالسعد تحظين » ، ثم ضبط فى البيت التالي « دولة » بالضم ، والصواب فيها الفتح ، على المفعولية .

الصفحة 212 جاء اول ابيات :

شكوت فاضنى المجد برح شكاته وفارق وجه الشمس حسن آياته

جعلت التاء فى « شكوت » للتكلم ، وهي للخطاب ، وصواب الكلمة الاخيرة « اياته » بكسر الهمزة ، ثم جاء المصراع الثاني من التالي هكـــذا :

تعدت الى عواد واساتـــه والصواب : ،،، الى عـــواده ،،،

ثم جاء البيت الثالـــث هكـــذا :

وغيض ما للبشر لمــــا تبسطـــت يد للسقم فى ساحات كافي كفاته

وصواب البيت : وغيض ماء البشر لما تبسطت يــد السقــم ... (غيض بضم الغين لا بكسرها ثم تشديد الياء ، والبشر بكسر الباء وسكون الشين ، لا بفتحهما ، ويد بضم الدال ، لا بفتحها) ، ثم ضبط باء «واهب» بالفتح فى البيت السادس ، بدل ضمها ، وتضبط نون النعمى ، بالضم فى البيت التالي ، ثم تلاه بيت هكذا :

وتسطو عين الحق منك بمرهــــف تراع الخطوب الجور من فتكاتـــه

ولا يستقيـــم الا بنحـــو :

وتـــسطو عيون الحق منك بمرهــف تراع الخطوب الجون من فتكاتـــه

الصفحة 213 جاء بيت هكـــذا :

ابدا تغيض وخاطـرا متوقـــــدا دعها تبت فيها على علم النـــدى

والصواب : « أيدا » بالياء ، والهمزة للاستفهام ، وفى المصراع الثاني ، يجب ضبط « علم » بفتحتين ، لا بكسر اللام .

الصفحة 124 ضبط فى السطر الاول « طفا » بكســـرة منونـــة ، تصحيفا طباعيا ، وفى السطر السادس ، وقعت « فى » قبل « القصيدة » ولا محـــل لهـــا .

الصفحة 216 يجب ضبط « الادباء » و « الشعـــراء » بالضـــم . وفى البيت السابع عشر ، تحرف « أنك » بأنت ، أول البيت مع الواو .

الصفحة 218 يضبط « ينبر » فى السطر الرابع ، بالضم فالفتـــح فالكسر المشدد ، وفى التاسع « موئلي » بفتح فسكون فهمزة مكسورة ، وجـــاء المصـــراع الثانـــي من البيـــت الثالـــث ، بها هكـــذا : بخير زمان منه لا زلت فيه تعتاي ! ولا يستقيم وزنه الا باسقاط « فيه » .

الصفحة 220 جاء بيت هكذا :

وطاشت عقول الخلق واشتد خوفهم وفر عن الانسان خل وصاحب

والصواب : انهاء المصراع الاول عند « خوفهم » .

الصفحة 221 يجب ضبط « المعاقب » آخر البيت الاول بالضم ، وبعد القصيدة ، وردت أبيات أولها بيت هكذا :

يهني الخلافة فتحت لك بابها ،،، بضم الياء والباء ، والصواب فتحهما ، بعد فتح تاء « فتحت » .

ثم جاء بيتان هكذا :

يا يوسفيا باسمه وبوجهه اصعد لمنبرها وصن محرابها

فى الارض مكنك الاله كيوسف ولتملكن بربها أربابها

والصواب انهاء المصراع الاول من الاول عند « بوجهه » ثم ضبط «ولتملكن» أول المصراع الثاني من الثاني ، بكسر اللام ، لا ضمها ، وفى السطر الرابع عشر ، تحرفت « اذ » باذا .

الصفحة 222 جاء بيت هكذا :

على الفقيه ابي بكر تضمنه رمس واعمل سيرا ثم لم يؤب
والصواب انهاء المصراع الاول عند « تضمنه » . وبعده ببيت جاء آخر هكذا : لكن ولا على الرحمن محتسبا ،،،، (والصواب : لكن ولاء ،،،) ثم جاء المصراع الثاني من التالي هكذا : « ما ضرت الريح أملودا من الغضب » (ولعل الصواب : ما صرت ، بالصاد ، وان « الغضب » محرف القصب) وجاء مصراع آخر هكذا : قل فيه أما تصف ركنا لمنتبذ (ولا وزن له ولا معنى واضحا) ويضبط « قرب » بضم الراء فى البيت التالي .

ثـم جـاء بيتـان هكـذا :

ما كان الا من الناس الالى درجوا عقلا وحلما وجـودا هامي السحـب
امسى ضجيع الثرى فى جنـب بلقعة لكن محامده تبقى على الحقب

والصواب فى المصراعين الاولين ، انهاء أولهما عند « درجو » وثانيهمـا عند « بلقعة » ثم تضبط « محامده » بضم الدال ، وقبل البيت الاخيـر بالصفحة جاء بيتان هكذا :

ما اغفل المرء عما قد اريد بـه فى كل يوم تناديه الردى اقترب
يا ويح نفسي الانفاس مضت هدرا بين البطالة والتسويف واللعـب

ضبط فى الاول « المرء » بالضم ، والصواب الفتح ، وكذلك ضبـط فى الثاني « يا ويح » بالضم ، والصواب الفتح ، ثم حرف « لانفاس » بالانفاس، وصواب المصراع الاول من هذا البيت انهاؤه عند « هدرا » هكـذا :

يا ويح نفسي لأنفاس مضت هدرا .

الصفحة 223 : جاءت اربعة ابيات فيها هكذا :

ما المال الا قوى من الله فأفلـح من جاء القيامة ذا مال وذا نشب
ابا بكر الارضـى نداء أخ بـاك عليك مدى الايـام مكتئـب
لله لله والآجـال قاطعـة مـا بيننا من خطابات ومـن خطـب
وقل ما شفيت نـفس بـزورة من حل البقيع ولكن جهد ذى ارب

صواب المصراع الاول من الاول حذف « قوى » ثم انهاؤه عند « مـن » وصواب الاول من الثاني نحو : « فيا أبا بكر الارضى نداء أخ » وصواب الاول من الثالث انهاؤه عند « قاطعة » ومن الرابع عند « من » ثم يضبط « حل » فعلا ماضيا ، وليس اسما بكسر الحاء واللام .

«يتبـع »

تطـوان محمد بن تاويت

أبو عمران الفاسي
والعلاقات العلمية بين المغرب وتونس

محمد الفاسي

من المعلوم أن مدينة القيروان كان لها دور طلائعي في نشر العلم والحضارة في ربوع المغرب العربي وأن جامعتها بمسجد عقبة بن نافع الفهري بالقيروان كانت الاولى من نوعها في بلادنا ولقد عم اشعاعها كل بلاد الغرب الاسلامي الى الأندلس ، وقد ظلت المنار الذي يشيع نوره على كل هذه الأقطار الى ان خلفتها جامعة القرويين بفاس ثم جامعة الزيتونة بتونس .

وجامعة القرويين نفسها من بركات مدينة القيروان حيث ان مؤسستها فاطمة أم البنين الفهرية من عائلة قيروانية نزحت الى فاس بعد بنائها ونزلت في الضفة اليسرى لوادي فاس مع الأسر التي هاجرت من القيروان الى فاس ، واطلق على هذه الضفة اسم عدوة القرويين وهو اختصار للقيروانيين . ومن ثم احدثت علاقات مستديمة مع القطر التونسي وخصوصا مع جامعة القيروان اولا ثم مع جامعة الزيتونة . ولقد تجلت هذه العلاقات في الناحية العلمية بالخصوص حيث كان يقصد الطلبة من اهل المغرب والأندلس مدينة القيروان للأخذ عن علمائها خصوصا

عن الامام سحنون رضي الله عنه وعن تلامذته من بعد وعن ابن ابي زيـــد القيرواني في وقته ، كما كان يقصدها علماء من القرويين للتدريس بهـــا وقد استمرت هذه السنة طيلة قرون .

ومن المشاهير من علماء القرويين الذين قصدوا القيروان العلامة القاضي عبد الرحيم ابن العجوز المتوفى بفاس سنة 413 هـ . اخذ عن الامام ابن ابي زيد القيرواني واختص به وسمع منه كتبه وادخلها للمغرب .

ومنهم مترجمنا الامام ابو عمران الفاسي اشهر علماء الفقه المالكـــي بالمغرب الأقصى ثم بافريقية في القرنين الرابع والخامس مع المشاركة في علوم كثيرة والرواية الواسعة والحفظ للحديث وهو أبو عمران موسى بن عيسى بن ابي حاج الفاسي الغفجومي نسبة الى قبيلة بربرية زناتية بنـــي غفجوم ، وقد انجبت هذه القبيلة علماء أكابر من بيت ابن أبي حاج هـــذا ومن بيوتات أخرى من اهل فاس حيث كان يسكن بالحومة التي لا تزال الى الآن تحمل اسمه اي درب ابي حاج بالطالعة .

وولد ابو عمران بمدينة فاس سنة 365 هـ ونشا بها وبدا دراسته على علمائها من تلامذة الامام الشهير ابى ميمونة دراس بن اسماعيل الذي ادخل مدونة الامام سحنون مدينة فاس . ثم رحل ابو عمران في طلـــب العلم الى عواصمه في القرن الرابع بالمشرق والمغرب مثل مكة وبغـــداد حيث سمع من ابى الفتح بن ابي الفوارس وابي الحسن المستملى وذلك سنة 399 هـ ودخل القيروان وقرطبة . وقد سمع بمكة الحديث على ابي ذر الهروي وحج عدة حجج واخذ في القيروان عن الامام القابسي . امـــا بالأندلس فاكبر مشايخه مواطنه الامام الأصيلي الذي كانت انتهت اليـــه امامة الفقه بقرطبة وقد نزح اليها من مدينة أصيلة القريبة من طنجة على شاطىء المحيط الأطلسي . ومن جملة من اخذ عنهم بقرطبة ابو عثمـــان سعيد بن نصر وعبد الوارث بن سفيان وابو الفضل احمد بن قاسم البزاز .

ومن شيوخ أبي عمران القاضي أبو بكر الباقلاني درس عليه الأصول . ورجع بعد كل هذا الى بلده وتصدر للاقراء بالقرويين واقبل على دروسه جمهور الطلاب لما اظهر من تبحر في العلوم وتوفيق في الالقاء والتفهيـــم

كما التف حوله اهل فاس من الخاصة والعامة وصار مرجعهم فى كافـــة شؤونهم وموئلهم فى المدلهمات ، وكان له صبر كبير على الاقراء وقوة على العمل . ولما شاهد علماء وقته هذا النجاح الذي حصل عليه ابو عمران وهذه المحبة التي تمتع بها من قبل أهل فاس غاروا منه وحسدوه واخذوا يناوؤونه ويسعون فى اذايته سرا فقرر أن يهاجر من بلده ويقصد مدينة القيروان التي كان سبق له أن دخلها ودرس بها وشاهد من لطف اهلها ما حبب له المقام بها . وقد استقبل بحفاوة كبيرة بما عهد فى أهل تونس من الانصاف والشيم الكريمة وتعظيم العلماء ، شهد بذلك وقرره واشاد بـــه صاحب كتاب ((الفكر السامي فى تاريخ الفقه الاسلامي)) الفقيه محمد ابن الحسن الحجوي (ج 4 ص. 89) فى ترجمة الامام عبد العزيز بن موسى ابن معطي العبدوسي الفاسي الذي نزح الى تونس أربعمائة سنة بعد ابي عمران الفاسي . قال مؤلف الفكر السامي : ((قد أعجب به علمـــاء تونس وامراؤها لما ورد عليهم وعطلت دروس جامع القصر وقت تدريسه وصار جميع العلماء يحضرون القاءه ويستفيدون منه مدة نحو عشرين سنة)) . ولقد علق على هذا آخر ترجمة العبدوسي بقوله : ((هذا ومـــا وقـــع للعبدوسي لا يستغرب لأن أهل القطر التونسي موصوفون بالانصاف ولين العريكة ومحبة علماء المغرب وتعظيمهم واكرامهم . وكم عالم من المغرب ذهب اليهم فاحسنوا القرى واخذوا عنه واعظموا جانبه)) ثم ذكر ما وقع له نفسه من اقبال العلماء عليه وقد القى بالزيتونة دروسا فى التفسير كان لها صدى فى الأوساط العلمية .

وهذا ما وقع بالضبط لأبي عمران الفاسي فانه قضى بين ظهرانيهم قريبا من ثلاثين سنة تبوأ اثناءها المقام الأول بين علمائهم مبجلا مكرما .

ولقد وقع فى أيامه نزاع عظيم بين العلماء وتجاوزه الى العامة وكثر النقاش فيه حتى خرج عن طور الاعتدال الى القتال وكان سببه الاختلاف فى مسالة هل الكفار يعرفون الله ام لا . فقال قائل : ((لو ذهبنا الى أبي عمران لشفانا)) . فذهب اليه اهل السوق بجماعتهم وقالوا : ((نحـــب جوابا بينا على قدر افهامنا)). فاطرق مدة وقال :((لا يكلمني الا واحد ويسمع الباقون)) . ثم التفت الى واحد منهم فقال : ((ارأيت لو لقيت رجلا فقلت له : هل تعرف ابا عمران الفاسي ؟ فقال : اعرفه ، فقلت صفه لي فقال :

هو رجل يبيع البقل والحنطة والزيت في سوق ابن هشام ويسكن صبرة، اكان يعرفني ؟ قال : لا . » قال بعد ذلك أبو عمران : « فلو لقيت رجـــلا آخر فقلت له : هل تعرف ابا عمران الفاسي ؟ فقال نعم . فقلت له : صفه لي . فقال هو رجل يدرس العلم ويفتي الناس ويسكن بقرب السمـــاط اكان يعرفني ؟ قال : نعم . قال فهما مثال الكافر والمومن ، فان الكافر اذا قال : ان لمعبوده صاحبة وولدا وانه جسم وقصد بعبادته من هذه صفته فلم يعرف الله ولم يصفه بصفته . وهو بخلاف المومن الذي يقول : ان معبوده الله الأحد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤا احد ، فهذا قد عرف الله ووصفه بصفاته وقصد بعبادته من يستحق الربوبية سبحانـــه وتعالى » .. فقامت الجماعة وقالوا جزاك الله خيرا من عالم فقد شفيت ما بنفوسنا ودعوا له . ولم يخوضوا فى المسالة بعد هذا المجلس .

ويستفاد من هذه القصة التي اوردها مؤلف الفكر السامي مـــا كان عليه الامام أبو عمران الفاسي من الذهن الوقاد ومن معرفة نفسية رجال الشعب فقد قرب لهم المسالة بطريقة طريفة ويظهر منها أيضا مـــا عرف عنه من التوفيق فى التبليغ وحسن التفهيم .

وكان رجلا جريئا يحكي عنه أنه فى وقت أخـــذه عن أبي ذر بمكـــة المكرمة وافق انه لما قصده فى محل اقرانه وجده متغيبـــا فى السراة موضع سكناه . قال ابن بشكوال فى الصلة (1) : « فقال لخازن كتبه : اخرج الى من كتبه كتاب كذا انتسخه ما دام هو غير حاضر . فاذا حضر قراته عليه . فقال له الخازن : اما انا فلا اجترىء على مثل هذا ، ولكن هذه المفاتيح آن شئت انت فخذها وافعل ذلك » . فاخذها الفقيه ابـــو عمران وفتح واخرج ما اراد . فسمع الشيخ ابو ذر بالسراة بالأمر فركب وطرق الى مكة واخذ كتبه واقسم الا يحدثه . فقد اخبرت أن ابا عمران كان بعد ذلك اذا حدث عن ابي ذر شيئا كان حدثه قبل يوري عن اسمه ويقول : اخبرني ابو عيسى . وذلك أن ابا ذر كانت العرب تكنيه بأبي عيسى لأنه كان له ابن يسمى عيسى . والعربي انما تكني الرجل باسم ابنه » .

(1) طبعة الدار المصرية للتاليف والترجمة ، القاهرة 1966 ، ج 2 ص : 611 .

وهذه القصة تدل كذلك على شغفه بجمع الحديث وارتكابه مثل هذه الجراة على شيخه مع ان مقام ابي ذر الهروي وجلاله كان من شانهمـا ان يصداه عن الاقدام على مثل هذا التصرف .

ويظهر ان ابا عمران الفاسي كان صعب المراس خصوصا مع اقرانه من العلماء وكان بالقيروان في وقته عالم كبير من طبقته وهو ابو بكـر بن عبد الرحمن وكانت العامة تعظمهما . قاله في المدارك : « وقد وقعـت نفرة بينهما . فطمع صاحب افريقية ان يتوصل بذلك الى تقليل نفوذهما على العامة بشهادة احدهما على الآخر فتقوم الحجة عليهما معا ، اذ كانت العامة طوعهما . فلما اختبرهما وجد بينهما امتن مما يظن وخاب ظنه ».
وقد قال الضبي في البغية في ترجمة ابي العباس احمـد بن رشيق : « وله رسائل متداولة منها الرسالة الى ابي عمران موسى بن عيسى بـن ابي حاج الفاسي وأبي بكر ابن عبد الرحمن فقيهي القيروان في الاصـلاح بينهمـا » .

اما عن علمه فقد اجمع مترجموه على الثناء عليه وقد كان من احفظ الناس للحديث وللمذهب المالكي ، وكان متخصصا في القراءات وقـد اقرا القرءان الكريم ببغداد . وكان يقرا بالسبع وله معرفة واسعة بتاريخ الرجال وجرحهم وتعديلهم . وكانت دروسه بالقيروان تضم عدد كبيرا من الطلبة من اهل تونس ويقصده الطلاب من كافة اقطار المغرب العربي بمـا في ذلك بلاد الاندلس . ومن قصد الحج من افاضل المغرب يمر بالقيروان لزيارة عالمها الفذ ابي عمران الفاسي . فكان ممن قصـده في احـدى السنين الامير يحي بن عمر اللمتوني الكدالي مع جماعة من اهل قبيلتـه فطلب منه ان يرسل معه احد تلاميذه ليفقه قومه في الدين لأنهم كانـوا لا زالوا في جهالتهم يعمهون . فلم يرد أحد من تلاميذ الشيخ ان يذهـب الى صحاري لمتونة لصعوبة تلك البلاد وجفاء طباع اهلها وبعدهم عـن الحضارة الاسلامية . فاشار ابو عمران على الامير يحي بن عمر بن ابراهيم أن يقصد الفقيه وجاج بن زلوا اللمطي من اهل سوس الاقصى بـوادي نفيس وقد كان درس عليه بالقرويين واعطاه هذه الرسالة التي حافظ لنا عليها المؤرخون ونصها : « سلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته . امـا

بعد اذا وصلك حامل كتابي هذا وهو يحي بن عمر بن ابراهيم الكدالـــي فابعث معه الى بلده من تثق بدينه وورعه وكثرة علمه وسياسته ليعلمهم القرءان وشرائع الاسلام ويفقههم فى دينهم . وله ولك فى ذلك الثواب والأجر العظيم . والله لا يضيع اجر من احسن عملا والسلام » . وكـــان الشخص الذي وقع عليه اختيار الفقيه وجاج بن زلوا هو عبد الله بـــن ياسين مهدي المرابطين على حد تعبير احد المؤرخين .

وهكذا فان الامام أبا عمران الفاسي وجامعتي القرويين والقيـــروان لهم الفضل فى تاسيس الدولة المرابطية التي قيضها الله لارجاع هيبـــة الاسلام الى الأندلس بعد ان كاد يقضي عليه واستمر الى اربعمائة سنـــة بعـــد ذلـــك .

وقد اتب ابو عمران تآليف فى الفنون التي كان يتقنها خصوصـــا الحديث والفقه ذكرها مترجموه من ذلك كتاب التعاليق على المدونـــة ، قال ابن فرحون في الديباج : « كتاب جليل لم يكمل » وقال القاضـــي عياض فى المدارك : « جمع من عوالي حديثه مئة ورقة » وذكروا لـــه فهرسة والفهرسة فى اصطلاح المغاربة الكتاب الذي يذكر فيه مؤلفـــه مشايخه واخذه عنهم مع سند رواياتهم وهي تقابل الثبت عند المشارقة والبرنامج عند الاندلسيين ولم يصلنا شيء من تآليف آلا ان بروكلمـــان نسب له في ملحق تاريخه للآداب العربية (ملحق واحد ص. 661) كتابا سماه النظائر ، وقال : منه مخطوط فى خزانة الجزائر تحت رقم 2ر1060.

وقد اتفق المؤرخون على ان ابا عمران الفاسي توفي سنة 430 هـ عن خمس وستين سنة فتكون ولادته كما قدمنا سنة 365 هـ الا ان ابـــن بشكوال ذكر فى صلته بعد تاكيده لهذا التاريخ ان ابا عمر بن عبد البـــر قال : « ولدت مع ابي عمران فى عام واحد سنة ثمان وستين وثلاثمائة ». والمعول على ما اجمع عليه كل من ترجم له .

هذا ويتضح من خلال هذه الترجمة ما كان من الاتصـــال العلمـــي الوثيق بين المغرب وتونس من اقدم العصور وكيف ان هذا الاتصال رغم صعوبة الاسفار كان متواصلا وكان التعارف بين العلماء واخذ بعضهم عن

بعض من الظروف العادية وانتقال المؤلفات ما بين عواصـــم العلـــم امرا ميسورا مما جعل الحضارة الاسلامية تطبع البلاد الاسلامية بطابعها الخاص والاتجاهات الفكرية متحدة مما لا يحصل اليوم الا قليلا وتنظم المؤتمرات وتعقد المعاهدات لتحقيقه . وقد كان للحج دور مهـــم فى ربط البـــلاد الاسلامية بعضها ببعض كما يظهر ذلك ايضا فى ترجمة أبي عمران الفاسي وقد بدأ حياته العلمية بالتردد على العواصم العلمية بالمشرق عند توجهه للحج ولما استقر بالقيروان كان يعرج عليه كثير من طـــلاب العلـــم فى طريقهم الى الحج كما قدمنا ، وكان ذلك مما يمتن العلاقات العلميـــة بين المغـــرب وتـــونس .

ورحم الله أبا عمران الفاسي رحمة واسعة .

الربـــاط   محمد الفاســـي

قصة

سقط الزند

د. محمد زنيبر

حين انتهينا من الدرس الرسمي ، حلت ساعة المحادثة الحـــرة . وكنت أترقبها بشوق ، ولعل الأصح أن اقول : كنا نترقبها بشوق .

كان جالسا كعادته على ((هيدورة)) قديمة ، كانه يحب ان يدفـــيء جسمه النحيل بصوفها . وامامه طاولته الصغيرة الواطئـــة . وفوقهـــا اوراق وكتب ودفاتر واقلام وفنجان قهوة ومرمدة . وكنـــت اقابله مـــن الجهة الأخرى على نمرقة من الجلد محشوة بالصوف .

اشعل سيجارة وعلت نظراته مع الدخان المتصاعـــد ثم وقعـــت بالمصادفة على دفتري . كانت الصفحة فارغة لاني لم اسجل فيها شيئا . فقـــال :

((مشغول البال ، كعادتك ، يا سي محمد !))

— اتعتقد هذا ، يا سي عبيـــد ؟

— وهاته الجريدة التي دخلت بها هذا الصباح ؟

— واي ضيـــر فى ذلـــك ؟

— آن والدك على حق فى التشكي منك . يجـــب ان تاتـــي الى الدرس فارغ البال ، هادى ءالضمير .

— ولكن الجريدة ، يا استاذي العزيز ، تنطوي ، احيانـــا ، على اشيـــاء مهمـــة .

— اي اشيـــاء ؟

— جريدة اليوم فيها انباء خطيرة جدا . انهم يتحدثون عن نهاية الحرب وعن قرب استسلام الالمان .

فضحك ضحكة رنت لها جدران الحجرة العارية وقال :

— كل هذا خور فى خور ! هل تظن ان البشر يخرج منه الخير ؟ دعهم فى طغيانهم يعمهون .

— وهاته الجلبة القائمة فى الدنيا كلها ؟ وهاته التعاليق التـــي لا تنتهي فى الصحف والراديو ؟ وهؤلاء الملاييـــن من النـــاس الذيـــن ينتظرون اعلان السلم ليستانفوا الحياة على حقيقتها ؟

قهقهة جديدة اردفها بقوله :

— لا نضيع وقتنا ! فلدى مفاجـــاة احسن مـــن مفاجاتـــك . تركني اتساءل وقام من حينه الى رفوف فى زاوية الغرفة ، وانتزع من بين كتبه المبعثرة هناك لفافة أوراق صفراء ، مفكوكة ، وعاد بها مزهوا الـــى مقعده ، وتاملها لحظة وكانه يحمل فى يده اثمن وانفس شيء فى الدنيا . وقال لي بصوت الظافر :

— لقد عثرت ، اخيرا ، على ديوان « سقط الزند » او ، بالاحرى، على جزء منه . وانت تذكر كم حدثتك عنه وكم تحسرت على ضياعه .

— انتهت متاعبك ، اذن ، يا سي عبيد ! فلكـــم تاسفت عليـــه وتحسرت ؟ !

— نعم . يمكنك ان تقول ان هذا هو الكتاب الوحيد الذي عشت معه وعاش معي منذ الصبا دون أن أمل من معاشرته ، ولكن أبت الأقدار الا ان ترزئني في جزء من هذا الكتاب العزيز علي . ومع ذلـــك ، فانـــا مسرور غاية السرور بالعثور على ما بقي منه .

— وكيـــف عثـــرت عليـــه ؟

— هاته قصة تضحك وتبكي ، مجملها ان الوالدة وضعته مـــع جملة اوراق بالية متلاشية كانت تنوي احراقها في الكانـــون او دفعهـــا للزبال . وهذا ما وقع بالنسبة للجزء الضائع .

فدفعني الفضول الى ان اساله :

— ولعل الوالدة تالمت لما عرفت الحقيقة ؟

— انها لم تتالم بل صاحت في وجهي واعتبرتني انا المسؤول عن كل ما حدث لأني أترك اوراقي في كل مكان ، وابعثرها في اركان البيت ، وهي صاحبة نظام ولا تسمح لها تربيتها بان تترك الأوراق تعشش فـــوق الفرش والمقاعد وتفسد منظر المكان ... الخ . فهي ، كما ترى ، تنظر الى الموضوع من زاوية أخرى .

ولست ادري هل كان يحب والدته ، ولكنها كانت حاضرة في حياته باستمرار . ومهما ضايقته ، ومهما قست عليه ، لم يكن يتصور وجـــوده بدون وجودهـــا .

اعاد الأوراق البالية قريبا منه على الطاولة ويداه المرتعشتـــان لا تكادان تسخوان بها . فاي سر مثير ، يا ترى ، بث في نفسه المعـــرى ، عبر القرون الطويلة حتى اصبح يهتز ، وهو الرجـــل الهادىء الـــوادع ، للحـــوار معـــه ؟ !

السؤال على طرف لساني ، ولكني افضل ان لا القيه ، وان انتظر حتى ينطق على سجيته . وآنذاك فقط يتحدث وكانه يعود من مغامرة بعيدة وكأنه يشتهي أن يحدث السامع بذكريات طرية ما زالت تتحرك في نفسه .

غرقنا في لحظة صمت ، كان الكلام لم يعد قادرا على اداء ما كنا نشعر به ازاء الحدث . وكان ينظر الي وكنت انظر اليه وانا آيس من ان يكون بين نظرتينا أي لقاء او حوار . فلتنظر ما شئت ان تنظر ، انك لن تفهمني . انك شاب غرير اناني يظن أن العالم خلق له وحده ، لتحقيق رغباته وشهواته ، شاب معتد بمدرسته العصرية وبلغته الأجنبية التي ينطق بها في كبر وخيلاء ، شاب أراد له ابوه أن يعود الى ينابيع الثقافة العربية ، فبحث له عن اديب ((تقليدي)) او ((بلدي)) كما يبحث بعض الناس عن السمن الحار ليصنعوا منه ترياقا . فها انت ذا في حضرة ذلك الأديب تقدم رجلا وتؤخر اخرى ، لا تفتأ تنظر اليه وحواليه . مشاهد تروعك بتقشفها وتواضعها وبساطتها . انت تريد الأشياء الكثيرة الأنيقة باشكالها الساطعة بالوانها . فها انت في مكان لا يدخله النور الا من كوة صغيرة . أرضه عارية وأثاثه منعدم ، وفراشه قليل . ولا يسمع فيه صدى الحياة الا من بعيد حينما يترجع سجع الحمام من وراء ثقب الباب . ولكن لا تغتر ولا تخطىء في حقي . واياك ان تظن اني تخليت ، اني زهدت! كلا ! انا أيضا أريد آن اعيش لأني احب الحياة ، وأهفو الى انوارها واتعلق بكل انفاسها وأرهف السمع لأصدائها واشعر بقلبي يخفق معها باستمرار . نعم ، آن الظل يلاحقني ويحاصرني ولكن احب الشمس واجري نحوها . فلا تخطىء في حقي فتضعني على هامش الحياة وتلفني مع تلك الأوراق الصفراء التي تكتنفني والتي لا اقوى على فراقها ! وكف من نظرك الي بتعجب كاني مخلوق غريب عن هذا العالم ، ليس له فيه مكان ! وتيقن ، ان كنت تشك ، اني في موج الحياة وتيارها !

وقطع الصمت الذي بدا يطول فيما بيننا ، حينما امسك من جديد بقايا الديوان ، وقال :

— خير البر عاجله ! لطالما قلت لك ان احسن ما يمكن ان تتعلمه في الأدب العربي كله يوجد عند المعري ! فارهف سمعك ، اذن ، انه يقول في ثنايا قصيدة :

واطربني الشباب غداة ولـــى	فليت سنيه صوت يستعـــاد
وليس صبا يقاد وراء شيـــب	بأعوز من اخـى ثقـة يقـــاد
كاني حيث ينشا الدجن تحتـــي	فهـا انا لا اطـل ولا اجـــاد
رويدك ايها العـاوي ورائـــي	لتخبرني متى نطـق الجمـــاد

ولاح في عينيه بريق الاعتزاز ، وعاد له حماس الشباب وتهدج صوته طربا وهو يقرأ هاته الأبيات وينبري لشرحها :

— هل رايت بناء امتن واجمل من هذا ؟ اقرأ هاته الأبيـــات على مهلك وتفحصها كلمة بعد كلمة ، فستدرك أن عمل الجوهري الماهـــر لا يساوي شيئا بالقياس الى هذا السبك . كل لفظـــة تنزل في مكانها نزولا صحيحا ، فلا تشعر بنبوة ولا كبوة . انه ، في نفس الوقت ، عمل مهندس وبناء عبقري يبني بناء الخلود بالحجر المنجور . اللغة في يد غيره تظـل خرساء ، اما هو ، شاعرنا المعري ، فانه ينطقها ويكشف عـــن معانيهـــا الدفينة والدقيقة ، فتلتذ بالوقوف عند كل لفظة كانك تتعرف عليها مـــن جديد وتتلقفها من ينبوعها الأول ، من افواه العرب الأقحاح في باديتهم . لكن الشاعر ، في نفس الوقت ، يوفق الى ابداع من نوع آخر ، وهـو ان يجعل من كل كلمة ينبوعا نورانيا يشع بالمعاني والأخيلة التي يصعب عليك ان تحصيها وتخشى ان تضل في متاهتها .

لقد انطلق من عقاله ، على سجيته ، كالجواد السابح يركض بيـــن المروج والخمائل . وتلك هي اللحظة التي انتظر كما ينتظر الشاعر صوت العندليب بين الساعة والساعة وهو يسرح بصره في الطبيعة . ولكنه هو لم يكن يعرف ذلك ، لم يكن يتصور اني صديقه وقريب منه ، برغم كـــل ما يباعد بيننا . واستمر يقول :

— خذ ، مثلا ، اولى كلماته ((واطربني)) وتامل جيدا فى ايحاءاتها. الطرب المتعارف بيننا هو الذي يحصل عن الموسيقى ، فهو يعبر عن النشوة والسرور الحادثين فى النفس عند الاستماع اليها . ولكن هل يؤدي هذا المعنى ما يقصد اليه شاعرنا ؟ اننا اذا وقفنا عند حدوده لا نخرج عن الطرب السوقي السطحي المبتذل الذي يمكن أن نشاهده فى كل وقت ومكان . بل آن المعري يقصد الى طرب من نوع آخر ، طرب نادر ونفيس ونبيل لا يمكن ان يحس به الا الشاعر المرهف النفس الذي يعيش مع وجدانه . فيتساق بفضل تضلعه فى اللغة الى ما قصد اليه العرب الأقحاح بكلمة طرب . فهي عندهم تفيد كل انطباع سريع وقوي فى النفس ، سواء آكان من الفرح أم من الحزن . انها تنظر من الباطن الى الاهتزاز القوي الذي يحرك الذات من الأعماق بكل كوامنها لاسباب تختلف فى انواعها ولكنها تلتقي كلها فى كونها تحول الانسان فجاة الى ان يعيش بقوة مع نفسه وبنفسه . فالمهم ليس هو الحزن او الفرح ، وانما ذلك المستوى العالي الذي يرتفع اليه الشعور والذي ينقلنا من الحياة المبتذلة من حضيض الزمان الضائع الى الرؤيا الممتعة الى الآفاق المغرية ، الى الوجه الجذاب من الحياة الذي كثيرا ما يظل متواريا .

((نعم ، آن المعنى الذي يخطر ، لاول وهلة عند قراءة تلك الأبيات ، هو الحزن ، لأن الشاعر يتحدث عن شيء يتعلق به ويحبه وياسى على فراقه الا وهو الشباب . وكل فراق من هذا النوع لا يجري بدون حسرة واسى ، سيما وهو امام امر محتوم لا سبيل للتملص منه . فالوداع ، هنا ليس لشخص محبوب كان فى مستطاعه آن يتلطف ويعطف فيتخلى عن رحيله ويربط حبل التواصل من جديد ، بل هو لفترة من العمر لا بد من ان تنقضي بحكم الطبيعة والمشيئة الالاهية ، وهل آستطاع اى انسان ان يحتفظ بشبابه ؟ ! انه ، اذن ، وداع لا بد منه ! وهاته تجربة ما زلت تجهلها انت ، ايها الشاب الغرير !)) .

وامسك آنذاك بسبلة شاربيه التي طغى ابيضها على اسودها ، كانه يريد أن يلمس بيده ما يعبر عنه بشفتيه وواصل كلامه :

— لكن هنالك ، ايضا ، معنى الفرح فى كلمة طـــرب . فهـــل نستبعده ونضرب عنه صفحا ؟ ما رايك ؟

— كما قلت الآن بنفسك ، الفراق لا يمكن ان ينشا عنه الا اللوعة والحزن . ولذلك فلست ارى هنا اي باب يلج منه الفرح .

— ما أسرعك الى التاكيد ، يا رجل ! تامل الموضـــوع وتفلسف فيه مليا ، فستتبين ان هنالك امكان لظهور الفرح . متى ينتبـــه الشاب لشبابه ؟ انه ، وهذا معروف بالتجربة ، لا ينتبه اليه وهو شاب ، وانمـا يعيشه ويستبطنه ويتقمصه ويستهلكه لحظة لحظة ، دون ان ينظر اليه . انها بالنسبة اليه قوة ، ملكة ، هبة جاءته بصورة طبيعية دون جهد . فهو لا يتصور كيف ستنتهي فى زمان وشيك ، ويرفض أن ينظر الى هذا الأمر المحتوم . فاذا ادبر عنه الشاب ، رآه آنذاك وادرك ما هو واستطـــاع ان يستحضر صورته بكل قسماتها والوانها . وساعده على ذلك انه لم يبق قريبا منه ، بل اخذ من البعد ما يساعده على تحقيق الرؤيا المضبوطة . واذا تراءى له الشباب مرسوما فى خياله ، لا بد وأن يتاثر بجمال صورته، بل لجمال صوره بالجمع ، لأن له صورا لا تنتهي . انه ينظر اليه كمشهد او كرسم بديع ، فيطرب له طرب الفنان ، ويكون الطرب مرادفا هنا للفرح والنشـــــوة ...

وفى تلك اللحظة بالذات قطعت كلامه نقرات ضعيفة من خلف باب الغرفة . ولم تكن تلك النقرات مفاجاة لنا . انها والدته العجوز جاءت فى الوقت المعتاد بالفطور . نهض ليتسلم منها الصينيـــة ، فيهـــا الشاي والأقراص المعجونة بالسكر . انه فطوره الذي لا يتغير . وناولني كاسا من الشاي بالنعناع . فقلت له ، مدفوعا ، فى آن واحد ، بالاشفاق وحـــب الاطـــلاع :

— كيف حال الوالدة ؟

— لا باس عليها ، فى الجملة . انها تشكـــو ، اساسا ، من داء النقرس او ما تمسونه انتم الروماتيزم . ولكنها لا تريد ان تستريـــح ،

وتابى الا أن تفعل كل شيء بيدها من طبخ وكنس وتصبين . ولا تقبل المساعدة آلا اذا اقعدها المرض فى الفراش .

— هناك حل طبيعي لك ولها .

— حل ؟ اى حل ؟

— تتزوج .

— أن أتزوج ؟ أن آتي الى بيتي بامراة ؟ هل تعرف ما تقول ؟

وضحك ضحكة كلها سخرية واستنكار . ونظر حواليه الى الكتب والأوراق كانه يعتذر لها عن ترويج فكرة الزواج بمحضرها .

— انك تتكلم عن شيء تجهله ، يا سي محمد . الزواج ؟ اعوذ بالله ! أعوذ بالله !

— ولمه ، يا أستاذي العزيز ؟ ألست جديرا بامرأة شابة جميلة تحوطك بعنايتها وتؤنسك بحديثها وتدفئك بقربها كما تريح الوالدة وترعاها ؟

واحسست باطرافه ترتعش ، فاستدركت الموقف قائلا :

— على كل حال ، يمكن أن أكون مخطئا فى هذا الراي ، ولكن قصدي هو أن اراك سعيدا .

— انك مخطىء ، على طول الخط ، وهذا امر لا يمكن أن تفهم فيه شيئا ! لنطو ، اذن ، هاته الصفحة بسرعة ، ولنعد الى ما كنا بصدده! آه نسيت اين كنا ؟ سامحك الله ، يا محمد ، شغلتني بتلك السفاسف ! . .

— كنا نتحدث عن الطرب حينما يعبر عن الفرح .

— آه ! عادت الى الذكرى الآن . راينا ان الطرب فى بيت المعري يمكن ان ياتي من الحزن ، كما يمكن ان يتولد عن الفرح . فاذا قرناه الآن بالذكرى ، صار يعبر عن شيء ثالث هو الشوق ، اى الطرب الناشىء عن

الشوق الذي هو توجه قوي وتلقائي الى شيء عزيز علينا ، اكرهنـــا على فراقه . انه رغبة ملحة فى العودة اليه . فتصور الآن تشوق الكهل الى الشباب ، انه ، بالطبع ، لا يعيده الى الشباب الحقيقي ، ولكنه يتيح له ان يعيش معه ولو بالذكرى ، ان يعود اليه ولو فى الخيال . ومثل ذلـــك الحلم هو لوحة النجاة بالنسبة اليه فى لجة الحياة ذات الأمواج العاتية . فلولا ذلك الشوق ، ما امكنه أن يشعر بنبض الحياة فى عروقه ، فيواصل سعيه وتحركه . واظن أن هذا المعنى هو الذي قصد اليه الشاعـــر . فالشوق انطلاق واشراق . انه موقف بين طرفين : الواقع والأمل . فهو، لذلك ، يجمع بين الفرح والحزن ، بين الكسب والحرمان . انه ملتقـــى لعواطف مختلفة ومتناقضة . ولكنها تلتقي كلها في نفس واحده ، فتثيـــر فيها شتى الكوامن ، وتدور بها نحو آفاق مختلفة . وانظر اليه بعد ذلك كيف استعمل فعل « ولى » بدل انصرف أو ذهب أو رحل او غيرها مـــن المترادفات . لأنه احسن تعبيرا عما يقصد اليه ، فهو لا يشير فقط الى تحرك في الحيز والزمان ، بل انه مشحون بلهب عاطفي . فالتولي يفيـــد الادبار بعد الاقبال ، فكانه يشعر بنفور وباحتياج الى الفرار وكانه يقـــرر الرجوع من حيث اتى لكراهية حدثت في نفسه . فهل هو ملل نشا بعد طول عشرة ؟ أم هل هو رغبة في التجدد ؟ لست ادري . وكل ما استطيع ان أؤكده هو أن الشباب يحب أن يتجه الى الرؤوس الفتية المقبلـة على الحياة ليكللها بتاجه .

« هكذا يظهر لنا توالد المعاني واشعاعها من خلال الشطـــر الاول ، ومن خلال الألفاظ التي اختار له الشاعر . لكن الشطر الثاني يتنـــاول الفكرة من جديد ويلبسها ثوبا آخر . فالشباب الذي هو صورة من الفتوة والقوة ورتل من الأحاسيس والمغامرات والابداعات يحوله الشاعر الى نغم ، الى لحن فيه فصول وترجيعات . فاللحن بالنسبة اليه يعبر عـــن الوحدة العميقة المتوارية وراء الاختلاف والتمزق الظاهر وعن جمـــال الانسجام . فهو ياخذ الشباب كله بما فيه من مغامـــرات ومتناقضـــات وحماقات فيصوغه فى لحن واحد ، ويتمنى بان يستعيـــده . ولكـــن ، هيهات ! فاين هو الفنان العبقري والموسيقار العظيم الذي يستطيـــع ان يصوغ ذلك اللحن كما تمناه الشاعر ؟ !

وطرق الباب آنذاك ، فتوقف عن الكلام . وشعرت بانه امتعض لذلك الازعاج الذي قطع عليه خيط الافكار في الوقت الذي بدأ يحلق في سماء الأدب وتستشرف نفسه آفاقا جديدة . وفتح الباب فاذا به وجها لوجه مع صاحب القائد ، مخزني معروف بسلاطة لسانه . فقال له :

— خير ، ان شاء الله ، يا بنعيسى ؟ ما هذا المجيء الباكر ؟

— تضحكني ، يا سي عبيد . وهل للمخزن وقت ؟ انت مملوك له حتى تدخل القبر .

— ما هذا الكلام ، يا بنعيسى ؟ ومع الصباح ؟ الناس يبشرون وانت تنفر .

— خلنا من الكلام المزوق ، يا سي عبيد . القائد محتاج اليك حالا .

— ولم هذا الاستعجال ؟

— وما يدريني ؟ لعل لديه كتابة كثيرة . ثم لا تنس ان اليوم يوم السوق . على كل حال ، انه أمرني ان لا أعود اليه الا وانت في صحبتي .

— ارجع اليه بسلام ، يا بنعيسى ، فساكون عنده بعد ربع ساعة .

— كيف اعود اليه بدون وجودك معي ؟ الست تعرف غضبته ؟

— لا حول ولا قوة الا بالله ؟ هل تريد ان تسوقني اليه بالعصا ؟

— ما انا الا مامور ، يا سي عبيد .

— اذن ، انتظرني قليلا .

— انا خلف الباب انتظرك .

انسحب المخزني ، ونطق السي عبيد ، دون ان يخرج عن هدوئه او يظهر عليه اثر الغضب :

— لا حول ولا قوة الا بالله ! كنا فى واد واصبحنا فى واد آخر ! الآن يبدأ يومي الحقيقي . وكل ما مر انما كان حلما وخيالا .

وكنت ، على العكس منه ، قلقا ثائرا لما شاهدت ، فلم اتمالك ان قلت له :

— يا عجبا ! كيف تقبل ، يا سي عبيد ، ان تنزل من ميدانك الطبيعي ، ميدانك الذي لا تحلو لك الحياة الا فيه الى حضيض لا تلتقي فيه الا مع الجهال والأغبياء تمضي معهم سحابة يومك فى السفاسف والترهات وتسخر لهم قلمك فى شؤون وضيعة يستطيع أى كويتب ان يسجلها : هذا سرق له حمارة فى الليل من باب خيمته ، وهذا تشاجر مع جاره من أجل وتد ، وهذا هربت عنه امرأته الى اهلها لأنه ضربها ! الخ ... الخ ... !

— كفاك تعجبا وسؤالا ، يا محمد ! الأمر واضح : من اين لي بلقمة العيش ؟

— انك خلقت لتفتح مدرسة تستقبل فيها النجباء والنبغاء . ولو حاولت ، لكان نجاحك محققا . وهذا شيء استطيع ان اضمنه لك .

وتنهد كاني فتحت له افقا جميلا ، ولكنه بعيد وبعيد .

— تقول لي هذا لأنك شاب مدفوع الى الخير ، وما زلت لم تعرف كم فى الدنيا من شر . انا اعرف ان هنالك اناسا كثيرين فى هذا البلد يظهرون لي كل التقدير . ولكن من فيهم تضامن معي وتجاوز القول الجميل الى الفعل الحقيقي ؟ ! ... ربما هنالك استثناء ، والدك الذي وجهك الى بقصد تعلم العربية . ولكن النادر لا حكم له .

— على كل حال ، يؤسفني كثيرا ، وانا تلميذك المتواضع ، ان اراك فى مكان غير مكانك ومنزلة غير منزلتك .

— انظر الى الناس حواليك ، وقل لي : هل ترى من بينهم واحدا فى مكانه الحقيقي ؟

— ولكنك ، فى اعتقادي ، اقلهم حظا . كيف تجد نفسك مرتاحا وانت تعمل ككاتب لذلك الجاهل الفظ الذي اصبح قائدا بعد ان كان راعيا للغنـــم والبقـــر ... ؟

— استغفر الله ، يا محمد ! انك تظلم رجلا من العرب الأقحاح اجتمعت فيه كثير من فضائلهم . ما شئت من كرم ونجدة وشجاعة !

وما رايته يدافع عن شخص كما يدافع عن القائد . انه ، حينمـــا يحكي عنه ، شخص فظ جاهل . ولكنه معجب به ، ويتحلى فى نظره بكل المزايا التي يتخيلها فى البطل العربي : الأنفة ، السخاء ، الشجاعـــة ، الفروسية ، الفصاحة ، حضور البديهة الخ ...

ولست اشك بانه ينظر اليه بعين الأديب ، من خلال شعراء الجاهلية، فيتصوره ، تارة ، كحاتم الطائي ، وطورا كامرىء القيس وآخر كعروة بن الورد أو كعمرو بن كلثوم ... وما دام يرتبط بهاته الأمثلة ، فمن الطبيعي، فى رايه ، أن يحل فى مقام السيادة والرياسة ، ولا يشعر هو باى غضاضة فى أن يعمل معه ككاتب ، ويجلس بين يديه فيتلقى منه الأوامر والتعاليم ويسجل ما يمليه ، هو الذي حفظ أمهات الأدب واستبحـــر فى علـــوم العربيـــــة !

وأخذ فى جمع اوراقه ولبس جلابيته البيضاء وطربوشه الأحمـــر والتفت نحـــوي ، قائـــلا :

« بكل أسف ، لم نستطع أن نتمم جلستنا كما كنا نتمنى . ولكن ، سنعوض حقوقنا فى العشي . ما رايك أن نلتقي فى كدية المصلى ، أمام البحر ، وراء باب معلقة (*) ؟ فالوقت حار لا ينفع معه الا نسيم البحـــر المنـــــــعش .

(*) باب معلقة : من ابواب سلا المشهورة المؤدية الى البحر .

ــ فكــــرة ارحـــب بهـــا .

ــ سعود الى سقط الزند . وارجو ان لا نزعج ، مرة ثانية .

وافترقنا وانا اقرا فى عينيه بريق الأسى والاحتجاج . انه يذهـب الى البادية لا ليستمتع بطبيعتها الجميلة وهواءها المنعش ، وانما ليحتك بشرورها ويرى وجهها الذميــــم .

ســــلا　　　　　　　　　　محمد زنيبــــر

أصالة وعمق التحليل الاجتماعي
عند الجاحظ
(869 - 776)

د. معن خليل عمر

تفتقر ادبيات علم الاجتماع الى الافكار والنظرات الاجتماعية التي طرحها كتاب العرب السلفيين التي لا تقل اهمية وموضوعية عن كتابات علم الاجتماع الغربي . لكن الشيء الذي يثير السؤال هو لماذا اهمل وما يزال يهمل الاجتماعيين العرب هذه الافكار الحية الدينامية . التي لا يمكن اعتبارها تراثية . لانها تنطبق على الحياة الاجتماعية الحاضرة ، وعلى الطبيعة البشرية . لكننا نستطيع ان نوعز هذا الاهمال الى ما يلي :

1 ــ تبني النظريات الغربية المعاصرة ، ومسايرة اتجاهاتها ، دون التخلف عما يدور في علم الاجتماع النظري الحديث .

2 ــ النظرة الاستعلائية (الخاطئة) لكل ما كتب من السلفين حول الحياة الاجتماعية .

3 ــ اعتبار كل فكرة اجتماعية كتبت من قبل كتاب العرب السلفين ، تراثية ميتة ، لا قيمة لها في الوقت الحاضر .

4 ـ هذه الاعتبارات ، دفعت الاجتماعين العرب الحالين ، الى عدم اكتمال نظرتهم الشمولية فى دراساتهم لحياة المجتمع العربي وانشطته ، وتوقعاتهم المستقبلية . متناسين اعتماد دراسة الحاضر على مكوناتـــه الماضية ، التي رفدت نموه الحالي وتعمل على نمو المستقبلي .

فاذا اخذنا الجاحظ ، نجده قدم نصوص نظريـــة مصورة الواقـــع الاجتماعي للمجتمع العربي فى العصر العباسي . لا سيما فى عهد المامون الذي اتصف بالعصر الذهبي للحضارة العربية . التي انصهرت فى بوتقتها جميع الحضارات العربية . ووسمتها بطابع فريد وخاص . مستخدما عدة مفاتيح تحليلية . كالحاجة الاجتماعية ، والاصطراع والتعاون فى تفسير طبيعة المجتمع العربي . والقيم الاجتماعية والمهنية والقومية لتصويـــر فئات المجتمع . والقيم الدينيـــة فى المساواة العنصريـــة لتفسيـــر وتوضيح وجود هذه الاحداث والوقائع الاجتماعية .

استخدم (الجاحظ) التحليل التشخيصي فى تحليل الاحـــداث الاجتماعية . اى انه وصف الاحداث بشكل دقيق . موضحـــا سبـــب وجودها . رابطا ذلك بالبيئة الاجتماعية العربية ، دون تركها سائبة ، بلا تعليل وتفسير . الذي شكل ارهاصا اوليا فى التحليل الاجتماعي . انما لم يستخدمه احد من بعده من اجل تطويره ومساعدة الباحثين فى دراسة الواقـــع العربـــي .

ان نظرته التحليلية للمجتمع الانساني تجسدت فى قوله :

((ان حاجة الناس بعضهم الى بعض ، صفة لازمة فى طبائهـــم ، وخلقهم ، قائمة فى جواهرهم وثابتة لا تزايلهم ، ومحيطة بمـــا عنهم ، ومتمثلة على ادناهم واقصاهم ، وحاجاتهم الى ما غـــاب عنهم مما يعيشهم ويحييهم ، ويمسك بارحامهم ويصلح بالهـــم ، ويجمع شملهم ، والى التعاون فى درك ذلك والتوازر على مـــا يحتاجون من الارتفاق بامورهم التي لم تغب عنهـــم ، فحاجـــة

الاقصى ، واحتياج الاقصى الى معرفة الادنى ، معان متضمنة وأسباب متصلة وحبال منعقدة)) . (1)

استخدم الجاحظ فى هذا التحديد مفهوم الحاجة الى الاجتماع ، التي وصفها بأنها متاصلة فى طبع الناس وخلقهم . التي تقدم وظيفة المحافظة على وجودهم . ولما كان المجتمع العربي قائما على رابطة الأرحام والأنساب ، فقد أبرز الجاحظ دور الحاجة واهميتها فى تضامنهم وتكاتفهم ، التي أدت الى اشباع رغبتهم فى الاجتماع والتعاون والتعاضد الاجتماعي .

ومن الحري ان نشير فى هذا المقام ، الى وصفة لطبيعة المجتمع العربي المتمثلة فى الاصطراع والتعاون . حيث أرجع صفة الاصطراع بين الافراد الى سبب (الحسد) . وميز بين نوعين فى الحسد : هو حسد الجاهل ، وحسد العارف . وميز ايضا بين الحاسد والعدو . والحسد كما نعلم ، ظاهرة اجتماعية تفرزها التمايزات الاجتماعية المتمثلة فى الأدوار والمراكز الاجتماعية التي تزيد من درجة الاصراع بين الافراد من اجل الوصول الى مراكز اعلى وثروة اكثر . ولما كانت حياة المجتمع العربي فى العصر العباسي وما تزال قائمة على العوامل المعنوية (قيم ، اعراف ، تقاليد ، دين) أكثر من العوامل المادية (ثروة ، ملكية ، دخل) فقد استخدم الجاحظ مفهوما اجتماعيا صرفا فى تشخيص ظاهرة الاصطراع بين الأفراد والفئات الاجتماعية لسيادتها فيه . ولم يستخدم كمية ونوعية الثروة والدخل مثلا . فقد قال :

((العداوة لها عقل تسوس به نفسها فينجم قربها وتبدي صفحتها فى اوقات الهتر ، والا فانها كامنة تنتهز ازمة الفرص . والحسد مسلوب العقول بازاء الضمير فى كل حين وزمان ووقت . وفى لؤم الحسد انه موكل بالادنى فالادنى ، والاخص

---

(1) الحيوان ، الجاحظ ، الجزء الاول ، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون ، مكتبة الخانجي بالقاهرة ، ص 345 ، 1964 .

فالاخص . والعداوة وان كانت تقبح الحسن فهي دون الحسد لان العدو المباين قد يحول وليا منافقا ، كما يحول المولى المنافق عدوا مباينا . والحاسد لا يزاول عن طريقته الا بزوال المحسود علية عنده . والعداوة تحدث لعلة ، فاذا زالت العلة زالت معها . والحسد تركيب لعلة بحسد علية فهـــو لا يزول الا بزوالـــه (2) والعداوة تخلق وتمل والحسد غض جديد ، حرم او اعطى لا يبيد. فكل حاسد عدو وليس كل عـــدو بحاسد . (3) والحسد اخـــو الكذب ، يجريان في مضمار واحد ، فهما اليفـــان لا يفترقـــان وضجيعان لا يتباينان (4) وحسد الجاهل اهون شوكة واذل محنا، من حسد العارف الفطن لأن الحاسد الجاهل يبتد الى الطعن على الكتاب في اول ثم لا يرضى بايسر الطعن واخفه حتى يبلغ منـــه الى اشده واغلظه من قبل ان يقف على فصوله وحدوده)) (5) .

يتجلى هنا استخدام الجاحظ التحليل التشخيصي الذي وضع فيه مفهوم الحسد لما له من اهمية كبيرة في حياة مجتمعا قائما على الارحام والانساب والروابط القبلية . وراجع العداوة (التي هـــي احد اوجـــه الاصطراع) بين افراد هذا المجتمع ، الى سبب الحسد واعتبره مصدرا للشغب والفتنة والاصطراع في حياة المجتمع العربي وارتباطه فيهـــا . بحيث اذا زال الحسد ، زالت العداوة وليس العكس . وهذه الظاهـــرة احدى جوانب الطبيعة البشرية . كذلك ميز بين نوعيـــن من الحسد ، الاول الشرس والمذل الذي يمارسه العارف الفطن الـــذي يستخـــدم معرفته في توجيه شروره نحو الآخرين . والثاني الخفيف الذي يمارسه الجاهل لبساطة وسذاجة تفكيره في توجيه شروره نحو الآخرين .

---

(2) رسائل الجاحظ ، الجاحظ ، الجزء الاول ، تحقيـق عبـد السلام محمد هـارون ، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي واولاده بمصر . ص 43 ، 1950 .
(3) المصـــدر السابـــق ، الجـزء الاول ص 346 .
(4) المصدر السابق ، الجزء الاول ص 347 .
(5) المصدر السابق ، الجزء الاول ص 351 ـ 352 .

نلاحظ ايضا في هذا المقام ان الاصطراع المبنـــي على الحسد لا يؤدي الى تغيير المجتمع وتبديله . بل يؤدي الى اضطرابه وقلقه وزيادة في الفتن . بحيث يسبب فوضى اجتماعية . لكنه اذا كان (الاصطراع) مبنيا على مصادر مادية او على عدم توزيع المكافئات الاجتماعية بشكـــل متكافيء على المكانات الاجتماعية ، فان ذلك يكون تغييرا في بناء المجتمع العربـــــي .

اضافة الى ما تقدم ، لم يغفل الجاحظ صفة التعاون في المجتمع العربي المقامة على العلاقات الدموية والرحمية بين القبائل العربية . فقد ابرز طابعها البيئوي عند ما قال :

« ان التوازر والتسالم في القرابات في بني الاعمام والعشائـــر أفشى واعم من البعداء . ولخوف بعض القبائل في البوادي الى بعض ، ينزلون معا ويضعون معا . ومن فارق إصحابه اقـــل ، ومن نصر ابن عمه اكثر . ومن اغتبط بنعمته وتمنـــى بقاءهـــا والزيادة فيها اكثر ممن بغاها الغوائل ، وطلب انقطاعها وزوالها . ولا بد قليل من كثير » (6) .

وارتكانا الى هذا النص ، نجد ان الجاحظ كان (بنيويا وظيفيـــا) بالمعنى الاجتماعي الحديث في تاكيده على صفة التعاون ، وحاجة المجتمع العربي لها وضرورة اتحاد وائتلاف القبائل العربية من اجل المحافظة على بنيان المجتمع وازالة العداوة والتناحر فيما بينهم .

اما الصورة الاخرى التي قدمها الجاحظ ، فهي طبيعة الانسان التي كانت رائعة في وصفها ، ودقيقة في معانيها . عكست بيئتها الطبيعيـــة في رموزها واشارتها . فقد وصفها بانها :

« تملك الحواس والمحسوسات الخمس وتاكل اللحم والحـــب وتجمع بين ما تقتاته البهيمة والسبع . وفيها صـــول الجمـــل

(6) المصدر السابق ، الجزء الاول ص 34 ــ 35 .

ووثوب الاسد ، وغدر الذئب وروغان الثعلب وجبن الصخر وجمع الذرة وصنعة السرقة وجودة الديك وألف الكلب واهتداء الحمام، ويحكي كل صوت بفمه ، وان أعضاءه مقسومة على البروج الاثنتي عشر والنجوم السبعة وفيها الصفراء وهي من نتاج النار وفيها السوداء وهي من نتاج الارض وفيها الدم وهو من نتاج الهدوء وفيها البلغم وهو من نتاج الماء . وعندها طبائع الغضب والرخاء والفطنة والغباوة والسلامة والمكر والنصيحة والغش والهزل والبخل والجود والتواضع والكبر والانس والوحشة والجبن والشجاعة والحزم والاضاعة والخوف والرجاء وغيرها من الطباع » (7) .

وفي ضوء هذا المعنى ، أوضح الجاحظ ، ان الانسان كائن بايولوجي واجتماعي يرث صفات جسمانية تميزه عن بقية الكائنات الحية ويتفاعل مع البيئة الاجتماعية مما يخلق عنده طبائع متنوعة ومتضاربة تبرز احدها على الآخرين بحكم تاثيرات البيئة التي تلعب دورا هاما في تطبيع وتنشئة الانسان لها . وهذه احدى جوانب تاثير البيئة العربية في خلق انسانها .

اضافة الى ما تقدم ، فانه لم يهمل تاثير العامل المناخي في تغيير طباع الافراد . فقد قال :

« ولا ننكر انما يفسد الهواء ناحية من النواحي فيفسد ماؤهم وتفسد تربتهم ، فيعمل ذلك في طباعهم على الايام ، كما عمل ذلك في طباع الزنج ، وطباع الصقالبة ، وطباع بلاد ياجوج وماجوج . وقد راينا العرب وكانوا أعرابا حين نزلوا خراسان ، كيف انسلخوا من جميع تلك المعاني » (8) .

نلاحظ على هذا النص ، انه ابرز تاثير البيئة المناخية على الانسان لتوضيح عملية تفاعل الانسان مع المناخ وكيفية صياغة سلوكه بشكل

(7) الحيوان ، الجزء الاول ص 212 – 214 .
(8) الحيوان ، الجزء الرابع ص 70 – 71 .

يعكس نوعة وطبيعة . علاوة على ذلك ، فانه اوضع انفتاح الانسان وخنوعه للتاثيرات المناخية فى توجيه سلوكه الاجتماعي وتكيفه لها .

والنقطة التي انتبه اليها الجاحظ فى هذا المقام ، هي ان تاثيرات البيئة المناخية تاخذ وقتا طويلا فى تطبيعهم . وهذه الالتفاتة جديـــرة بالاهتمام فى عملية التنشئة والتطبيع .

لم يكتفي الجاحظ بوصف طبيعة المجتمع العربي وتحليله ، بـــل وصف الحيوانات التي تعيش معه والفها . باعتبارها تمثل احد عناصـــر البيئة العربية التي يعيشها الانسان العربي . وبنفس الوقت تمثل نوعين من الحاجات هما ما يلي :

ا ـ حاجات وسيلية . . . . . اي

1 ـ وسائل المواصلات والاتصالات بين افراد المجتمع
2 ـ الطاقـــــة الغذائيـــــة
3 ـ مصدر الثروة المالية والاجتماعية
4 ـ مصادر القوة الحربية فى القتال
5 ـ استخدامها في المناشط الرياضية .

ب ـ حاجات تعبيريـــة . . . . . اي

1 ـ استخدام الصفات الحيوانية للتعبير عن مواقف الافراد .. مثل

لاقيت مطلا كنماس الكلـــب
اضـــل حمـــار اهلـــه
لا تلـــد الحيـــة الا حيـــة
اصـــدق من القطـــاة
اهـــدى مـــن القطـــاة

صبـــره صبـــر الجمـــل
مكرهـــه مكـــر الثعلـــب .

2 ـ تسمية افراد المجتمع باسماء وصفات الحيوانات . فقد قال : ((كان العرب تسمي ابنائها بكلب وحمار وقرد على التفاؤل بذلك وكان الرجل اذا ولد له ذكر خرج يتعرض لزجر الطير والفال ، واذا سمع انسانا يقول ذئبا او راى ذئبا يتاول فيه الفطنة والخب والمكر والكسب ، واذا كان حمارا يتاول فيه طول العمر والوقاحة والقوة والجلد ، واذا كان كلبا تاول فيه الحراسة واليقظة وبعد الصوت والكسب وغير ذلك . (9) وكانت اسماء العرب تحمـــل اسماء بعض الحيوانات مثل غراب وصرد وفاختة وحمامة ويمامة وشاهين وعقاب وقطاة ودجاجة وعصفور ونقار وحجل)) . (10)

3 ـ تنظيم بعض اوقات انشطتهم حسب فعاليات الحيوانـــات . فقد كان الديك يمثل الاسطرلاب في حياة المجتمع العربي . حيث وصفه الجاحظ ، بانه يعرف الليل وساعاته وارتفاق بني آدم بمعرفته وصوته ، يعرف اناء الليل وعدد الساعات ، ومقادير الاوقات ، ثم يقسط اصواتـــه على ذلك تقسيطا موزونا لا يغادر منه شيئا . ثم قد علمنا أن الليل اذا كان خمسة عشر ساعة أنه يقسط اصواته المعروفة بالعدد عليها ، كما يقسطها والليل تسع ساعات ، ثم يصنع فيما بين ذلك من القسمة واعطاء الحصص على حساب ذلك . (11)

4 ـ تشبيه العلاقات الحيوانية بالانسانية . فقد شبـــه العـــرب علاقة الزوج بالزوجة وظاهـــرة السحـــاق واللـــواط والانحرافـــات الجنسية بينهم بعلاقة الحمام الجنسية (12) .

---

(9) الحيوان ، الجزء الاول ص 324 .
(10) الحيوان ، الجزء السابع ص 53 .
(11) الحيوان ، الجزء الثاني ص 241 ـ 242 .
(12) الحيوان ، الجزء الثالث ص 163 ـ 166 .

اضافة الى ذلك ، فقد لعب الحيوان دورا كبيرا فى حياة المجتمع العربي فى تلك الفترة الزمنية . فقد كانت تهيج المشاعر الدينية والعصبية وتثير المناظرات الكلامية والادبية . فقد صور الجاحظ دور الديك فى حياة العرب الى درجة ادت الى اثارة خصومة كبيرة بين النزعة العربية والشعوبية . فذبح الديك مثلا كان يسبب مشاكل بين اليزيديين والمسلمين . واهمية الكلب كانت ملحة فى حراسة دورهم ومزارعهم وحيواناتهم ومساعدتهم فى صيد الحيوانات .

جميع هذه العوامل التي طرحها الجاحظ استهدف منها توضيح اهمية الحيوان وعلاقته الانسان والمجتمع العربي . التي دللت لنا طبيعة حياته آنذاك واهمية الكائنات البشرية فيه .

وفى مجال آخر ، ابرز الجاحظ انسانية المجتمع العربي بعدم تميزه العنصري والرسي بين العناصر والارساس . فقد اوضح بان المجتمع العربي لم يحتقر الجنس الاسود . بل كان وما يزال يؤكد على المساواة العنصرية ومساهمتها فى الانشطة الاجتماعية العامة والخاصة . فقد وصف صفات الفرد الاسود ومكانته المتساوية مع بقية المكانات الاجتماعية للاجناس الاخرى فى المجتمع العبي . واشاد بكثير من خصاله الحميدة . حيث قال :

« والرجل منهم يخطب عند الملك بالزنج من لدن طلوع الشمس الى غروبها ، فلا يستعين بالتفاتة ولا بسكتة حتى يفرغ من كلامه.

وليس فى الارض امة من شدة الابدان وقوة الاسر اعم منهما فيهما . وان الرجل ليرفع الحجر الثقيل الذي تعجز عنه الجماعة من الاعراب وغيرهم . وهم شجعان اشداء الابدان اسخياء . وهذه هي خصال الشرف (13) . ورد الجاحظ على بعض الناس الذين

---

(13) رسائل الجاحظ ، الجزء الاول ص 195 .

قالوا بأن الزنوج صاروا أسخياء لضعف عقولهم ، ولقصر رواياتهم، ولجهلهم بالعواقب ، بما يلي بئس ما اتيتم على السخاء والاثرة ، وينبغي فى هذا القياس ان يكون اوفر الناس عقلا واكثر الناس علما ا بخل الناس بخلا واقلهم خيرا)) (14) .

ابرز الجاحظ هنا تكافؤ الاجناس والارساس فى المجتمع العربي ، وعدم استعلاء جنس اورس معين على الاخر . وما يلفت نظرنا فى تحليل الجاحظ الاجتماعي هو تصنيفه لفئات المجتمع العربي . والالتفاتة التي برع فيها ، هي استخدام اهم وابرز قيمة اجتماعية سائدة فى المجتمع العربي ، اساسا فى تصنيفه . وهي قيمة الكرم والجود التي لعبت ومــا تزال تلعب دورا هاما فى علاقاتهم ومراكزهم وادوارهم الاجتماعيــة . فقسمهم الى فئة البخلاء وفئة الكرماء . تصنيفه هذا دفعه ليميز بين كرم العرب وضيافتهم وبخل الموالي .

وكتابه البخلاء ، مليء بالقصص والاحاديث حول بخل البخــلاء . نورد احداها ، وهي ليلى الباعطية صاحبة الغالية من الشيعة فانها مــا زالت ترقع قميصا لها وتلبسه حتى صار القميص الرقاع وذهب القميص الاول ورفت كساءها ولبسته حتى صارت لا تلبس الا الرفو وذهب جميع الكســـاء (15) .

اضافة الى ما تقدم ، استخدم ايضا عامل (المهنة) لتقسيم المجتمع العربي الى الفئات التالية :

فئة المتكلمون : حيث قال فيهم : ((وليس يكون المتكلم جامعــا لاقطار الكلام متمكنا فى الصناعة ، يصلح للرياسة ، حتـــى يكون الـــذي يحسن من كلام الدين فى وزن الذي يحسن من كلام الفلسفة . والعالـــم

(14) المصدر السابق ، الجزء الاول ص 196 .
(15) البخلاء ، الجاحظ ، الطبعة الاولى بالمطبعة الخيرية ص 41 ، 1325 هـ .

عندنا هو الذي يجمعها ، والمصيب هو الذي يجمع بين تحقيق التوحيد واعطاء الطبائع حقائقها من الاعمال (16) .

فئة الكتاب : الذين وصفهم بانهم ذو خلق حلوة ، وشمائل معشوقة، وتظرف اهل الفهم ، ووقار اهل العلم ، فان القيت عليهم الاخلاص وجدتهم كالزبد ينهب جفاء ، وكنبتة الربيع يحرقها الهيف من الريح ، لا يستندون من العلم الى وثيقة ، ولا يدينون بحقيقة ، إخضر الخلـــق لاماناتهـــم ، واشراهم بالثمن الخسيس لعهودهم ، الويل لهم مما كتبت ايديهم وويل لهم مما يكسبـــون (17) .

فئة الاطباء : الذين صنفهم الى المزيفين والجشعين والحقيقيـــون اصحاب الرسالة ، ففي المزيفين الاغبياء شهادته قاطعة مبرمة . انهـــا تقضي بقطع دابرهم لا سيما ان لعب بهم الغرور . اما في ذوي الجشـــع فيقول انهم يهللون لانتشار الرضى حتى تنفتح امامهم ابواب الرزق . فلو ارشدوا الى ما يجسم العلل لبارت سوقهم حتما . ومن هنا كان شرهـــم اكيـــدا (18) .

فئة المعلمون : حيث صنفهم الى ضربين : منهم رجال ارتفعوا من تعليم اولاد العامة الى تعليم اولاد الخاصة ، ومنهم رجال ارتفعوا من تعليم اولاد الخاصة الى تعليم اولاد الملوك انفسهم المرشحين للخلافة (19) .

مع ذلك فلم تكن للمعلمين سمعة طيبة عند العرب على واجه العموم وقد يكون ذلك نتيجة رواسب ذلك العهد الذي كان فيه المعلمون عبيدا او يهودا او نتيجة سوء مسالك بعضهم وحقارة نفوسهم (20) .

---

(16) الحيوان ، الجزء الثاني ص 134 .
(17) رسائل الجاحظ ، الجزء الثاني ص 199 .
(18) الجاحظ ، جميل جبير ، المطبعة الكاثوليكية ـ بيروت ، ص 47 ، 1958 .
(19) البيان والتبيين ، الجاحظ ، الجزء الاول ، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي بمصر ، ص 250 ، 1960 .
(20) الجاحظ ، جميل جبر ص 50 .

فئة المفسرون : اي القصاصون الذين كانوا يكيفون الاحاديث حسب اهوائهم ومصالحهم فكانوا يؤولون القرءان الكريم ويشوهونها قصد تدعيم سلطانهم على العامة (21) .

فئة المترجمون : الذين يؤدون ابدا ما قال الحكيـــم على حقائـــق معانيه ، وحقائق مذاهبه ، ودقائق اختصاراته ، وخفيات حـــدوده ، ولا يقدر ان يوفيها حقوقها ، ويؤدي الامانة فيها ، ويقوم بما يلزم الوكيـــل ويجب على الجري ، وكيف يقدر على ادائها وتسليم معانيها ، والاخبـــار عنها على حقها وصدقها ، الآ ان يكون في العلم بمانيهـــا ، واستعمـــال تصاريف الفاظها ، وتاويلات مخارجها (22) .

فئة البحريون : الذين كانوا يمثلون الفئة النادرة التـــي تتجشـــم الاسفار البعيدة وتشاهد البلدان الغربية وكثيرا ما عاد هؤلاء الى ديارهم مدهوشين بما راوه فلا يستطيعون التعبير عن دهشتهـــم الا باختـــلاق الاساطيـــــر (23) .

وللجاحظ تصنيف ثالث لفئات المجتمع العربي وهو حسب مراكزهم الاجتماعية . فقسمها الى صنفين : هما فئة السادة الذين لم يكن شانهم ان يردوا الناس الى اهوائهـــم ، والى الانسياق لهم بعنـــف السوق ، وبالحرب في القود . بل كانوا لا يؤثرون الترهيب على الترغيب والخشونة على التلين . (24) وفئة العامة الذين وصفهم بانهم ليس في الارض عمل اكد لاهله من سياسة العوام (25) .

اما التصنيف الرابع ، فقد صنفهم حسب الدين ، وهو كما يلـــي : اليهود ــ المتشدد في السبت واقامته ، والنصراني اذا كان فسلا نـــذلا

(21) المصدر السابق ص 48 .
(22) الحيوان ، الجزء الاول ، ص 75 – 76 .
(23) الجاحظ ، جميل جبر ص 56 .
(24) الحيوان ، الجزء الثاني ص 94 .
(25) المصدر السابق ص 94 .

مبغضا للعمل ترهب ولبس الصوف لانه واثق انه متى لبس وتزيا بذلـــك الزي وتحلى بذلك اللباس واظهر تلك السيما انه قد وجــب على اليسر والثروة منهم ان يعولوه ويكفوه ، ثم لا يرضى بان ربح الكفاية باطلا حتـــى استطال بالمرتبة ، والصوفي من المسلمين – اذا كان فسلا يبغض العمل تطرف واظهر تحريم المكاسب ، وعاد سائلا وجعل مسالته وسيلـــة الى تعظيـــم الناس له (26) .

والتصنيف الخامس كان مقاما على اساس القومية . فقد صنفهم الى العربي والتركي والخراساني .

نجد فى هذه التصانيف الاجتماعية لفئات المجتمع العربي ، انه قد اعطى صورة مفصلة للجماعات الاجتماعية المكونة للمجتمع العربـــي . والشيء الذي ابدع فيه الجاحظ ، هو تصنيفه الاول (حسب القيمـــة الاجتماعية العربية – الكرماء – البخلاء) الذي لم يستخدمه احد من علماء الاجتماع الكلاسيكيين او المعاصرين الذين استخدموا الدخـــل والثروة والملكية والدين والقومية ، والمكانة الاجتماعية ، والانتمـــاء السياسي . وهنا تبرز اهمية الجاحظ فى رفد ادبيات علم الاجتماع بعامل متغير يصلح ان يستخدم فى تصنيف فئات المجتمع عند المجتمعات التقليدية والمحافظة والقبلية والريفية وحتى الحضرية فى بعض الحالات .

تناول الجاحظ ايضا مفهوم السعادة فى المجتمع العربي الـــذي وصفها بانها نسبية . وميز بين سعادة اصحاب المال والثروة وسعـــادة اصحاب المراكز الاجتماعية العالية ، وسعادة اهل العلـــم والمعرفـــة والثقافة . فقد انتبه الفيلسوف الاجتماعي (الجاحظ) الى هذا المفهوم لما له من اهمية فى انشطة وطموحات وتنافس وتعاون الافراد داخل المجتمع. وربط السعادة باللذة الحسية ووصف جامعي المال والثروة بان سعادتهم مؤقتة ، لانها مرتبطة باشباع حواسهم . واذا ما اشبعت ، انتهت سعادتهم.

---

(26) الحيوان ، الجزء الاول ص 219 – 220 .

وانها تزول بزوال اموالهم وثروتهم . فهي (السعادة) ليست ثابتة ومستديمة لهم . او حتى اصحاب المراكز الاجتماعية العالية والحكام والزعماء ، فان سعادتهم تكون مؤقتة لارتباطها بمراكزهم العالية . وبزوالها تزول سعادتهم . وبعض الناس لديهم رغبة في تسيس وقيادة وحكم الآخرين والتسلط عليهم وهذا ما يجلب لهم السعادة وأشباع رغباتهم .

اضافة الى ذلك ، فان هؤلاء تكون الاضواء الاجتماعية موجهة نحوهم، ويقعون تحت مراقبة أعين الناس ، مما تجلب لهم الحسد والمضايقات النفسية والاجتماعية ، وتنافس الآخرين معهم ، وتنافسهم فيما بينهم من اجل جمع ثروة اكثر وتسلق مراكز اجتماعية أعلى . جميع هذه المنغصات تجلب لهم المتاعب والقلق وعدم الراحة . وبالتالي لا يكونوا سعداء .

اما طالبي المعرفة والعلم ، فيتمتعوا بسعادة اكثر دوآما واستقرارا لعدم ارتباطها بحواس الانسان بشكل مباشر . فالمعرفة العلمية تزيد من اطلاع صاحبها على شؤون الحياة وحاجاتها وانماطها السلبية والايجابية ، وتقلل من استجلاب البلاء والنفاق والاعتداءات والقلق . وهذه تقرب صاحبها من السرور والفضيلة والسعادة . نجد هنا ان الجاحظ ربط السعادة بالمعرفة العلمية ، والتعاسة بالجهل والفقر المعرفي .

وفي ضوء ما تقدم ، نرى ان الجاحظ ، قدم لعلم الاجتماع ارهاصات والماحات أولية لموضوع السعادة التي يفتقر اليها علم الاجتماع . وهذا ما ذكره لنا الاستاذ رايت ملز ، احد علماء الاجتماع المعاصرين (27) .

اما ما قاله الجاحظ في السعادة فهو ما يلي : « ولكنها اذا ميلنا بين الفضيلة التي مع السرور ، وبين لذة الطعام ، وما يحدث الشر له من الم السهر والالتهاب والقلق وشدة الكلب ، راينا ان صاحبه مفضول غير فاضل.

(27) التربية التجريدية ، رايت ملز ، مجلة الفكر العربي ، العدد السادس ، دسمبر ، ص 87 ، 1978 .

هذا مع ما يسبب به ، ومع حمله له على القبيح ، وعلى ان نعمته متى زالت لم يكن احد اشقى منه . وشروط الاماني غير شروط جواز الافعال وامكان الامور ، وليس شيء الذ ولا اسد من عز الامر والنهي ، ومن الظفر بالاعداء ، ومن عقد المنن فى اعناق الرجال ، والسرور بالرياسة وبثمر السيادة لان هذه الامور هي نصيب الروح وحظ الذهن وقسم النفس . وكما ان المعرفة لها من عمل ، ولا بد للعمل من ان يكون قولا او

فعلا ، والقول لا يكون قولا الا وهناك مقول له ، والفعل لايكون فعلا الا وهناك مفعول له ، وفى ذلك ما اخرج من الخمول وعرف به الفاعل . وان كانت معرفته ناقصة فبقدر نقصانها يجهل مواضع اللغة (28) .

اخيرا ، لم يهمل الجاحظ حياة المراة ومساهمتها الاجتماعية في المجتمع العربي . فقد دعى الى المساواة الاجتماعية بين الرجل والمراة حيث قال :

((فليس ينبغي لنا ان نقتصر فى حقوق المراة ، وليس ينبغي لمن عظم حقوق الآباء ان يصغر حقوق الامهات وكذلك الاخوة والاخوات والبنون والبنات وأنا وان كنت أرى أن حق هذا اعظم فان هذه ارحم)) (29) .

وحمادي القول ، فان استخدام الجاحظ التحليل التشخيصي في دراسة المجتمع العربي ارفد كتابات ودراسات علم الاجتماع باربعة مواضيع لم يتطرق لها كتاب وعلماء الاجتماع القدامى والمحدثين ... هي ما يلي :

1 ـ استخدم فى تحليله عامل (الحسد) كمصدر للاصطراعات الاجتماعية لما لها من دور هام فى صراع الجماعات الاجتماعية والقبائل والعشائر العربية . بينما استخدم علماء الاجتماع المدنية والتحضر ، كما

(28) الحيوان ، الجزء الثاني ، ص 97 ـ 98 .
(29) الجاحظ ، طه الحاجري ، دار المعارف بمصر ، ص 440 ، 1969 .

هو عند ابن خلدون . ومصدر توزيع الموارد الاقتصادية غير العادل والمتكافيء بين الافراد كما هو عند كارل ماركس . ومصدر تطمين واشباع الحاجات والمصالح الاجتماعية والذاتية والغرائز العدائية ، كما هو عند العالم الالماني القديم جورج سمل . ومصدر السلطة كما هو عند العالم الألماني المحدث رالف دار ندورف . ومصدر غياب السلطة الشرعية وسرعة الحراك الاجتماعي والحرمان والاحباطات الذاتية كما هو عند العالم الامريكي لويس كوسر (30) . وهذا يعني انه قدم مصدرا فكريا جديدا الى مصادر الاصطراعات الاجتماعية فى علم الاجتماع . على انه يجب ان نذكره بهذا الصدد ، هو ان مصدر (الحسد) لا يؤدي الى تغيير المجتمع وتبدله .

2 ـ تطعيم تحليله الاجتماعي بعامل غير اجتماعي يعيش فى المجتمع العربي واعتماد افراده عليه فى معظم انشطتهم الاجتماعية وغير الاجتماعية، واعجابهم بصدق سلوكه ، ومساعدته لهم فى مواجهة البيئة الجغرافية . الا وهو الحيوان . فنحن لم نجد مثل هذه الالتفاتة الدقيقة والعميقة فى تحليل كتاب ومحللي علم الاجتماع . الاهم الا عند بعض علماء الانسان (الانثروبولوجي) عند دراستهم للمجتمعات البدائية وغير المتحضرة والتي كانت بسيطة وسطحية غير معمقة .

3 ـ استند فى تصنيف فئات المجتمع الى عامل رئيسي وحيوي فى حياة المجتمعات القيمة (وهي قيمة الكرم والبخل) التي لعبت وما زالت تلعب دورا هاما فى ابراز صفات المجتمع العربي بغض النظر عن ثراء او فقر الفرد العربي . فهذا لم نجده عند المحللين الاجتماعيين العرب او الاجانب فى تصنيفهم لفئات المجتمع . بل اكتفوا بالعوامل الاقتصادية والسياسية والدينية . وحتى استخدامه لعامل المهنة فى تصنيفه كان مختلفا عن بقية المحللين حيث ركز على اصناف المهن

---

(30) نقد الفكر الاجتماعي المعاصر ، معن خليل عمر ، مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء ، ص 18 ـ 30 ، 1978 .

الفكرية اكثر من الاقتصادية والادارية والسياسية وذلك لاهميتها فى حياة المجتمع العربي آنذاك .

4 ـ لم يكتفي بتصوير وتحليل الحيـــاة الاجتماعيـــة للمجتمـــع العربي . بل كان مقيما منصفا لها وناقدا لاذعا لشرورهـــا ومساوئهـــا وفئاته المشعوذة والمتكسبة من وراء النفاق الاجتماعي وجهالة العـــوام واستعلاء السادة واستغلال العارفين .

لذلك وصفنا تحليله بصفتين رئيستين هما : الاصالة ، لانـــه كان اول كتاب عربي فى زمانه يصف الحياة العربية بشكل علمي دقيق وبشكل منسجم مع المنهجية العلمية فى علم الاجتماع . وتشخصيـــه الواضـــح للظواهر الاجتماعية ، وارجاعها الى معلولاتها الاجتماعية . وهذا ما قام به فى دراسته للاصطراعات الاجتماعية . حيث ارجعها الى عامل الحسد . وتصنيفه لفئات المجتمع باعتماده على القيم الاجتماعية العربية .

اضافة الى ذلك ، فانه قدم الماحات اولية لمفهوم السعادة بالمعنى الاجتماعي . الذي ما زال علم الاجتماع يفتقر اليها . وهذا ما اعترف بـــه العالم الاجتماعي الامريكي رايت ملـــز .

اما الصفة الثانية ، فهي العمق فى التحليل ، لانه استطاع التوغل الى صلب الحياة الاجتماعية العربية ودقائقها من خلال تفسيره وتوضيحه لاهمية الحيوان فى حياة المجتمع العربي ، واعتمادهم عليه فى جميـــع انشطتهم ومواقفهم الاجتماعية وغير الاجتماعية .

فـــاس　　　　　　　　　　　　د. معن خليل عمر

أياحسناه..

محمد الحلوي

كنا فليكن حب اذا ما سما حــــب — وكالمغرب الوثاب فلينتفـض شعـب
ولاء مع الايام يمتد فيضـــــــه — وعهد على ايقاعه ينبـض القلـــب
عقدنا عليه القلب فهو عقيـــــدة — وإرث من الآباء باركـــه الــــرب
ولاء رضعناه صغارا ولــــم يــــزل — يروق في أعماقنا نبعـــه العـــذب
ووحدة صف لا تزعزعهــــا يــــد — ولا يتحداها وإن عظــــم الخطـــب
رفعنا بها بين الشعــوب مشاعــــلا — تضيء على ركب الزمان ولا تخبــو
مليك وشعب لم يزالا على المـدى — حليفي نضال لا يردهمـــا صعـــب
تسير جموع الشعب تحت لوائـــــه — موحدة الاهداف أحزا بها حـــــزب !
عركنا الليالي فاستلانت قناتهــــــا — وخضنا الخطوب السود لم يثننا رعب
وسرنا أمازيغا وعربا تشدنـــــــا — أواصر دين ليس يعوزها قـــــرب
ولاء رضاع لا فطـــام يحـــــده — يغذى به الشيخ المسن ومن يحبــو

تترجمه شعرا وفنا عرائــــــس ... يغني بها شعب بعاهلـه صـب !
وما الشعر ان لم يسد للمجد والعـلا ... سوى هذيان أو صدى عاشق يصبو
يخلد أمجاد الرجال ويبتنـــي ... لهم قمما من دونها الأنجم الشهـب
ولكن أمجادا ، تعلي، صروحـها ... يد الحسن البناء عالمها رحـب
رياض يتيه الشعر في وصف حسنها ... وفيض جمال لا يحيط بـه لـب
يرى غيره ما فات. مبلغ علمـه ... ويدرك بالالهام ما يحجب الغيـب
ويقتحم الهول الجسيم فينجلـي ... صباحا كما يهوى وتنقشع السحب
إذا قال أما بعد أرهـف سمعـه ... الزمان وأصغى قبل مسمعه القلب !
تنام عيون المالكيـن وعينـه ... على الشعب يقظى لا يرف لها هدب
كأن قضاء الله يجرى بأمـره ... وأملاكه في كل جولاته صحـب
إذا احتل أبهاء المحافل زانهـا ... وحلق في أفاقها فكره الخصـب
مداراتها تجرى عليها كواكـب ... ولكنه في أوج قمتها القطـب !
ولا عجب فالعبقرية معـدن ... ثمين ولن يرقى إلى المعدن الترب !!

أعاد لهذا الشعب تالـد عـزه ... وأكسبه ما لا يحققـه كسـب
وفجر أنهار الميـاه وساقهـا ... إلى كل أرض كان يقتلهـا الجـدب
فجادت على الفلاح بالخير دافقـا ... وأخصب مرعاها وعممها العشـب
مصانع تبنيها سواعـد شعبـه ... وترفعها دوما كما يرفـع النصـب
وأروقة للعلم شامخـة الـذرى ... ودأب إلى العلياء ما مثلـه دأب
خطاه على درب الحضارة لا تنـي ... وان أجهدت أقدامه والتوى الـدرب
يسير الهوينى غيره متباطئـا ... ويمضي لما يرجو وخطواتـه وثـب

أبا المجد لا صحراء بعد فقد غـدت   بفضلك جنات مراتعهـا خصـب
أعدت بها الحق الذي كان ضائعـا   ومثلك من صانوا الحقوق ومن ذ بوا
قضت حقبا في الاسر حتى تمخضـت   عن العودة الخضراء هاتيكم الحقـب
وعادت الى الأحضان عودة عاشـق   يطير به الشوق المبرح والحـب
فغيظ العدى من حبنا وعناقنـا   ومسهم من فيض أفراحنـا كـرب
وكانت تهانينا لهم بعناقهـم   ودق طبول النصر يمشي بها الشعب
فلما انتصرنا أثخنونا جراحـة   وكان جزاء الود أن تعلن الحـرب ؟
وقد علموا انا الاسود إذا عـدا   على أرضنا باغ أو استاسد الذئـب
كتبنا على وادي المخازن صفحـة   تباهي بها الدنيا وتشدو بها الكتـب
يغني بها من لم يكن متغنيـا   ويزهى بها من لم يكن خلقه العجب
فماذا يريد الطامعون وقد وهـت   قواهم وأوهى قرنهم صخرنا الصلـب
بكيت على أيتامنا يوم أثكلـوا   ولم يرج من آبائهم في الوغى أوب
سلام على من ضرجوا بدمائهـم   ثرانا ومن ضحوا لنحيا ومن هبـوا
جراح بني قومي جـراح كثيـرة   وآلامنا ! شتى واقداسنا نهـب
يغير علينا المعتـدون ونعتـدى   على بعضنا، والمستفيد هو الغـرب !
وكل مريض يستطـب ومالنـا   ونحن شتات فـي مسيرتنا طـب
ترامت بنا الاهواء في كل مذهـب   وأوشك أن تلقى مصارعها العـرب
أضاعت تعاليم السمـاء وغيـرت   وضلت عن النهج الذي خطه الرب
فيا حسناه ! ياسليل محمـد   وحامي مسراه لقد روع الركـب !
فقدها الى شط الامـان سفينـة   فأنت لها الربان والقائـد النـدب
وطهر رحاب القدس من رجـس طغمـة فابقاؤهـم فيـه تدنسـه ذنـب

ونحـــن ملاييـــن وفينـا سواعـــد، ولكـــن خـــلاف المسلميـــن هـــو الغيـــب
فوحـد قواهـا واستجـد شبابهـا فـلا قـدس ان لـم يتحـد حولهـــا العـــرب
وأنت الذي عالجت كـل ملمـــــة فزالت بك الاحقاد وانتصر الحـــب
وما زالت الاعياد تلقـاك بالمنـــى وبالنصر للاسلام يكـلأك الـــرب

تطوان محمد الحلوي

يوم الأرك

فاضل السباعي

— 1 —

كان امير دولة الموحدين « يعقوب المنصور » ما يزال — منذ بويع خليفة فى سنة 580 هجرية (1184 ميلادية) — يبذل جهودا فى اخماد نار الفتن والثورات التي ما تلبث تشب فى ارجاء دولته المترامية الاطراف، والتي تضم ما اصطلحنا اليوم على تسميته باقطار : المغرب وموريتانيا والجزائر وتونس وليبيا ، فضلا عن الاندلس .

ولم يكن بد من ان يطمع به — فى ذلك — اعداؤه الاشد خطرا : الفرنج فى اسبانيا . ولكن الخليفة المنصور استطاع ان يضيق عليهم فى لقاء بينه وبينهم ، فيلجئهم الى طلب « الصلح » ، وقد استجاب لهذا الطلب تحت ضغط فتنة جديدة نشبت فى افريقية ، وعقد مع ملك « قشتالة » : « الفونسو الثامن » — « هدنة » مدتها خمس سنوات .

ولكن ... ها هي ذي السنوات الخمس توشك ان تنقضي ، والخليفة الموحدي ما يزال يخمد فتنة بعد اخرى .

ولقد كان الملك « الفونسو » حريصا على الا ينقض الهدنة فيستثير المسلمين ويحضهم على ان يعبروا البحر اليه ، لا سيما ان الممالك الاسبانية الاربع المجاورة له ، وهي : « اليون » و « آراغون » و « نافارا » و « البرتغال » ، كان عليها ان تسوي خلافاتها بينها وبين بعضها ، وبينها وبين جيرانها فى فرنسا ، وبينها وبين البابا فى روما ، قبل ان يتوقع انجادها له اذا ما اطبقت عليه جيوش المسلمين .

ولكن كان من سوء طالع هذا الملك ــ الذي لم تكن تعوزه الفطنة والحكمة على كل حال ــ ان توفي مطران عاصمته « طليطلة » ، وخلفه آخر ، فكان الحبر الجديد تواقا الى ان يقاتل المسلمين وان يثخن فيهم ، فاستطاع ان يزين لمليكه ان ينقض العهد معهم ويغزوهم فى ديار الاندلس . ثم لم يلبث ــ هذا المطران ــ ان اعد حملة كبيرة ، وسار بها الى الجنوب مخترقا جبال « الشارات » (سييرا مورينا) ، مقتحما الاندلس الآمنة فى ظل هدنة لم ينقض اجلها ... ودمر جنده ، بالسيف وبالنار ، كل شيء صادفوه فى طريقهم : فانتسفوا الغلات والكروم ، وقطعوا اشجار الزيتون ، وخربوا الضياع والقرى ، وساقوا الماشية ، وسبوا المسلمين العزل رجالا ونساء ... وتوغلوا ، حتى ان سرايا خفيفة من فرسانهم بلغت مدينة « الجزيرة الخضراء » ، المطلة على البحر فى اقصى الجنوب ، دون ان تتصدى لها اية قوة رادعة تردهم على اعقابهم !

وعاد المطران الظافر من حملته مثقلا بالغنائم ، التي قدمها هدية ثمينة الى مليكه . فاذا « الفونسو » ، الذي انتشى بظفر حبره المحارب ، يبادر الى تسطير كتاب حافل بمعاني التحدي والاثارة ، يوجهه الى الخليفة « يعقوب المنصور » وهو فى عاصمة ملكه « مراكش » ... يقول فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم

« من ملك النصرانية الى امير الحنفية

« اما بعد . فان كنت عجزت عن الحركة الينا ، وتثاقلت عن الوصول والوفود علينا فوجه لي المراكب والشباطي اجوز فيها جيوشي اليـــك ، حتى اقاتلك فى اعز البلاد عليك : فان هزمتني فهدية جاءتك الى يدك فتكون ملك البرين ، وان كان الظهور لي كنت ملك الملتين . والسلام » (1) .

فلما قراه الامير يعقوب ، استشاط غضبا من غرور ملك الفرنـــج وغطرسته ، واخذته الغيرة على الاسلام : اتبلغ القحة بعدوه حد ان يستهين به فيطلب منه ان يوافيه بسفنه ليعبر بها البحر بجيوشه اليه ويحاربه فى عقـــر داره ؟ !

ودفع بالكتاب ، فور قراءته ، الى ابنه وولي عهده « محمد » ـ وله يومئذ من العمر اربع عشرة سنة قمرية ـ واهاب به :

« رد عليه يا ولدي ! »

فتناول الابن الكتاب ، وقلبه بين يديه ... فلم يلبث ان اسعفتـــه قريحته ، فكتب على ظهر الكتاب هذه الكلمات الموجزات :

« قال الله العظيم : ارجع اليهم فلناتينهم بجنود لا قبل لهم بهـــا ، ولنخرجنهم منها اذلة وهم صاغرون » .

واعاد الكتاب الى ابيه . فسر الاب بهذا الرد الذي لا يصدر مثله الا عن عاقل رايب ، ومهره بتوقيعه ، وصرف به السفير .

---

(1) هذا نص الكتاب هكا ورد فى « روض القرطاس » لابن ابي زدع الفاسي . على انه ورد بنص اطول ، فى « وفيات الاعيان » لابن خلكان : ج 2 ص 429 ، الذي يضيف : وقد انشاه ـ اي الكتاب ـ لملك الفرنج « وزير يعرف بابن الفجار » وهو يهودي .

وشاع خبر الكتاب بين الجند ، من عرب وبربر ، فضجوا غضبا ، وطالبوا بالاسراع الى الجهاد والانتقام .

وامر الخليفة ، فى ذلك اليوم ، باخراج افراق القبـــة الحمـــراء ، والمصحف الشريف ، وسيفه الكبير ، ايذانا بالدعوة العامة الى الجهاد .

وضرب السرادق فى ظاهر العاصمة للتطوع . وكتب الى عماله فى اقاليم دولته يستنفرهم . فدوت صيحة الجهاد فى جميع انحاء البـلاد ، من مدينة « سلا » فى اقصى المغرب ، الى اقليم « برقة « على حـــدود مصر ... « فاقبل اليه الناس خفافا وثقالا ، من كل فج عميق ، ومن كل مكـــان سحيـــق » .

وكان ذلك فى اوائل سنة 591 هجرية (1195 ميلادية) .

— 2 —

لم يلبث « يعقوب المنصور » فى حاضرة « مراكش » طويلا ، حتى خرج منها فى يوم الخميس 18 من جمادى الاولى 591 هجرية (اول ايار ـ مايو 1195 ميلادية) ، باتجاه ميناء « سبتة » ، والجيوش تترى فى اثره من كل حدب وصوب ، منحدرة الى امكنة العبور فى الاندلس .

واخذت الكتائب فى اجتياز البحر . فكان المنصور ما يكاد يفرغ من تسيير طائفة « الا قد تلاحقت به طائفة اخرى اكثر منها » . واول من جاز البحر قبائل العرب ، ثم قبائل البربر : زناتة ، فالمصامدة ، فغمارة ، ثم الاغزاز (2) والرماة ، ثم المتطوعة ، ثم جيش الموحدين ، فالعبيد ...

فلما تم عبور هؤلاء جميعا ، جاز المنصور فى اثرهم ، بجموع غفيرة من اشياخ الموحدين واهل النجدة والزعامة ، ومعه فقهـــاء المغـــرب

---

(2) الاغزاز : محاربون أصلهم من الاسارى والمماليك من مختلف الامم التي فتحها العرب ، دخلوا المجتمعات الاسلامية وانصهروا فيها .

وصلحاؤه . وكان نزوله فى ((الجزيرة الخضراء)) يوم الخميس 20 من جمادى الآخرة . ولم يسترح فى ظاهر المدينة الا يوما واحداً ، نهض بعده ، مستسنحا ما يلهب الجند من الحماسة والظمأ الى الجهاد .

ومضى الى ((اشبيلية)) أولا ، ثم الى ((قرطبة)) ، وهو يدبر امور البلاد ، ويستكمل أهباته ، ويحكم خطط الحرب . وكان قد وضع نصب عينيه ان يخترق ــ بجيوشه العظيمة ــ ((مملكة قشتالة)) ، ويستولى على عاصمتها ((طليطلة)) ، فاذا تم له ذلك غدا فى ميسوره ان يجتاح الممالك الاخرى دون كبير عناء .

ولكنه علم ان ((الفنش)) (3) قد جيش جيوشه ، واستعد له فى مكان هو ما بين ((قرطبة)) و ((قلعة رباح)) ، على مقربة من ((قلعة الارك)) ... فزحف المنصور ميمما نحوه ، ((فلم يدخل بلداً ، ولم ينتظر امدا ، ولم يلتفت لا لمن ابطأ ولا لمن قعد)) ، حتى بقي بينه وبين ((الارك)) مسيرة يومين ، فضرب هناك معسكره ، فى يوم الخميس الثالث من شعبان 591 هجرية (13 تموز ــ يوليو 1195 ميلادية) .

وما كادت الجيوش الاسلامية تستقر فى محطتها ، حتى ظهرت سرية من خيل القشتاليين ، خرجت تستطلع اخبار المسلمين ، فظفرت بها طائفة من الجند وابادتها قتلا .

وجمع الخليفة الموحدي القادة والاشياخ ، وعقد معهم ((مجلسا حربيا)) ، لبحث الخطوات الاخيرة التي يرون اتباعها فى خوض القتال . فسمع اولا اشياخ الموحدين ، ثم اشياخ العرب ، ثم اشياخ زناتة ، فاشياخ سائر القبائل ، ثم استمع الى الاغزاز فالمتطوعة ... فكان كل من هؤلاء يقول ما يبدو له من الرآي وما يتبينه من النصح والاجتهاد .

---

(3) تعرب الروايات العربية اسم الملك ((الفونسو)) فتورده على هذه الصور : ((الفنش)) ، ((الادفنش)) ، ((الاذفونش)) .

ثم دعا ، آخر الامر ، قواد الاندلس ، وقال لهم :

« يا اهل الاندلس ! ان جميع من استشرت قبلكم ، وان كانوا اولي باس وشدة ومعرفة بالحروب وقوة في الجهاد ، لا يعلمون عن قتال الفرنج ما تعلمون . فانكم المجاورون لهم ، المدربون على قتالهم ، العارفـــون بخدعهم واحوالهم ! » .

فقال الاندلسيون :

« يا امير المؤمنين ! ان راينا اجمع موقوف على واحد منا ، قـــد اتفقنا على تقديمه ، لدينه ومعرفته وحسن عقله وتدبيره ومعرفته بالحرب ومكائدها وخدعها ونصيحته للمسلمين . فهو لساننا ، وما قال فهو مذهبنا . على ان رايكم ، سدده الله ووفقه ، احسن راي ، وتدبيركم اوفق تدبير ، رضي الله تعالى عنكم » .

واشاروا الى القائد « ابي عبد الله بن صناديد » فقربه الامير ، واقبل عليه يساله عن رايه في لقاء هذا العدو ؟

فافاض « ابن صناديد » قائـــلا :

« يا امير المؤمنين ! ان الفرنج اهل خدع ومكائد في الحـــروب ، فعلينا ان نقابلهم ونقاتلهم بما هم عليه . وراينا في مقاتلتهم ، ورايك الاعلى، ان تقدم لهم امامك شيخا من اشياخ الموحدين الموصوفين بالشجاعـــة والدين والاخلاص ، وتعقد له رايتك المنصورة على جيوش الاندلس وجميع من في عسكرك من العرب والبربر والاغزاز والمتطوعة ، فيقاتل بهم عساكر العدو ، وتقعد انت بجند الموحدين والعبيد والحشم بالقرب من موضـــع القتال في مكان خفي مستور : فان ظفرنا بعدونا ، فبفضل الله تعالى وبركتك ويمن خلافتك ، وان كان غير ذلك ، تكون انت بعسكر الموحدين حمايـــة للمنهزمين ، فتلقى العدو بهم وقد انكسرت شوكته وذهبت قوته وحدته ، فلعل الله ينصركم وينصرنا على اعدائنا . وهذا رايي ، رضي الله عنكم ».

ولقد راق المقترح للخليفة وقرر اتباعه ، وقال :

((نعم ، والله ، الراي ما رايت . فلقد وفقك الله تعالى فيما اشرت)).

وانصرف الناس الى مضاربهم .

وبات الخليفة ليلته تلك - وهي ليلة الجمعة الرابع من شعبان - في صلاته راكعا ، ساجدا ، مبتهلا ، راغبا الى الله سبحانه في تاييد المسلمين على اعدائهــم .

فلما كانت ساعة السحر ، غلبته عيناه ، فاغفى في مصلاه اغفــاءة انتبه منها وقد افعمه فرح واستبشار ... فاذا هو يبعث في طلب اشياخ الموحدين والفقهاء ، فيهرعون اليه ، فيقول لهم :

((انما بعثت لكم ، في هذا الوقت ، لابشركم بما بشرت به من نصر الله تعالى في نومي هذه الساعة المباركة . فبينما انا اركع في مصلاي ، اذ غلبتني عيني ، فرايت وكان بابا قد فتح أمامي في السماء ، ونزل منــه فارس على فرس ، ابيض الوجه والرائحة ، وبيده راية خضراء منشورة قد سدت الافق من عظمتها . فسلم علي فسألته : ((من انت ، يرحمــك الله ؟)) ، فاجابني : ((انا ملك من ملائكة السماء السابعة ، جئت لابشرك بالفتح من رب العالمين ، انت وعصابتك المجاهدين الراغبين في الشهادة تحت رايتك)) ! ثم انشدني هذه الابيات ، فانتبهت وكان الابيات نقشت في قلبــــي :

((بشائر نصــــر الله جاءتـــك سافـــــره
لتعلـــم أن اللـــه ينصـــر ناصــــــره

فابشر بنصـــر اللـــه والفتـــح ، انــــه
قريب ، وخيـــل الله لا شـــك ظافــــره

فتفني جيوش « الروم » بالسيف والقنـــا
وتخلي بـــلاداً لا تـــرى بعـــد عامـــــره

« فايقنت بالفتح والظفر ، ان شاء الله تعالى » .

— 3 —

ترامت الى « الفونسو الثامن » الانباء بعبور الخليفة المنصور البحر الى الاندلس ، فادرك أن « المراكب والشباطي » ـ التي كان قد طلبها من « عدوه » هزؤا به وسخرية ـ قد جاءته الآن ، ولكن بعد ان اثقلت بجند اعدائه ! وسرعان ما جمع مستشاريه ، واخذ يستعد للحرب ، فاستدعى الامراء والاشراف بقواتهم ، وحشد كل ما استطاع من الجند والمحاربين .

وقد بعث ، في ذلك ، الى زميليه ملكي « ليون » و « نافـــارا » ، يناشدهما تناسي الخصومات التي فرقت بينهم زمنا ، فيضما قواتهما الى قواته ، ليلقى الجميع عدوهم يدا واحدة . فوعد الملكان بمعاونته والسير اليه ، ولعل ما حدا بهما الى هذه الاستجابة غير المتوقعة تحريض الجند والشعب اكثر مما عندهما من الرغبة الخالصة في العون والانجاد ، فجمع كل منهما جنوده ، وتولى قيادتهم بنفسه . ولكنهما تحركا بمزيد من البطء، حتى أن طالب العون بدا يشك في صدق نواياهما ، فساوره اعتقاد بانهما يضمران من الغدر به اكثر مما يبديان من الرغبة في محاربـــة اعدائهـــم المسلميـــــــن !

ولم يلبث ان غادر عاصمته « طليطلة » ، مسرعا الى الجنوب ، متجها نحو اراضي « قلعة رباح » ، دون ان ينتظر مقدم ملك « نافـــارا » ، ولا زميله ملك « ليون » الذي كان قد بات هو وقواتـــه على مقربـــة مـــن « طليطلة » . ذلك ان « الفونسو » كان واثقا ـ رغم كل ما هنالك ـ مـــن رجحان كفة قواته ،مستيقنا من النصر على اعدائه ، حتى انه اصطحـــب معه جماعات من التجار اليهود ، قصد ان « يشتروا » الاسارى المسلمين ... وقد اعدوا لذلك ما يقتضي من الاموال !!

والحق ، لقد استطاع ملك قشتالة ان يحشد للمعركة قوات هائلة . وقد قدم له فرسان ((قلعة رباح)) أعظم المساعدات ، ووضعت فروسية قشتالة باسرها نفسها بين يديه ... حتى لقد اربى ما حشد على مائة الف مقاتل ، حسب تقديرات الرواية الاسبانية ، وثلاثمائة الف حسب تقدير الرواية العربية . ولكنها تظل قوة اقل من ان تمكنه من احراز النصر على الجيوش الاسلامية التي تقدر بضعف ما حشد الاسبان .

وكان ملك قشتالة قد بدا ، منذ حين ، بانشاء حصن جديد في المحلة المسماة بـ ((الارك Alarcos ، وهي ضيعة صغيرة من اعمال ((قلعة رباح)) ، وكانت تشكل ((نقطة حدود)) بين قشتالة واراضي الاندلس العربية ... والى هذه النقطة اتجه ((الفونسو)) بقواته ، وعسكر بها ، معتزما ان يلقى جيوش المسلمين بها ، ويحول بينهم وبين عبور الحدود الى داخل اراضيه .

ومن ناحية اخرى كان الخليفة الموحدي يتابع عقد مجالسه الحربية مع اشياخ القبائل . وقد قعد ، في يوم السبت الخامس من شعبان (14 تموز - يوليو) ، في قبته الحمراء ، ودعا كبير وزرائه الشيخ الاجل ((ابا يحيى بن ابي حفص)) ، وهو الذكي الفطن الشجاع ، الذي ابدى بسالة نادرة في ما سبق منالو قائع والحروب ، فعهد اليه بمنصب ((القائد العام)) ، وقدمه بقبيلته ((هنتاتة)) على الجيوش الاسلامية جميعا .

ولا باس ان نمضي فنعدد اسماء من قدم من القادة على جيوش المسلمين وجماعات المجاهدين ، وهم : القائد ((ابو عبد الله بن صناديد)) وقد قدمه على عساكر الاندلس وحشودها ؛ و ((جرمون بن رباح)) على جميع قبائل العرب ؛ و ((منديل المغراوي)) على قبائل مغراوة)) ؛ و ((محيو بن ابي بكر بن حمامة)) على جميع قبائل ((مرين)) ؛ و ((عبد القوي التجاني)) على قبائل ((تجان)) ؛ و ((تجليدن)) على قبائل ((هسكورة)) وسائر ((المصامدة)) ؛ و ((محمد بن منقباد)) على قبائل ((غمارة)) ؛ و ((ابو يخلف الاوربي)) على المتطوعة ...

وبقي المنصور ، فى عسكر الموحدين والعبيد ، جيشا احتياطيا يدخل المعركة فى اللحظة الحاسمة .

ثم امر قادته ان يتابعوا الزحف الى محلة الاسبان .

فتقدم القائد العام « ابو يحيى » بجيوشه ... فكان اذا اقلعت محلة اول النهار من موضع ، نزلت به محلة أمير المؤمنين فى عشيته . حتى اشرف « ابو يحيى » على محلة الاسبان ، وهم على « ربوة عالية ، ذات مهاو ، واحجار كبار قد ملات السهل والوعر ، فنزلت عسكر المسلمين فى الوطا » ...

وعلى تلك الربوة تقوم « قلعة الارك » (4) .
وكان ذلك فى ضحى يوم الثلاثاء الثامن من شعبان (17 تموز ـ يوليو)

---

(4) لعله يجمل بنا ، هنا ان نصف البقعة التي ستدور فيها رحى هذه المعركة التاريخية.
يقع المكان على مبعدة بضعة كيلومترات من غربي مدينة « ثيوداد ريال » الحديثة وشمال غربي بلدة « بوبليتي » الصغيرة ، وتؤدي الى المكان طريق جبلية معبدة ، تخترق فى البداية بسيطا أخضر من الارض ، يفضي غير بعيد الى مجموعة من الهضاب الصغيرة . وعلى نحو أربعة كيلومترات من هذه الهضاب ، تقع ربوة « الارك » ، التي تقوم عليها اليوم ، فوق انقاض الحصن القديم ، « كنيسة القديسة مريم » او « كنيسة سيدة الارك » ، وهي عبارة عن بناء تحيط به اسوار قديمة . وما تزال انقاض الحصن القديم بادية للعيان ، وهي تقع خارج الكنيسة على حافة الربوة وتدور حولها ، وتمتد آثار الحصن غربا الى قرب النهر ، نهر « وادي يانة » .
وتشرف هذه الربوة ، فى اتجاه الجنوب ، على واد عميق متدرج يصطلح اليوم على انه المكان الذي دارت فيه المعركة . ويجري النهر بحذاء هذا الوادي ، من شماله وغربه ، ويدور فى انحناءة حول ربوة الارك . ويطلق اليوم على هذا الوادي ، الذي تغمره الخضرة ، اسم : « ضيعة ديغو Villa Diego
ويبدو من وصف أدوار المعركة ، أن الجيش القشتالي كان يحتل مكانا يتصل بمشارف هذه الربوة ، على مقربة من الحصن ، ويمتد فى اتجاه قرية « بوبليتي » ، ويستند الى الحصن والى نهر « وادي يانة » ؛ وان المسلمين كانوا يحتلون البسيط الواقع قبالتهم فى أسفل الوادي ، وتستند محلتهم غربا الى يسار النهر .
(انظر ، فى تفاصيل وصف المكان ، كتاب المؤرخ العلامة محمد عبد الله عنان : « عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والاندلس » ، القسم الثاني ، ص 203 وما بعدها ، وقد اتيح للمؤلف ان يزور المكان فى ربيع سنة 1963 ، ويصفه وصفا مستفيضا شيقا) .

فلما راى القشتاليون اقترب جيوش الموحدين ، خرجت جملة من قواتهم مدججة بالسلاح ، ونزلت من الربوة العالية ، وتقدمت من مراكز المسلمين . ولكن هؤلاء لم يفعلوا شيئا للاشتباك مع العدو ! فقد بـــدا ان الخليفة المنصور ، لم يكن قد قرر خوض المعركة فى ذلك اليوم . فلمـــا راى المحاربون المتقدمون جمود اعدائهم ، عادوا الى الربوة صعدا ، وقد اثقلتهم اسلحتهم ودروعهم !

— 4 —

ولكن القائد العام ((ابا يحيى بن ابي حفص)) ، كان قد عبا ، فى اليوم التالي (الاربعاء التاسع من شعبان) ، جيوشه تعبئة الحرب ، وعقـــد الرايات لامراء القبائل ، وجعل عسكر الاندلس فى ميمنته ، وفى الميسرة العرب و ((زناتة)) و ((المصامدة)) وسائر قبائل المغرب ، وفى المتقدمة المتطوعة والاغزاز والرماة ، على حين احتل القلب هو وقومه من قبيلـــة ((هنتاتة)) . وظل الخليفة فى جيشه الاحتياطي فى المؤخرة على اهبـــة التدخل عند الاقتضاء .

فلما اتخذ المجاهدون مطارحهم على هذا الترتيب ، ولزمت كل قبيلة رايتها واتخذت للحرب عدتها ، انبرى الامير ((جرمون بن رياح)) ، قائد القبائل العربية ، يمشي بين الصفوف ، يقوي القلوب ويتلو الآية الكريمة :

((يا ايها الذين آمنوا ، اصبروا وصابروا وراجعوا واتقوا الله لعلكم تعلمون . يا ايها الذين آمنوا ، ان تنصروا الله ينصركم ويثبت اقدامكم)).

وما ان عاد الى قومه ، حتى شق الفضاء صوت جهوري هو صوت القائد العام ((ابي يحيى)) ، ينادي فى الناس :

((يا معشر المسلمين ! ان امير المؤمنين يطلب اليكم ان تغفروا له ، فان هذا موضع غفران ، وان تتغافروا فيما بينكم ، وان تطيبوا نفوسكم ، وان تخلصوا نياتكم لله تعالى)) .

فكان مشهدا مؤثرا ، بكى فيه الناس من جلال الموقف ، وهم على وشك أن يخوضوا قتالا لا يعرف احدهم ما اذا كان سيبقى بعده فى عداد الاحياء ، أم يمضي الى لقاء وجه ربه الكريم ...

وتعالت صيحاتهم من كل جانب :

« ليغفر لنا الخليفة ... ليغفر لنا ... اننا بين نيته وصدق طويته» نرجو الخير من الرحمن ...

وكان المقاتلون القشتاليون ـ فى أعلى الربوة ـ قد راوا ، منذ الصباح الباكر ، زحف المسلمين نحو محلتهم ، فايقنوا أن القتال وشيك الاصطرام . فنزلوا من الرابية صفوفا كثيفة متراصة « كالليل الدامس ، والبحر الزاخر ، اسرابا تتلو اسرابا ، وامواجا تعقب أمواجا » .

نزل منهم ، فى الدفعة الاولى ، ثمانية آلاف فارس ، قد احتجب كل منهم « بالحديد والبيضات والزرد النظيف النضيد » ... فكان منظرهم ـ وهم مندفعون نحو المسلمين على هذا النحو ـ مروعا حقا .

ونادى منادي القائد العام ، يذكي العزائم ويستنهض الهمم :

« معشر المسلمين ! اثبتوا فى مطارحكم ، ولا تبرحوا مواضعكم ، واخلصوا لله نياتكم ، واذكروا الله فى قلوبكم كثيرا ، فانما هي احدى الحسنيين : الشهادة والجنة ، او الثواب والغنيمة » .

كانت موجة الفرسان المهاجمين قد بلغت السفح ، فاندفعت نحو المسلمين بكل عزمها ، حتى لطمت بصدور خيلها اسنة رماحهم او كادت.. ثم ما لبثت ان تراجعت الى الوراء قليلا !

وخرج مناد آخر يجول بين الصفوف :

((عباد الله ؟ انكم قربا لله ، فاثبتوا للقتال بين اعداء الله ، فان حزب الله هم المفلحون ، وهم المنصورون ، وهم الغالبون)) .

كرت موجة الفرسان ثانية نحو المسلمين ... وتقهقرت من جديد ! فكان ذلك من العدو ((حربا نفسية)) ـ فى اصطلاح اليوم ـ والمسلمون صامـــدون لهـــا .

وتهيا الفرسان القشتاليون للكرة الثالثة ... فنادى القائدان ((ابن صناديد)) و ((جرمون بن رياح)) :

((اثبتوا ، معشر المسلمين ، ثبت الله اقدامكـــم ، فهـــذه هـــي الصادقـــة !)) .

واندفعت موجة فرسان الاعداء ، هذه الكرة ، نحو القلب ، الـــذي تخفق فيه الرايات البيض ، يقصدون الفتك بالخليفة ، وما شكوا فى ان رايته البيضاء انما ترفرف فوق راسه فى هذا المكـــان بين المقاتليـــن والمسلميـــن .

وتلقى القائد العام ((ابو يحيى)) ، وهو فى ((القلب)) ، هذه الموجة العارفة ، فقاوم هو ومن معه ، وقاتلوا واستبسلوا ، حتى سقط من حوله العديد من بني قومه ((هنتاتة)) وغيرهم .

وهنا ، كانت قبائل العرب والمتطوعة والاغزاز والرماة ، قد تقدمت واحاطت بالقشتاليين من كل جانب ... وقذف ((ابن صناديد)) بجيوشه الاندلسية فى اتون المعركة ، وزحفت معه قبائل ((زناتة)) و ((المصامدة)) و ((غمارة)) وسائر قبائل البربر ، واندفعت الجيوش بجملتها نحو محلة القشتالييـــن .

استعرت نار الحرب ، وعظمت الاهوال ، وكثر القتل فى مقدمة العدو - تلك التي اضطلعت بالهجمة الاولى - واستمر القتال على هذا النحو من العنف ، حتى اضطر الاعداء الى التقهقر واللواذ برايتهم ... فكانت هذه اول بوادر هزيمتهم .

وتتفق الرواية اللاتينية ، هنا مع الرواية العربية ولا تختلف عنها الا يسيرا ، وتضيف - موجزة - ان القشتاليين لما راوا الجيوش الموحدية تتقدم نحوهم ، حدث فى محلتهم ضجة ، خرج على اثرها جندهم فى قليل من النظام ، وتقدموا ، فاشتبكوا مع المسلمين ، وسقط فى ذلك عدة من اكابرهم . وحمي وطيس المعركة ، وسالت دماء غزيرة . فلما راى ملكهم رجاله وهم يتساقطون على هذا النحو ، تقدم بنفسه الى الامام ، واخذ يثخن - مع طائفة من رجاله - فى المسلمين يمينا وشمالا .

ولكن الرواية العربية تفصل لنا ، من ناحية اخرى ، ما حدث بعد هزيمة القشتاليين فى الجولة الاولى ... فتقول انهم ، لما اشتد القتال عليهم ، « وايقنوا بالفناء والبوار ، ولوا الأدبار ، واخذوا فى الفرار الى الربوة - التي فيها « الفنش » - ليعتصموا بها ، فوجدوا عساكر المسلمين ، فحالوا بينهم - اي بين القشتاليين - وبينها ، فرجعوا على اعقابهم ناكصين فى الوطا ، فرجعت عليهم العرب والمتطوعة وهنتاتة والاغزاز والرماة يطحنوهم طحنا ، وافنوهم عن آخرهم ، وانكسرت شوكة الفنش بفنائهم ، وكان اعتماده عليهم ... »

واسرعت خيل من العرب الى الخليفة المنصور ، يبشرونه :

« قد هزم الله تعالى العدو ! » .

فضربت الطبول ، ونشرت الرايات ، وخفقت البنود ، وتسابقت الخيل ، واسرع الرجال لقتال العدو .

واما الخليفة المنصور ، الذي لم يقيض له أن يتدخل بقوته الاحتياطية منجداً ، فها هو ذا يخرج بها الآن من مكمنه ، ليخوض المرحلة الاخيرة من المعركة ، ويثخن بفلول اعدائه المتقهقرين .

وكان ((الفنش)) ، تلك اللحظة ، قد صح عزمه على أن يحمل ، بجميع جيوشه ، على المسلمين ... فاذا هو يسمع ضرب الطبول وقـد ملا الارض ، وعجيج الابواق وقد طبق الربى والبطاح ، فنظر فراى رايـات المسلمين قد اقبلت ، ولواء الخليفة الابيض فى اولها ، وقد كتب عليه : ((لا اله الا الله محمد رسول الله)) ... و ((راى ابطال المسلمين قـد تسابقت ، وجيوشهم قد تناسقت وتتابعت ، واصواتهـا بالشهادة قـد ارتفعت)) ، فتساءل جزعا :

((ما هذا الذي ارى ؟)) .

فقيـل لـه :

((هذا اميرهم قد اقبل ، وما قاتلك بعد الا طلائع جيوشه ومقدمات عساكـره !)) .

وتقول الرواية اللاتينية : أن رجال ((الفونسو)) راوا انه يستحيل عليهم ان يقاوموا ضغط الحشود الاسلامية ، لا سيما وقد سقط كثيـر منهم فى هذه المعركة التي استطالت حتى منتصف النهار . فتضرعوا الى ملكهم أن يحتفظ بحياته ، ((خصوصا انه يبدو أن الله قد تخلى عنهم)) . ولكن الملك ابى ان يصغى اليهم ، واصر على أن يمضي فى المعركة قدما ، فجذبوه قسراً ، واخرجوه من الميدان . فارتد ، من ساعتـه ، نحـو ((طليطلة)) فى نفر من الفرسان ، وقلوبهم تنفطر حزنا واسى لما حاق بهم من ذل الهزيمة بعد يقين النصر .

ولحق فرسان المسلمين بالاعداء « يضربون وجوههم وادبارهم ، ويقتفون آثارهم ، ويحكمون فيهم رماحهم وشفارهم ، ويروون من دمائهم السيوف ، ويذيقونهم مرارة الحتوف » (5) .

وطوقوا حصن « الارك » ، الذي لاذت به فلول القشتاليين ، وقد حسبوا أن الملك اعتصم فيه . ولكن الخليفة المنصور تأكد ، من أقوال حليفه القشتالي المنضم الى معسكر المسلمين : « بيطرة بن فراندس » (دون بيدرو فرنانديث دي كاسترو) ، ان الملك قد لاذ بالفرار . فطالب بتسليم الحصن فى الحال ، والا اقتحمه وقتل من فيه .

ثم ان اتفاقا تم ، بواسطة « بيطرة » ، على أن يفرج القشتاليون عن خمسة آلاف من اسرى المسلمين ، مقابل اطلاق المحصورين بالحصن . واخذ المنصور ـ ضمانا لتنفيذ هذا الاتفاق ـ رهائن وجهت الى « اشبيلية » .

واستطاع قائد المعتصمين بالحصن ، « دون ديغو لويث دي بسكاية» ، ان يلتحق بمليكه ، الهائم على وجهه باتجاه « طليطلة » (6) .

— 5 —

انتهى يوم الاربعاء التاسع من شعبان 591 هجرية (18 تموز — يوليو 1195 ميلادية) ، بانتصار المسلمين ... فماذا عن الخسائر التي نزلت بهم وباعدائهم ؟ وماذا عن المغانم التي اصابوها ؟

---

(5) رجعت ، فى تفاصيل « يوم الارك » خاصة ، الى كتاب « الانيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس » لابن ابي زرع الفاسي ، المتوفى فى حدود سنة 726 هجرية (1326 ميلادية) . وهو نسخة قديمة مكتوبة بخط يد ومطبوعة على الحجر ، عثرت عليها فى « دار الكتب الظاهرية » بدمشق . وقد ساعدني ، مشكورا ، فى قراءة ما همني منها ـ والكتاب مكتوب بخط مغربي ـ الصديق الاستاذ « محمد العلوي » السكرتير الاول فى السفارة المغربية بدمشق .

(6) جريت ، فى سرد هذه الموقعة التاريخية ، على وصف الجانب المدافع ضد الاسبان بالاسلامي ، لان قوامه جيوش عربية وبربرية وغيرها قد وحدتها جميعا العقيدة الاسلامية .

لم تقدم لنا المصادر العربية رقما واضحا عن عدد المحاربين في الجيوش الاسلامية ، فهي تكتفي بان تتحدث عن كثرة حشودها وعظمتها . ثم هي تقدر جيش القشتاليين ، وتبالغ في تقديره حين تقول انه في نحو ثلاثمائة الف ما بين فارس وراجل .

واما القتلى من الفريقين ، فقد كان عددهم مرتفعا ، نظرا لكثرة الاجناد الذين خاضوا المعركة ولاشتداد وطاة القتال واحتدامه . ولعل اقرب التقديرات الى الواقع ان يكون عدد من قتل من القشتاليين نحو ثلاثين الفا ممن وصفوا بانهم « زهرة الفروسية الاسبانية » (7) . وسقط من المسلمين نحو خمسة عشر الفا ، بينهم القائد العام « ابو يحيى بن ابي حفص » ، الذي تلقى ــ وهو في « القلب » ــ الصدمة الكبرى في اولى جولات القتال ، فقاوم وقاتل واستبسل ، وسقط شهيدا مع العديد من بني قومه « هنتاتة » .

على ان المسلمين اصابوا من الغنائم ارقاما مدهشة حقا . فقد حازوا من الخيام مائة وخمسين الفا ، ومن الخيل ستة واربعين الفا ، ومن البغال مائة الف ، فضلا عن مقادير لا تحصى من الاموال والتحف .

وقد قسم الخليفة الغنائم بين المسلمين ، بعد استخلاص الاخماس. هذا الى انه كان قد بعث بمن ينادي في عسكره :

« يا معشر المسلمين ! ان من غنم شيئا فهو له ، سوى السلاح » .

فكان ما حمل اليه منه ، يزيد على سبعين الف « لباس » !

انتهى هذا اليوم الخالد بانتصار المسلمين ذلك الانتصار المؤزر . ولقد كان وراء هذا الانتصار تدبير وتنظيم واستعداد قد افلح فيها خليفة

---

(7) « تاريخ الاندلس في عهد المرابطين والموحدين » تاليف المؤرخ الالماني يوسف اشباخ ، ترجمة محمد عبد الله عنان ، ج 2 / 87 ، مطبعة لجنة التاليف والنشر بالقاهرة 1941 .

الموحدين : من ذلك ما اخذ به نفسه من مبدا الشورى ، فى عقده تلك المجالس الحربية مرة بعد اخرى ، والتي افضت الى ما ساد الجيوش الاسلامية على كثرتها من تنظيم وتنسيق ، فقد عين لها قائدا عاما ، ووضع تحت اشرافه عديدا من القادة الذين اختص كل منهم بجيش او قبيلة او طائفة هو واحد منها .

ويجدر ، ايضا ، التنويه بخطة « ابن صناديد » ، تلك التي قضت بان يتاخر الخليفة المنصور بقوات خاصة عن ميدان المعركة ويكمن بها فى موضع مستور ، ليتدخل دعما للمسلمين اذا ما بدر منهم تراجع ... ان الحكمة فى هذه الخطة ، تتجلى فى ان المسلمين ، وان لم يستفيدوا مما ادخرته لهم هذه الخطة من ميزة اساسية ، قد مضو يقاتلون منذ البداية وهم مطمئنون الى انهم ان تراجعوا تحت ضغط العدو فان ثمة قوات احتياطية ستنبري لانجادهم فى الحال .

يضاف الى ذلك كله ، ما كان يجيش فى الصدور من العزم على الثار من « الفنش » ، الذي نقض العهد عندما ارسل حملة اجتاحت الاندلس العزلاء ، فعاثت واثخنت ، ثم ساقته غطرسته الى ان يبعث الى خليفة المسلمين فى « مراكش » يطلب منه ان يوافيه بمراكبه « ليجوز البحر اليه فيقاتله فى اعز البلاد عليه » !

ولم يكن لاحد ان يتوقع من الجيوش الاسلامية الظافرة ان تقعد بها همتها عند هذا الذي حققته من رائع النصر ، بعد جوازها البحر الى الاندلس .

ولئن كانت هذه الجيوش قد اتبعت نصرها فى « يوم الارك » ، بان استعادات ـ فى شهر شعبان نفسه ـ بعض المعاقل من الاعداء ، ومنها « قلعة رباح » التي كانت للعرب الى ان استولى عليها القشتاليون فبقيت فى ايديهم زهاء خمسين عاما ، لقد آلى الخليفة على نفسه الا يغادر الاندلس قبل ان يؤدب عدوه « الفنش » تادبا يظل يذكره مدى عمره !

وهكذا اتجه صوب « اشبيلية » اولا ، ليمضي فيها اشهر الخريف والشتاء . حتى اذا اطل الربيع ، ربيع سنة 1196 ميلادية ، قام يغادر ـ بما جهز من جيوش ـ عاصمة الاندلس ، في منتصف شهر جمادى الاولى 592 هجرية (منتصف نيسان ـ ابريل) منتجها شمالا ، حيث احتل عددا من المدن والحصون ، وتوغل بعدها في قلب قشتالة ، يطلب العاصمة « طليطلة » !

ولن يفوتنا ان نورد ، هنا ، ما ذكره مصدر من المصادر العربية من ان « الفنش » ، بعد « يوم الارك » ، قد « نجا الى طليطلة في اسوا حال ، فحلق راسه ولحيته ، وآلى الا ينام على فراش ، ولا يقرب النساء ، ولا يركب فرسا ولا دابة حتى ياخذ بالثار . وصار يجمع من الجزائر والبلاد البعيدة ، ويستعد » .

ولكن ها قد مضى على « يوم الارك » بعض العام ، واستولى المنصور على معاقل في مملكة عدوه ومدن ، ودمر له الضياع ، وانتسف الحقول والمزارع ، والملك المهزوم لا يقوى على الدفاع عن مملكته المستباحة ، او ملاقاة غزاته في ساحة قتال .

وها هو ذا المنصور يطرق ابواب « طليطلة » ـ و « الفنش » ممتنع بها ـ ويرميها بالمجانيق ، ويضيق عليها ، « ولم يبق الا فتحها ، فخرجت اليه والدة الاذفونش وبناته ونساؤه ، وبكين بين يديه ، وسالنه ابقاء البلد عليهن » ... وتمضي الرواية العربية فتقول : وقد « رق لهن المنصور ، ومن عليهن بها (ببلدهن) ، ووهب لهن من الاموال والجواهر ما جل ، وردهن مكرمات ، وعفا بعد القدرة ... » (8) ، وعاد الى « اشبيلية » ، بعد ان قضى في غزوته هذه ثلاثة اشهر .

ولسنا نترك الحديث عن هذه الغزوة دون ان نذكر ان ملك ليون ، وهو « الفونسو التاسع » ، بعث الى الخليفة الموحدي يرجوه ان يعاونه

---

(8) انفرد بهذه الرواية « المقري » في كتابه « نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب » : ج 1 / 418 .

بعض قواته على غزو قشتالة ! فاستجاب الخليفة لرغبته ، لما كان من سالف موقفه قبيل معركة ((الارك)) ، وتنحيه عن معاونة ملك قشتالة ضد الموحدين ، وجنوحه الى مصادقتهم ومحالفتهم . وهكذا وفق ملك ليون الى أن يغزو ، ومعه قوة من الموحدين ، الاراضي القشتالية !

ومر من عمر الزمان شتاء آخر ، واطل ربيع جديد هو ربيع 1197 ميلادية . فسار الخليفة المنصور ، فى جمادى الاولى 593 هجرية (نيسان ـ ابريل) ، من ((اشبيلية)) الى ((قرطبة)) ، ثم اخترق جبل ((الشارات)) . فلما وصل الى حدود ((قشتالة)) ، قصد اليه رسل ((الفنش)) فى طلب المهادنة ... فصرفهم دون جواب ، ويمم قلب البلاد القشتالية من جديد ، فتوغل فيها حتى بلغ شماليها ، واعداؤه لا يجرؤون على مجابهة الجيش الاسلامي ، ولا يملكون الا الامتناع وراء الاسوار العالية. وعاد المنصور الى ((اشبيلية)) بعد ان انفق ، فى غزوته هذه اربعة اشهر .

وفى ((اشبيلية)) حرص على ان يتم بناء الجامع الاعظم ، الذي كان ابوه قد امر ببنائه فى حياته . فضوعفت الهمة فى اعمال التشييد ، وانفقت الاموال لاعلاء ((المنارة)) وتجميلها ، وزودت بتفافيحها الذهبية الشهيرة ، التي قومت يومئذ بمائة الف دينار ذهبا (9) .

ثم ان رسلا وفدت عليه من ملك قشتالة ، فى طلب المهادنة والسلم. فرأى المنصور ان يستجيب الى ذلك بشروط اشترطها .

---

(9) جاءت هذه المنارة آية من آيات الفن المعماري العالمي ، وفيها تجلت الاصالة والابتكار. ومن ميزاتها ـ وهى ذات شكل مربع ـ أنها لا تحتوي على درج ، بل ان لها ((طريقا)) من ادناهاالىاعلاها ، صعدته الدواب المحملة بمواد البناء الى القمة . وقد لاقى هذا الشكل ، بعدئذ ، الاستحسان فى الاندلس والمغرب ، وبنيت على صورته المآذن ، ثم ما لبث ان غدا الطراز التقليدي لابراج الكنائس فى اسبانيا وفى ما جاورها من الاقاليم الاوربية .

وقد فقدت من المنارة ، منذ زمن بعيد ، تفافيحها الذهبية الرائعة ، كما اقيمت على انقاض جامعها ((كنيسة اشبيلية العظمى)) . ولكن المنارة ظلت باقية ، وحول طابقها الاعلى الى برج لاجراس الكنيسة ، واتخذت المنارة اسمها الاسباني : ((لا خيرالدا))[LA GIRALDA]وذهبت فى الشهرة مذهبا بعيدا . وما تزال تحتفظ بروعة فنها الاسلامي الباذخ ، وتعتبر من أعظم الآثار الاندلسية الباقية .

وغادر « اشبيلية » في ربيع 1198 ميلادية ، في اواسط جمـــادى الاولى 594 هجرية فعبر البحر قاصدا المغرب .

ثم اخذ ، في عاصمة ملكه ، البيعـــة لولـــده « محمد » الملقـــب ب « الناصر » . ولم يلبث ان مرض مرضه الاخير . وكانت وفاته ليلة 22 من ربيع الاول 595 هجرية (22 كانون الثاني – يناير 1199 ميلادية) .

فكانت معركته تلك من المفاخر التي دونها له تاريخنا باحرف من نور، وغدا « يوم الارك » من ايام العرب المشهورة .

دمشـــق فاضل السباعي

في تحليل مصادر تاريخنا :

III تاريخ ابن عذاري المراكشي

عبد القادر زمامة

ما يزال الاستقراء والبحث والتنقيب جاريا الى الآن لمعرفة حقيقة الامر عن ترجمة وشخصية المؤرخ المغربى ابن عذاري المراكشي مؤلف كتاب : البيان المغرب فى اختصار اخبار الاندلس والمغرب . الذي كان يعيش = كما يظهر من نصوص كتابه = اوائل القرن الثامن الهجري والرابع عشر الميلادي .

وما تزال المعلومات تجتمع وتتلاحق حول أجزاء مدونته التاريخية حسبما يقع العثور عليه منها في الخزائن والمكتبات العامة والخاصة . وفي هذه السبيل سجلت مساع ومشاركات مشكورة قدمت من طرف المهتمين بالدراسات المغربية والاندلسية منذ اكثر من قرن . حتى عرفت بعض اجزاء هذه المدونة التاريخية المفيدة طريقها الى النور وافادة الدارسين والباحثين من عرب ومستعربين .

ولكن شخصية المؤرخ ابن عذاري ظلت محجوبة عنا الى الآن وغم أن اسمها يتردد فى كل دراسة تتعلق بالاندلس والمغرب فيما قبل القرن الثامن الهجري والرابع عشر الميلادي .

فابن عذاري من المؤرخين الذين نسوا انفسهم فلم يشـر في الاجـزاء المعروفة من كتابه لحد الآن الى شيء من الأشياء المتعلقة بمعالم شخصيته أو اسرته او وظيفته او افكاره او مشاغله باستثناء بعض الاشارات القصيرة الى بعض من استفاد منهم من اهل العلم والصلاح .

ثم نسيه الناس وفيهم من استفاد من كتابه ونقل اقواله والمعلومات التي دونها عن دول المغرب والاندلس وهناك حالات ذكر فيهـا وأخرى أهمل فيها ... وعمل الزمان عمله في طمس البيئة الخاصة التي عاش فيها وتاريخ الميلاد والوفاة وما الى ذلك من مجالات العمل والسلوك والثقافة .

بل ان الاسم الذي اشتهر به بين الباحثين والدارسين قديما وحديثا صار يقرأ ويكتب بصيـــغ متعددة كلهـا ترجع الـى التقديـــر والحدس والاجتهاد الشخصي . من غير رجوع الى صيغة محققة متفق عليها بين الناس .

فهو = ابـن عذارى = بفتحات ثلاث ...

وهو = ابن عذاري = بفتحتين ثم كسر ...

وهو = ابن عذاري = بفتحة بين كسرتين ...

وهو = ابن العـــذاري = بألـف ولام ...

وكل هذه صيغ ترجع كما قلنا الى الحدس والتقدير والاجتهـاد . وكلهـا تحاول ان ترجع بكلمة = عذاري = الى احدى الكلمتين العربيتين : (العذار) و (العذراء) وجمعها ... !

ونحن هنا بناء على الاستقراء والتتبع لا نختار صيغة خاصـة . وبالاحرى لا نستطيع ان نجزم بصحة واحدة منها . ونجعل ما سواها خطأ ينبغـي العدول عنـــه .. !

اذ انه من المحتمل ان تكون هناك نصوص محجوبة عنـا الآن . قد ضبطت هذا الاسم وصححت صيغته الحقيقية ... كما أنه من المحتمـل ايضـا أن يكون

هذا الاسم يرجع الى اصل آخر عربي أو غير عربي ، وحول أو حـرف او صحف حتى صار الى ما صار اليه على الألسنة والاقلام ، أ

والمؤرخ بعد هذا الذي ذكرنا عن صيغ اسمه هـو بالنسبة الى مراكش .ها من حيث الانتماء والاستيطان والدرايه الشخصيه بالمنطقـه وسكانها ومعالمهـا . شبيه بالرحالـة العبدري بالنسبة الـى حاحـة وناحيتهـا وسكانها . فكلاهما يظهر منه أنه = ابن البلد = والبيئة وانه لا يشكو غربة ولا يعاني عقدة النزوح عن الاوطان . أما الاصول السلالية والدموية فلا حديث عنها الآن .. !

وابن عذاري يظهر أنه عاش في بيئة مراكشية غير بعيدة عـن بلاد سوس وجبال درن التي تستوطنها القبائل التي يسميها المؤرخون بالقبائل المصموديه المتعددة الاسماء والاصول والفروع والتجمعات السكنية .

والى جانـب هذا يظهـر انه كان علـى صلة متينة بشخصية كبيرة من شخصيات ذلك العصر فى تلك المنطقة . وهي شخصية الرجل الصالح ابي علي صالح بن ابي صالح ابن عبد الحليم . وعن هذه الشخصية ينقل مشافهة كثيرا من الاخبار والاحداث المتعلقة بتلك المنطقة التي شاهـدت احداثـا جساما منذ فجر الاسلام الى عهد المرابطين ثم الموحدين ثم بني مرين ...

وشخصية أبي علي صالح بن أبي صالـح ابـن عبد الحليـم لـم يبخل عليها التاريخ كما بخل على ابن عذاري ولم يطمس معالم شخصيتهما كما طمس معالم شخصية ابن عـذاري ، حيث اننـا نجـد في كتاب « مفاخـر البربـر » اشارة اليه تتعلق باسمه ونسبه وموطنه وتاريخ نزولـه بهـذا الموطن حيـث نجـده يقـول :

« ... ومنهم الشيخ الفقيه الصالح العالم التاريخـي أبو علـي صالح بن الشيخ الصالح الولي الزاهد الورع أبي صالح بن عبـد الحليـم نزيـل نفيس . وهو يعيش الى وقتنا هذا . وهو سنة 712 هـ ، وقد جمع اللـه له بين العلـم والعبادة وخصه بالفضل والديانة . اشتهر بالعفاف واقتصـر مـن الدنيـا على الكفاف مع الانقباض عن اهل الدنيا والحلول والورع فى الدرجة العليـا . الى

ما يميز به من الكرم والسخاء والطهارة والتقى وتلك أوصاف لسلف الصالح رضي الله عنهم .

ولولا ان يظن بي غلو لزدنا في المقال من استزاد

وقد سالته عن قبيلته فذكر لي انه ايلاني النسب (1) .

فهذه الشخصية الدينية العلمية التاريخية التي تنزل « نفيس » يروي عنها ابن عذاري في كتابه : « البيان المغرب في اختصار اخبار الاندلس والمغرب » بعض الاخبار المتعلقة بتاريخ المغرب ولاسيما منها ما يتعلق بتاريخ المنطقة واحداثها (2) .

وحيث ان هذه الشخصية اتصل بها المؤرخ ابن عذاري واخذ عنها وذكرها في كتابه فلا ينبغي أن نتجاوزها دون ان نشير الى نقطتين اساسيتين تتعلقان بموضوعنا وتربطان حلقاته بعضها الى بعض .

الاولي : ان بعض المؤرخين الذين تحدثوا عن كتاب « الانيس المغرب بروض القرطاس في اخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس » حاولوا ان ينسبوا ذلك الكتاب الى شخصية ابي علي صالح ابن عبد الحليم . أو على الاصح ان ينسبوا اليه « صياغة » من « صياغاته » التي كانت معروفة لديهم . الشيء الذي جعل مؤرخين آخرين تتضارب أقوالهم في الموضوع حول مؤلف الكتاب هل هو ابن أبي زرع ام هو صالح ابن عبد الحليم ...؟ (3) ولسنا هنا في مقام التصحيح أو الترجيم لقول من الاقوال . ولكننا في مقام الاشارة فقط .

ويظهر حسب الاستقراء والتتبع ان اسرة بني عبد الحليم كانت عريقة في هذه الناحية وانها كانت على صلة بالموحدين منذ عهد المهدي

(1) نبذ تاريخية من لخبار البربر ص 75 . ط . للرباط 1934 م

(2) البيان المغرب ص 27 ج 1

(3) بيوتات فاس ص 63 . وسلوة الانفاس ج 3 ص 357 .

مؤسس الدولة . بل ان بعض أفرادها كان من المقربين اليه والعاملين في الجماعات التي نظمها هناك . بدليل ما سطره المؤرخ البيذق في كتابه « أخبار المهدي بن تومرت » (4)

الثانية : ان المستشرق الراحل ليفي بروفنصال اطلع على المخطوطة المعروفة باسم : مفاخر البربر واستخرج منها كتابه « نبذ تاريخية في اخبار البربر » وبطبيعة الحال رأى الفقرة المتعلقة بالشيخ ابي علي صالح بن ابي صالح ابن عبد الحليم ورأى انه كان ينزل بنفيس سنة تاليف مخطوطة : مفاخر البربر . وهي سنة 712 هـ وحيث ان هذه السنة بالذات هي السنة التي كان مؤرخنا ابن عذاري المراكشي يؤلف فيها كتابه « البيان المغرب » كما جاء ذلك في نصوص الكتاب (5) فانه استنتج استنتاجا قال فيه :

« وقد الف هذا المجموع عام 712 هـ = 1312 م اي في نفس الوقت الذي كتب فيه (البيان) بالضبط مما لانستبعد معه ان يكون كتاب : (مفاخر البربر) من تاليف ابن عذاري نفسه ...! ونحن نفترض هذا الفرض وننتظر به حتى نعثر على بيانات أو في ...! (6) .

وباعادة النظر في هذا الاستنتاج أو الفرض الذي فرضه المستشرق الراحل من ان المجموع المسمى بمفاخر البربر يمكن ان يكون من تاليف مؤرخنا ابن عذاري المراكشي ... نلاحظ ان ذلك وجيه والقرائن تدل عليه لاسيما ونفس الكتابين يكاد يكون نفسا واحدا ويتجلى ذلك في (ثقافة الانساب) و (الاعلام الجغرافية) كما يتجلى في شي آخر زائد عما ذكره ليفي بروفنصال وهو ان كلا من مؤلف (مفاخر البربر) و (البيان

---

(4) اخبار المهدي ص 61 . وص 169 . ط الجزائر 1974 .
(5) البيان المغرب ص 454 . ط. تطوان 1960 م .
(6) مجلة المعهد المصري للدراسات الاسلامية بمدريد ج 2 سنة 1954 م ص 201 .

المغرب) ينوه بقاضي مراكش الحافظ محمد بن عبد الملك الاوسي مؤلف كتاب (الذيل والتكمله) وينقل عنه ويتخده شيخا يروي عنه الاخبار والاثار

هاتان نقطتان كان من الممكن ان نغفلهما اثناء الحديث عن كتاب ابن عذاري المراكشي لولا أنهما تتعلقان بشخصية تاريخية اتخذها مؤرخنا ابن عذاري مصدرا ينقل عنه الاخبار المتعلقة بموضوع كتابه ... الى جانب مصدره الاخر وهو الحافظ ابن عبد الملك المراكشي ...

بعد هذا نتناول المادة التاريخية في مدونة ابن عذاري عن تاريخ اقطار المغرب . وبلاد الاندلس منذ الفتح الاسلامي الى اوائل القرن الثامن الهجري ...

فهذه المادة غزيرة وعميقة وذات تفصيلات اخذها المؤلف من عدة مصادر جلها مفقود او محجوب عنها . والمادة الموجودة في كتاب ب (الانيس المطرب) والموجودة عند ابن خلدون نفسه في كتاب « العبر » لاتغني عن مادة ابن عذاري في كثير الموضوعات .

مع فروق ومميزات يمتاز بها كل مؤرخ على حدة من اجل ظروفه واهتماماته ومؤهلاته الفكرية والثقافية . ومقدرته على النقد والتمحيص والرصيد الذي يملكه من المصادر التاريخية .

فهناك عند ابن عذاري تفصيلات لخطوات الامتداد الاسلامي في المغرب ولاسيما عملية القائد العظيم عقبة بن نافع في المغرب الاقصى ووصوله الى سوس وسفوح جبال درن ومواجهته مع قبائل مصمودة وغيرها . ونزوله باغمات ونفيس وماصادفه من مجابهات بين تانسيفت وام الربيع ...

وهناك تتبع طويل النفس لما نشا في المغرب من نحل . وتجمعات مذهبية . وقبلية . وصراعات . ومراكز حضرية . وتطلعات مختلفة لتاسيس الامارات والدويلات في جنوب البلاد وشمالها . زيادة على تاريخ الدول .. في اقطار المغرب وبلاد الاندلس . مع اهتمامات . واشارات مفيدة الى الناحية الادبية وبعض اعلامها .

وابن عذاري يذكر في مقدمة كتابه السبب الذي حداه الى كتابة هذا التاريخ وهو سبب لايمت بصلة الى ارضاء رغبة من رغبات رجال السلطة والنفوذ بل انه لا يتعدى تلبية رغبة احد الفضلاء من الاخلاء طلب منه تاريخ البلاد المغربية على سبيل الايجاز والاختصار ...!!

واذا تخطينا غزارة وعمق المادة التاريخية التي يقدمها ابن عذاري في اجزاء كتابه على العموم فاننا لاننسى ان مادته عن المرابطين والموحدين والناحية المراكشية وماحولها . وما يجاورها من قبائل تعد اثمن ما في الكتاب وأفيد واوسع ... واذا اضفنا اليها ما حشره فيها من نصوص ادبية . علمنا المكانة التي تحتلها هذه المادة من ابحاث الباحثين ، ودراسات الدارسين .. وما تسهم به في تسجيل ما ضينا الذي لم يحظ بالتسجيل المناسب لمجالاته المختلفة ... وما سجل عبثت به حوادث الزمان وعوامل الاهمال والنسيان

واذا كان ابن عذاري قد تراوح منهاجه في الكتابة والتدوين بين منهاج المؤرخين أصحاب الحوليات وبين منهاج اصحاب الموضوعات والوحدات. فانه كان واضح الهدف والشخصية والثقافة التاريخية قريبا من الاهداف الموضوعية التي يتوخاها الباحثون والدارسون مع ذوق وحسن اختيار ...

ولا نستطيع ان نحشر مؤرخنا ابن عذاري في زمرة « الاخباريين » الذين اعتادوا ان يجمعوا في كتبهم الغث والسمين . والرخيص والثمين ولكننا نجعله عن ممارسة واقتناع في قائمة المؤرخين الواعين المغرمين بتقديم المادة التاريخية في صورة تطمئن نفوسهم الى انها هي الصورة الحقيقية للواقع التاريخي بعد استعمال ما يملكون من وسائل التحري وما يقدرون عليه من ضروب التمحيص...وبطبيعة الحال فان الامر لا يعني اننا نجعل المؤرخ ابن عذاري ذا منهاج علمي نقدي دقيق يتخطى المناهج الاخرى ... وانما يعني ان ابن عذاري متمكن من مادته يقدمها في صورة تدل على انه ذو وعي وخبرة كافية .

ويظن ان المؤرخ ابن خلدون اطلع على مدونة ابن عذاري المراكشي واستفاد منها او من بعض اجزائها ولخص بعض معلوماتها ولاسيما منها ما

يتعلق بتاريخ المرابطين والموحدين . الا انه يصعب علينا ان نجزم بذلك لان ابن خلدون لم يعودنا في مدونته التاريخية ان يذكر مصادر معلوماته ونقوله ... فقد ذكر شيئا منها واهمل اشياء اخرى ولعل ابن عذاري من المصادر التي اهمل ذكرها مع استفادته منها ...

اما معاصره لسان الدين ابن الخطيب فقد عرف تاريخ ابن عذاري واستفاد منه في كتاباته الاندلسية والمغربية . وذكر النقل عنه مرارا في كتاب الاحاطة (7)

وليس من هدفنا في هذا المقال ان نتحدث عن الاجزاء المطبوعة والمخطوطة من كتاب ابن عذاري والاهمية التي تكتسيها بعض « الزيادات » المكتشفة في بعض الاجزاء المخطوطة . فتلك قصة اخرى ... ولها ظرف آخر ...

فاس : عبد القادر زمامة

---

(7) الاحاطة ج 1 ص 314 و ص 438 . ط. القاهرة 1973 م .

طفل من فاس

عبد العلي الوزاني

آت انا اليكم من فاس .. لا فاس المقصوصة الشعر ، الطويلة الأظافر ، ذات الكعب العالي ، واللكنة الاعجمية ، المعجبة بابطال الافلام ، ساكنة العلب الضيقة ، المولعة بالجلوس فى المقاهي ، لاستعراض اولادها وبناتها فى فضول واعجاب .. ولا فاس المنفتحة على الشارع ، الزاحفة فوق الرصيف ، الخارجة من احواض الاستحمام ، الداخلة الى صالونات التجميل والحلاقة ، الواقفة فى استرخاء واغراء امام عدسات التصوير .. العاشقة للغزل المكشوف في وضح النهار ، الذاهبة الى موعد الخطيب ، اعتماداً على ساعة الاسرة .. فهذه فاس ثانية ، احبها فى اشفاق ، واسايرها في حذر ، واهمس لها فى نصح ، وارجو لها عناية الله .. هي فى الحقيقة بنت عصرها . حاول اعادة تشكيل امها وخلقها من جديد ، حتى تخرج الشابة من اهاب العجوز ، ويطلع برعم وليد من اخشاب شجرة تطاولت عليها العهود . وفعلا فان امنا الوقور فاس ، تعلمت الرقص العصري على كبر .. واحبت بعد مشيب .. وانتقلت طفرة من القرن العاشر .. الى القرن العشرين .. حتى لتشاهد احيانا ذاهبة الى شواطىء البحر البعيدة عنها متجلببة متنقبة .. وبمجرد ما

تداعبها نسمات البحر ، ترمي النقاب .. وتخرج من الجلباب .. متجردة في لبوس السباحة .. لتنغمس في الماء .. واحيانا تكتفي بالكشف عن ساقيها حتى الركبتين .. تبيحهما لمداعبات الموج .. وهي في لباسها الكامل .. اما فاس البنت ، فلها شان آخر .. وما الى فاس هذه قصدت، انا آت من فاس الاخرى .. كانت وديعة رقيقة ، فنانة بطبعهـــا ، تقـــرا دلائل الخيرات .. وتحب على سنة الله ورسوله .. وتتوسل الى ربهـــا ببركة المولى ادريس .. توقد في ضريحه الشموع .. وتهديه كل سنة حلة مقصبة .. ذهبية الحواشي .. بعد ان ترقص حولها اياما ذوات عدد .. وتقدم بين يديها الذبائح والقرابين .. كان الولي الصالح اكبـــر شخصية في البلد .. الكل يلجا اليه .. من طفل الكتاب الراغب في حفظ القرءان الكريم .. الى الشاب الضال .. الراغب في لبوس التوبـــة .. والعودة الى طاعة الله .. الى الفتاة العانس .. المتعشقة لعش الزوجية النظيف .. خوفا على نفسها من فتنة الغواية .. ووسواس الشيطان .. وقالة الناس .. كانت فاس هذه تكدح معتمدة على اصابعها .. وهي اصابع ذكية ، بارعة ، مباركة ، يتحول التراب في قبضتها الى ذهب ... ويصدر عنها اريج الحضارة ، وتتحول الخيوط المرهفة بينها الى نسيج جميل املس الخد ، ناعم البشرة .. يفصل على قدود تعلق على مستقبلها عذاب الآمال .. وكانت تفضل ان تلبس من عمل يدها .. وبها تصنع شرابهـــا المفضل ، وحذاءها الجميل ، وآنيتها الرشيقة ، وحليتها الانيقة .. تفرز الشهد .. وتعد الحلوى .. تغزل الخيوط .. وتنسج الثوب .. تبدع الصحون ، وتطبخ الطعام ، وتعد المائدة ، وتسوي رقاق الخبز .. بنفس الطريقة التي تصنع بها الكعك ، وتؤلف الاغاني ، وتبهرج العروس ، وتنقط وجهها باسلوب لا اشهى ولا ارق .. مكتفية بجمال نسائها ، وغيوم سمائها، ونجوم فضائها ، وموفور حبها ، ومستعذب مائها ..

طلعت منها طلوع البرعم من عمق الشجرة .. شربت من كل عيونها الى حد الارتواء الكامل .. كاني سوف اواجه دهرا من العطش .. كـــل عين اعرفها بنكهتها .. بالطعم الذي تتركه في فمي .. شيء لا يوصف .. ولكني احسه شهدا في لساني .. وبردا على قلبي .. وانسكابا لذيذا في عروقي .. يدي تعرف هذا الماء جيدا .. لانها كانت الكاس التي اغرف

بها مته .. واظل اغرف .. واغرف .. فاذا ارتويت ، واحسست بكـــل اطرافي قد ابتلت .. تمنيت فى التوعودة العطش من جديد .. لأعود الى العين العجيبة مرة اخرى .. لدرجة اني كنت استمتـــع بعطشي .. على امل الكرع من ذلك المنهل العذب .. هل جاءك ان يدا عشقت ماء .. بكل ما فى العشق من الشوق واللهفة وانتظار اللحظة المشحونـــة برقيـــق الانفعالات . ؟ انها يدي .. فحتى عندما لا اريد ان اشرب ، تدعوني بكل عصب فيها الى ان اغمرها بماء العين .. فادعها فيه برهة من الزمن .. وهي تتقلب تحته كانها سمكة ترقص في مهرجان الميـــاه .. ولا اكـــاد اسحبها حتى اعيدها الى الماء مرة اخرى بالحاح منها .. والماء فى العين دائما رقراق ، يبدو وكانه يمر بمصفاة تنقيه من الشوائب .. لتدفع بـــه بعد ذلك بحينا صافيا لا تراه يلولب ويلعب حول نفسه حتى يداهمـــك الاحساس بالعطش .. ولبعض العيون عندي مكانة خاصة .. فقد كانت (عوينة البسباس) على طريقي من البيت الى الكتاب .. ادخـــر عطشي وانا فى البيت حتى امر عليها فاشرب .. لا اشرب فقط .. ولكن قل انني اسكر .. الى حد العربدة .. واحلم بالشربة المنعشة الممتعـــة وانا فى الكتاب ، امسك بلوحي .. وقد جف حلقي من التلاوة الجهرية التي كانت تخرج من نوافذ الكتاب ، لتمتد الى بعيد .. عبر الزقاق الطويل الذي لم يكن يخلو من السابلة .. لقد كان من مسراتي اليومية ـ خصوصا عندما ترتفع حرارة المدينة ـ ان انهل من العين الثرة فى اليوم الواحد عـــدة مرات .. اغترافا باليد فقط .. ومن لم ياخذ الماء بجمع يديه لا يتذوقه جيدا .. شيء يوسوس لي بان الكؤوس تغير طعم المياه .. اليد وحدها هي التي تحافظ للماء على نكهته الخاصة .. لست ادري لماذا بالضبط .. ولكن هكذا احس .. ربما لأن اليد فيها شيء من طبيعة الارض التي ينبع منها الماء .. ربما لان فيها ايحاء بان الماء ينبع من بين اصابعها لحظة امتلائها وسيلان الماء من بين فروجها وهي معرضة للتيار .. ربما لأن الكفيـــن المنضمتين تجعلان الوجه له تقريبا يشرب .. على حيـــن ان الكاس لا تلتقط الا الشفتين .. ومن قال ان الوجوه لا تعطش .. ؟ انهـــا تعطش فعلا .. لكنها لا تطفيء عطشها الا اذا غطست تحت الماء .. ان لم يكن فى مسبح .. فعلى الاقل فى حوض الكفين الصغير .. (عوينة البسباس) دائما يشتد من حولها الزحام .. فعشاقها هم سكان المدينة كلها تقريبا..

والنساء اللواتي وقع عليهن الحجز .. المؤقت او المؤبد .. لا بـــد ان يجدن وسيلة لنقل مائها الى البيت .. لكن بعد ان يكون الماء قد تغيـــر بعض الشيء .. لانه مر بمعدن آخر غير معدنه الطبيعي .. ومع ذلـــك تبقى فيه البركة .. والبركة كلمة لا تخفى دلالتها الدقيقة في هذا السياق على كل مغربي بوزنه الصافي .. كان اذا حدث ان خطفني اهلي من يدي.. فذهبوا بي بعيدا عن فاس عدة ايام او اسابيع ، يخيل الي انـــي عطشان باستمرار .. طيلة تلك المدة .. وان عطشي لن يروى الا اذا عـــدت الى مدينتي .. كما يتهيا لي ان الماء الطبيعي الصالح للشرب ، هو ماء فاس وحدها .. وان غيره مجرد مخلفات لماء المطر .. يغتسل به الناس .. ثم يعودون اليه ليشربوه .. اعذروني ، فالحب والطفولة مثار اوهام بغير حدود .. والطفولة في فاس كانت تتميز بالعمر الطويل .. مستمرئـــة اوهامها واحلامها حتى بعد ان تشب عن الطوق .. اطفال فـــاس كانوا لا يغادرون طفولتهم الا بعد ان يفرغوا كاسها حتى الثمالة .. ويستنفذوا كل بقاياها ورواسبها .. حين تكون رجولتهم بدات في الاعلان عن نفسها .. بالصوت الآخذ في العمق .. والشارب الواعد بالاخضرار .. والحنجرة الجانحة نحو البروز .. والعرق الواشي بمزيد من الاملاح .. والرقبـــة المرشحة للغلظ والرسوخ والاتساع .. وحتى بعد ظهور بشائر الرجولة .. كان الطفل يحرص اشد الحرص ، على أن يتداخل مع الرجل ويزحمه ليمنعه من ممارسة ما له من حق .. ولذلك كثيرا ما يوجد اطفـــال في اعمار الرجال .. ذهبت طفولتهم .. ولكن بقيت عاداتها وبساطتها ملازمة لهم .. من بينها التصاقهم بامهاتهم .. وتعشق النوم في احضانهن .. والتمسح باثوابهن .. وندائهن باستمرار .. لدى ابسط حاجة .. وكان ذلك يخلق سوء تفاهم بين هؤلاء الامهات ، وبين الغريبات من النساء .. حيث تصر الامهات على ان أولادهن ما زالوا اطفالا .. على حين تذهـــب الاخريات الى انهم بلغوا مبلغ الرجال .. فنظراتهم اكتست طابع الجد .. والتفاتهم اخذ سمة القصد .. واصواتهم فيها نغمة منكرة .. مشبوهة .. تشي بامر غامض لا يحتمل .. وهذه امور لا تشعر بها الأم طبعا .. وانما تشعر بها الغريبات .. المزودات بجهاز خـــاص .. ينقل المعلومـــات والاشارات بامانة ودقة .. ربما كانت الام تملك نفس الجهاز .. خصوصا اذا كانت في مرحلة الشباب .. ولكنه يتعطل امام ولدها .. ويستانـــف

عمله آزاء ولد امراة اخرى .. ذلك انه ـ اى الجهاز ـ يحتاج الى طاقـــة حرارية معينة ليعمل بشكل طبيعي .. بانخفاضها يضرب عن العمل .. الى ان تعود الى الارتفاع مرة اخرى .. هذا بالاضافة الى ان الاشارات تشعر بها الجهة المقصودة قبل غيرها .. بحيث يكون بين الطرفين مناسبة ما .. التقاء حول امر معين .. موضوع صالح للطرح والمداولة .. كاجتماع خيطين للكهرباء .. احدهما سالب .. والآخر موجب .. ليندفع التيار .. وتحصل الاضاءة .. كان هؤلاء الرجال الصغار يمرحون وسط عائلاتهم .. بجلابيبهم الواسعة .. ورؤوسهم الحليقة .. وابدانهم المتضخمة .. فى جمع من بنات الخال والخالة ، والعم والعمة .. كحيوانات اليفــة .. تعودت النعيم .. وارخي لها العنان .. لتفعل ما تريد .. ترى الواحـــد منهم يتنازعه كل من الطفل والرجل .. ويظهر ذلك على الخصوص ، اذا مد نظره ويده نحو ابنة خالته أو عمته .. يداعبها كطفل .. ويجرؤ عليها كرجل .. يلاعبها رقيقا وديعا .. ثم يهصرها قويا عنيفا .. مطاردا اياها هنا وهناك .. لكان الرجل الكامن فيه ، كان ياخذ تمارينه الاولية المنذرة باوخم العواقـــب .

ونظرا لامتداد فترة الطفولة الى ما يقارب الحدود الطبيعية للرجولة .. فاننا كنا ـ نحن الاطفال ـ نملك حق دخول بعض البيوت ـ غير بيوت اهلنا طبعا ـ مدة طويلة .. فنختلط بسكانها .. نقبل ايدي رجالهـــا ! .. ونثرثر مع نسائها .. ونلهو مع اطفالها .. باعتبـــار النساء كامهاتنـــا ، والاطفال كاخواتنا متعرضين احيانا قليلة لامتحان صعـــب .. ومواقف لا تخلو من شبهات .. من ذلك ان الطفل منا قد يجد نفسه ازاء فتاة ناضجة .. وقع بين يديها مشروع رجل .. لم يبق لتمامه الا بعض الوقت .. فى عينيه معنى الرقة ومعنى القساوة .. فى يديه طبيعة الاستسلام وطبيعة الهجوم .. على فمه بقايا البراءة ، وطلائع الشقاوة .. لا يمكن ان تثق به ثقة مطلقة .. ولا ان تتخذ منه كامل الحذر .. نصف ملاك .. نصـــف شيطان .. يفهم ويظهر الغباء .. لا يفهم ويدعي الفهم .. يمكن ان يوكل اليه القيام بعمل ، ولكن يخشى عليه من سوء التنفيذ .. فربما اقدم اقدام الرجال .. وارتبك ارتباك الاطفال .. فيه جوانب ما زالت غفـــلا من اي تبلور .. وجوانب تبلورت وبرز لها اتجاه .. ومن ثم فهو لا يخلو من نقط

الضعف .. يمكن من خلالها الجراة عليه .. ويؤخذ الطفل بالمفاجاة غير المنتظرة .. فيغضي حياء ويتولاه خفر البنات .. الآن فقط انتصـر الطفل .. وانهزم الرجل .. كيف يجرؤ على ابنة خالته او عمته ، ويجبن امام فتاة غريبة .. ؟ هذا الصنف من الاطفال لا يظهر اقتـداره الا ازاء انثى تهرب من نظراته .. وتنزعج من حركاته .. وتخاف من اصابعه .. حتى اذا ووجه بانثى وقحة .. تراجع فيه الرجل .. وانتصر الطفل .. وماذا تريد انثى من طفل كهذا . ؟ هي فى الغالب لا تريد اكثر من الدعابة المشحونة بالاثارة والاغراء .. كما يقع للواحد منا اذ يحصل له ان يداعب حيوانا مهاجما ما زال دون الكفاءة الهجومية المنتظرة .. نظرا لصغـر سنه .. ومن ثم فهي تقبل عليه تضمه ضم الوالدة .. وتحنو عليه حنـو الحبيبة .. كان تقبله بين عينيه .. وترفع ذقنه اذا اغضى .. وربما مدت يدها الى انفه فعركته عركا خفيفا ... او صفعته على خده صفعة اقرب الى الملامسة .. فاذا فاه بكلمة استلطفتها اغرته بان يعيدها مرة ثانية .. وثالثة .. ورابعة .. لانه لم يقلها بنفس الطريقة التي قالها بها فى المرة الاولى .. حتى اذا ارتفعت الكلفة .. وتشجع على النظر اليها بامعان .. بعد مرور الصدمة الاولى .. ولت عنه وجلة .. حذرة من يقظتـه .. وانتباهه الى ما يجري .. متخلية عنه فى اللحظة الحرجة .. تاركة اياه للسهوم .. واحدة منهن كانت فى زيارتنا يوما .. امراة فارعة القامة .. لها وجه صبوح ، وشمائل لطيفة ، ومنطق عذب ، تختال فى مشيتهـا ، وتنطق الراء غينا ، محتارة مع اطراف ثوبها الرفيع الطويل الذيـول .. ترخيها على الارض ، فتربك خطوها ، فترفعها الى اعلـى فتركزهـا فى حزامها ، لتعود الى ارخائها من جديد .. وبين حين وآخر تخرج مرآة من حقيبة في يدها ، فترفعها حتى تقابل وجهها ، فتعلو بخصلة شعر ، وتنزل باخرى ، وتدير ثالثة .. ثم تاخذ منديلا فى حجم الكف ، فتبلله بريقهـا وتمسح به الاحمر الذي انداح فى مناطق على جوانب شفتيها .. وانا انظر اليها فى شبه ذهول تام .. تخامرني مشاعر مختلطة لم اكن اتبين حقيقتها يومئذ .. واذا بي افاجا بها وقد انقلبت بشاشتها الى جهامة بينما ندت عن فمها كلمة تشي بالاستياء . كان حلق ذهبي مرصع قد سقط من احدى اذنيها داخل شق فى (الكنابي) الذي كانت جالسة عليه ، حاولت اخراجه

فلم تستطع ، وهنا تقدمت فادخلت يدي الصغيرة النحيلة بخفة فاخرجت الحلق ، فلم انتبه الا والمراة تلطم خدها جزعة ، فقد كانت يدي تقطــر دما .. لم اكن اشعر باي الم على الاطلاق .. اكنت في حالة تخديــر . ؟ لا ادري . وكل ما ادريه هو ان المراة الرائعة انحنت على يدي ، واخذت تلعق بلسانها جرحي .. في تلك اللحظة داهمتني مشاعر لم يسبق لي ان عرفتها من قبل .. ولم اعرف نظيرها من بعد .. لا ادري كيف اصفها .. يكفي ان اقول اني ظللت مدة طويلة اعتز بجرحي ذاك حتى بعد التئامه .. اتامله كلما خلوت الى نفسي .. متمنيا الا يزول ابدا .. ليبقى دليلا على تلك اللحظة العميقة اللطيفة التي مررت بها .. كالاثر الذي يحفره عاشق في لحم شجرة .. شهدت مولد غرامه الاول .. ثم لم تلبث المــراة ان فتحت حقيبة يدها فاخرجت منها زجاجة عطر دقيقة ، فاراقت شيئا منها على جرحي .. فانقطع الدم .. لينزف قلبي دما لا تراه العيــون .. ولا تنفع في ايقافه كل عطور العالم .. ولم تكتف بهذا .. بل وضعت شفتيها على جبيني في قبلة هادئة .. وتمتمت : لقد تحملت هذا من اجلــي .. للمرة الاولى شعرت ببرعم انبثق من قلبي .. ونور تالق في عينــي .. ورعشة سرت في يدي .. وخاطر عربد في خيالي .. لقد كبرت في لحظة .. وتقدمت على سني خطوات الى امام ..

ومن هذا القبيل انه كان برفقتي طفل في مثل سني ذات يــوم .. فدخلنا بيتا لبعض معارف اسرتي .. وكان مليئا بالبنات .. منهن ثلاث او اربع كن كبيرات .. انحازت لهن الطبيعة فعاملتهن بسخاء لا حد له .. وحبتهن من خيرها الشيء الكثير .. ففجرت العيــون .. وانضجــت الثمار .. ورفعت ربوة هنا .. واحنت غصنا هناك .. ومالت على هــذا الخد فطبعت عليه قبلة .. وشدت اليها ذلك الشعر فجذبته نحوها حتى اضحى مسرف الطول .. ثم ارسلته وراء ظهر صاحبته فتنة للناظرين .. بينما راقها ذلك الثغر النقي فاقبلت عليه تحشوه باللؤلؤ .. كانها تدخره لمقبلات الايام .. في الوقت الذي راحت فيه توشي وتصقل ، وتلطــف وترقق ، وتحلي وتنمق ، من هاتيك الكواعب الابكار فما منهــن الا ذات صباحة وجمال ، ورقة ودلال ، ضحوك لعوب ، متماجنة طروب ، تخالهــا

لفرط فرحتها بشبابها ، وآعجابها بروعة ما بها ، ستوقف البيت كلـه ليرقص على قدم وساق .. وكانما كنت انا وصاحبي معهن على ميعاد .. فما ان ابصرتنا حتى اقبلن علينا ، واجدات فينا تسلية محببـة .. فى تضاحك ومجون . ونظرت الى صاحبي ـ وكان على جانـب من الوسامة والظرف ـ فاذا به محاط بهن من كل جانب ، يعابثنه ويمازحنه ، يقبضنه ثم يرسلنه ، هذه تساله عن اسمه ، وتلك تمسح براحتهـا على خـده ، واخرى تلاطف شعره محتارة بين آرخائه وشده .. عليه انفتحت ثغور ، وفوقه انحنت صدور ، وحوله آنتظمت خصور .. كانه العصفور طوقتـه عابثات الحمائم ، او الغصن سالت عليه مثقلات الغمائم .. اطللت عليـه من بين سيقانهن .. وخلال ما انفرج من قاماتهن .. فرايته بادي الحيرة، مبهور الانفاس ، لا يدري كيف الخلاص مما هو فيه .. ثم طلبت اليهـن واحدة منهن ، ان يمهلنها قليلا حتى تعود ، فاذا بها مقبلة وبيدها لثـام ومنديل .. ولم يلبثن ان تنحين لها عن الطفـل المشدوه .. فاخـذت براسه فعقدت به المنديل .. ثم بوجهه فارخت عليه اللثام .. بعـد آن آثبتته من طرفيه .. فصار صاحبي فتاة جميلة مشرقة العينين .. فى نحو التاسعة من عمرها .. لدرجة اني نظرت اليه باعجاب ظاهر .. فى الوقت الذي ارتفعت فيه اصوات البنات من حوله معبرة عـن مشاعـر الاستحسان والاستلطاف .. آحداهن تقول : انظرن بنت لطيفة والله .. فتجيبها اخرى : انها اجمل منا جميعا .. بينما تضيف ثالثة : يجب التأكد من انه ولد .. ! وهنا خطرت فكرة شيطانية لاحداهن : اذ جاءت بكحـل واحمر للشفاه .. وانهمكت فى تزويق صاحبي وتجميله .. حتى تحول بين يديها الى دمية مليحة صارخة الالوان .. فلم اتمالك نفسي من شدة الضحك .. اما البنات العابثات فعلاهن الصخب ، وانفجرت اشداقهـن بضحك موصول .. وفجاة طرق باب الدار بعنف ، فانفض الجميع ، بينما آنفردت واحدة بصاحبي تغسل وجهه على عجل ، وفورآ امرنا بالانصراف .

اما الاطفال الذين يقلون عنا سنا ، فكانوا يجدون انفسهم احيانا فى موقف لا يخلو من خطر .. نحن كنا على الاقل نتعرض لعبث جميـل ، وتخابث مستظرف اصيل ، يشجع زهرتنا على التفتح ، ويغري شبابنـا بالانبثاق ، ويعمر قلوبنا بالدفء ، ويزين جونا بالانس ، ويفتن اذهانـا

بالتصور ، ويرهف حسنا بالملاطفة .. قد ينالنا من ذلـك اجهـاد ..
ونتحمل بسببه ضروبا من العنت .. ولكنه كاجهاد الخيال ليهب الابداع
والارض لتعطي الخير ، والساعد ليتفجر بالقوة ، وكعنت الحب اذ يسق ،
والطائر الحبيس اذ ينعتق ، والنبتة الوليدة اذ تطلع من صلابة الارض ..
كنا نتعلم كيف نستمتع بالحلم ، ونحلق بالاماني ، ونهاج بالحس ، ونداعب
بالاصابع ، ونناجي بالالحاظ ، ونترنم بالالفاظ ، لا ندري ايام نحـن ام
ايقاظ .. لكن تبهرنا القصائد وما زلنا نتعثر بالبيت .. وتجرفنا الشلالات
وما نزلنا نشرق بالماء .. وتداهمنا اسراب الحمام ، وقد اعيا اصابعنـا
الامساك بعصفور .. وتنهال علينا الثروات ، وما زلنا نسعد بالقروش ..
اما الاطفال الذين يصغروننا سنا فامرهم يدعو الى الرثاء .. كانت هنـاك
مجموعة من البنات المشاكسات ، العابثـات الشرسات ، المخادعـات
المخاتلات ، تراهن دائما قلقات حائرات ، كان تحت جلودهن شيئا يجاهد
ليطلع .. ويكابد لينفجر .. بعد ان أعيا امره الاعماق .. واستفحل شره
في النوايا وبان اثره في الاحداق .. لبعضهن حظ من جمال ، ولكنـه
جمال مسلح ، شرس ، وقح .. كجمال الزهور البريـة ، والقطـط
الوحشية ، أو الطيور الملونة الاجنحة ، المهاجمة بالمناقير .. يفتحـن
ابواب منازلهن ، وقد خلا الدرب من المارة ، ويطللن برؤوسهن حذرات
متلصصات ، مقبلات مدبرات ، باديات متواريات ، حتى اذا انفلت طفـل
صغير من أمه ، ودلف الى الدرب ، انقضت عليه واحدة منهن ، انقضاض
لبؤة على بعض فراخ الطير ، فحملته الى الداخل ، وهنـاك ياخـذن في
مداعبته ومناغاته ، وملاطفته ومناجاته ، يقبلنه رحيمـات مترفقـات ،
ويرفعنه ويخفضنه فرحات مبتهجات ، حتى اذا افتر ثغره عن الابتسام ،
وانبسطت اساريره من سعادة وانسجام ، برزت المخالب من تحت الجلد
الناعم ، وتحول الابتسام الى تكشير ، واستبـان في النظـرات الشر
المستطير .. بيد أن بالتقبيل الشرة .. والضم الموجع .. والعنـاق
القريب من الخناق .. وفجاة ترى ملامح الطفل قد تغيرت ، ونظراتـه
دمعت وانزعجت ، وما تكاد الصيحة تنطلق من فمه حتـى يبـادرن الى
اسكاته ، وكتم انفاسه ، وبعد حين يضعنه بين افخاذهن .. أو يضغطنه بين
اوساطهن .. وينهلن عليه بالضرب والقرص ، حتى اذا شفين غليلهـن

اخلين سبيله ، لينطلق مسرعا نحو امه وبكاؤه يمزق غليظات الاكباد ، بينما يبقين لاهثات الانفاس ، مضطربات الجوارح ، كانهن خرجن من معركـــة تبارزت فيها الصدور ، وتشابكت الشعور ، وتصادمت الاظافر ، وتقارعت الاسنان ، ثم يهدان بعد حين ..

فى مجتمع فاس كثيرا ما كان الرجل يعذب طفلا .. ويغازل غلاما .. ويخدم شابا نبت له شارب .. واشتد ساعد .. واخشوشن صوت .. يبدا بالطريق الصعب .. والمسلك الوعر .. حتى اذا اجتازه بنجـــاح ، الفى نفسه يسير فى طريق موطا الاكنـــاف ، زكي النفحـــات ، بشوش المعالم .. ولكن بين الحين والحين يصادف منحنى خطرا ، او مزالـــق توشك ان تورده موارد الهلاك .. وبعد ذلك يدخل فى طور آخر .. يتولى فيه الامساك بالمقاليد .. ليوزع نعيمه وبؤسه على من يشاء .. المحنة فى الطفولة .. والحب فى اليفاعة .. والمسؤولية فى الرجولة .. اليد التي صفعته وهو طفل .. لا يحسن النطق .. تعود فتقطف له عناقيـــد العنب وهو غلام .. ثم تنهمك فى اعداد مائدة طعامه وهو رجل .. هي يد واحدة .. لكنها تلبس جلد لبؤة .. ثم تخلعه لتلبس جلد حمامة .. واخيرا تدخل فى قفاز الخدم .. لتقدم خدماتها لرب البيت .. لكـــن الرجل لا ينسى الغلام .. والغلام لا ينسى الطفل .. الثلاثة ينصبون فى قالب واحد .. وتبدا ردود الافعال .. تجاه المراة .. اذ يمر بها مـــن نفس المراحل التي قطعها سابقا .. بتاثير منها .. اي لا بد ان تاخـــذ نصيبها من المحنة .. ومن الحب .. ومن المسؤولية .. قد يتقدم من هذه الامور ما يستحق التاخير .. او يتاخر ما يستحق التقديم .. وقد لا تتحرك بانتظام .. المهم ان المراة تاخذ نصيبها منها جميعا .. وذلك ما يحدث عادة .. لقد ذاقها الرجل متفرقة .. واعطي الوقت الكافـــي لاستقبالها شيئا بعد شيء .. اما هي فعليها ان تذوقها مجتمعة .. متلاحقة .. متداخلة .. ليس بين الشيء ونقيضه الا مسافة قصيرة .. الرجـــل يمكنه ان يقسو على امراته فى وسط النهار .. ويتلطف معها فى آخره .. ليحملها مسؤولية اعداد فطوره الصباحي قبل قيامه من النوم .. فى عمر واحد ، عليها ان تراكم كل هذه الاصناف من المعاملات .. ولو انها سبق لها ان ذاقت اطرافا منها فى مراحل سابقة .. مع وجود فارق آخر ..

وهو انها عند ما كانت تعذبه وهو طفل وحيد الثنايا .. كانت غالبا مـــا تتركه يبكي دون ان تجبر خاطره .. اما هو فبعدما يوجه اللطمة .. يتبعها بالبسمة والضمة والشمة واللثمة .. الى ان يزول الجفا ، ويروق الخاطر، ويدخلا واحة السلام .. الرجل يجرح احيانا .. لكنه ياتي بالضمــادات والمعقمات فينقطع الدم .. ويعود الجرح الى الالتئام .. على حيــن ان المراة اذا جرحت قل ان تواسي .. بيد انها اذا واست بعد خصــام ، وابتسمت بعد عبوس .. فان الرجل يشتهي حرها ليذوق بردهـــا .. وصدها لينال وصلها .. ومرها ليدرك حلوها .. الا انها قل ان تفعل ..

اكان سلوكها ازاءه من ايام طفولته راجعا الى ما كانت تعانيه مــن كبت .. ؟ ربما كان هذا صحيحا . فهي كانت كالعصر المعبا في زجاجة.. يظل مضغوطا الى ان ينزع سدادته من دخل في حوزته .. او كالهـــواء المحبوس اذ يبحث عن منفذ للتسرب .. في داخل معظم البيوت ، كانت تحتجز اشجار تبدا فسائل .. لتنتهي الى كائن آخر .. ينمو في جميع الاتجاهات .. وتمتد له فروع واغصان .. تبحث عن منطلقات وفجوات لشم الهواء .. فاذا اكتشفها عصفور ضال امسكت به .. لان فيه نفحة من الفضاء الخارجي .. فلا يستطيع العودة من حيث اتى الا بصعوبة .. لما يحاصره من اغصان لا ينفذ خلالها الا بشق الانفس .. ان الشجر لا يحتمل ان يوضع داخل سجن .. لان موضعه المناسب هو الهواء الطلق .. فاذا احتجز داخل قفص مهما بلغ اتساعه .. استمر في النمو .. الى ان يمد اذرعه من خلال القضبان .. استعدادا لتحطيم القفص .. وتجاوزه الى الخارج .. الشجر المحبوس يتعذب .. ويعذب معه الغير ..

هذه الادوار كانت موزعة هكذا في القديم .. اما اليوم فقد جد من التطورات ما دعا الى توزيعها على اساس آخر .. ينبغي الا نغفل هـــذا الامــــــر ..

نجوس خلال المدينة صاعدين او هابطين .. قل ان تتحرك اجسامنا دون ان تقاوم قانون الجاذبية .. اذ يردها الى الوراء .. او يدفع بها الى امام .. اثناء الصعود يقع الضغط على قلوبنا .. واثناء الهبوط يقع على

رؤوسنا المصابة بما يشبه الدوار .. وكل المناظر الجميلة المحيطـة بالمدينة تقع على المشارف .. كانها الاهداب الوطف تحيط العيـن .. والسكان دائما صاعدون من الاعماق نحو المشارف الكثيفة الاشجـار ، المفروشة باجمل الزرابي والنواوير ، حتى اذا قضوا منها وطرا عـادوا ادراجهم هابطين وكانهم المسيحيون الاولون راجعون بعد سماعهم لموعظة الجبل .. او كانهم الطير ، يهبط ليلتقط الحب ويحسو الماء ، بعد ان ارتفع الى فوق .. لياخد نظره من فوق باسفات الاشجار .. وقد اصرت المدينه الشبيهة بالجوهرة داخل علبه مفتوحة على بساط اخضر ، الا تنام الا اذا استردت كل ابنائها الى الداخل .. تستنزلهم من المشارف وكل المرتفعات لتضم عليهم اضلعها مخلدة الى سبات عميق .. كنت ارتفع الى فوق ، واهبط الى المهوى السحيق مرات من كل يوم .. ولا اشعر بالملل .. كاني سمكة تسبح صاعدة نحو السطح ، لتعود ادراجها غائصـه الى العمق .. اكانت لي مهمة أؤديها بهمة ونشاط لا تلا ، وانما هي حركـه المدينة القائمة على قدم وساق .. تجرفني معها دافعه بي الى الاعالي ، ثم هابطة بي الى المنخفضات .. وأنا اسبح مع التيار .. كقارب صغير في قبضه الموج .. كان الارتفاع يتيح لي ان امشط شعـر فـاس .. واضع يدي على كتفها الكبيرة .. واهمس في اذنها بضع كلمات .. وانظر داخل عيونها بعد أن كنت ارى بريقها على بعد .. واستروح النسمـات الرقاق الهائمة فوق المرتفع .. في الوقت الذي اضع فيه يـدي على دولاب ملابسها الجميلة .. ومصادر طيوبها المتضوعـة .. وعطورهـا الذكية الشذا والعرف .. بعد ان أمضيت جزءا من طفولتي أرى سكانها كل مساء وفي فصول معينة من السنة ، يمرون بباب منزلنا الواقع على المنحدر ، وفي أيديهم باقات ورد ، وسلال زيتون ورمان وما اشبه ، ولا أدري من أين لهم كل ساليك النعم والبركات .. وبعد ان وعيت ، ادركت لماذا هم صاعدون . فكل مواعيد غرامهم وهدايا احبابهم ومواد اشربتهم موجوده فوق .. وكان الهبوط بعد الارتفاع يتيح لي العوده الى الاحضان .. الى الذراعين الممدودين استعدادا للاتضمام .. الاحضان من السعة بحيث تحتوينا جميعا .. بل يمكننا التقلب فيها من جنب الى جنب .. والذراعان من طول الامتداد بحيث يدخل بينهما كل الاولاد العائدين الى امهم .. بين ذراعي امنا العطوف كنت اغفو واحلم قرير العين ، حتى لا اود

ان افيق من حلمي الممتع اللذيذ . الاحضان دافئة بما فيه الكفاية .. حتى في أيام البرد القارس .. ولعلها ان تكون في هذه الايام أشد دفئا .. نظرا لما يتم فيها من تداخل واحتكاك بالجنوب .. وتلاحم بالايدي .. وتشابك بالاصول والفروع .. منذ ان انحنت تلك المرأة البديعة على يدي تلعق جرحها ، وقد هبت منها انفاس عطرية الشذا على وجهي وصدري وانا باحث في احضان امنا فاس عن دفء كذلك الذي شعرت به ساعتئذ ..

مساكن المدينة متراكبة متداخلة معلق بعضها فوق بعض ، كانها أبيات قصيدة يعوزها انتظام .. بعضها اتكا في رقعته مادا رجليه باسطا ذراعيه آخذا راحته الكاملة .. واكثرها تقلص وتجمع وتداخل بعضه في بعض ، منضغطا منبعجا حتى ليتنفس ببالغ الصعوبة .. بينما يوجد منها ما يبدو كاقفاص مثبتة على حاجز ، او معلقة بحائط ، او موضوعة في مهب الرياح .. لا تعرف بالضبط ، كيف يمكن لتلك الاقفاص ان تؤوي بني آدم .. كل سكان المدينة يعلو بعضهم فوق بعض .. وكان طريقة التساكن، جاءت مطابقة لطريقة التعايش والتوزيع الاقتصادي والطبقي .. لكن هذه المرة جاء الهرم مقلوبا .. حيث كانت صفوة الناس تترسب في العمق .. في الرقعة الواطئة .. كانها تبحث عن مستقر ثابت .. آمن .. يحميها من بعض العواصف الآتية من الاطراف .. او كانها تود ان تكون بمثابة نقطة الارتكاز .. او نقطة الدائرة .. تاركة المشارف والبقاع المخطوفة الى اعلى تحيط بالمدينة كانها الحزام الذي يحمي الوسط .. ناسية انه قد يضيق عليه الخناق .. اذا احكمت حلقاته .. على نحو ما حدث فعلا .. اذ تحول الى ما يشبه الحصار .. كل السطوح تطل على بعضها .. كل النوافذ تفضح الناس .. وتنفضح في ذات الوقت .. لذلك كان الرجال يتمكنون من مشاهدة النساء متردات فوق السطوح .. بعد رؤيتهن في الازقة متواريات خلف حجاب طويل عريض .. يشمل الجسم كله .. رؤيتان : احداهما من الداخل .. والاخرى من الخارج .. وبذلك تتكامل الصورة .. وهذا تجاوز للعرف الاجتماعي السائد .. وحسب هذا العرف ، كان نظر رجل غريب الى امراة يعتبر احيانا نوعا من العدوان .. طمعا غير مشروع فيما لا يملك .. فكان الرجل يزاول النظر الى النساء

وكانه يرتكب سرقة .. كانت النظرات الجانبية .. والمختلسة .. والمنزلقة .. والمراوغة .. والحائرة .. كثيرة تلك الايام .. لدرجة أن التقاء عيني رجل غريب بعيني امرأة للحظة خاطفة .. كان احيانا يجلب لأحد الطرفين او لكليهما نوعا من تانيب الضمير .. أنه ليعلو فمي الابتسام عند ما انظر اليوم فاجد النظرات ترتكز على الهدف .. ويبقى عندها فائض توزعه على الهوامش .. لان العيون مفتوحة على سعتها .. حتى لتوشك آن تتجاوز حدودها الطبيعية .. ويخيل اليك لشدة سعتها ان من الممكن تحويلها الى اماكن للاقامة .. ذهبت الايام التي كانت فيها العيون مفتوحة نصف فتحة .. او ربع فتحة .. يصدر عنها احيانا وميض خاطف .. كوميض نجوم بيننا وبينها ملايين من السنوات الضوئية .. لا يصل الينـــا الا ظنونـــا واوهاما .. امرها اليوم يختلف .. الستارة التي كانت تنفرج قليلا ، وعلى ترد د.. ارتفعت بالمرة .. الرموش فقدت ثلاثة ارباع وظيفتها السحرية .. مع ذهاب الاختلاج وانكسار النظر وذبول الجفـــن .. والاشفاق على الخيوط الرقيقة الحساسية من الانقطاع لو شدت من طرفيها باصرار .. بريد العيون صار اليوم يقدم خدماته بدقة .. تحل رسائله تصل في وقتها المحدد .. لا يضيع ولو رسالة واحدة .. العناوين محترمة للغايـــة .. والتوزيع يتم في احسن الظروف .. ومن لم يستلم رسالته في الساعة التاسعة .. فلا باس اذا انتظر الى التاسعة ودقيقتين .. او ثلاث دقائق .. فدوره آت بلا ريب .. انما عليه ان يضبط عنوانه .. رافعا لافتـــة خطها واضح .. جميع اللغات مقبولة .. وكل الطوابع البريدية جاهزة .. وتحت الطلب .. الناس اليوم احسن حظا .. فقد كانت الرسالة قديما غالبا ما تاتي متاخرة .. وبعد فوات آوان الاستفادة منها .. لان موزعها معطوب الساعة .. ولا يعرف قيمة الوقت .. وقد يبقى الشخص منتظرا مجيىء رسالته الى ان يموت .. دون ان تاتي الرسالة .. عيون الجنسين صارت اليوم لا تهرب من المواجهة .. خيوط اشعاعها لا تنكسر .. لا تعود من حيث اتت .. لا تلون مصباحها بلون غامق حتى لا تكتشف .. لا تتسكع حول الهدف .. وانما تمضي في خط مستقيم .. معززة بامدادات من العيون .. تحميها من اي ضعف محتمل .. النظرات صارت لزجة .. مطلية بالغراء فيها طبيعة الالتصاق .. طوابع بريدية .. اذا انزلقت عن العين رقدت على الخد .. واذا انحدرت قليلا استقرت على الشفة ..

لديها الوقت الكافي .. والبال الطويل .. والرغبة في تزجية اوقـــات الفـــراغ ..

كان صعود المراة الفاسية الى السطح ، تعويضا عن ضيق الرقعـــة الاجتماعية المسموح لها بالتحرك فيها .. مثلما تصعد ناطحات السحاب في مدينة نيويورك بسبب ضيق المساحة .. كل الاشياء المحاصرة تكون فيها طبيعة الصعود .. حاصر الماء وسد عليه المسالك ، تجده يرقى الى فوق .. حاصر النار وامنعها من الانتشار ، تراها ترفع السنتها الى اعلى .. ضع سجينا في زنزانة واحكم عليه اغلاق الباب .. تجده يشرئـــب بعنقه نحو النافذة .. ضيق على الانسان في اسباب العيش .. يتجــه برأسه ونظراته الى السماء .. طالبا الرحمة .. والمراة الفاسية لما حددوا لها الاقامة .. واختصروا حركات قدميها .. وقربوا حدودها بعضها من بعض .. كان من الطبيعي ان تتجه الى فوق .. حيث الفضاء الواسع .. والشمس المشرقة .. والافق المترامي بغير حدود .. وكان صعودهـــا طويلا .. يدق له قلبها بعنف .. حتى لتتوقف لحظات لالتقاط الانفاس .. لانها صاعدة من عمق بعيد القرار .. واحيانا كان صعودها يتحـــول الى تسلق .. بكل ما في التسلق من مغامرة .. والتماس لاثبات الذات .. كانها سجين يهرب عبر اسوار سجن روماني .. او كانها بعض صغـــار الحيوان .. تصعد الى اعالي الاشجار .. هاربة من الاسد الرابض تحت .. الجاثم على الارض .. وفعلا ، فان صعود المراة الفاسية الى السطح، كان احيانا ضربا من الهروب .. فهي قد تهرب اليه من الحب المفروض بقوة القانون .. ومن الابتسام الواجب باسم المسؤولية .. ومن الصمت الرهيب الذي تنفجر له الاعماق .. كانت احيانا تهرب من كل ذلك ، كما يهرب طفل الى الشارع .. عند ما يمنع من اللعب في البيت .. او كما تهرب السمكة من شبكة الصياد .. لتعود الى البحر .. وتستمر طيلـــة حياتها تصعد اليه..وتنزل منه الدراجات تتاكل تحت قدميها.. تأكل سني عمرها بين الصعود والهبوط..تصعد اليه طفلة تثب على الدراجات.. وتصعد اليه شابة موفورة القوة والنشاط.. وتصعد اليه شمطاء واهنة العظام .. تتحامل على نفسها..ولا تنقطع عن الصعود حتى تقعد بها الشيخوخة وعلو

السن .. وعند ما تشعر بعجزها التام عن الصعود اليه .. تتأكد من ان مصباح عمرها اوشك على الانطفاء .. لم يكن السطح بالنسبة اليها يعني ما فوق السقوف فحسب .. بل كان يعني اكثر من ذلك .. يعني احتياطيا كبيرا من المتع والمسرات المنتظرة .. ورصيدا من التوقعات المحتملة.. لذلك كانت قبل ان تسكن الدار ، تبدا بالسطح لالقاء نظرة خاطفة .. وكلما زارت دارا للمعارف او الاقارب ، صعدت الى السطح ، تجول بنظرها في مختلف الجهات .. لان الزيارة لا تتم الا برؤية السطح .. واذا زاروها لا بد ان تصعد نساؤهم الى السطح .. فهن بدورهن لا يختصرن الزيارة دون رؤيته .. وتفقده .. والمكوث به بضع لحظات .. لتبادل احاديث رقيقة كان لها اجنحة الطير .. لا تنتشر على سعتها الا في الفضاء الواسع .. او كانها شذا بعض الزهور .. لا يتضوع الا اذا فشت اسراره رفاق النسمات .. وعن طريق السطح كانت المراة الفاسية تتصل بنواح من العالم الخارجي .. جل اخباره لا تدخل من الابواب .. وانما تاتي عبر السطوح .. الى ان تصل اليها .. فستقبل انباء المعارك البعيدة التي لا تشارك فيها الا بالسماع .. والخبر عند ما يتسلق السطوح .. ويقفز على الاسوار .. ويجتاز كل الحواجز .. وتنقله راويات كثيرات تعشقن الرواية فنا من الفنون .. لا بد ان يكون قد تحول الى اسطورة .. لعب فيها الخيال والوهم دورا كبيرا .. ومن لم يكتب له ان يعرف عن كثب ، كيف كانت تقضي العشيات في سطوح فاس ، فقد فاته شيء كثير .. كان نساء المدينة ما ان يفرغن من مشاغل بيوتهن ، ويخلو لهن الجو من الرجال الذين يكونون قد خرجوا الى اعمالهم ، راضين مغتبطين بما قدم اليهم من اطعمة جيدة اشتهر بها المطبخ الفاسي .. وبما نالوه من اغفاءة ما بعد الغذاء .. حتى ياخذن قسطهن من الراحة .. ليتهيان بعد ذلك للصعود الى سطوح المنازل .. وكانهن على ميعاد .. كما تصعد اسراب الحمام الى الجو في اصائل الربيع .. او كما تصعد الزهور البرية على اكتاف الجبل .. ولا بد ان يكن قد اتخذن زينتهن .. فالعيون تزجج بالكحل .. والشفاة تخضب باحمر .. والاسنان تدعك بالسواك .. والشعور يعاد تظفيرها لتلقى وراء الظهور .. او تعقد عمائم على الرؤوس .. او ترسل على جوانب الوجوه .. يتوسطها مفرق يسير في خط مستقيم .. كانه شريط

ناصع البياض ، وسط حقل من زهور الكاميليا السوداء .. او كانه الشهاب يشق ظلمة الليل .. او شعاع من امل .. ينفذ فى عتمة اليأس.. واثناء الصعود يثبتن اطراف ثيابهن الزاهية فى اوساطهن .. كي لا تعوق خطواتهن على الدرج .. حتى اذا وصلن اعدنها الى وضعها الطبيعي .. وسحبنها على الارض كأنهن كرائم النساء فى قصور الخلافة على عهدها القديم .. وهناك تبدو سطوح المدينة اذا نظرت اليها عن كثب ، كحدائق رائعة انبثت فيها احواض الورد ، وافانين الزهر ، تشوق النظر باشكالها المختلفة الالوان .. ثم هن يعتمدن بمرافقهن على حافات الاسوار .. فاذا كانت عالية علونها تسلقا او بواسطة سلاليم صغيرة كثيرا ما تئن تحت حملها الثمين .. فانحنين على ما يليهن من حواجز ، انحناء الأوز على حافات احواض الماء .. يحتسي منها بضع قطرات .. قبل ان يقتحمها دافعا بصدره على صفحة الماء .. وقد تلذ لهن المغامرة فيجتازون الحواجز الى ما يجاورهن من سطوح الجيران .. مع العلم بان سطوح المدينة كلها متقاربة ، لا يفصل بعضها عن بعض الا مسافة خطوة او خطوتين .. تهبط بينهما هوة سحيقة تنتهي بزقاق ضيق غاص بالسابلة .. حتى ليمكن التنقل بين عدة احياء ، عبر سطوح المنازل .. كما تنتقل العصافير بين الحقول والبساتين عبر فروع الاشجار .. وفى السطوح كانت تعقد الصداقات وتتالف المودات .. وتنفض أسرار العائلات .. بين نساء ضاق مجال آمالهن .. وتواضع مرمى طموحاتهن .. قانعات من دنياهن بلحظات مفعمة بالطاف الحس والذوق .. وبمسرات ينلنها فى ظلال ازواج وآباء ، ياوين منهم الى ركن ركين .. وصداقات السطوح كثيرا ما كانت تتحول الى حب من طرف واحد .. كما يتحول عصير العنب الى خمر .. او الى حب متبادل .. تتجاذب خيوطه الرفيعة امرأتان ضجت بهما الاشواق .. وذهبت تباريح الهوى كل مذهب .. فهما تصعدان الى السطح مشوقتين .. مسوقتين بما يضطرب بين الاضلع من لهفة وحنين .. وكثيرة هي الشائعات والقصص التي تحاك حولهما حينئذ .. مفتحة لشهية الرواية والقص .. محرضة الخيال على العربدة .. ولو على حساب الاعراض والحرمات .. والخيال فاسق قديم .. ومتامر عريق فى الخداع والدس .. جسور على تعرية الناس من ثيابهم .. وولوج مخادعهم .. ونشر ما

طوي من اسرارهم .. وويل للناس من الخيال اذا استشعر قـوة في جناحيه .. وصلابة في قوادمه .. وثارت به منازعه الى العبث بالاشياء..

كان ظهور رجل على احد السطوح اعتداء على حرمات الجيران .. ولا بد أن يثير بعض المشاكل والاحتجاجات .. بمجرد ظهوره تختفي رؤوس نساء الجيران .. متوارية خلف الجدران .. كي تعود الى البروز بمجرد انصرافه .. كما تفعل الارانب اثناء مراوغتها للصياد .. وكانت اللعبة محببة لدى البعض .. كلعبة الاستخفاء التي كان يزاولها اطفال الحي .. يظهر الرجل على السطح ، فيغطس راس المـراة .. فيعود الرجل ادراجه في شيء من الارتباك .. ليظهـر الراس من جديد .. فيباغته الرجل مرة اخرى .. الى آخر اللعبة ، ان كان لها آخر .. واكثر من كان يفعل ذلك من الرجال ، الشبان العابثون ، المارون بطور المراهقة الواقفون على عتبة عالم اثيري يموج بالتيارات .. الواقفون بين منـازع الذات العارمة وتناقضات المجتمع .. ومن ثم يتكـون فيهم ميـل الى الاحتيال على الموانع والعقبات .. كما ياخذ الصياد غـزالا بالمباغتة والمفاقلة .. متى عجز عن أخذه بالقوة وتحريك العضلات .. بعض النساء كن يتظاهرن بالغضب عند ظهور شاب من هؤلاء على السطح .. ولـو ان ظهوره كان لهن مبعث مسرة .. ربما خفقت لها قلوبهن بشدة ، وطافت برؤوسهن من اجلها احلام جميلة مذهبة الحواشي .. فهـذه خدودهـن تصطبغ فورآ بلون ارجواني يزيدها شبابا ونضارة .. وتلك ايديهن تبقى متمسكة بالحاجز .. ولو ان الراس كان متواريا .. استعدادا للعودة الى الظهور مرة اخرى .. وبعض الشبان كانوا يختلسون النظـر الى نساء السطوح من خلف الكوى وشقوق الابواب .. كما يختلس شخص النظر الى حشد من الحمام .. خوفا عليه من ان يصاب بالذعر .. فيطير متخبطا باجنحته هنا وهناك .. ويومها لم يكن اشهى الى الرجل من ان تحط عيناه على امراة غريبة جميلة ، وهي في اوضاعها الطبيعية . دون ان تعلم .. ليراقب عينيها كيف تتقلبان .. ويديها كيف تتحركان .. وجيدها كيف يستدير ذات اليمين وذات الشمال .. وكل شيء فيها كيف يؤدي مهمته الطبيعية .. ولا يستبعد ان تنشا علاقة بين الطرفين خلال السطـح ..

ولكنها غالبا ما تكون غامضة .. حائرة .. خرساء .. كعلاقة مسافرين على قطارين مختلفي الاتجاه .. يقفان متوازيين على محطة واحدة .. او كعلاقة المتجاورين على مقاعد السينما من ذكور واناث .. بعد آن تطفأ الانوار .. ويبدأ العرض .. وهكذا كانت سطوح فاس تقوم بدور شبيه بالدور الذي تقوم به الشوارع اليوم .. من حيث كونها متنفسا ومستراحا وشم هواء .. كثيرا ما كان الضحك يضج في صدر المرأة .. كما تضج الامواج المضغوطة في مغارة ضيقة على الشاطىء .. فتسرق الخطى الى السطح .. لتضحك هنالك ملء شدقيها وملء صدرها .. والضحك في بعض البيوت كان اشبه بالفضيحة .. او بالتطاول .. فمن البيوت ما كان كبيوت العبادة .. لا يسمع فيها آلا بالهمس .. فاذا احتار الدمع في مآقيها لجأت ايضا الى السطح .. لتطلق له العنان وتنتحب بصوت مرتفع .. فالبيوت آلتي كانت تمنع الضحك ، هي نفسها التي كانت تمنع البكاء .. الا اذآ كان في صمت .. وهذا لا يكون دائما مريحا .. مهدئا بما فيه الكفاية .. تمنعهما معا ، لان فيهما خرقا لحرمة الصمت .. كانت المرأة تنسحب في الوقت المناسب ، وفي اللحظة الحرجة .. وفي السطح كانت ضحكاتها تتبدد في الفضاء الواسع .. وكانت دموعها تنهمر لتجف بعد حين .. لكونها سكبت منها قدرا كبيرآ ، كافيا لاراحتها مما تجد من اوجاع .. واخيرا تعود الى تحت .. الى العمق البعيد القرار .. كما يعود السباح الى تحت الماء .. بعد اخذ نفسا طويلا من الهواء .. يساعده على احتمال الغوص من جديد ..

كانت سطوح المدينة تعرف مهرجانات لا حد لروعتها ، خصوصا في يوم عاشوراء ، وفي العشر الاواخر من شعبان .. أسراب النساء تتوالى على السطوح ، وهن في أبهى زينة وابهج منظر .. الايدي مخضوبة ، والثياب زاهية ، والالسن صادحة ، والاعطاف مترنحة ، الاساور تلمع في المعاصم ، والخواتم تتوهج في الاصابع ، والضحكات تنتقل من سطح الى سطح .. كأنها مقاطع موسيقية ، تتجاوب بها ابهاء قصر منيف .. او كأنها اغاريد اطيار ، على فروع أشجار ... والبشائر تطير من هنا الى هنالك ، كأنها الفراشات تنقل حديث الورد للياسمين .. والزمن من همومه في لحظة استراحة .. والحياة من جدها في اجازة هي على القلوب برد

وسلام .. اما الزوجات الناعمات بازواج موآتين ، موسرين ، الممسكات باعنتهم ، المتصرفات فى قلوبهن ، التائهات على الدنيا بالبذخ المتـــاح ، والنعمة السابغة ، والفراش الوثير ، والماعون الرفيع ، والمجد الأثيل ، يشتهين فاذا السعد واقف بابوابهن ، ويشرن فاذا الدنيا قد القت نفائسها باعتابهن ، ذهب وياقوت ومرجان واماء وعبيد .. اما هؤلاء ، فتلك فرحتهن الكبرى ، وعرسهن العظيم .. يرقين السطوح فى تلـــك المناسبـــات ، وحولهن حشد من الخدم والاتباع ، فيثرن الحسد فى قلوب كسيـــرة ، ويشعلن الغيرة فى نفوس مرهفة مقرورة ، ويرتفعن للجميع مثلا عليا فى اقبال السعد ، وحب الزوج ، وتبسم الايام .. فيشار اليهن بالبنـــان ، وتشرئب نحوهن الاعناق ، وتلوح لهن الايدي ، كانهن الاهلة المرتجـــاة ، والمنى المشتهاة ..

وانطوي على حزن عميق ، وانا انظر اليوم الى سطوح المنـــازل فى فاس ، فاراها كئيبة كاسفة البال ، كاطلال دوارس ، زال رونقها ، وذبل شبابها ، وهجرها اهلها ، تاركين اياها للكآبة والوجوم .. فمنذ ان خرجت المرأة الفاسية لتتحرك فى الشوارع فى شيء من الحرية ، بدأ السطـــح يفقد قيمته رويدا رويدا .. فلم يكن فى وسعها ان تتخلى عنه دفعة واحدة .. لانه صديق العمر .. ورفيق العشرة الطويلة .. الفت قدماها الصعود اليه كما يالف صبي الصعود على كتفي ابيه .. لكن العادة تنحل بمـــرور الايام ، وهكذا حل الطريق العام محل السطوح .. وصرنا نرى الزوجات فى الشوارع متابطات اذرع ازواجهن .. والصبايا فيها مرحات غاديات رائحات .. تعلو محياهن افراح الحرية .. وتشرق فى عيونهـــن بوارق الآمـــــال ..

ماذا جرى لسيدات فاس المهيبات الرائعات . ؟ لماذ اختفين او هن على وشك الاختفاء . ؟ كنت فى طفولتي اراهن فاعجب بهن ايما اعجاب ، باعتبارهن نماذج للوجاهة وقوة الشخصية والخبرة المنزلية المنقطعـــة النظير فيما يخيل الي .. اذا تحدثن اجدن الحديث ، ولهن المام كـــاف بالثقافة الوطنية ، المنطوية على الحكم الشعبية ، والامثال المحكيـــة ، والنكث المروية ، قد انتهت اليهن اطراف من الثقافة الفقهية ، وحفظن ما

ليسر من القرءان ، وبعضهن قرا فى اللوح الخشبي فى عهد الطفولة . كما احطن بالطب الشعبي ، فكن طبيبات ماهرات ، يجدن لكـــل داء دواء ، يعددنه بايديهن ، ويجعلنه رهن اشارة الازواج والاولاد والخدم .. اضف الى ذلك براعتهن فى التطريز والحياكة والخياطة والطبخ ، عـــلاوة على مهارتهن فى انتزاع الاعجاب ، ساعة يتحطرن فى ثيابهن الجميلة الطويلة الذيول .. كنت اشتهي ان اراهن فى بيوتهن .. ممالكهن الصغيــــرة .. يبدين الراي الصواب ، ويقترحن الاقتراح الحسن ، ويحللن الامر الصعب ويقربن الشيء البعيد ، ويروضن الزوج العصي ، ويهذبن الولد الشقي ، ويقرعن العبد الآبق ، ويدنين القريب الكاشح ، ويضفين على بيوتهن وجاهة ونخوة وبهاء يغبطن عليه .. لقد كن سيدات بيوت بالمعنى الصحيح .. يضعن الاسس ، ويرسين القواعد ، ويعلين البناء ، ويجدن الترميـــــم ، ويبعدن الشر ، ويجلبن الخير ، يتصرفن تصرف الحكيمات ، ويتجاوزن شتى المعضلات ، يهبن الزوج الثري جاها يبوئه مقاما رفيعا بين الانداء .. ويتحن للزوج الفقير ان ياكل طعاما نظيفا ، ويعيش عيشا كريما ، ويخرج الى عمله كل يوم انيقا رقيقا راضيا عن نفسه واهله ، مرفوع الراس وكانه من ابناء الذوات .. اذا دخلت بيت الواحدة منهـــن ، ولو كانـــت ذات خصاص ، شعرت بالارتياح .. لانه نظيف .. نظيف .. الى درجة التعقيم الكامل .. ماعونها لامع مصقول ، تحسبه لم يستعمل بعد ، وكانما وكل به شخص خبير بطبيعة المعادن ، ليحكه ويجعله ذا بريق وسطوع .. قد لا ينفتح بيتها على حديقة ، ولكنها اختصرتها فى اصص للزهر والـــورد والنعناع والحبق وزعتها على جوانب مسكنها المتواضع .. الجميل .. تنحني عليها صباح مساء انحناء المرضعات على الفطيم .. عاملة فيهـــا بالسقيا والتشذيب والتهذيب .. اذا دلف زوجها الى البيت ، تراه طلق المحيا بشوش الملامح ، القى عن كاهله كل الاعباء ، ساعيا نحو الجنة الصغيرة .. الوديعة .. يدعو اليه مجلسه اليومي العتيد .. وامامه تتحرك زوجه الفاضلة البارعة .. قائمة على قدم وساق ، مشمرة عن ساعديها ، تمـــد المائدة ، وتقدم الالطاف ، وتخلق الجو ، وتفتح الشهية ، وتمضي ساعة من اروع ساعات العمر .. على ان هذا النعيم لا يكون بطبيعـــة الحـــال موصولا .. فما اكثر ما تعترضه اكدار تتخرمه وتشوه جوه الجميل ..

اما اذا تصدين للخصومة ، وتولين التشهير وكلن السباب ، فامرهن يكون مدهشا الى ابعد الحدود .. رائع جدا ان تسمع الواحدة منهـــن منفعلة غاضبة قاذفة من فمها حمما محرقة وصواعق مدمـــرة .. فهـــي تصيب الهدف .. وتضرب في الصميم ، وتحز في المقطع ، في بضـــع كلمات مركزة مشحونة معباة كانها محفوظة مسبقا عن ظهر قلب .. وكان صاحبتها متخرجة من دواوين الهجاء المقذع في الادب العربي .. تـــرد اعجاز الكلام على صدوره ، وتعكس اوائله على اواخره ، اجابتها على كـــل اهانة حاضرة ، جاهزة ، لا يلتوي بها لسان ، ولا تتعثر بها شفـــة ، ولا يعبا بها خاطر .. سريعة البديهة ، حادة الذهن ، دقيقة الملاحظة ، حادة السلاح . تعذب ضحيتها ، وتنصب لها الشراك ، وتضيق عليها الخناق ، غامزة لامزة ، معرضة مباغتة ، تتحين اللحظة المناسبة ، والهفوة اللسانية، والزلة المنطقية ، لتدفع بسكينها الحادة تفري اللحم ، وتفرز العظـــم ، وتنثر الضحية شظايا .. واثناء ذلك تفتعل الضحك ، وتجيد التنكيت ، وترقص الحاجب ، وتهز الجذع ، وتنط باللسان ، وتفرقع بالشدق .. انه ابداع .. اي والله انه ابداع . ! منذ زمن بعيد لم استمتع به كما استمتعت به في ايام خلت .. كنا ـ ونحن اطفال ـ نخاف هذا النوع مـــن النساء خوفا شديدا .. ولكن نكبرهن ونهابهن وننظر اليهن باعجاب .. واشتهي لك ان ترى احداهن متبسطة في الحديث ، مشرقة المحيا ، طويلة البال ، مشروحة الصدر ، رقيقة الخاطر ، نشوى من غير سكر ، مترفعة من غير كبر ، مرحة من غير افتعال ، تحاور وتداور ، وتجرح وتاسو ، وتاخـــذ وتعطي ، وتباغت وتخالس ، وتروق وتؤانس ، نقية الفم ، رائعة الثنايا ، مرطبة الشفتين ، مكحلة مبهرجة مزوقة ، يهزها ذكاء المعاني فيطوح بها هنا وهناك .. وياخذها سحر العبارة فيغرقها في ضحك ممتع موصول ، تظهر اثناءه نواجذها العاجية ، فلا ندري ـ ونحن اطفال ـ انحبها ام نخاف منها .. اما اذا كانت في فرح ، ووقفت لترقص .. او تناولت (البندير) لتضرب .. فانها تريك من فنها العجب العجاب .. ! مـــن كل ما يروق وياخذ بالالباب .. ! انها مجمـــوع مهارات في طريقهـــا الى الاندثـــار ، وا اسفاه .. ! ان اباءنا كانوا محظوظين جدا .. لا يضعون في بيوتهم مجرد زوجات .. وانما تحفا ونفائس ومؤسسات .. !

الربيع في ضواحي فاس امير جميل .. يقيم كل سنة حفلة شاي.. يدعو اليها كل الناس .. مستحضرا برعاء المغنين والمنشدين ، من كل صداح عذب النغم ، وشادية رخيمة الصوت ، مخملية الحنجر .. وهو يفرش طريقهم اليه بافنان الورد ، ويدلي فوق رؤوسهم اغصان الزهر ، ويجري بين ايديهم رقيق الجداول ، ويطبع على جباههم قبلات المحبة .. يرش على ثيابهم من عطوره ، ويهب وجوههم من لالائه ، ولا يفوته ان يمسح عن الشيخ المتهدم كآبة السن المتقدمة .. ويشد على يد الفتي ، ناقلا اليه شحنة اخرى من حرارة الانفعال ، ويغري الفتاة النشوى بخمر الصبا وفتنة الشباب ، ان تصعد الربا ، وتهبط المنحدرات ، وتدور حول نفسها بحثا عن فارس الاحلام .. فربما كان واقفا خلف جذع شجرة .. او متواريا وراء خميلة .. او نائما على فرع دوحة .. تحرسه حانيات الاغصان .. والربيع في ضواحي فاس فنان ماهر .. يعتبر فنه ضربا من الصلاة .. موكل بالجمال يخلعه على كل شيء يقع نظره عليه .. ويفجره من كل ما يلمسه او يمر بجواره .. تراه حاملا ادوات عمله الرائع ، صاعدا الى قمم الهضاب تارة .. هابطا الى سحيق الاودية تارة .. معرجا على مداخل الكهوف تارة اخرى .. وهو خلال ذلك يصبغ ثغور الزهور .. ويفضض صفحة الماء .. وينهب اطراف الاغصان .. ويزركش صدور الروابي .. ويلون اجنحة العصافير ، ويضرب مواعيد غرام بين الغصن والنسمة ، والبلبل والوردة ، والفراش والاقحوانة .. لمساته السحرية ضرب من الخلق الفني الجميل ، يترك الاشياء التي يمسها تتبرج .. وتبدي زينتها .. وتغازل بالنظرة المحمومة بالشهوة ، والغنج الفاجر بالطلاوة ، كانها امراة خلعت العذار .. وطرحت الاحتشام جانبا .. ودلفت بين المعجبين انيقة الثوب ، فاتنة الدل ، مشرقة القسمات ، تحرضهم على ان يمشوا وراءها تائهين .. الارض موطاة الاكناف ، اغتسلت تحت مياه المطر زمنا ، ثم استلقت تحت اشعة الشمس ، تجفف جسمها وتعيد ترجيل شعرها السبط الغزير .. آخذة زينتها الكاملة ، مفرغة عليها ابهى الحلل ، كانها عروس تهيات للقاء الزوج المدنف المستعر الاشواق .. في الجو اسراب من الطيور ذات ضجيج كبير ، وقد نشرت اجنحتها على سعتها وتولاها جنون بالفضاء تذرعه جيئة وذهابا ، كانها

الاطفال ساعة خروجهم من المدرسة .. يستحثهم الشوق الى الجـــري والقفز ، بعد صرامة النظام وقيود حجرة الدرس .. ومن حين لآخر كنت تتلقى اصداء نغم عذب لا تعرف بالضبط ما هو مصدره .. ولكنه يفتـــح قلبك للحب والحياة .. لعله صادر عن امراة تائهة بين اشجار الحقول .. كانها حواء ، تبحث في رياض الجنة عن مكان آدم .. او لعله صوت من اعماق الكون المجهولة .. كبعض الاصوات التي تترامى الى آذاننـــا في لحظات الانفعال الشديد ، دون ان ندري لها مصدرا معينا .. او لعله بقية لحن قديم .. احتفظت به تيارات الاثير .. تتناقله عشرات السنين .. او لعله غير ذلك .. الناس منتشرون في كل مكان ، بعضهم تسلق ربوة عالية ، كانها كتف كائن خرافي ضخم . وهناك انغـــرس بين الاشجـــار والحشائش .. وكانما انشقت عنه الارض .. حفاظا على توازنه ، حتى لا تجذبه الهوة السحيقة تحت قدميه .. وبعضهم توارى خلف الاغصان المتعانقة ، فلا يلوح منه خلالها ، الا مثل ما يلوح من المعنى الدقيـــق ، خلال الشكوك والاوهام .. فربما كان برما بالناس ، عزوفا عن المجتمع ، يود استخلاص نفسه من زحمة الحياة والانفراد بها بين احضان الطبيعة .. وربما كان عاشقا معتكفا على ليلاه .. يوهم نفسه انه استصفاها لنفسه .. سارحا في محاسنها ، مستطار اللب ، مسحور الفؤاد .. وبعضهم لم تجذبه ظلال الاشجار فتوسط الحقل ، وتعرض لاشعة الشمس ، يستمتع بلذعتها اللذيذة المنعشة ، ويتقلب تحتها ظهرا لبطن .. وكانه خارج لتوه من مياه البحر الى رمال الشاطىء .. فكاني هنا امام لونين من اخـــلاق الناس .. فالذي يحب الظلال ، غالبا ما يكون من الصنف المبتعد عـــن الشهرة والاضواء الكشافة .. والذي يحب نور الشمس يبقى تحته اطول وقت ممكن ، غالبا ما يكون من الصنف الباحث عن رقعة الضوء في الحياة الاجتماعية ، يسعى اليها بكل ما يملك من وسائل .. جموع الصبايا توجد في كل بقعة تقريبا .. وقد اخذن رخصة للتحرر من القيـــود الثقيلـــة المفروضة عليهن من قبل المجتمع ولو الى حين .. انتشرن في الحقول الرائعة كانهن وجيهات مدعوات الى حفل كبير .. اقيم في رحاب قصر عظيم منيف .. وكن زهورا بشرية مختلفة الشيات والالوان .. تزهـــدك احيانا في زهور الطبيعة ، وتجعلك تنظر اليها وكانها تجارب فنية ناقصة

التكوين .. وواحدة كلفة بالزهور تقطفها لتضفرها باقة تشدها الى صدرها كانها بنات خواطرها تضمها من حنو واشفاق .. او تسويها اكليلا تضعه على راسها وكانها عروس تزف الى احد زعماء الهنود الحمر .. او تصرها فى منديل ، وكانما تضن بأريجها ان يتبدد فى نسمات الجو ، فهي تختزنه بكل قوته ، حتى تخلي سبيله فى حجرة مغلقة عامرة بالاسرار .. وواحدة افلت منها زمام نفسها ، فلا تكف عن الجري والضحك .. وكانها مطاردة من طرف عاشق خفيف الظل ، جميل الدعابة ، ومن حولها صويحباتهـــا يجاذبنها مرحها اللطيف ، ويقاسمنها مرحها البريء .. وكانهن بعض نساء الحريم .. يمرحن فى لحظة انبساط .. وقد رق لهن العيش ، وصفت الايام ، وامتدت امامهن ظلال العز الى ما لا نهاية .. وواحدة تركت جموع الصبايا جانبا .. وشقت طريقها وسط البساط السندسي ، وكانها اميرة لها من عزها النبيل شاغل يملأ عليها انحاء التامل .. او كانها تبحث عـــن شيء ولا تجده فى مجتمع الناس .. وانما تلتمسه فى تفتـــح الـــوردة، وارتفاع الشجرة ، وخرير الساقية ، ولمسات النسيم .. بينما اخـــرى انكبت على كتاب ، وقد اسندت ظهرها الى جذع شجرة ، لا تكاد ترفـــع راسها مجيلة عينيها فيما حولها لحظة ، حتى تعود به الى الكتاب من جديد .. فكاني بها تبحث بين السطور عن معنى دقيـــق ، او خاطر شارد ، او سانح آبد ، او خيال ضال ، بحث انسان عن رواسب الذهب ، فى نهـــر كثير الحصا والتراب .. الاطفال كثيرون .. ملأوا بطونهـــم مما حملـــه اهلوهم من الوان الطعام الدسم والخفيف ، وانطلقوا متضاحكين مرحين ، كانهم طيور اخرى تجري على الارض ، ولا ينقصها الا الاجنحة لتحلق فى الجو ، والطبيعة تبارك عبثهم الجميل .. ويتسع صدرها لنزقهم الذي لا يخلو من اخطار .. فهم يدوسون الازهار ، ويمزقون خـــدود الـــورد ، ويسيئون الى رشاقة الاغصان ، ويعكرون صفاء الغـــدران ، ويخربـــون اعشاش الطيور .. ولكن امنا الطبيعة تنظر الى كل ذلك بكثير من التسامح متغاضية عن الذنوب والهفوات .. كنت واحدا منهم .. مع ميـــل الى شيء من هدوء ودعة .. وجنوح نحو الوحدة والصمت .. واستغراق فى الحلم الى حد الذهول احيانا .. لكن شيطاني كان يستبـــد بي احيانـــا فيخرجني عن سمتي .. الى ان اتمكن من الانفلات منه .. والعـــودة الى الذهول والدعة والحلم ..

احببت مدينتي منذ ذلك العهد .. سواء رقدت حجرا تحت قدميها .. او ترقرقت دمعة فى مقلتيها .. او مرحـــت نسمة فى عطفيهـــا .. يستوي عندي ان تجهدني عابسة ، أو ترقصني مائسة ، او تضربني موجعة، او تقبلني مستقبلة مودعة .. على يدي منها جـــروح ، وفى خبالي لهـــا صروح ، وبين جوانحي لها حب ، ولست ازعم انها اجمل المـــدن .. ان جمالها حسب انطباعي الخاص ، يكمن فى شخصيتها .. فالواجهة ربمـــا كانت غير مشرقة فى اكثر من ناحية .. وينقصها الالمام بفن الاستعراض .. وليس لديها قدرة على ايقاع الناس فى حبها لدى النظرة الاولى .. هي لا تستجدي حبا .. ولا تخطب ودا .. عزيزة كريمة ، فاضلة شهمة ، ولكن ما احبها احد الا احبته .. فليس من طبعها ترك عشاقها يحترقون وحدهم . ؟ فها هي ما زالت تمسك بي لحد الآن .. تضن بي على اية جهة مواعيده .. وتواظب على صونه واحتضان مكاتيبه .. وككل المحبين فانها تحتفل باللقاء ، وتستعد للمناجاة ، وتتهيا للمكاشفة ، بادية الزينة ، جميلة الثوب ، فواحة العطر ، مهووسة اللفظ ، مخمورة اللحظ ، واضعـــة فى كؤوسها مزيدا من السكر ، باثة فى كفها فيضا من المعاني ، مفجرة مـــن لهاتها قصائد من الشعر .. الم اقل لكم انها لا تترك عشاقها يحترقـــون وحدهم . ؟ فها هي ما زالت تمسك بي لحد الآن .. تضن بي على اية جهة اخرى .. ربطتني بغدائر شعرها .. قيدتني بسلاسل سحرها .. احاطتني بذراعيها ، اطعمتني من راحتيها ، اذا تبرمت بجنب ، نقلتني الى الجنب الآخر .. متى قلت مواردها رضيت منها بالقليل .. وان كثـــر خيرهـــا طوقتني بالنعم ، وافاضت علي الخير ، وارتني من ايامي كل جميل ، ومن افضالها كل خير ونبيل .. اخاشنها احيانا فتعفو ، واغاضبها فتحلـــم ، واشتمها فتعف .. ثم لا البث ان اعود الى تقبيل الراس ، وهز اليـــد ، والنوم على الساعد ، والاستراحة فوق الكتف ، وتقديم الهدايا ، والعناق الموصول .. انشقت فوق راسي سقوفها فرشتنـــي بالمـــاء ، وقست دروبها تحت قدمي فادمتها بالحجارة ، واشتد حولي زحامها فاصابنـــي

بالضيق ، ولفحني قيظها فآذاني بالعرق ، وأتعبني تصعيدهـــا فرمانـــي باللهاث ، واكربنـــي شحوبهـــا فشملنـــي بالأسى . ومع ذلـــك فانـــا ملتصـــق بهـــا لا اريـــد ان افـــارق .. انـــا بـــاق كبقايـــا الوشم على ظاهـــر اليـــد ، كالطيـــف فى الذاكـــرة الضعيفـــة ، كذكـــرى عطـــر آل زهـــره الى الذبـــول .

فـــاس   عبد العلي الوزانـــي

قصة

فلوس العيد

أحمد عبد السلام البقالي

دخلت ربيعة على طفلتها الصغيرة مريم فشهقت وضربت على صدرها :

— ويلي ! ويلي ! ماذا تفعلين ؟

ورفعت مريم ، التي كانت لا تتجاوز سن الرابعة ، راسها لتنظر الى امها بعينيها الواسعتين البريئتين متوقعة شرا ..

وانحنت الام تلتقط الأوراق المالية الخضراء المبعثرة على الارض والمائدة ، وتلقي بالاسئلة الغاضبة :

— كيف عثرت على المفتاح ؟ وكيف فتحت صندوق ابيك ؟ سيقتلنا ابوك ضربا اذا ضاعت ورقة واحدة !

ولم تزد مريم على ان اخرجت لسانها ودلته بشدة نحو ذقنها غير دارية ماذا سيكون عقابها .

وعدت الام الاوراق فوجدتها خمسة ، وتنهدت مرتاحة لعدم ضياع احداها .. وبعد ان رتبتها فى رزمة واحدة نظرت اليها بامعان لتصيح فى مريم مــرة اخــرى :

— ماذا فعلت بفلوس ابيــك ؟

وخبات مريم القلم الاحمر الذي كانت قد عثرت عليــه وسط دار الجيــران ..

وتصفحت امها الاوراق واحدة واحدة ، فاذا عليها جميعــا رسوم دوائر ومربعات بقلم احمر ..

— ويلي !! ويلي ! سيقتلنا ابوك حين يرى ما صنعت .

وانحنت عليها فامسكت بيدها الصغيرة ، ونزعت منها القلم الاحمر وضربتها عليها عــدة مــرات :

— لماذا فتحت الصندوق ؟ اه ؟ لماذا كتبت على فلوس ابيك ؟ اه ؟ الا يمكن ان اغيب رمشة عين دون ان تعملي مصيبة ؟ اه ؟

وصاحت الطفلة الصغيرة من الفزع اكثر من التالم للضرب :

— لن اعــود .. لن اعود مرة اخرى .

واعادت الأم الأوراق الخمسة الى غلافها ووضعتها داخل الصندوق واقفلته ، وعلقت المفتاح فى عنقها فتدلى بين ثدييها .

كان مبارك زوج ربيعة يعمل حارسا لموقف سيارات باحد الشوارع التجارية المزدحمة بالمدينة .. وكان مقطوع الرجل اليسرى ، فكــان اصحاب السيارات يعطفون عليه ويضاعفون له اجرة الحراسة على سبيل الصدقة . وكان يعيش مع زوجته ربيعة وطفلتهما الصغيرة مريم فى غرفة واحدة من دار كبيرة مع الجيران باحد الدواوير المحيطة بالمدينة .

وكان يحرص على توفير درهم واحد على الاقل كل يوم ، يضعه في الصندوق الخشبي المغطى بهيدورة في احد اركان الغرفة . وحين تجتمع له عشرة دراهم يستبدلها عند البقال بورقة ويضعها في غلاف في عمـــر الصنـــدوق ..

وكانت مريم الصغيرة ترى والدها يفتح الصندوق كل يوم ويضـــع فيه الدرهم فتسرع لتطل بداخله فيقفله بسرعة ويخرج المفتاح مما يهيج فضولها الصبياني الكبير الى معرفة ما بداخل الصندوق الغامض ..

وانطبعت في ذاكرتها الصغيرة صورة ابيها وامها وهما يفتحـــان الصندوق ذات ليله على ضوء شمعه ، وهي نصف نائمة تنظر اليهما دون ان تستطيع القيام لمشاركتهما الاطلال داخل الصندوق العجيب .. ورات اباها مبارك يخرج الغلاف فيفتحه ويضع فيه خمسة اوراق خضراء مـــن فئة الخمسين درهما ، ورات امها ربيعة تقبله سعيدة وتقول :

— الحمد لله .. ضمنا كبش العيـــد .

فرد عليها وهو لا يكاد يخفي سعادتـــه :

— الكبش وحده لا يكفي . فهناك الدقيـــق والزيت والسكر .. هذا اذا لم يرتفع ثمن الكبش .

— لن يكون الا الخيـــر ، ان شاء الله .

واقترب يوم العيد ، وبدات اكباش الجيران تظهر داخـــل حوش الدار مربوطة الى ابواب غرف الجيران وامامها اطباق العلف ، والأطفـــال يتفرجـــون عليهـــا ..

ولم تكن مريم تخفي غيرتها من اطفال الجيران ، وتدخل كل لحظـــة لتسال امها :

— متى سيكون لنا نحن كبش مثلهم ؟

فتطوقها امها وتقبلها وتقـــول :

— قريبـــا يا عزيزتـــي ..

وافاق مبارك صباح يوم احد ، فايقظ زوجتـــه :

— قومي .. سنذهب اليوم الى السوق لشراء الكبش .

كان اليوم يوم احد ، والعمل بموقف السيارات متوقف . فافطروا واخرجوا معهم طفلتهم مريم ، وذهب الثلاثة الى السوق ، ومبارك يضـــع غلاف الفلوس في جيب صدره ، ويقفل عليها بـــزر السترة العسكريـــة النحاسي . وربيعة تلتفت اليه كل لحظة لتقول :

— رد بالك ! اللصوص في السوق كثيرون هذه الايام .

— لا تخافـــي يا مـــراة .

ويضع يده على صدره ليتاكد من وجودها هنالك .

وعلى باب السوق اجتمع عليه عدد من الغلمان يلوون الحبـــال على سواعدهم يسالونه :

— هل نعاونك على جر الكبش للدار ؟

فكـــان يـــرد بابتسامـــة ابويـــة :

— حتى يكتبه الله .. لم نقل باسم الله بعد ..

وحين تكاثروا عليه جاء شاب يلبس قلنسوة صوف زرقاء يخـــرج شعره من تحتها في كل اتجاه ، فتدخل لينقذه من الغلمان ، قائلا :

— اذهبوا .. اتركوا الرجل وشانه . الا ترون انه معذور .

مشيرا بذلك الى عرجه ، ودفع الغلمان فتزاحموا حوله حتى كادوا يوقعونه على الارض لولا ان وقفت زوجته ربيعة خلفه لتسنده .

وحين تفرق الغلمان بنفس السرعة التي اجتمعوا بها . وضع مبارك يده على جبينه فانسحب الدم من عروقه دفعة واحدة فكاد يقع مغمى عليه..

ورات زوجته شحوب وجهه فادركت بالسليقة ما حدث :

— مبارك .. مالك ؟ هل سرقت منك الفلوس ؟

فحرك راسه بالايجاب غير قادر على الكلام .. فاخذت هي تصرخ ونولول وتلطم خديها ، والطفلة الصغيرة مريم تنظر اليها والى ابيها المتقع الوجه وتبكي فى ذعر شديد ..

واجتمع عليهم الناس يسالونهم عما حدث ، ويطلبون من مبـارك ان يتاكد اين وضع فلوسه ، ولكن الشق الحديث فى اسفل جيبه من فعـل موس حلاقة حاد لم يترك المجال للشك ..

وشق احد رجال الامن طريقه الى داخل الحلقة ليطلع على ما حدث، وشرحت له ربيعة الوضع فحرك راسه ناعيا على الناس غباءهـم وقلـة احتراسهم على اموالهم فى مثل هذه الايام . وقادهما الى قسم الشرطة حيث ادخلهم على ضابط شاب ، ورفع له التحية وقال باقتضاب :

— سرقـــة اخـــرى ..

ونظر الضابط اليهما ، والمراة تحمل الطفلة الباكية وتحركها آليـا لاسكاتها ، وحرك هو الآخر راسه :

— ماذا سنفعل معكم ؟ لماذا لا تساعدوننا قليلا بشيء من الحذر؟ كيف سنعثر على فلوسكـم ؟

وامر الشرطي ان ياخذهما الى احد الكتبة ليكتب تقريرا بذلك ..

ودخل مبارك الى المكتب وجلس امام الكاتب فاخذ هذا يلقي عليه الاسئلة، ويكتب اجاباته على الآلة .

وجلست ربيعة على كرسي خشبي فى المدخل ، ومريم الصغيرة تبكي فى حجرها ، وهي تنتهرها :

— اسكتي . يا طالع الشؤم . لولا انك زوقت الفلوس بقلمك لما كانت ضاعت .

وتدخل الشرطي الكبير القاعد الى طاولة على باب القسم :

— لا تلومي الطفلة البريئة على اغلاطكم . انها لا تعرف شيئا .. فردت ربيعة :

— من يدري يا سيدي من اين ياتي سوء الطالع .. لماذا لم تسرق الفلوس من قبل .. لم تضع حتى زوقتها كلها بقلمها الاحمر ..

وكان الضابط الشاب يكتب فى مكتبه ، ويستمع الى حديث الشرطي مع ربيعة فجذب كلامها انتباهه ، فتوقف عن الكتابة ، وضغط الجرس بقدمه .

وقام الشرطي البواب ، فاطل عليه فقال له :

— جيء بالمراة ..

فعاد الشرطي الى ربيعة واشار لها ان تتبعه الى مكتب رئيس القسم .. فوقفت معتذرة عن بكاء الطفلة لمن حولها وللشرطي ، ودخلت على الضابط الشاب ، فسالها :

— قلت ان طفلتك هذه كتبت على الفلوس .

فارتبكت ربيعة قليلا لانها كانت سمعت ان الكتابة على الفلوس مخالفة للقانون فقالت معتذرة :

— انها طفلة صغيرة لا تعرف شيئا ـ وقد وجدت قلما ـ

فقاطعها الضابط :

— بـاي لـون ؟

— احمـــر ..

فقال لها وهو يخرج من درجة قلما احمر :

— مثـــل هــــذا ؟

— نعـــم .

فمده الى الصبية قائـــلا :

— خـــذي .. ما اسمـــك ؟

— اسمهـــا مريـــم ، يا سيـــدي .

— ضعيها على الارض . خذي القلم .

وتناولت مريم القلم بعد تردد .. واخرج الضابط محفظته واخرج منها ورقة خمسين درهما فناولها الطفلة امام استغراب امها والشرطـــي المســـن .

— خـــذي يا بنتي .. اكتبي على هذه .

فحاولت الام منع مريم من اخذ الورقة الماليـــة ، الا ان الضابـــط قـــال بحـــزم :

— دعيها .. دعيها تكتب عليها ما كتبته على الاوراق المسروقة .. اجلسيها على ذلك الكرسي الى تلك الطاولة .

وجلست الام والطفلة الى الطاولة ومريم تمسك بالقلم وتنظر حواليها الى الضابط الذي عاد الى اوراقه ، والى الشرطي الذي صرفه الضابـــط فولى ظهره خارجـــا ..

وبعد عدة دقائق كانت ربيعة تشجع فيها مريم على الكتابة ، وتمسك بيدها ، وتضع راس القلم على الورقة المالية ، قبلت مريم ان تبـــدا فى التخطيط والتزويـــق ..

ووقف الضابط حين سلمت ربيعة الورقة له ، فنظر اليها وسال :

— هذه نفس الرسوم التي وضعت على الاوراق المسروقة ؟

فحركـــت ربيعـــة راسهـــا :

— تقريبـــــا ..

فصرفهـــا براســـه :

— اذهبي الآن .. سنرى ما يمكن عمله .. ودعي الطفلة وشانها . وربت على خد مريم التي ابتسمت له والتصقت بساق امها .

وخرج مبارك من مكتب الشكاوي وغادر الثلاثة قسم الشرطـــة فى حال من النكد والقهر متوجهين نحو مسكنهم .

ولم تكد ربيعة تدخل الغرفة حتى ارتمت على سريرها باكية وزوجها ينظر اليها والى مريم التي لم تكن تدري ما يحدث ..

* * *

كان ضابط الشرطة رجلا نبيلا ، طيب القلب ، ذكيا .. فبمجرد ما غادر مبارك وعائلته القسم ارسل فى طلب اربعة من رجاله ، فاخبرهم بما حدث ، وعرض عليهم الورقة المالية ، وطلب منهم الوقوف على ابـــواب السوق الأربع والقبض على كل من يدخل او يخرج مـــن المشبوهيـــن واصحاب السوابق ، فاسرعوا الى تنفيذ الامر ..

وارسل فى طلب اربعة من رجال الشرطة السرية فارسلهم لتطويق سور السوق ، والقبض على جميع من يحاول القفز فوقه .

ولم تمض ساعة حتى بدات الافواج الاولـــى من لصــوص السوق والمتسكعين تصل الى القسم ، فيدخل كل واحد منهم على حــدة الى غرفة التحقيق حيث يؤمر بافراغ جيوبه ، ويسال عما اذا كان يعرف مــن سرق المائتين والخمسين درهما من الرجل الاعرج ، فكانوا كلهم ينكرون معرفة الفاعل ، فيرسلون الى غرفة الحجز التي كانت عبارة عن دهليـــز مظلم رطب بارد تحت الارض ، فيتركون هناك ..

وفى نهاية النهار ، حين فرغ السوق ، دخل عليهم الضابط الشاب، فاشعل مصباحا عاريا معلقا فى سقف الدهليز ووجه اليهم الكلام :

— سنعطيكم فرصة الخروج من هنا مرة اخرى ، وذلك بسؤالكم واحداً واحداً عن سارق فلوس الرجل الاعرج .. فاذا لم نتوصـــل الى معرفته فستقضون جميعا عيدكم هنا .

واشار الى مساعديه فبداوا يخرجون المقبوض عليهم واحداً واحدا وياخذونهم لغرفة التحقيق حتى جاء دور غلام صغير اخـــذ يرتعش مـــن الخوف فعرض الضابط عليه الورقة المالية وساله :

— هل رايت ورقـــة مثـــل هـــذه ..

فحملق الغلام فيها ، واضاف الضابط ـ انظر جيدا ـ ورقة مـــن فئة الخمسة آلاف سنتيم عليها رسوم بقلم احمر .

فامسك الغلام بها بيد مرتعشة وقال :

— نعــــــم ..

— عنـــــد مـــن ؟

— اخاف ان انا دللتكم عليه ان ينتقم مني بعد خروجه من الحبس.

فوضع الضابط يده على كتفه وقال مطمئنا :

ـــ لا تخف من هذه الناحية .. سوف نعيدك الى الدهليز كما لو انك رفضت التصريح لنا باسمه .. وسنخرجكم جميعا حتى لا يعــرف احــد من اخبرنــا ..

فقــال الغـــلام :

ـــ انـــه مـــرزوق ..

فسال الضابــط :

ـــ مــرزوق مــن ؟

فرد الغلام : لا ادري .. الجميع يناديه مرزوق ، ويكنيه البعــض بالملعوق او ولد السوق .

فــرد الضابــط :

ـــ مرزوق الملعوق . مرزوق ولد السوق .

فاحنــى الغــلام راسه :

ـــ نعم .. ولكن ارجوكم ان تستروني ! فهو شريــر وعنيــف ، وخصوصا حيــن يشرب .

ـــ ايــن يذهــب ليشرب ؟

ـــ فى الغابة على شاطــىء البحــر ..

ـــ من ايــن يشتــري الشراب ؟

ـــ من دكــان قريــب من هنــا ..

وارسل الضابط احد رجاله الى الدكان فعاد هذا بعد ربع ساعــة

بورقة من فئة الخمسين درهما وعليها رسوم دوائر ومربعات بقلم احمر .. فتناول الضابط الورقة وقلبها بين يديه ، وسال الرجل :

— ماذا اشتـــرى بهـــــا ؟

— زجاجتي شراب ، واخذ باقي الفلوس ..

وهنا طلب الضابط من اربعة من رجاله التوجـــه الى الغابــــه على الشاطىء دون احداث ضجة والقبض على جميع من يعثرون عليه هنالك من السكـــارى او المتسكعين .

* * *

وبات مبارك وزوجته ربيعة ليلة بيضاء يقلبان امر محنتهما على جميع وجوهه لعلهما يجدان لها حلا .. وكان مما يزيد فى حسرتهما رغاء الكباش وسط الدار ، وبقاء يوم واحد فقط على العيد ، الامر الذي يستحيل معه تدبير الحال باية طريقة ..

واصبح الصباح ، وخرج مبارك لعمله ، وذهبت ربيعة الى منزل احد التجار بالمدينة كانت تعمل عنده خادما قبل زواجها ، لعلها تلين قلبـــــه فيقرضها ثمن الكبش . وتركت طفلتها مريم مع جارة صديقة لها ..

وعادت فى المساء جائعة مرهقة يائسة خائبة الامل . وعلى بـــــاب الدار وجدت زوجها ، وقد عاد هو الآخر من عمله مبكرا مغموما ضيـــق الصدر ، فلم تجرؤ على سؤاله ، ولم يجرؤ على سؤالهـــا .. واكتفـــت بقولهــــا :

— ذهبت لارى دار الحاج فوجدتهم سافروا لقضاء العيد مع امه.

ودفعت ربيعة الباب ليدخل زوجها ، ودخلت خلفه ، لتفاجا بمنظر عجيب .. كان ضابط الشرطة الشاب يمسك بطفلتها مريم ويركبها فوق كبش سمين ابيض الوجه ، وهي تمسك بصوفه سعيدة وتضحك .

ووقفت فاغرة فمها امام المشهد .. فالتفت الضابط اليها وقال :

— هذا خروف مريم .. فهي التي سهلت لنا عمليـــة القبـــض علـــى اللـــص .

ورفعها من خصرها وسلمها لوالدتها ، قائلا :

— هذه فتاة سعيد الطالع !

وامتلأت اعين ربيعة ومبارك بالدموع ، وهم يحاولون شكر الضابط الشاب الذي احس هو الآخر بعينيه تغرورقان تأثرا لسعـــادة العائلـــة الفقيرة .. فاشار الى مساعديه ، وخرج الجميع تاركين وراءهـــم منزلا يرفرف عليـــه السعـــادة .

الربـــاط   احمد عبد السلام البقالي

الفيل الافريقي
ودوره في الحروب القديمة

د. فوزي مكاوي

اشترك الفيل فى الحروب منذ زمن بعيد فى الهند وغيرها من حضارات الشرق الاقصى ولكن لم تعرفه حضارات حوض البحر المتوسط قبل عصر الاسكندر الاكبر ، فقد التقى هذا القائد وجنوده بالفيل فى جيوش الهنود اثناء اندفاعه فى البنجاب عام 326 ق. م. (1) . ولعل هذا السلاح الجديد بامكانياته الهائلة كان احد اسباب تمرد جنود الاسكندر مما أدى به للعودة الى بابل . ويبدو ان دور الفيل فى الحرب كان دورا مؤثرا الى درجة حرص معها خلفاء الاسكندر على استخدام هذا السلاح الجديد فى جيوشهم (2) . فضم سليوكس الاكبر (Seleucus Nikator)

---

(1) انتصر الاسكندر الاكبر على الملك الهندي بوروس (Porus) فى معركة نهر هيداسبس Hydaspes احد روافد الاندوس سنة 326 ق. م. وكان جيش الملك الهندي يضم مائتي فيل ، انظر :
J. ALLAN, The Cambridge Shorter History of India, Delhe, 1964, pp. 19-21.

(2) انقسمت امبراطورية الاسكندر بين حرسه وقواد جيشه بعد وفاته فى بابل 323 ق. م. وكان اشهر هؤلاء القادة بطليموس بن لاجوس الذي حكم مصر ، وسليوكس الذي عرف بالاكبر وتولى امر الولايات الشرقية وبلاد ما بين النهرين وسوريا ، انتيجونس الذي حكم آسيا الصغرى وبرديكاس Perdiccas الذي تولى القيادة العامة لجيش الامبراطورية وكراتروس الذي عين وصيا على فيليب ارهدايوس اخ الاسكندر غير الشقيق ، للمزيد من التفصيلات انظر : ابراهيم نصحي ، مصر فى عهد البطالمة ، 3 اجزاء ، ط. 3 ، القاهرة 1975 .

عددا من الافيال الهندية المدربة الى جيشه ، ووصل به الامر الى التنازل عن اقاليم شاسعة شملت النصف الجنوبي من افغانستان وبلوخستان (3) للملك الهندي بوروس Porus في مقابل امداده بخمس مئات من الافيال (4) .

كان حصول سليكوس على هذا العدد الكبير من الافيال ايذانا ببداية عهد جديد شكل فيه الفيل السلاح البتار في ايدي الدول الهلينستية ، كما كان ايذانا بدخول الفيل الافريقي الى ميدان المعارك .

استخدم الفيل الافريقي في القتال منذ اوائل القرن الثالث ق. م. وبقي مستخدما حتى القرن السادس الميلادي . وكانت مصر اول البلاد التي استخدمت الفيل الافريقي لهذا الغرض خلال عصر البطالمة وشاركتها مروى في ذلك (5) ، ثم انتشر نطاق استخدامه غربا فعرفته قرطاج بعد مصر بسنوات وظل سلاحا هاما في جيشها حتى عام 202 ق. م. عندما اجبرتها روما على التخلي عن استخدام هذا السلاح في جيشها (6) ولكن استخدام الفيل الافريقي في الحرب انتقل ضمن العناصر الحضارية الاخرى من قرطاج الى الدول الوطنية التي قامت في شمال افريقيا في نوميديا وموريتانيا ، وظل الفيل يستخدم كسلاح في جيوش هذه الدول الى ان سقطت في ايدي الرومان خلال القرن الاول الميلادي .

---

(3) تنازل سليوكس للملك بوروس عن اقاليم باربانيسادى Parapanisadeo واريا Aria وارخوسيا Arachosia والجزء الشرقي من جدروسيا Gedrosia ، وهي تقابل في الوقت الحاضر النصف الجنوبي من بلوخستان والافغانستان ، انظر : J. ALLAN, op. cit. pp. 26-27

(4) J. ALLAN, Ibid. pp. 24-27

(5) تمثل مملكة مروى العصر الثاني من دولة كوش السودانية وقد بدا هذا العصر في اوائل القرن السادس قبل الميلاد واستمر الى القرن الرابع الميلادي وكانت منطقة سهل البطانة هي قلب المملكة . للمزيد من القراءة انظر : فوزي مكاوي ، مملكة مروى، رسالة ماجستير غير منشورة ، القاهرة ، 1971 .

(6) سوف اقصر اهتمامي هنا على دور الفيل الافريقي في المعارك التي اشترك فيها وللقارىء الذي يرغب في معرفة المزيد عن الصراع بين قرطاج وروما ان يقرا :
توفيق الطويل ، قصة الكفاح بين روما وقرطاج ، القاهرة د. ت. .
عبد اللطيف احمد علي ، روما ، الجزء الاول ، القاهرة ، د. ت.

استخدمت الفيل في القتال منطقة ثالثة في افريقيا هي مملكة اكسوم التي قامت في شمال شرق اثيوبيا (7) ، ورغم ان هناك احتمالا بأن هذه المملكة قد تعلمت استخدام الفيل في القتال من البطالمة او من المرويين . الا ان الاشارات التي وردت في المصادر عن افيال القتال الاكسومية تعود الى القرن السادس الميلادي . وقد امتد اثر استخدام الفيل الافريقي في القتال الى جنوب الجزيرة العربية من طريق اكسوم .

وفي الصفحات التالية اقدم دراسة عن القيمة الحربية لفيل القتال الافريقي من واقع نتائج المعارك التي اشترك فيها . ثم اتبعها بدراسة اكثر تفصيلا من تطور دور الفيل الافريقي في جيوش كل دولة من الدول التي استخدمته .

القيمة الحربية للفيل الافريقي

فشل الفيل الافريقي في اول مواجهة له مع الفيل الهندي في معركة رفح 217 ق. م. (8) وقد ذكر بوليبيوس Polybius (9) الذي قدم وصفا للمعركة ان الافيال الافريقية هربت من الميدان بعد ان خافت الافيال الهندية الاكبر حجما والاكثر ارتفاعا (10) . وقع المؤرخون في حيرة شديدة بسبب عبارة بوليبيوس الاخيرة اذ ان معلوماتهم عن الفيل

(7) عاشت مملكة اكسوم من القرن الاول الى القرن العاشر الميلادي وكانت فترة ازدهارها من القرن الثالث الى القرن السادس الميلاديين . للمزيد من القراءة انظر :
فوزي مكاوي ، مملكة اكسوم ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، القاهرة ، 1974 .

(8) وقعت هذه المعركة بين انتيوخس الثالث Antiochus III الملك السلوكي وبطليموس الرابع (فيلوباتر) ملك مصر وقد انهزم الملك المصري في البداية ولكنه انتصر عند استئناف القتال في العام التالي . ابراهيم نصحي ، دراسات في تاريخ مصر في عهد البطالمة ، القاهرة ، 1959 ص 85 ـ 87 .

(9) عاش بوليبيوس في روما في الفترة من 204 ق. م. الى 112 ق. م. وارخ للجمهورية الرومانية خاصة فترة ما بين الحربين البونية الثانية ومنتصف القرن الثاني قبل الميلاد

(10) قال بوليبيوس : « ... هربت اغلب افيال بطلميوس من المعركة ، كما هي عادة الافيال الافريقية ، لانها لم تستطع تحمل رائحة الافيال الهندية وهدير انفاسها . بالاضافة الى ذلك ، فانه يبدو لي ، انها ذعرت من حجمها الكبير وقوتها (الفائقة) لدرجة انها ولت الادبار قبل ان تقترب منها ، وهذا ما حدث في تلك المعركة ... »
Polybius. BK V. C. 84.

الافريقي في المناطق المدارية انه اكثر ارتفاعا عن الفيل الهندي ؛ وقد دفعت هذه الحقيقة كثيرا من المؤرخين الى تكذيب بوليبيوس وفضلوا ان يبحثوا عن اسباب اخرى للهزيمة غير صغر الحجم . (11) ولكن أحد الباحثين الانجليز ويدعى السير وليام جوورز Sir William Gowers نشر بحثا كشف فيه عن حقيقة وجود سلالتين من الافيال الافريقيه احداهما ضخمة الحجم عالية الارتفاع بالنسبة للافيال الهندية وتعرف باسم Loxodonta africana وتعيش هذه السلالة في المناطق الشجرية شمال وجنوب خط الاستواء ، اما النوع الآخر فهو اقل حجما من الافيال الهندية فاسمه العلمي Loxodonta Cyclotis وهو يعيش في الغابة كثيفة الاشجار ومع ذلك فان تحديد مناطق الاقامة ليس دقيقا فيمكن العثور على افيال من السلالة الثانية تعيش في المناطق الشجرية وهي مناطق اقامة السلالة الاولى (12) والطريف ان محاولات الانسان لترويض فيل المناطق الشجرية كبير الحجم اسفرت عن فشل ذريع اذ لم يستجب هذا الفيل لمحاولات الانسان في هذا المجال بينما استجاب النوع الآخر لجهود ترويضه .

والمرجع ان فيل الغابة الافريقية الاقل حجما كان اكثر انتشارا في

---

(11) قال بيفان Eclwyn Bevan في كتابه
Egypt under the Ptolemaic dynasty
« ... ان ملاحظة المؤلفين القدامى عن صغر حجم الفيل الافريقي بالنسبة للفيل الهندي ليست حقيقية ، فان الارتفاع المعتاد للفيل الهندي يتراوح من ثمانية الى عشرة اقدام بينما يصل الفيل الافريقي احيانا في ارتفاعه الى اثنى عشر قدما ... »
وقال تارن W.W. Tarn عالم العصر الهلينستي الشهير :
« ... ان قول بوليبيوس بان الهزيمة كانت بسبب صغر الافيال الافريقية وضعفها مقارنة بالافيال الهندية لا يعدو ان يكون تكرارا غبيا لما قاله وقد ظل المؤرخون ينقلون هذا الخطا واحدا عن الآخر لقرون حتى بعد ان عرف الفيل الافريقي بحجمه الحقيقي ... »
وقد كرر نفس القول مؤلفون آخرون مثل كاري M. Cary الاستاذ السابق بجامعة لندن
M. Cary, Polybius and a Literary commonplaces, **Classical quarterly**, 1926, vol. 47-No 188

(12) W. Gowers, African Elephants and Ancient Authors, **African Affairs**, London, 1948, pp. 173-180.

مناطق دراستنا خلال فترة الدراسة (13) وهو الامر الذي يتفق مع ما ذكره بوليبيوس ولعله هو الذي كون فصائل الافيال الحربية في جيوش الامم التي ندرسها .

وقد احتاجت الشعوب التي استخدمت الافيال في القتال الى خبرة طويلة لاصطياد الافيال ، ومع ذلك فان صيد الفيل كان مجرد بداية لمرحلة طويلة يتم خلالها ترويض الفيل وتدريبه على اطاعة الاوامر . وكل فيل يحتاج الى مدرب خاص يدربه ويتلقى منه الاوامر ، وبمرور الزمن يطمئن اليه (14) . ولكن المشكلة ان الفيل لا يطمئن لاحد غير مدربه فاذا مات هذا المدرب فقد تنتهي خدمة الفيل في الجيش اذ انه يرفض اية قيادة جديدة وربما اصبح خطرا على جيشه (15) . واهمية وجود المدرب في انه يعرف كل شيء عن حياة الفيل ويعايشه فمثلا يعلم أن من أخطر الامور الاقتراب من الفيل الذكر اثناء فترة التزاوج حيث يتبدل حاله ويصبح غير قابل لتلقي اية أوامر كما يصبح خطرا على كل من يقترب منه (16) .

ولنا ان نتصور حدوث مثل هذه الظروف اثناء المعركة او في غضون الاستعدادات (17) لها والمدرب يقوم على تنظيف جلد الفيل ويهيىء له

---

(13) تشير التقارير المختلفة الى ان الافيال كانت منتشرة في مناطق لا تعرفها الآن مثل شمال شرق السودان الذي اشارت اليه المصادر البطلمية وكذلك مملكة مروى التي اشارت اليها تقارير البعثة الاستطلاعية التي ارسلها نيرون الى هناك ، ويدل على هذا ايضا السهولة التي كان القرطاجيون يحصلون بها على مئات الافيال من مناطق اصبحت الآن الصحراء الكبرى في شمال افريقيا . انظر : فوزي مكاوي ، مملكة مروى ، المرجع السابق وايضا :
H.H. Scullard, Hannibal's Elephant, **Numismatic Chronicle** 6 th séries, London, 1948, p. 166.

(14) كان اشهر مدربي الافيال من الهنود ، وعندما اراد بطليموس الثاني تدريب الافيال الافريقية استعان بالمدربين الهنود وفعل القرطاجيون نفس الشيء حتى كان لفظ هندي يطلق على مدرب الافيال ايا كانت جنسيته H.H. Scullard, Ibid, p. 161

(15) كان موت المدربين سببا في نفوق كثير من الافيال القرطاجية ، انظر نفس الدراسة ، الفيل الافريقي في جيوش قرطاج ونوميديا وموريتانيا .

(16) ومن الغريب أن هذه الظاهرة ينفرد بها الفيل على عكس كثير من الحيوانات الاخرى
Thompson, The Battle Elephant, MA. Belfast University, 1969 pp. 7-8.

(17) اضطر هسدروبال Hasdrubal اخي هانيبال Hannibal الى اصدار اوامره بقتل عدد من افياله عندما قتل قادتها في معركة ميتاوروس Metawrus خوفا من خطرها على جيشه ، انظر الدراسة الخاصة بالافيال في جيش القرطاجيين .

الاستحمام مرة أو اثنتين يوميا كما يقدم له الطعام في مواعيده ، والفيل يحتاج الى حوالي 600 رطلا من الحشائش الخضراء لطعامه يوميا وقـد قدرها ثمبسون الدارس الانجليزي بما يقرب من حشائش ميلين مربعين في اليوم الواحد ، ومن الضروري أن يرعى الفيل بنفسه لمدة ثمانية ساعات يوميا على الاقل حتى يبقى في صحة جيدة وذلك لان الفيل في حياته البرية يقوم بالرعي لمدة ثمان عشرة ساعة كل أربع وعشرين ساعة . ويرى هذا الباحث ان الفيل يحتاج الى جهد اثنين من العمال ويظلتين طول اليوم لجمع الاعشاب اللازمة لاطعامه (18) . وهكذا يمكن ان نقول ان جيشا يضم مائتي فيل يحتاج الى مصاحبة مجموعة من أربعمائة رجل للاطعام يستخدمون مثل عددهم من البغال فاذا أضفنا الى احتياجات الفيل من الغذاء احتياجاته من المياه وقد قدرها هذا الدارس بثمانية واربعين جالونا من الماء لكل فيل وهذا يعني ان مائتي فيل تحتاج الى ما يقرب من عشرة آلاف جالون من الماء يوميا وبالطبع هذا يستدعي تدبير المزيد من حيوانات الحمل والحمالين . واذا كان امداد الافيال بالطعام والشراب مشكلة في فترات الاستقرار فما بال الامر اثناء التحـرك الى ميدان معركة ما (19) .

يتضح مما سبق ان الفيل حيوان غالي التكاليف يحتاج الى عناية خاصة ولا بد ان قيمته في الجيش كانت تساوي كل هذه النفقات والمتاعب، ولعل مما يؤكد ذلك حرص القرطاجيين على استخدام الفيل وباعداد متزايدة في جيشهم لمدة طويلة وكذلك اصرار الرومان على حرمان القرطاجيين من صيد وترويض وتدريب أو امتلاك اية أفيال بعد هزيمتهم في زاما عام 202 ق. م. (20) .

ظل الفيل طوال الفترة التي استخدم فيها في الجيوش محور صراع بين ارادتين : ارادة اصحابه الذين كانوا يريدون استغلال قوته الى اقصى

(18) Tompson, Ibid, Appendix "B" pp. 170-174.
(19) Thompson, Ibid, pp. 13-16
(20) Polybius XVIII. 6.

الحدود بما يحقق لهم التفوق والنصر وارادة اعدائهم الذين كانوا يحاولون ان يستغلوا نقاط الضعف في الفيل لكي يصلوا الى ماربهم بالقضاء عليه فان عز عليهم ذلك حاولوا تجنب اذاه على اقل تقدير .

اما اصحاب الفيل فقد اعتادوا وضع الافيال في مقدمة الجيوش لكي تبث الذعر والفوضى في صفوف الاعداء خاصة المشاة الذين كانوا يولون الادبار او يواجهون الموت تحت اقدام هذه الحيوانات الضخمة ، وكانت اسلحة الجيش الاخرى تأخذ مكانها خلف الافيال فان استطاعت استغلال نتائج المفاجاة التي حققتها الافيال كان النصر حليفها ، اما اذا فشلت في ذلك ضاع اثر ما حققته الافيال من نتائج (21) ، وقد حاول قادة هـــذه الجيوش من وقت لآخر ان يجدوا امكانيات جديدة في الافيال ، فاستخدمها هملكار برقـــه Hamilcar Barca (22) في خداع اعدائه في معركه نهـــر مجردة Bagradas ضد الجنود المتمردين 240 ق. م. عندما امر فرقة الافيال بالتقدم ثم بالتظاهر بالانسحاب امام الاعداء مما اغرى هؤلاء الاعداء بالاندفاع وراء الافيال المتظاهرة بالهرب وتمت مهاجمة العدو المتقدم بغتة بفرق المشاة ثقيلة العدة كانت مختبئة عن عيونهم (23) .

---

(21) كل معارك الافيال اكدت هذه الخطة ولكن نتائج المعارك اختلفت حسب توفيق بقية اسلحة الجيش في استغلال النتائج التي حققتها الافيال ولعل معركة القرطاجيين ضد رجولوس (Reglus) الروماني في عام 255 ق. م. خير مثال على هذه الخطــة في حالة نجاحها ، ومعركة كابوا Capua التي قاد فيها هانيبال جنوده وافياله ضد الرومان مثل جيد لهذه الخطة في حالة فشلها .
انظـــر التفاصيل في نفس الدراسة .

(22) هملكار برقة قائد قرطاجي استطاع ان يعيد مجد قرطاج بعد هزيمتها امام روما في الحرب البونية الاولى 264 ــ 241 ق. م. وكانت قرطاج قد فقدت مستعمراتها البحرية بسبب هذه الحرب كما دفعت غرامة حربية كبيرة . ولكن هملكار برقة اقام امبراطورية قرطاجية في اسبانيا ادت الى رخاء قرطاج في فترة وجيزة . انظر :
جوليان ، شارل اندري ، تاريخ افريقيا الشمالية ، تونس ، 1969 ص ص 99 ــ 101

(23) كانت قرطاج تعتمد على جنود نوميديين وموريتانيين وليبيين وقد عجزت عن دفــع استحقاقاتهم عندما بعد هزيمتها في الحرب البونية الاولى مما ادى الى ثورتهـــم ، وامتدت الثورة الى مناطق متعددة وانضم اليها كثير من الوطنيين ودامت من عـــام 241 الى 237 ق. م. عندما استطاع هملكار برقة القضاء عليها . لمزيد من التفاصيل انظر : واحدي علي ، افريقيا الشمالية عند بوليبيوس ، بحث لنيل شهادة الليسانس من قسم التاريخ عام 1978 باشراف الدكتور فوزي مكاوي ص ص 62 ــ 85 .

كما استطاع هانيبال ان ينظم هجوما ليليا بالافيال على معسكر الرومان في كابوا مما ادى الى نجاح وقتي لخطته (24) .

اما اعداء الجيوش التي تستخدم الافيال فقد اعتمدوا في مواجهتهم للافيال الى محاولة التعرف على نقاط الضعف فيها واستغلالها ـ كما سبق أن ذكرت ـ ولكن استغرق هذا الامر زمنا ظلت فيه الافيال شيئا مرعبا و يكفي ظهورها لكي تنتاب جيوش الاعداء حالة من الفوضى الجماعية . لقد واجه الرومان (25) هذه الافيال في البداية بصفوف متراصة من الجنود المشاة وكان تصور رجولوس عندما قرر ذلك ان هذه الصفوف يمكنها أن تكون حاجزا امام تقدم الافيال ، ولكن النتيجة كانت كارثة على الجيش الروماني اذ تحول الجنود بعد لحظات من مواجهتهم للافيال الى واحد من اثنين اما جثة مشوهة تحت اقدام فيل واما هارب لا يلوي على شيء (26) وقد وقع الرومان في نفس الخطا مرة اخرى في معركة ترابيا Trabia سنة 217 ق. م. (27) .

ولذلك بدأ الرومان يجربون الوسائل المختلفة لمقاومة هذا السلاح الرهيب ، وكان نجاحهم الاول عندما اكتشفوا ان الافيال تفزع من النار ، فعندما هاجمتهم افيال هانيبال في كابوا ساد الفزع والاضطراب لفترة تمالكوا انفسهم بعدها وبدأوا يقاومون الافيال بما في ايديهم من وسائل وكان من بين هذه الوسائل المشاعل وقد اكتشفوا ان الافيال تتأثر بشدة من النار وتحاول الهرب منها فزادوها نارا وكانت النتيجة انسحاب افيال هانيبال في حالة سيئة من الاعياء وشدة الاصابات .

---

(24) ذكرت تفاصيل المعركة في مكان آخر من هذا البحث .

(25) كان الرومان هم اهم الاعداء الذين واجهوا الفيل الافريقي وطوروا اساليبهم باستمرار لمواجهة خطره .

(26) انظر دراسة المعركة في نفس البحث .

(27) تعتبر معركة ترابيا Trabia اول معارك هانيبال على الارض الايطالية وقد وقعت على ضفاف نهر Trabia احد روافد البو Po وكان الجيش الروماني بقيادة القنصل سميرونيوس . وقد نجح هانيبال في الايقاع بالجيش الروماني والانتصار عليه.

كما نجح الرومان فى اكتشاف وسيلة اخرى لمقاومة الافيال اذ كونوا فى عام 209 ق. م. صفوفا من الجنود تطلق السهام تجاه الفيل فى وقت واحد فتصيبه بأكبر عدد ممكـــن من الاصابـــات (28) ، وقــد طـــور سكيبيو الافريقي Scipio Africanus (29) هذا الاسلوب فى معركة زاما فعين مساعدا لكل جندي من هؤلاء الرماة مهمته امداده السريـــع بالذخيرة حتى لا يتوقف عن الضرب على الافيال .

تعلم الرومان أيضا ان يهاجموا الافيال قبل ان تستريح من عنـــاء السفر الى مكان المعركة وكان هذا يؤثر على قوتها وكفاءتها بل ومـــدى استجابتها لاوامر مدربيها مثلما حدث فى معركة ميتاورس عام 207 ق. م. فقد دخل الرومان المعركة ضد جيش هسدروبال دون أن يمنحوه فرصة للراحة بعد عبوره جبال الالب واضطر القائد القرطاجي ــ بسبب نجاح هذا (التكتيك) ــ الى ان يأمر بنفسه بقتل عدد كبير من افياله حتى لا تصيب جيشه بالاذى .

وكانت آخر الابتكارات فى ميدان مقاومة الافيال ما لجأ اليه سكيبيو الافريقي من فتح ممرات بين صفوف جيشه لكي تسمح للافيال المعادية بالاستمرار فى اندفاعها اماما دون أن تقتل جنوده تحت أقدامها فتقلل بذلك عدد الخسائر بين جنوده ، كما اكتشف حساسية منطقة ما تحت الذبـــل عند الفيل للاصابات فأوصى جنوده بالتركيز على اصابة هذه المناطـــق ونجحت خطتـــه (30) .

ورغم أن تقارير الرومان عن نجاحهم فى مقاومة الافيال تشير الى انهم استطاعوا تقليل اهمية هذا السلاح ولكن الواضح ان فصائل الفيـــل

---

(28) كان صاحب هذا التطوير هو القنصل الروماني ماركيللوس Marcellus

(92) سكيبيو افريكانوس هو كورنيليوس بن بيبليوس سكيبيو قنصل عام 217 ق. م. وقد لقب بالافريقي بعد ان حقق النصر النهائي لروما على قرطاج خلال الحرب البونيـة الثانية فى عام 202 ق. م. وفرض على قرطاج شروط معاهـدة استـــلام اضطر هانيبـــال لقبولهـــا .

(30) راجع ما ذكرته عن معركة زاما فى هذا البحث .

الافريقي ظلت تسبب لهم الرعب حتى انهم اشترطوا على قرطاج في معاهدة استسلامها عام 201 ق. م. أن تسلم ما لديها من افيال فارسلوا جزءا منها الى روما واعطوا الباقي هدية لصديقهم مسينسا (31) ، كما فرضوا على قرطاج في نفس المعاهدة الا تحصل على فيل جديد ابدا ، وظلوا يراقبون تنفيذ هذا الشرط بدقة وصرامة حتى ابادتهم لقرطاج عام 146 ق. م.

1- الفيل الافريقي في جيوش مصر ومروى (32)

ان الصداقة التي جمعت سليوكس وبطليموس الاول ضد المنادين بفكرة احياء الامبراطورية المقدونية لم تستمر طويلا ، واصطدمت بواقع اطماع كل من الرجلين في الاستئثار بجوف سوريا ، وقد كان نجاح بطليموس الاول هو بداية المواجهة بين الاسرتين مما ادى الى معارك عسكرية دامية خلال كل جيل من اجيال الحكام تقريبا (33) .

---

(31) مسينسا : ملك نوميديا خلال النصف الاول من القرن الثاني ، وقد حارب هذا الرجل في شبابه الى جانب القرطاجيين في اسبانيا ولكنهم خذلوه في الصراع الذي دار حول احقيته اعتلاء عرش بلاده فلاذوم والى كثيرا من البطولات لم انضم للرومان ضد قرطاج خلال المرحلة الاخيرة من الحرب البونية الثانية ، وكان صاحب الفضل كبيرة على روما خلال هذه الحرب وقد بقي على صداقته لروما بعد الحرب . وقد قام خلال فترة حكمه المديدة بكثير من الاعمال العمرانية العظيمة ويرى بوليبيوس الذي كان مفتونا به انه ابو النهضة في كل مجال في نوميديا .
راجع : فوزي مكاوي ، القوى الوطنية في شمال افريقيا في مواجهة قرطاج وروما ، المناهل - العدد 12 ، الرباط 1978 ص ص 257 - 305 .

(32) كانت مدينة مروى بين الشلالين الخامس والسادس هي عاصمة مملكة كوش خلال الجزء الثاني من حياتها ويؤرخ هذا الجزء ما بين 591 ق. م. و 340 م بينما كانت نبتا التي تقع عند الشلال الرابع هي عاصمة الفترة الاولى التي امتدت من القرن الثامن الى القرن السادس ق. م.
للمزيد من التفاصيل راجع :
فوزي مكاوي ، مملكة مروى ، رسالة ماجستير غير منشورة ، القاهرة 1971 .

(33) جوف سوريا ، كان التعبير الذي اطلق على المنطقة التي تشمل فلسطين والساحل الفينيقي وجزء من جنوب سوريا .
لمعرفة تفاصيل الصراع بين البطالمة والسلوكيين انظر :
ابراهيم نصحي ، مصر في عهد البطالمة ، المرجع السابق .

راى بطليموس الاول ان استقراره فى مصر وتحقيق اهدافـــه فى اقامة امبراطورية بطلمية يقتضي انشاء جيش قوي واقتصاد متين . وقد لجا بطليموس الى افضل ما فى العصر من امكانات لانشاء جيشه فاستقدم الجنود المقدونيين واليونانيين ومنحهم الامتيازات المتعددة ، كما سعى لتامين حاجته من الاخشاب اللازمة لبناء الاسطول ولا يعقل انه اهمل سلاح الفيل الذي كان ميزة فى ايدي منافسيه مثل برديكـــاس وسليـــوكس ، والمشكلة التي واجهت بطليوس الاول فى تكوين فصائل افيال الحـــرب كانت بلا شك عدم قدرته على الحصول على الافيال الهندية نظرا لوقوع مصادر هذا السلاح الرهيب فى ايدي اعدائه واصدقائهم الهنود . ولذلك اضطر بطليموس الاول الى الاعتماد على المتاح من الاسلحة التقليدية ، على ان هذا القصور لم يمنع بطليموس الاول من الاستيلاء على بعض الافيال الهندية من اعدائه عقب انتصاراته عليهم ، ففي سنة 321 ق. م. تعرضت مصر لهجوم برديكاس ولكن « ... تم القضاء على هجومه بل وانتهت محاولاته التالية للتقدم عبر النيل الى كارثة عليه ... » (34) وكان جيش برديكاس يضم عددا من أفيال الحرب الهندية استخدمها لكسر حدة تيار المياه عند عبور النهر . ومن المؤكد ان بطليموس الاول قد استولى على بعض افيال برديكاس عقب هزيمته له فى ميدان المعركة بل وربما حصل ايضا على بعض الافيال الاخرى الباقية فى صفوف جيشه بمقتضى شروط الصلح التي املاها على العدو المنهزم (35) .

اضاف بطليموس الاول الى رصيد جيشه عددا جديدا من افيال الحرب الهنديـــة بعد انتصـــاره فى سنـــة 312 ق. م. على جـــيش ديميتريـــوس Demetrius (36) فى فلسطين وكان هـــذا الجيش يضم ثلاثة واربعين فيلا (37) .

(34) Diodorus, XVIII, 33-36

(35) W. Gowers and H.H. Scullard, Hannibal's Eephants again, **Numismatic Chronicale 6 th services**, 10, London, 1950, p. 272.

(36) ديمتريوس بن انتيجونس وكان قائدا لجيش ابيه فى سوريا . نجح هذا الرجل فى طرد سليوكس من ولايته عام 316 ق. م. فلجا الى مصر . وقد هزمه بطليموس الاول فى معركة بفلسطين قرب غزة 312 ق. م. وقد لعبت الافيال دورا هاما فى المعركة لصالح ديميتريوس ولكن عندما نجح بطليموس الاول فى تحييد هذه الافيال رجحت كفته وهزم دميتريوس

(37) Diodows XIX, 83-84

ومن المحتمل ايضا ان الاتفاقات التي اعقبت معركة ابسوس Ipsos في عام 301 ق. م. قد ادت الى حصول بطليموس الاول على عدد آخر من الافيال التي كانت في جيش انتيجونس Antigonus (38) .

الا ان تطوير سلاح الفيل ودعم دوره في الجيش المصري كان صعبا في ظل الظروف القائمة ، فمواطن الافيال الهندية ومناطق تدريبها بعيدة في شرق آسيا ولا بد للوصول اليها من عبور اراضي سليوكس المعادية ، وزاد الامر سوءا بازدياد القطيعة السياسية بين مصر تحت حكم البطالمة وسوريا السليوكية وقد دعى هذا الوضع الجديد الملك بطليموس الثاني الذي تولى العرش في 284 ق. م. الى التفكير في الحصول على هذا السلاح الرهيب من مصادر اخرى بعيدة عن سيطرة اعدائه ، ووجد ضالته في مناطق السودان وشرق افريقيا . ولكن مشروع بطليموس بالاستغناء عن الافيال الهندية كان مغامرة كبيرة فبعد ان كان يحصل على الافيال الهندية مدربة وقادرة على القتال ، اصبح عليه ان يخطط لكل شيء يتصل بهذه الافيال ابتداء من صيدها ومرورا بترويضها وتدريبها وأخيرا رعايتها كقوة للجيش المصري .

نجح بطليموس الثاني في أن يستعرض في احد الاحتفالات التي تمت في الاسكندرية في الفترة من 279 – 270 ق. م. اربعا وعشرين عربة تجرها الافيال وهذا يعني بلا شك انه كان يملك ما لا يقل من مثل هذا العدد

---

(39) عقد بطليموس الاول في عام 315 ق. م. محالفة مع كل من سليوكس وكاسندروس Cassardras – حاكم مقدونيا وبلاد الاغريق – وليسيماخوس Lysimachus حاكم تراقيا ضد انتيجونس الذي هدد باطماعه سلامة الولاة الآخرين وقد ادت هذه المحالفة الى طرد جيش انتيجونس من سوريا بعد هزيمة ابنه ديمتريوس قرب غزة 312 ق. م. ثم جدد الحلفاء حلفهم ضد انتيجونس في عام 302 ق. م. وادت المحالفة الجديدة الى القضاء على انتيجونس في موقعة ابسوس Ipsos 301 ق. م. ابراهيم نصحي ، دراسات في تاريخ مصر في عهد البطالمة ، المرجع السابق ص ص 328 – 129 .

من الافيال اذا افترضنا ان كل عربة يجرها فيل واحد اما اذا زاد عـــدد الافيال التي تجر العربة الواحدة فالعدد يتضاعف (39) .

ويذكر المؤرخون القدماء ان بطليموس الثاني ارســـل حمـــلات استكشافية قامت بعملها على الشاطىء الغربي للبحر الاحمـــر وانشات مراكز لصيد الافيال (40) وكانت هذه الافيال تنقل الى برنيكي Berenike (41) ومن هناك كانت تسير حتى وادي النيل ثم تسير بحذاء النيل حتى الاسكندريـــة .

ويضيف المؤرخون ان بطليموس الثاني قد نظم عملية تدريب الافيال في مصر وبعد ذلك كان يضمها الى قواته .

ويجب ان نتوقف امام هذه الروايات التي ترفض الاعتراف بـــدور الوطنيين الكوشيين (المرويين) في تدريب هذه الافيال كما تنسب كل عمليات الصيد لجنود بطليموس الثاني ، اذ ان هذا الراي يحتاج لاعـــادة النظر فيه على ضوء الادلة الاثرية المتاحة ففي المصورات الصفراء (43) ــ

---

(39) كان ذلك في احتفال يمثل عودة ديونيسيوس Dionysius من الهند وتاريخ اقامة هـذا الاحتفـال غيـر مؤكـد وان كـان يقـع في الفتـرة مـن 279 ــ 278 ق. م. و 271 ــ 270 ق. م. راجع :
W. Gowers and H.H. scullard, op. cit. p. 274.

(40) انشا البطالمة عددا من مراكز صيد الفيلة على الساحل الغربي للبحر الاحمر مثـل سوتيراس ليمن Soteiras Limen وبطوليميس ثيرون Ptolemais theron وغيرهما ، وقد كانت هذه المراكز مقصد ما يوفده البطالمة من حملات لاصطياد الفيلة وغيرها من انواع الحيوانات النادرة .
ابراهيم نصحي ، دراسات في تاريخ مصر في عهـــد البطالمـــة ، المرجع السابق ص ص 123 ــ 124 .

(41) Berenike تقع هذه المدينة على البحر الاحمر على خط عرض اسوان تقريبـا وتعرف في الوقت الحاضر باسم برنيس .

(42) Thompson, op. cit. p. 88.

(43) تقع المصورات الصفراء في سهل البطانة الذي كان مركز الحضارة الكوشية في العصر المروي زارها في القرن التاسع عشر كل من لينان دي بلفون وهوسكنس وقد كتب الاخير عن اثارها بانها :
« ... المجهودات المعمارية الاخيرة لشعب ذهبت عظمته وفسد ذوقه ... » ولكن اثبتت الحفائر الاثرية الاخيرة التي قام بها الالمان بقيادة هنتزا Hintze انها تضـم العديد من الاثار المعمارية والفنية الرائعة
Hintze, F., Alte Kulturen in Sudan (Munchen, 1976).

التي لا تبعد عن نهر النيل بأكثر من مسيرة يوم واحد ـ تقوم العديد من المباني المتصلة بتدريب الافيال وهي المباني التي يطلق عليها المجموعة المعقدة نظرا لكثرة ردهاتها وصالاتها المتداخلة (44) وفى هذا الموقـــع الاثري الفريد نشاهد حائطا كاملا على شكل فيل (45) نشاهد أيضا رسما نادرا لملك مروى راكبا فيلا وهو يلبس تاج مصر التقليدي (46) ويضاف الى ذلك : المنظر الفريد الذي يؤكد ان المرويين لم يقوموا فقط بتدريب الافيال الافريقية ولكنهم أيضا استخدموها فى الحرب ، ويصور هذا المنظر بالرسم البارز صفا من أفيال القتال المسرجة تقبض بخراطيمهـــا على عـــدد من الاسرى (47) .

ان هذه المناظر تميط اللثام عن دور الكوشيين خلال العصر المروي فى ترويض الفيل واستخدامه فى الحروب وهو الدور الذي أنكره عليهم كثيرون من الكتاب القدامى والمحدثين .

وعلى هذا يمكننا أن نتصور ان بعثات بطليموس الثاني لم تقصـــر جهودها على الساحل بل توغلت فى الداخل الى المملكة الكوشية المتحضرة فى عاصمتها مروى ، وهناك وجدت هذه البعثات التجاوب الذي ساعدها على اتمام اتفاق لتوريد الافيال المدربة الى بطوليميس اذ كـــان طريـــق النهر مستبعدا لفقدان الامن فى المنطقة الممتدة من النوبـــة العليـــا الى جزيرة فيلة . وقد تسلمت مصر هذه الافيال المدربة لاستخدامهـــا فى أغراض القتال ولعل مما يدعم هذا الرأي اننا لم نسمع عن مشاكل تعرض لها من قاموا بنقل الافيال وقيادتها عبر الطريق الطويل بالبحر ثم بالبر من السودان الى الاسكندرية ، ولو كانت هذه الافيال غير مدربة لصعبـــت السيطرة عليهـــا .

---

(44) فـوزي مكـاوي ، مملكة مروى ، المرجع السابق ص ص 201 ـ 203 .
(45) انظـــر اللوحـــة فوزي مكاوي ، نفس المرجع .
(46) انظـــر اللوحـــة فوزي مكاوي ، نفس المرجع .
(47) انظـــر اللوحـــة فوزي مكاوي ، نفس المرجع .

استمرت هذه المراكز فى اداء دورها خلال القرن الثالث قبل الميلاد ، وقد اهتم بطليموس الثالـــث (يوارجتيس الاول Eurgetes I) 248 — 221 ق. م. بتدعيم فصائل الافيال الحربية فى جيشه واعتمد فى ذلك بصورة رئيسية على امدادات الافيال الافريقية ، كما سعـــى ايضـــا للحصول على عدد من الافيال الهندية مستغلا انتصاره خـــلال الحـــرب السورية الثالثة (246 — 241 ق. م.) (48) سواء من جيوش السلوكيين المهزومة او من بلاد الهنـــد .

بقيت مراكز صيد وتدريب الافيال فى مصورات الصفراء وغيرهـــا تقوم بعملها خلال عصر بطليموس الرابع (Philopater) ، وامـــدت الجيش المصري بعدد من الفيلة ساهمت فى معركة رفح فى عام 217 ق.م. ضم الجيش المصري فى تلك المعركة ثلاثة وسبعين فيلا فى مقابل اثنين ومائة من الافيال الهندية فى جيش انتيوخس الثالث (49) ويذكر بوليبيوس:

« ... تجرات بعض أفيال بطليموس على الاقتراب من افيال العدو ، وقد حارب جنود القلاع المقامة على ظهور هذه الحيوانات بصورة مجيدة ،

---

(48) قامت هذه الحرب السورية الثالثة بين ورثة انتيوخس الثاني ملك سوريا السلوكية فى 246 ق. م. وقد تدخل فيها بطليموس الثالث الى صف اخته برنيكي وابنها ضد الزوجة الاولى لانتيوخس وتسمى لاوديكى Laodice . استطاع بطليموس خلال هذه الحرب ان يوسع أملاكه حتى بلغت أوج اتساعها ، وقد ترك نصا نقله كوزماس فى القرن السادس من عدول ذكر فيه انه سيطر على جيوش المناطق الشرقية حتى نهر الفرات كما سيطر على الافيال الهندية .
ابراهيم نصحي ، مصر فى عهد البطالمة جـ 1 ص ص 65 — 66 .

(39) تعتبر معركة رفح احدى معارك الحرب السورية الرابعة التي بدأت عام 221 ق. م. فى أواخر حياة بطليموس الثالث . وكانت هذه الحرب قد توقفت بعض الوقت عقب هزيمة السلوكيين فى أولى معاركها . وانشغل الملك السليوكي بامور بلده . ولكن اعتلاء بطليموس الرابع لعرش مصر وكان شابا ماجنا وانهماك وزيره سوسيبيوس فى تدعيم مركزه اغريا الملك السليوكي بالتقدم فى اتجاه مصر فى ربيع عام 219 ق. م. ولكنه لم يتم زحفه بل وافق على هدنة لمدة اربعة أشهر على ان يتم تسوية الخلافات بين البلدين بطريق المفاوضات . ثم بدأ الوزير البطلمي المفاوضات واطال فى مراحلها حتى استطاع ان يتدبر الامر ويكون جيشا ويعده واضطر امام الحاح الظروف ان يجند ويسلح عشرين آلفا من الفلاحين المصريين كان لهم النصر النهائي فى معركة رفح 217 لمزيد من التفاصيـــل راجـــع :
ابراهيم نصحي ، دراسات فى تاريخ مصر فى عهد البطالمـة ، المرجـع السابـق ص ص 135 — 147 .

كما حاربت الافيال نفسها ... ولكن معظم افيال بطليموس ضعفت امـــام الصراع ، كما هي عادة الافيال الافريقية ... » (50) .

وبوليبيوس هنا وان كان يحجب الاستمرار فى الصراع عـــن كثرة الافيال ، فانه يشير الى القتال الباسل الذي ادته الاقلية ، ويضيـــف ان انتيوخس فقد فى هذه المعركة خمسة افيال فقط بينما فقد بطليموس كل افياله بعد مقتل ستة عشر فيلا واستيلاء الجيش السليوكي على البقية الباقيـــة .

ولكن هذا التقرير يبدو بعيدا عن الواقع فالبرغم من هزيمة بطليموس فى اللقاء الاول فى ربيع عام 218 ق. م. الا ان لقاء العام التالي الذي تم يوم 22 يونيه 217 فى رفح قاده الى النصر الحاسم بفضـــل جنـــوده المصريين وقد استرد بطليموس الرابع على اثر النصر كل جوف سوريا . ولا نتصور ان انتيوخس كان قادرا على ان يستولى على افيال بطليموس فضلا عن افياله هو نفسه فى اثناء انسحابه بعد الهزيمة .

ولا بد ان بطليموس ــ وليس انتيوخس ــ هو الذي استولـــى على الافيال الباقية على قيد الحياة ، ويرجع هذا الراي ما عرف من ان انتيخوس قد ذهب الى باكتريا Bactrial والهنـــد India بعد معركة رفح بعدة سنوات لكن يحصل على امدادات جديدة من الافيال لجيشه (51) .

كانت معركة رفح هذه هي آخر المعارك الكبرى التي اشترك فيهـــا الفيل الافريقي فى تاريخ مصر الحربي فى عصر البطالمة ، فقد عانـــت الحكومة كثيرا من الثورات الداخلية والنزعات بين أمراء البيت المالك مما ادى الى ضعفها ، ثم اصبحت املاك الاسرة البطلمية وليمة شهيـــة على مائدة القوى الفتية المتطلعة الى التهامها مثل انتيوخس الثالث فى سوريا

---

(50) Polyblus, V. 84.

(51) W. Gowers and H.H. scullard, op. cit. p. 277.

وفيليب الخامس في مقدونيا فضلا عن الجمهورية الرومانية (52) وبالطبع تدهور الاهتمام بفصائل الافيال الحربية كنتيجة للانهيار العام الذي أصاب مرافق الدولة حتى اندثرت كعنصر مؤثر في الجيش المصري ولم نعد نسمع شيئا عن هذا السلاح منذ عهد بطليموس الخامس .

أما مصير مراكز صيد وتدريب الافيال في مملكة كوش المروية فيبدو انها عانت من التدهور الذي أصاب مصر وهي التي بنت رخاءها خلال الاجيال الماضية على ما تدفعه مصر نظير الحصول على الافيال ، ولكنني استبعد اندثار هذه المراكز بنفس سرعة اختفاء الفيل الافريقي من الجيش المصري ، اذ ان هذه المراكز كانت تمد الجيش الوطني باحتياجاته من أفيال القتال (53) بالاضافة الى ما تصدره الى الخارج .

الفيل الافريقي في جيوش قرطاج ونوميديا وموريتانيا (54)

تأكد اشتراك الفيل في الجيش القرطاجي لاول مرة في عام 262 ق. م. اثناء صراعها من أجل السيطرة على جزيرة صقلية ، ففي

(52) عندما توفي بطليموس الرابع وآل حكم مصر الى بطليموس الخامس وكان طفلا عقد انتيوخس الثالث غريم مصر ، وفيليب الخامس ، حليفها ، اتفاقية سرية لاقتسام ممتلكات مصر الخارجية ، وازاء هذه الاخطار استنجدت مصر بروما . وقد استغلت الاخيرة الموقف وزادت من تدخلها في شؤون مصر حتى صار تعيين الحكام البطالمة وعزلهم رهن باشارة روما .
راجع : ابراهيم نصحي ، تاريخ مصر في عهد البطالمة جـ 1 ص ص 91 ـ 92 .

(53) لم تذكر المصادر الادبية شيئا عن اشتراك الافيال في حروب مملكة كوش المروية ولكن الرسم البارز على جدران مصورات الصفراء لايدع مجالا للشك في وجود هذا الدور للافيال . راجع اللوحة فوزي مكاوي ، مملكة مروى ، المرجع السابق .

(54) تقع قرطاج في شمال تونس الحالية ، وهي مستوطنة انشأها مواطنو صور خلال القرن التاسع ق. م. وأصبحت خلال القرن الرابع ق. م. أقوى الدول البحرية في غرب البحر المتوسط سيطرت على شواطىء تلك المنطقة ومدت نفوذها الى أراضي نوميديا وموريتانيا (الجزائر والمغرب) واسبانيا ونافست روما وكادت تقضي عليها خلال الحرب البونية الثانية ، ولكنها سقطت في النهاية تحت اقدام روما في عام 202 ق. م. وظلت أسيرة سيطرتها حتى دمرتها روما في عام 146 ق. م.
أما نوميديا وموريتانيا فقد قامت بهما ممالك وطنية متأثرة بالنفوذ الحضاري لقرطاج منذ القرن الرابع ق. م. وقد تزايدت قوة هاتين الدولتين بعد هزيمة قرطاج عام 202 ق. م. ولكنهما وقعتا تحت النفوذ الروماني وبقيتا تحت هذا النفوذ حتى ضمتهما روما نهائيا الى أملاكها عام 40 م .
للمزيد عن هذا الموضوع اقرأ :
فوزي مكاوي ، القوى الوطنية ... المرجع السابق .

هذا العام أبحر القائد القرطاجي هانو (Hanno) الى صقلية حيث واجه الرومان بجنوده وفرقة تضم خمسين فيلا . ويمكننا ان نعود بمعرفة قرطاج لاستخدام الفيل فى القتال الى ابعد من هذا التاريخ سنوات استغرقتها عمليات ترويض وتدريب هذه الحيوانات (55) .

ومن المؤكد ان قرطاج قد عرفت استخدام الفيل بعد عام 310 ق. م. اذ انها تعرضت في ذلك العام لغزوة من اجاثوكليس (Agathocles) ملك سيراكوز (Syracause) ولو كان لديها فصائل من أفيال القتال لما ادخرتها لاعز من هدف الدفاع عن أراضيرها ولكن جيوش قرطاج خلال ذلك الغزو كانت لا تضم أفيالا (56) وربما يدعونا هذا الى الاعتقاد بأن الجرأة التي تميز بها اجاثو كليس بهجومه على قرطاج فى عقر دارها على الارض الافريقية ـ هي التي دفعت قادة قرطاج الى البحث فى تطوير اساليب القتال ومعداته فى جيوشهم وربما اتجه تفكيرهم الى استخدام الفيل بعد النتائج الممتازة التي حققها بيرهوس (Pyrhus) باستخدامه لهذا الحيوان فى حروبه فى صقلية ؛ (57) فضلا عن استخدام البطالمة للفيل كسلاح حرب فى جيوشهم وقد كانت قرطاج على صلة بهم ايضا .

بدات قرطاج فى البحث عن مصدر تحصل منه على أفيال القتال فوجدت على مقربة من أرضها معينا لا ينضب من الافيال الافريقية فى أراضي النوميديين والموريتانيين ، لكن الافيال الافريقية غير مدربة وخبرة قرطاج معدومة فى اصطياد الافيال وترويضها وتدريبها ، ولذا لجأت فى

(55) W. Gowers, The African Elephant in warfare, **African Affairs,** ivo 182 London, 1946. p. 44.

(56) H.H. scullard, op. cit. p. 159

(57) **كان بيرهوس ملكا على ابيروس Epirus احد الممالك الاغريقية وكانت تملؤه روح المغامرة . عبر البحر الادريالي فى عام 280 ق. م. لانقاذ اغريق ايطاليا من سيطرة روما ، والغريق صقلية من سيطرة قرطاج وقد نجح فى مهمته الثانية نجاحا كاملا بينما لم يحقق مراده بالنسبة للمهمة الاولى رغم انتصاره فى بعض المعارك .**
للمزيد من التفصيلات راجع :
عبد اللطيف احمد علي ، روما ، القاهرة ، د. ت. ص ص 48 ـ 51 .

البداية الى استيراد أفيال ومدربيها . والمعتقد انها حصلت على افيالها الاولى ومدربيها من الاسكندرية التي كانت تربطها بها علاقات طيبة ، فقد كانت مصر فى حاجة الى فضة اسبانيا لضرب عملتها ، وكانت قرطاج تسيطر على التجارة فضلا عن القصدير والخيول والكبريت ، كما ان قرطاج لم تتردد فى ان تطلب من بطليموس الثاني فى مصر قرضا قيمته الفي تالنت talent (58) أثناء الحرب البونية الاولى (59) .

حصل القرطاجيون على عدد من الافيال الهندية ومدربيها سواء كان ذلك عن طريق مصر أو غيرها وبدأوا على الفور فى استخدام هذا السلاح الجديد فى جيشهم ، كما سعوا الى تطويره باصطياد مزيد من الافيال الافريقية على أن يقوم المدربون الهنود بتدريبها ، وبالطبع استغرقت هذه المرحلة وقتا اشترك القرطاجيون بعده بأفيالهم فى القتال ولكنهم كانوا ما يزالون يجهلون الكثير عن طباع هذا الحيوان والظروف الصالحة لاشتراكه فى القتال . وقد ادى هذا الجهل الى وقوع أفيالهم الخمسين التي اشتركت فى معركة اجريجنتم (Agrigentum) غنيمة فى أيدي الرومان (60) ، كما ادى ذلك الى هزيمة افيالهم فى المعركة التالية ضد روجولوس Regulus وكان هذا القائد الروماني قد عبر الى افريقيا فى عام 256 ق. م. كي يهاجم قرطاج من عقر دارها أثناء الحرب البونية الاولى وفى عام 255 ق. م. تقدم الى أوثنة Uthina حيث وقف بجيشه قبالة الجيش القرطاجي الذي فضل ان يبقى فى منطقة عالية بعيدا

---

(58) كان وزن التالنت الواحد ستون منا Mine ووزن المن الواحد مائة درهم والدرهم 4ر36 جراما أي كان التالنت يساوي 16ر26 كيلو جراما من الفضة او الذهب وان اختلفت القيمة فتالنت الذهب كانت قيمته تساوي عشر مرات قدر مثيله من الفضة . احمد صفر ، المرجع السابق ص 234 هـ ا

(59) W. Gowers and H.H. scullard, op. cit. 277-278

(60) كانت معركة اجريجنتم احدى المعارك المبكرة فى الحرب البونية الاولى وقعت فى عام 262 ق. م. وقد حاصر القرطاجيون تلك المدينة بجنودهم وافيالهم واسطولهم ، ولكن الغلبة كانت للرومان ويبدو ان الافيال كانت فى الصف الثاني خلف فرقة من الجنود المرتزقة وهذا مخالف للاسلوب الذي استخدمت به الافيال بعد ذلك . وقد ادى هذا الخطا فى استخدام الافيال الى التعجيل بهزيمة الجيش القرطاجي ، راجع:
W. Gowers, The African Elephant in warfare, op. cit. 44

عن مرمى أسلحة المشاه الرومان ، واصطف جنوده وفرسانه وافيال الحرب فى نفس المكان ورغم جهل الرومان وخوفهم من مواجهة الفيل فان روجولوس وجنوده نجحوا فى تحقيق النصر فى هذه المعركة وقد ساعدهم على ذلك جهل القرطاجيين بطبيعة الارض المناسبة لحرب الافيال فوضعوها فى منطقة مليئة بالنتوءات مما ارهق الافيال وادى الى تعثرها ووقوع عدد من الخسائر بينها ومما لا شك فيه أن عدم اختيار القرطاجيين للارض السهلية المناسبة لحرب الافيال يدل على انهم كانوا حديثي عهد باستخدام هذا السلاح (61) .

لجأ القرطاجيون بعد هذه الهزيمة الى قائد اسبرطى يدعى اكسانثبوس xanthippos لكي يقود جيشهم ويعيد تنظيمه . وقد قام هذا القائد بوظيفته بكفاءة فعدل نظام الجيش القرطاجي الى نظام الفيلق الاغريقي Phalanx (62) ، كما استخدم الافيال والفرسان بطريقة مؤثرة فى القتال . اختار الجيش القرطاجي ميدان القتال فى سهل مجردة Bagradas وهي ارض صالحة مفتوحة لمناورات الافيال واصطف هذا الجيش فى حمى صف من مائة فيل ، بينما اصطف الفرسان على جناحي الجيش . أما الجيش الروماني — الذي كان ما يزال يجهل كيفية مواجهة الافيال فقد اصطف جنوده فى الامام ووقف خلفهم الفرسان. وكان روجولوس يرجو من هذا التنظيم ان يقوم الجنود المتكاتفون كحائط يمنع تقدم الافيال . ولكن سير القتال ادى الى كارثة محققة بسبب هذا الجهل بامكانيات الفيل فى القتال . فقد تقدمت الافيال الضخمة الحجم لكي ترعب الجنود الذين ما ان شاهدوا زملاءهم تحت اقدام هذه الافيال حتى ولوا الادبار وانفرط عقد الجيش الروماني حيث وقع جنوده فريسة للفيلق القرطاجي المستعد . ويقال انه لم ينج من الجيش الروماني أكثر

---

(61) احمد صفر ، المرجع السابق ، ص ص 198 — 199 .

(62) للقراءة عن انظمة الجيوش القديمة راجع :

جورج كاستلان ، تاريخ الجيوش ترجمة كمال دسوقي ، القاهرة ، د. ت.

من الفي جندي (63) ، وانتهت الحملة بكارثة محققة للرومان كما اكــدت اهمية الفيل كسلاح للمستقبل فى الجيش القرطاجي (64) .

المعركة التالية كانت على ارض صقليـــة ، ففى عـــام 254 ق. م. استولى الرومان على بالرمو Panormus وكانت أهم قاعدة قرطاجية فى الجزيرة ، ولذلك جهزت قرطاج فى عام 252 ق. م. جيشـــا لمحاولـــة استعادة ما فقدته من نفوذ فى صقلية . وكان الجيش القرطاجي بقيـــادة هســـد روبـــال Hasdrubal يضم مائة وثلاثين فيلا بعد ان أصبح الفيل سلاحا رئيسيا فى الجيش القرطاجي ، وفى ميدان القتال بالقرب من بالرمو اصطف الجيش القرطاجي بنظامه المعتاد تتقدمه الافيـــال . امـــا الرومان بقيادة ميتللوس Mitellus فقد هاجموا بمشاتهم الذين فزعوا من الافيال وأسرعوا الى خنادقهم يحتمون بها ولم يكتف هسدروبال بهذا النجاح ولكنه أراد ان يقضي على الرومان قضاء مبرما فأمر فصائل الافيال بالتقدم الى معسكرات الرومان وهناك وقعت فى شرك اذ انها توغلت فى منطقة سهلية محاطة بالتلال كانت القوات الرومانية تسيطر عليه ، وقـــد تعرضت الافيال فى هذه المنطقة الى اصابات شديدة دون ان تستطيـــع منعها مما دفعها الى النكوص على أعقابها ، وادى هذا الى اضطراب واسع فى صفوف الجيش القرطاجي . وقد نجح جناحي الجيش الروماني فى استغلال فرصة هذا الاضطراب فى شن هجوم ناجح على جيش هسدروبال أدى الى تدميره وقتل ستة وعشرين فيلا كما تم الاستيلاء على اربع ومائة من الافيال بمساعدة الاسرى القرطاجيين .

---

(63) وقع القائد روجولوس أيضا أسيرا فى أيدي القرطاجيين ، وقد أصبح هذا الرجل بطلا قوميا رومانيا فقد روى عنه أنه أعيد الى روما على راس وفد من الاسرى الرومان بعد أن وعد بالعودة الى قرطاج اذا اخفق فى حمل السناتو على قبول شروط الصلح الذي وضعها القرطاجيون . ولكن القصة تقول بانه هو الذي اقنع السناتو بعـــدم الموافقة وذهب الى آسريه رابط الجاش حيث قتلوه شر قتلة . وقد راجت هـــذه الرواية بين الرومان الذين كانوا يدللون بها على صدق الروماني فى الوفاق بالوعد . عبد اللطيف أحمد علي ، المرجع السابق ص ص 102 ـ 103 .

(64) Thompson, op. cit. pp. 110-111

وقد نقل جزء من هذه الافيال الى روما وظهر فى حفل النصر الذي سار فيه ميتللوس ، ويقال ان هذه الافيال جميعا تم قتلها فيما بعد ، وربما تم ذلك لكي يعلموا الشعب الروماني ان هذا السلاح رغم خطورته من الممكن القضاء عليه وقتله باستخدام الحراب ولكي يمحوا من أذهان هذا الشعب شبح الهزيمة الرهيبة التي نالها روجولوس بسبب افيال القتال (65) .

كانت الجولة الجديدة لفصائل فيل القتال الافريقي فى الجيش القرطاجي ضد المتمردين من الجنود السابقين فى هذا الجيش . وكان هؤلاء الجنود يطالبون بحقوق لهم تجاه قرطاج التي كانت قد خرجت مفلسة من الحرب البونية الاولى . بدأ تمرد هؤلاء الجنود فى نهاية عام 241 ق. م. واستمر حتى عام 237 ق. م. (66) . وقد بذلت قرطاج كثيرا من الجهود الفاشلة للقضاء على هذا التمرد . نذكر من هذه الجهود الحملة التي قادها هانو Hanno فى عام 240 ق. م. وكانت تضم المشاة والفرسان ومجموعة من افيال القتال الافريقية بلغ عددها مائة فيل ، ورغم انه حقق نجاحا مبدئيا الا ان الثوار نجحوا فى النهاية فى طرده من أوتيكا Utica عندئذ لجأت قرطاج الى هملكار برقة Hamilcar Barca احد قادتها الافذاذ لكي يخلصها من هذا المأزق وقد بدأ هملكار مهمته ببث الرعب فى نفوس اعدائه فامر بكل الاسرى فوضعوا امام الافيال ثم امر الافيال فداستهم بأقدامها .

وبعد ذلك سيطر على جسر استراتيجي على نهر مجردة مما دفع قائد الثوار فى أوتيكا الى الخروج بجنوده اليه ، لجأ هملكار الى خديعة

---

(65) W. Gowers, The African Elephant in warefare, op. cit. p. 45.

(66) كان الجنود النوميديون والموريتانيون والليبيون يكونون عصب الجيش القرطاجي وكان هؤلاء الجنود يعملون لقاء اجر ربما كان جزءا من الغنائم ، ولكن قرطاج هزمت فى الحرب البونية الاولى وخرجت مدينة ومفلسة ولم تكن على استعداد لدفع اى اموال اضافية لهؤلاء الجنود ، ومن ثم ثار هؤلاء الجنود بقيادة جندي ليبي يدعى ماتوس وانضم اليه اسبنديوس وكان عبدا رومانيا هاربا واوتاريت وكان غالي الاصل.نجح هؤلاء القواد الثلاثة فى ان يذيقوا قرطاج الكثير من المرارة بل وصل بهم الامر الى حصار المدينة وقطع طرق امدادها بالبر . ولكن بعد نضال دام ثلاث سنوات واربعة اشهر قضى هملكار برقة على هؤلاء الثوار . للمزيد من هذا الموضوع :
Polybius, BK.I.

جيش المتمردين فدفع بأفياله السبعين وبعض المشاة خفيفي التسليح فى اتجاه العدو ، ثم أمرهم بالتقهقر امامه كما لو كانوا يهربون وفى نفس الوقت امر مشاة الجيش ثقيلي التسليح وفرسانه ان يختبئوا فى الخلف على بعد غير كبير . انطلت الحيلة على المتمردين واندفعوا وراء الافيال والجنود طمعا فى القضاء عليهم ، ولكن ما ان عبرت الافيال ومن خلفها جنود العدو منطقة اختفاء جنود هملكار حتى اطبق هؤلاء على المتمردين يثخنونهم جراحا وتقتيلا وفى نفس الوقت اطبق الفرسان على مؤخرة جيش التمردين وكانت النتيجة تدمير جيش المتمردين فى اوتيكا ثم قامت الافيال بدور هام فى حصار الجماعات الاخرى من الثوار والقضاء عليهم فى عام 237 ق. م. (67) .

اتجهت قرطاج بعد القضاء على تمرد الجنود الى فتح اسبانيا عوضا عما فقدته من املاك فى صقلية وقد اشتركت الافيال الافريقية فى جيش هملكار برقة الذي تقدم لملاقاة الايبيريين . وقد نجحت أفيال هملكار العشرين المجهزة بدروع جلدية فى احداث الفوضى بمنظرها المرعب مما ادى الى هرب خيول الاعداء ونجاح هملكار فى انشاء امبراطورية لقرطاج فى اسبانيا . تزايدت اعداد الافيال العاملة فى الجيش القرطاجي فى اسبانيا فوصل عدد افيال هملكار الى مائة فيل كما ان هسدروبال كان يقود فى عام 229 – 228 ق. م. جيشا يضم اكثر من مائتي فيل (68) .

ولكن الغريب حقا ان قوات هانيبال Hannibal (69) فى عام 220 ق. م. كانت تضم اقل من اربعين فيلا فقط ، وليس لدينا تفسير للفارق الكبير بين هذه الارقام حتى لو سلمنا بحدوث خسائر فى الافيال

(68) H.H. scullard, op. cit. p. 160

(67) Thompson, op. cit. pp. 113 - 114

(69) هانيبال اكثر قواد قرطاج شهرة فى التاريخ وقيل ان روما لم تكره فى تاريخها رجلا مثلما كرهت هانيبال فقد اذاقها العذاب والهزيمة لسنوات طويلة ابتداء من عام 218 ق. م. ولكنه هزم فى النهاية فى ظروف غير مواتية عام 202 ق. م. ولم تتركه روما فاضطر لترك قرطاج ولجا الى بلاط فيليب الخامس ملك مقدونيا ولكنه اضطر فى النهاية الى الانتحار فى عام 183 ق. م. للمزيد من القراءة :
عبد اللطيف أحمد علي ، روما ، المرجع السابق ، ص ص 105 – 122 .

نتيجة للعمليات العسكرية خلال تلك الفترة او بسبب عدم كفاءة المدربين . اذ اننا نعلم ان قرطاج كان لديها منطقة ملحقة بأسوار المدينة من الداخل صالحة لترويض وتدريب واقامة ثلاثمائة فيل وذلك فى نطاق استعدادتها للحرب البونية الثانية (70) .

اشترك هانيبال بقواته فى عدة معارك ضد القبائل الوطنية الاسبانية وفى اثناء عودته منتصرا اعترضته قوة من قبائل الكاليس Olcates وفـــاكي vaccei وكاربيتانـــي Carpetani . عسكرت هذه القوة على الشاطىء الشمالي لنهر تاجوس Togus فلجأ هو الى الشاطىء الجنوبي ونظم أفياله وخيوله لكى يستخدمها فى مطاردة كل من تحدثـــه نفسه بأن يعبر اليه ، واخيرا عبر هو الى العدو الذي لاذ بالفرار (71) .

سار هانيبال شمالا حيث عبر جبال البرانس فى عـــام 218 ق. م. وعندما وصل نهر الرون كان جيش هانيبال المتجه الى ايطاليا يضم سبعا وثلاثين فيلا بالاضافة الى ثلاثين الف جندي من المشاة وثمانيـــة آلاف فارس فضلا عن القوات المساعدة وحيوانات الحمل .

توقف هانيبال أمام عائق الرون يومين جمـــع خلالهمـــا كتلا مـــن الاخشاب وقام ببناء كثير من القوارب والاطواف ، ولكنه لاحظ فى اليوم الثالث واثناء استعداده للعبور اعدادا كبيرة من قبائل الغال تتجمع على الشاطىء المقابل لكى تمنعه من العبور . أمر هانيبال احد قواد جيشه بأن يقوم بحركة التفاف حول العدو ومعه قسم من الجيـــوش ، سار هؤلاء الجنود نحو الشمال لمسافة مائتي استاديا (72) . وقد حققت هذه الفكرة أهدافها ؛ اذ فزع الغال وولوا هاربين بمجرد معرفتهم بنبأ العبور المباغت.

(70) Thompson, op. cit. 114.

(71) H.H. scullard, op. cit. p. 162.

(72) الاستاديون Stadion الواحد يساوي 185 مترا اي أن هذا القسم مـن جـيش هانيبال سار لمسافة 37 كيلومترا نحو الشمال .
عبد اللطيف احمد علي ، مصر والامبراطورية الرومانية فى ضوء الاوراق البردية ، القاهرة ، 1965 ، ص 62 هـ 1 .

ومن ثم عبر القسم الرئيسي من الجيش القرطاجي نهر الرون دون مقاومة. ورغم ان الجيش القرطاجي قد أمن مقاومة الاعداء لعبوره فانه واجه مشكلة عبور الافيال . ويقول بوليبيوس ان هانيبال تغلب على هذه المشكلة بأن أقام عددا من المعديات على شكل ارصفة غطاها بطبقة كثيفة من التراب لكي يوحى للافيال بأنها امتداد للارض الصلبة ولكن ما أن تحركت هـذه المعديات التي يبلغ طول الواحدة منها مائتي قدم حتى سبب انزعاجا شديدا للافيال ، مما دفعها الى القفز فى الماء وترتب على ذلك غرق عدد كبير من مدربيها (73) .

دخل هانيبال بجيشه الى ممر جبلي فى جبال الالب فى طريقه الى ايطاليا وكان معه سبعة وثلاثين فيلا . وفرضت ظروف الممـر الجبلـي والقبائل الوطنية المعادية على هانيبال عبورا قاسيا ، فاضطر هانيبال أن يقاوم ظروف المناخ القاسية وان يحارب هذه القبائل اثناء العبور . ورغم ان أفياله كانت تعاني من ظروف المناخ وقلة الطعام فضلا عن سوء خدمتها بعد غرق أغلب مدربيها فى نهر الرون ، فقد سارت فى مقدمـة الجيش مرعبة القبائل المحلية واستمر هذا الوضع لمدة ثمانية ايام . وعند مـا أصبح صعود الجبل يمثل عائقا امام تقدم الافيال المرهقة ، غير هانيبال خطته وترك الافيال فى المؤخرة لكى تقوم بمهمة حراسـة الجيش مـن هجمات الوطنيين . ولعل أكبر ما واجهته الافيال من صعاب كانت الايـام الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر من أيام العبـور حيـث كان هانيبال قد وصل بجيشه الى قمة الممر الجبلي فى الاسبوع الثالث مـن شهر سبتمبر سنة 218 ق. م. وكانت الثلوج تغطي الارض . وقد اضطرت هذه الحيوانات الاستوائية الى المسير فى الثلوج لمدة ثلاثة ايام وقد ادى هذا بالاضافة الى قلة الطعام الى نفوق عدد كبير من الافيال (74) . وما ان اتم هانيبال عبور جبال الالب الا وواجه ضرورة عبور نهر البو Po وهنا أنزل هانيبال ما بقي من أفياله الى الماء فى صف طويل ليكسر قوة

---

(73) Polybius III. 46 1-12,

(74) Thompson, op. cit. p. 118

التيار ولكي يمكن مشاته وحيوانات الحمل فى جيشه من ان تعبـــر فى ســــــلام (75) .

بقيت اعداد قليلة من الافيال بعد هذه الاهوال التي مـــرت بجيش هانيبال منذ خروجه من اسبانيا ومع ذلك فقد اشتركت الافيال المتبقية فى معركة ترابيا Trabia وتسببت رغم قلة عددها فى خسائر فادحـــة للرومان (76) . لقد افتتح هانيبال القتال بهجوم الافيال فى مقدمة الجيش القرطاجي ، وما ان رآها المشاة الرومان حتى لاذوا بالفرار وفى نـــفس الوقت كانت قوات الفرسان القرطاجية تطبق على القوات الهاربـــة مـــن الجناحين ، وهكذا وجد الرومان انفسهم محاصرين بالافيال المتقدمـــة اتجاههم يتبعها المشاة القرطاجيون والفرسان على الجانبين والنهر مـــن خلفهم . وكانت مذبحة للرومان فمن لم تدوسه الافيال باقدامها قتلتـــه سهام المشاة واسلحة الفرسان ومن نجا من الموت على أيدي هؤلاء مات غريقا فى النهر . ان نجاح الافيال فى هذه المعركة يرجع الى كفاءة هانيبال فى استخدامها حتى انه استطاع ان يسحبها من القلب الى الجناحين عندما لاحظ شدة تعرضها لسهام الرومان وبداية انفلات امرها من أيدي مدربيها . ان هذه الحركة الذكية ادت الى عودة السيطرة على الافيال بابعادها عـــن منطقة الضرب الشديد فضلا عن انها اتاحت للافيال فرصة الانفراد بحلفاء الرومان من الغال البدائيين فى فنون التسليح (77) .

تجول هانيبال فى مايو 217 ق. م. بجنوده وافياله وافراســـه فى المناطق الوسطى من شبه جزيرة ايطاليا ، فعبر جبال الابنين الى الشرق ثم عاد فعبرها الى الغرب وقد قام هانيبال بجولته هذه فى ظروف جويه سيئة مما ادى الى فقده لسبعة أفيال اثناء العبور الاول وفقد باقي الافيال ـ فيما عدا فيله الخاص ـ خلال العبور الثاني (78) . وقد قاد هانبيال

---

(75) سبق هانيبال الى تنفيذ نفس الفكرة برديكاس عندما غزا مصر فى 321 ق. م.

(76) Polybius III. 72. 2.

(77) Thompson, op. cit. p. 119

(78) W. Gowers, The African Elephant in warfare, op. cit. p. 46.

جيوشه خلال الهجوم على فلامينيوس Flaminius قرب بحيرة تراسيمينوس Trasimenus فى اتروريا Etruria دون ان يكون لديه سوى الفيل الاخير (79) .

تلقى هانيبال قبل معركة كابو Capua التي تمت فى سنة 210ق.م. مددا جديدا من الافيال وقد بلغ عدد أفياله التي اشتركت فى هذه المعركة اثنين وثلاثين فيلا (80) . دبر هانيبال هجوما ليليا على معسكر الرومان مستخدما الافيال ، وفوجىء الجنود الرومان بهذه الحيوانات المخيفة تجول فى معسكرهم حدثة الفزع ومسببة الدمار . وتعتبر هذه الخطة تطويرا جديدا لاسلوب استخدام الفيل فى المعارك .

حققت خطة هانيبال نجاحا مبكرا ولكن هانيبال لم يستغل هذا النجاح بدفع عناصر اخرى من الجيش الى المعركة ، فاستطاع الرومان ان يتمالكوا أنفسهم بعد بعض الوقت وبداوا يقاومون الافيال بما فى ايديهم من وسائل ومن ذلك قذف الافيال بمشاعل اللهب من كل ناحية . ونجحت الوسيلة الجديدة فى بث الذعر بين الافيال التي جعلتها اجسامها الكبيرة اهدافا سهلة للنيران . ويعتبر هذا العمل الذي اتبعه الرومان تطويرا لاسلوب مقاومة الافيال . وقد ساعد على زيادة حجم الخسائر بين افيال هانيبال انها دخلت منطقة مساكن الجنود الرومان مما جعلها فى رأض غير مفتوحة وبالتالي غير مواتية لحروب الافيال . هاجت الافيال المثخنة بالجراح مما جعلها تلقي بركابها تحت أقدامها اثناء هربها من ميدان المعركة. واضطر هانيبال بعد فشل هجومه على كابوا Capua الى التخلص من

---

(79) لعل من غريب الصدف ان يتم هانيبال افضل معاركه فى غياب فيل القتال فقد انتصر على القنصل فلامينيوس فى تراسمينوس عام 217 ق. م. واباد جيشه . كما استطاع أن يبيد ثمانين الف جنديا رومانيا ومعهم القنصل اميليوس باولوس Aemilius Paullus فى معركة كاناى سنة 216 ق. م. دون ان يكون لديه سوى فيله الخاص المسمى سورس Surus
عبد اللطيف احمد علي ، روما ، المرجع السابق ص ص 111 ـ 117 .

(80) تلقى هانيبال اربعين فيلا بقي منهم عند قيام معركة كابوا اثنين وثلاثين .

الاشتباك وان يعبر نهر فولتورنو volturno ومعه البقية الباقية من أفياله (81) .

وفى عام 209 ق. م. توصل الرومان الى اضافة طريقة جديدة لمواجهة الافيال فكونوا فرقا للرماية تقف فى صف واحد مهمتها اطلاق السهام على الافيال وفى وقت واحد حتى يطردوها بعيدا عن اهدافها (82).

وفى 207 ق. م. تعرض هانيبال لكارثة ، اذ استطاع القنصلان الرومانيان اللذان يتابعان خطواته ان يظفرا فى معركة ميتاوروس Metaurus بأخيه هسد روبال Hasdrubal (83) ، وكان قد حضر الى ايطاليا على راس قوات مدد جديد لهانيبال . وما كاد يتم عبور جبال الالب بقواته حتى اجبره القنصلان على الدخول فى المعركة ضدهم قبل ان يستريح جيشه . كان الجيشان الرومانيان يفوقان جيش هسد روبال عددا ، كما كانا فى وضع نفسي افضل بالمقارنة بالجيش القرطاجي الذي كان يعاني الارهاق بعد العبور الطويل لجبال الالب وبخاصة فصائل الافيال . ولكن لم يجد هسدروبال بدأ من مواجهتها ، فأطلق أفياله فى البداية لكي تحدث الاضطراب فى صفوف مشاة الجيش . اندفعت الافيال بين صفوف الاعداء وحققت بعض النجاح ولكنها واجهت مقاومة شديدة من جانب الرومان بسبب (التكتيكات) الجديدة لمواجهتها مما ادى لاصابة أغلبها

---

(81) Thompson, op. cit. p. 122

(82) Idem

(83) كان الرومان يتوقعون وصول قوات المدد وكلفوا جيشا بقيادة القنصل ليفيوس ان يترقب وصول هسدروبال جنوب اريمينوم Arminum على البحر الادرياتي اما القنصل الآخر كلوديوس نيرون Claudius Neron فقد كلف بتاديب بعض الايطاليين المتمردين بالاضافة الى التصدي لهانيبال الذي كان يعسكر بجنوده فى ابوليا فى الجنوب الشرقي من ايطاليا . وقع فى ايدي نيرون احد رسل هسدروبال لاخيه لينبئه بقرب وصوله . استغل نيرون الموقف وتسلل بأغلب قواته الى الشمال منضما الى القنصل الآخر حيث التقيا بهسدروبال على ضفاف نهر ميتاوروس وفرضا عليه الدخول فى معركة غير متكافئة . وبعد انتصار الرومان القى نيرون براس هسدروبال فى معسكر اخيه مما كان له اسوء الاثر على نفسه ، اما الرومان فقد اقاموا عيدا لشكر الآلهة لمدة ثلاثة ايام . للمزيد من القراءة عن هذه المعركة :
عبد اللطيف احمد قلي ، روما ، المرجع السابق ص ص 117 ـ 120 .

بالحروق وفقدان عدد كبير من مدربيها واصبحت اغلب الافيال بلا قيادة فهامت على وجوهها مذعورة فى المنطقة الفاصلة بين الجيشين حتى أصبح من غير الواضح لاى الفريقين تنتمي هذه الافيال أو كما وصفها ليفي Livy بأنها كانت « ... كالسفن التي تبحر بغير ربان ... » (84) وأمام هـذا الخطر اضطر هسدروبال الى الامر بقتل الافيال المصابة بجروح شديدة مما أدى الى فتكه بعدد من أفياله يفوق الذي قتل بايدي الرومان . وقد كتب ديـو Dio فى وصفه لهذه المعركة « ... بأن القرطاجيين قتلوا الافيال ، اما الرومان فقد قتلوا الرجال ... » (85) وانهزم هسدروبال بسبب فشله فى استغلال النجاح الوقتي للافيال نظرا لارهاق رجاله وقلة عددهم مقارنا بالرومان . وانتهت المعركة بهزيمة هسدروبال وقتله .

بدأت الحرب البونية الثانية منذ هزيمة هسدروبال فى ميتاوريس Metaurus تميل لصالح الرومان ، وقد حقق الرومان نجاحا آخر فى عام 206 ق. م. فى اسبانيا عندما نجح سكيبيو الافريقي Scipio Africanus (86) فى خديعة جيش قرطاج بقيادة هسدروبال ابن جسكو Hasdrubal b. Gisgo واصابه بهزيمة قاتلة . ويلاحظ فى هذه المعركة التي وقعت فى اليبا Ilipa باسبانيا ان النصر كان من نصيب القائد الذي استطاع ان يستغل نقاط القوة فى جيشه . استمر الجيشان لعدة أيام يتأهبان للقتال دون اشتباك . وكان سكيبيو يرتب لامر ما فظل لايام متتابعة يصحو مبكرا فينظم جيشه : المشاة فى القلب وكانوا من الرومان وقوات حلفائه الاسبان فى الجناحين ، ويأتي هسدروبال الى ساحة المعركة متأخرا بعض الوقت فيرتب جنوده الموريتانيين والنوميديين فى القلب وحلفاءه فى الاجناب اما الافيال فمكانها المقدمة وفى يوم المعركة غير سكيبيو فجاة نظام جيشه فوضع الاسبان فى القلب

(84) Thompson op. cit. 115

(85) Thompson Ibid, 116

(86) هو كورنيليوس سكيبيو بن بيبليوس سكيبيو قائد جيش الرومان ضد هانيبال فى عام 218 ق. م. تلقب بالافريقي بعد نجاحه فى هزيمة قرطاج فى زاما 202 ق. م. وفرض شروط الصلح على البطل الاسطوري هانيبال . للمزيد من القراءة : أحمد صفر ، المرجع السابق ص ص 229 ـ 235 .

وجعل الرومان المدربين فى الاجناب ولم يلحظ هـــد روبال هذا التغيير وابقى نظامه على ما اعتاد عليه . وعندما بدات المعركة امر سكيبيو جناحيه بالتقدم وامر القلب بالتثاقل بينما اندفعت افيال هـــدروبال لكي تهاجـــم القلب فوقعت فريســة الهجوم من الاجانب مما ادى الى فقدان الـسيطرة على الافيال فعادت على اعقابها مثيرة الفزع فى صفوف الجيش القرطاجـــي نفســه ، وقد استغل الرومان هذا التحول وشددوا مـــن هجومهـــم على جيش هـــدروبال مما ادى الى تدميره .

وعاد هـــد روبال بن جسكو الى قرطاج بعد هزيمته فى اليـا Ilipa وقضى عام 205 ق. م. فى قيادة فرقة لصيد الافيال ، نجحت هــــذه الفرقة فى الحصول على مائة واربعين فيلا كانت بغير شك اضافة جديدة هامة لقوة الجيش القرطاجي (87) .

وقعت آخر المعارك فى اسبانيا خلال الحرب البونية الثانية خـــلال عام 203 ق. م. بين ماجو Mago القائد القرطاجي والقوات الرومانية بقيادة فــــارو varro وكورنيليوس Cornilius فى اقليم الغال الانـسبريـــان Insubrian Gauls . بدأ القتال بتفوق ماجو الذي نجح فى صد أول هجوم على مشاة جيشه لدفعهم للتقهقـــر ، وفشلـــت هجمه أخرى للفرسان الرومان على جناح الجيش القرطاجي عندما وجلت افراسهم من الظهور المفاجىء للافيال القرطاجية وفرت مذعورة . ولكن عندما تقدمت الافيال الى مرمى نبال الجنود الرومان نجحت صفـــوف الفرقة الحادية عشرة الرومانية فى اصابة كل فيل من أفيال ماجو بدفعات من السهام ، ونجحت فى مقاومة الافيال نجاحا تاما ادى الى خروج الافيال تماما من ميدان المعركة . ولكن الافيال كانت قد نجحت قبل ذلـــك فى احداث بعض الاضرار فى صفوف من لحقت بهم من جنود المشاة الرومان. استطاعت خيالة الرومان ان تعود للهجوم فى غيبة الافيال ونجحت هذه المرة فى دفع قوات ماجو الى الخلف فى قتال شديد متلاحم أصيب ماجو

(87) Thompson, op cit pp. 124-125

خلاله ونقل من ميدان المعركة . وقد ادت اصابة القائد القرطاجي الى رجحان كفة الرومان . ولكنهم لم يتمكنوا من احراز نصر حاسم على عدوهم ، فقد استطاع القرطاجيون ان ينسحبوا بنظام من ميدان المعركة حيث ابحروا الى قرطاج ولم يقدر الرومان على مطاردتهم فقد كانوا يلعقون جراحهم (88) .

كانت الجولة الاخيرة في الحرب البونية الثانية على الارض الافريقية التي وصل اليها سكيبيو في عام 204 ق. م. ، وانضم الى صفوف الرومان الاغليد مسينسا النوميدي ، استطاع مسينسا ان يقدم خدمات جليلة لسكيبيو اثرت تاثيرا كبيرا على مركز القرطاجيين خلال هذه الحرب ، ومن ذلك انه اشار على سكيبيو باضرام النار بغتة في معسكرات القرطاجيين وحليفهم الوطني الاغليد سيفاكس Syphax (89) . وقد نجحت الخطة وتم القضاء تقريبا على جيش سيفاكس التي كانت تضم 140 فيلا وكذلك على جيش هسدروبال بن جسكو ، اذ فزعت الافيال من النيران المنتشرة في المعسكرات واسرعت بالهرب مثيرة الرعب والفوضى في معسكراتها مما ساهم في ازدياد الخسائر .

تقدم سكيبيو بعد هذا النصر في اتجاه قرطاج ونجح في اصطياد هانيبال (90) ـ الذي كان قد عاد من ايطاليا لانقاذ وطنه ـ في منطقة

---

(88) Polybius, XI - 24.

(89) سيفاكس كان ملكا على نوميديا خلال النصف الاخير من القرن الثالث ق. م. وقد تقلب في تحالفه فتارة مع الرومان ضد قرطاج وتارة اخرى مع الاخيرة ضد الرومان، والملاحظة الجديرة بالذكر ان منافسه الملك غايا ومن بعده مسينسا كانا دائما مع الطرف المعادي لسيفاكس . واثناء المعركة الاخيرة في الحرب البونية الثانية كان سيفاكس يقف الى جانب قرطاج . وقد سقط سيفاكس اسيرا في يد مسينسا في عام 203 ق. م.

(90) عاد هانيبال الى بلاده في 203 ق. م. حيث منحه مجلس الشيوخ القرطاجي لقب قائد دكتاتور ـ وقد حدد هانيبال اهدافه حسب الترتيب الاتي ـ الحصول على امدادات من الامراء الوطنيين امثال مزطول منافس مسينسا وفرمينه بن سيفاكس ـ ثم محاربة مسينسا لمنعه من الانضمام الى الرومان ـ واخيرا الايقاع بسكيبيو وجنوده. ولكن لم تات الرياح بما تشتيه السفن وهزم هانيبال :

Polybuis, BK.I.

كيـــــلا Cilla وهذه منطقة فقرة تقل فيها امــدادات الميـــاه .
ووقع هانيـبال ضحية سوء حظ فلم يكن امامه الا ان يحارب فى ميدان ليس من اختياره بما يحمله هذا من اثار نقص امدادات المياه او ان ينسحب بجنوده مما سوف يؤدي بالقطع الى انهيار الروح المعنوية لدى الجنود . قرر هانيبال ان ياخذ بالاولى فدخل معركة زاما الحاسمة وكان جيشـــه يعاني من نقص المياه والارهاق فى البحث عنها .

كان لدى هانيبال فى هذه المعركه ثمانين فيلا دفعها الى المقدمه وكان يليها مشاة الجيش . الا ان سكيبيو استطاع ان يبتكر اسلوبا جديدا لمقاومة خطر هذه الافيال فغير من نظام الجنود الذين كانوا يقفـــون فى صفوف بين كل جندي وجاره فاصل يغطيه جنود الصف الثاني ـ ثم يقف جنود الصف الثالث خلف جنود الصف الاول وهكذا وذلك بان جعل كل الجنود فى كل الصفوف يقفون على محور واحد بمعنى انه امر بان يتركوا بينهم فواصل تمتد من اول صف الى آخر الصفوف . وكان هدفه من ذلك ان يترك فراغات بين هذه الصفوف تسمح باستمرار اندفاع الافيال بيـــن صفوفه حتى تخرج من مؤخرة المشاة دون ان تدوس احدا فى طريقهـــا وبذلك يستطيع انيتجنب ضخامة حجم الخسائر بين جنوده ممن تدوسهم الافيال . وفى نفس الوقت عين عددا من الجنود المسلحين باسلحة خفيفة يقفون فى مناطق الفراغات بين الصفوف مهمتهم مناوشة الافيال مع الهرب من امامها بين الصفوف لتفادي اى خطر وبا حبذا لو استطاع بعض هؤلاء الجنود ان يصيبوا الافيال بجروح وآلام فى منطقة ما تحـــت الذيــــل . الاجراء الثالث الذي اتخذه سكيبيو لمقاومة الافيال كان تسليح الصفوف الاولى من جيشه باسلحة حديدية ثقيلة تطلق قذائف على شكل سهــام ؛ وكانت الاوامر الثابتة عند هؤلاء الجنود ان يهاجموا بشدة تقدم الافيال ، ولكي يتحقق لهم سرعة واستمرار المقاومة عين سكيبيو مساعدا لكـــل جندي مهمته امداده دائما بمزيد من الســهام .

وفى نفس الوقت وقف الفرسان النوميديين فى الاجنحة . نجحت خطة سكيبيو وعندما دفع هانيبال بافياله الى المعركة سرعان ما ذابوا بين

صفوف العدو ، وعندما لاحظ سكيبيو اثناء القتال ان فرسانه الرومان الذين يقفون خلف المشاة بداوا يفقدون السيطرة على خيولهم المرعوبة من منظر الافيال امرهم بالترجل والقتال كمشاة واطلاق الخيول بعيدا ، وهكذا كسب سكيبيو اولى مراحل القتال . وكانت الخطوة الثانية هي حرب المشاة حقق هانيبال فيها نجاحا باهرا ولولا خدعة تعرض لها من جانب مسينسا لانتهت المعارك لصالحه . فقد انسحب مسينسا بفرسانه بعيدا ثم دار حول جيش هانيبال وفاجاه من مؤخرته فأحدث الفوضى العامة فى الجيش وانتهت المعارك لصالح الرومان .

هزم هانيبال فى هذه المعركة لاعتبارات عديدة منها بالطبع فقد الجيش القرطاجي للمائة واربعين فيلا التي اصيبت فى حريق المعسكرات خلال العام السابق ، ولنا ان نتصور مدى تاثيرها على نتائج معركة زاما لو قدر لها الاشتراك فيها (91) .

فرض القائد المنتصر شروطه على القرطاجيين وهذه الشروط تبين مدى اهمية الافيال فى جيش قرطاج ومدى رعب الرومان من وجود هذا السلاح فى ايدي اعدائهم بالرغم من الابتكارات المتتالية التي وصلوا اليها لمقاومته . لقد أمر الرومان عدوهم المهزوم بأن يسلم للرومان كل الافيال المتبقية وان يتعهد بالامتناع عن صيد او امتلاك او تدريب افيال جديدة . وهكذا انتهى عصر استخدام الافيال فى قرطاج (92) .

تركت الافيال بصماتها على فنون العصر ، فكانت المدن القرطاجية تضع فى حسابها بناء مكان مناسب للتدريب واقامة الافيال ملحق بسور المدينة من الداخل (93) . كما لجات مدن كثيرة الى تصوير الفيل على عملتها اشارة الى قوته وقد تم العثور على عدد من هذه العملات فى اسبانيا

---

(91) Thompson, op. cit. 128-130

(92) راجع شروط الصلح الذي عقد فى 201 ق. م. فى :
احمد صقر ، المرجع السابق ص ص 233 – 234 .

(93) سبقت الاشارة الى وجود هذا المكان فى اسوار قرطاج .

من عصر البرقيين Barcids فضلا من بعض القطع في منطقة سهـــل البو في ايطاليا ، والشيء المحير ان قرطاج نفسـها لم تصور الفيل على عملتهــا (94) .

لم ينته دور الفيل الافريقي في الحروب في شمال افريقيا باستــلام قرطاج اذ ان الممالك الوطنية مثل موريتانيا ونوميديا استخدمتا الفيـــل كسلاح رئيسي في جيوشهما ونحن نعلم ان مسينسا قد أرسل اثنى عشر فيلا ضمن مساعداته لروما في الحرب المقدنية الثالثة (95) دما .وســل مسينسا بن مسينسا قوات نوميديــة لمساعــدة سكيبــو الاميلــي Scipio Aemilianus عام 134 ق. م. وكانت هذه القوات تضم اثنى عشر فيلا بالاضافة الى عدد من الفرسان وحاملي الاقواس والمقاليع بقيادة يوغرطة ابن اخيه (96) . وقد تم العثور على قطعتين من النقود في شمال افريقيا الاولى على وجهها وجه يوغرطة وعلى الوجه الاخر رسم لفيل افريقي ، والقطعة الاخرى من عصر يوبا الثاني تحمل صورته على الوجـــه وفيل افريقي على الوجه الاخر (97) .

من المؤكد ان الفيل الافريقي كان قوة هامة في الجيش القرطاجي وقد تزايدت اهمية هذه القوة بمرور الزمن ، ورغم اننا لا نملك كل الارقام عن اعداد الافيال التي استخدمتها قرطاج منذ بدا معرفتها لهذا السلاح الا ان المسجل من هذه الارقام يعطي اشارة واضحة عن صدق اعتقادنـــا باهمية هذا السلاح والبيان التالي يعطي صورة واضحة عما نقول :

1 ـ خسر القرطاجيون 50 فيلا في صقلية عام 262 ق. م. 50

---

(94) H.H. scullard, op. cit. fig. 2-6

(95) W. Gowers and H.H. scullard, op. cit. p. 167 FF

(96) وقد كانت الافيال الاثنى عشر ضمن مساعدة مسينسا في تلك الحرب بمليون مكيال من القمح و 200 1 فارس : فوزي مكاوي ، القوى الوطنية ... المرجع السابق .

(97) Thompson, op. cit. 30.

2 – اشترك مائة فيل في الحرب ضد الرومان بقيادة ريجولوس 255 ق. م. 100

3 – فقد هسدروبال في معركة بلرمو Panormus عام 200 ق. م. عدد 140 فيلا 140

4 – اشترك مائة فيل بقيادة هانو في حرب المتمردين عام 240 ق. م. 100

5 – قاد هملكار قوة من سبعين فيلا اثناء مقاومته للمتمردين لم اكثر من مائة اثناء وجوده في اسبانيا 170

6 – وصل عدد الافيال في جيش هسدروبال في الفترة من 229 – 223 ق. م. الى اكثر من مائتي فيلا 200

7 – ضمت قوات هانيبال 40 فيلا اثناء وجوده في اسبانيا وتلقى 40 فيلا كمدد اثناء وجوده في ايطاليا 80

8 – فقد هسدروبال جسكو وسيفاكس 140 فيلا اثناء الهجوم الليلي الذي شنه سكيبيو عليهم في 203 ق. م 140

9 – اشترك في جيش هانيبال في زاما ثمانون فيلا 80

وهكذا نلاحظ ان مجموع الافيال التي يمكن حصرها من بين ما استخدمه القرطاجيون في الفترة من 262 ق. م. الى 202 ق. م. يزيد الف ومائة من الافيال المدربة ولنا ان نتصور كم كان العدد الاصلي للافيال التي صادها القرطاجيون وبقي منها ذلك العدد بعد الترويض والتدريب . ولنا ايضا ان نضيف الى ذلك ما حصل عليه القرطاجيون من افيال من مصادر اخرى مثل كالبطالمة وغيرهم .

ان هذه الصورة تبين الى اي حد وصلت اهمية الفيل الافريقي في قوات القرطاجيين .

(3) الفيل الافريقي في جيش اكسوم

يقول بعض المؤرخين ان البطالمة انشأوا عدول (Adulis) كمركز لصيد الافيال شأنها في ذلك شأن بطوليميس على الساحل الشرقي للسودان (98) . ورغم انني اعتقد ان عدول قد انشأها العرب في عصر سابق على وجود البطالمة (99) فليس لدي دليل على عدم قيامها بهذا الدور على عصر البطالمة ، بل العكس هو الاقرب للصواب اذ انها كانت مدينة تجارية يؤمها التجار من كل المناطق المحيطة يتبادلون فيها كثيرا من السلع ، وليس بمستبعد انها تاجرت في الافيال الحية مثلما تاجرت في سنون الافيال . ويؤكد هذا الاحتمال ان صاحب الطواف في البحر الاريتري يشير الى وجود الافيال في مناطق اكسوم الداخلية وكذلك على الساحل بالقرب من عدول ـ وان كانت الاعداد الاخيرة قليلة ـ (100) . ويذكر نننوسوس Nonnosos سفير الامبراطور جستنيان Justinian الى ملك اكسوم في اوائل القرن السادس انه رأى في منتصف الطريق بين عدول واكسوم قطيعا من خمسة آلاف فيل يرعون في حقول الاهالي الذين يجدون صعوبة بالغة في دفعها بعيدا عن مراعيهم (101) .

ولا تتكلم المصادر الاكسومية عن ترويض أفيال ولكننا نجد اشارات متناثرة تدل على ترويض الافيال في اكسوم فمالالاس Malas الذي زار المنطقة في الربع الاول من القرن السادس الميلادي يقول عند وصفه للعرش الاكسومي : « ... ان الملك كان عاريا الا من رداء من الكتان والذهب عند خاصرته وكان يلبس على البطن والاكتاف شرائط جلدية مطعمة باللآلىء فضلا عن خمسة أساور ذهبية في يديه ، وكان

---

(98) ابراهيم نصحي ، دراسات في تاريخ مصر في عهد البطالمة المرجع السابق ص 124

(99) فوزي مكاوي ، مملكة اكسوم المرجع السابق ، ص ص 236 ـ 240 .

(100) Schoff, Periplus of the Erythraean sea, New York, 1912. p. 22 FF.

(101) Nonnosos, In corpus scriptorum Historiae Byzantiane ed. B.G. Niebuhrii, Bonnael. XVII

Malalas, Incorpos

يربط راسه بحزام من الذهب والكتان تتدلى منه اربعة شرائط على كل جانب فضلا عن باقة ذهبية حول العنق وكان يقف على اربعة أفيال ، تحملها منصة ذات أربعة عجلات ، محاطة من اعلاها بأوراق مذهبة مثل عربات حكام الابارخوى ووقف ممسكا فى يديه درعا مذهبا صغيرا ورمحين صغيرين مذهبين أيضا » (102) .

لقد كان مالالاس يصف ما رآه بنفسه عندما استقبله الملك الاكسومي كسفير لجستنيان Justinian ولذلك فاذا كان هناك احتمال فى ان يخطا فى وصفه لتفصيلات معينة فلا يمكن ان نتصور خطأه فى رؤية اربعة افيال ضخمة كان الملك يقف فوقها . ونستطيع من هذه الاشارة ان نقول بأن الاكسوميين كانوا يروضون الافيال بل ويستخدمونها فى القتال ففى اعتقادي ان الملك الاكسومي وقد بدأ عند استقباله للرسول البيزنطي فى حلة الحرب وكذلك رجال بلاطه (103) اراد ان يبعث فى نفس الرسول البيزنطي الاحساس بقوته وهو يعلم قطعا ان ما يراه هذا السفير سوف ينقل الى الامبراطور البيزنطي ، كما يعتقد بالطبع ان ظهوره بهذا المظهر يقوي من مركزه فى أى مفاوضات تجري بين الطرفين .

ويؤكد ما ذهبنا اليه اشارتان اخريان فقد استخدم الاكسوميون الافيال عندما توجهوا للاستيلاء على مكة تحت قيادة ابرهة الاشرم فى عام الفيل ، وقد اختلف الرواة فى تحديدهم لاعداد الافيال التي اشتركت فى القتال فقيل ان عددهم واحد وقيل أربعة وقيل ثمانية وقيل اثنا عشر فيلا (104) .

والرواية العربية عن سيف بن ذي يزن وطرده للاكسوميين من اليمن فى عام 50 م. بمساعدة الفرس تتحدث عن ارتقاء (مسروق) قائد

(102) Malalas. In corpus scriptorum Historiae Byzantinae ed. B.G. Nie Bonnane L. XVII

(103) Iden

(104) عبد المجيد عابدين ، بين الحبشة والعرب ، القاهرة ، د. ت. ص ص 66 ـ 67

الاكسوميين على ظهر فيل اثناء القتال ، هو ما يجعل هناك احتمالا لاشتراك افيال أخرى (105) .

ان استخدام الجنود الاكسوميين للافيال فى الجزيرة العربية يشير بغير شك الى معرفتهم لها فى بلادهم والاكثر احتمالا بالطبع ان هذه الافيال هي نفسها من اكسوم .

واذا درسنا هذه الملاحظات ككل فاننا لا نشك في ان الاكسوميين عرفوا افيال القتال وانهم دربوها بانفسهم ولكن يبقى سؤال حائر لا يجد الاجابة ؟ هو لماذا لم تذكر الافيال فى نصوص عيزانا عن حروبه ؟ ونحن نعلم انه كان حريصا على ان يذكر كل صغيرة وكبيرة عن هذه الحروب .

فاس | د. فوزي مكاوي

(105) عبد المجيد عابدين ، نفس المرجع ص 79 .

مكتبـــــة البحـــــث

اولا : مراجـــع باللغـــة العربيـــة :

1 - ابراهيم نصحي ، دراسات فى تاريخ مصر فى عهد البطالمة ، القاهرة ، 1959 .

2 - ابراهيم نصحي ، مصر فى عهد البطالمة ، ج 1 - ط. 2 ، القاهرة 1973 .

3 - احمد صفر ، مدنيه المغرب العربي فى التاريخ ، ج 1 ، تونس د. ت.

4 - جوليان ، شارل اندري ، تاريخ افريقيا الشمالية ، ترجمة محمد مزالي والبشير ابن سلامـــة ، تونس 1969 .

5 - رشيد الناضوري ، المغرب الكبير ، العصور القديمة ، القاهرة ، 1966 .

6 - عبد اللطيف احمد علي ، روما ، القاهرة ، د. ت.

7 - عبد اللطيف احمد علي ، مصر والامبراطورية الرومانية فى ضوء الاوراق البردية ، القاهـــرة ، 1965 .

8 - عبد المجيد عابدين ، بين الحبشة والعرب ، القاهرة ، د. ت.

9 - فوزي مكاوي ، مملكة مروى ، رسالة ماجستير غير منشورة ، القاهرة ، 1971 .

10 - فوزي مكاوي ، مملكة اكسوم ، رسالة دكتوراة غير منشورة ، القاهرة ، 1974 .

11 - فوزي مكاوي ، القوى الوطنية فى شمال افريقيا فى مواجهة قرطاج وروما ، المناهل عدد 12 . الربـــاط ، 1978 .

12 - كاستلان ، جورج ، تاريخ الجيوش القديمة ، ترجمة كمال دسوقي ، القاهرة ، د. ت.

13 - واحدى علي ، افريقيا الشمالية عند بوليبيوس ، بحث قدم لنيل شهادة الليسانس من كلية الاداب ، جامعة محمد بن عبد الله ، فاس ، 1978 .

14 - Allan, J., **The Cambridge shorter History of India,** Delhe 1964

15 - Bevan, E., **Egypt under the Ptolemaic dynasty,** London, 1927

16 - Cary, M., Polybius and a literary commonplace, classical **quarterly,** vol. 47 No. 188. London, 1926

17 - Dio, Cassius, **Roman History,** laeb classical literary, London, 1912.

18 - Diodorus,

19 - Gowers, W., The African Elephant in warfare, **African affairs**, London, 1946.

20 - Gowers, W., African Elephants and ancient authors **African Affairs**, London, 1945.

21 - Gowers, W., and H.H. Scullard, Hannibal's Elephants again, **Numismatic chronicle 6 th series**, London 1950

22 - Hintze, F. **Alle Kulturen in Sudan**, Munchen, 1967.

23 - Livy, **History of Rome**, loeb classical liberary London (1919-1057)

24 - Ioannis Malala, chronographia in corpus scriptorum Historiae Byzantinae, Bonnae.

25 - Nonnosos , Ex Historia Nonnosos Excerpta, in corpus scriptorum Historiae Byzantinae Bonnae

26 - Polybius, **Histories**, loeb classical liberary, London 1909

27 - Schoff, **Periplus of the Erythraean sea**, New York, 1912

28 - Scullard, H.H., Hannibal's Elephants **Numismatic chronicle, 6 th series**, London 1948

29 - Tern, W., **Hellenistic Naval and Military developments**, London 1928.

30 - Thompson, **The Battle Elephant**, MA. Belfast university, 1969

31 - Walsh, P.G., Massinissa, **Journal of Roman studies**, London 1965

32 - Warmington, **Carthage**, London, 1964.

D. F .M

الإحباط الاجتماعي
في شخصية شاعر الحمراء
" أمير الشعراء بالمغرب "

مالكة العاصمي

في اطار الدراسة الادبية ، لابـد أن نستـرشـد بخطوط اساسيـة ترصد لنـا كافـة الخطـوات والمنافـذ التـي شكلت الكائن الاجتماعي اولا ، ثـم الكائن المبدع ضمن معطيات خاصة وعامة لننفذ من خلال ذلك الى التعرف على الشخصية والانتاج ولتكون بايدينا شموع تشع على بعض مـا هـو غامـض وغريب في حياة وانتاج الاديب .

هذا المجهود الاولي لا مناص منه قبل الخوض في دراسة مالـم تتوفر على هـذه العناصر ، فلا بد أن تكون مجتثة عن مؤثراتها الموضوعية التي مـن شانها ان تعطينا تفسيرا لبعض علامات الاستفهام التي سنصادفها في طريق البحـث .

مـؤثـرات عـامـة :

سياسيا : يطل القرن العشرون على المغرب بويلات الاحتلال الفرنسي وفي ركابه قوات الحلفاء المتهافتة على ايجاد قواعد لحماية مصالحها من المد الهتليري وتوسيع قاعدة مستعمراتها او قاعدة جبهتها في حرب ربما تكـون مفنية مع النازية .

وبالفعل فقد تصارعت على المغرب قوات المانيا وايطاليا وفرنسا وابريطانية وامريكا وانتهت الى تدويل النشاط الاقتصادي والمالي للبلاد لتستفيد منه كافة الاطراف . ونتيجة لذلك تمت اقامة رقابة دولية تضمن سلامة الاجانب وسلامة ممتلكاتهم .

وهكذا نزلت القوات الى المدينة تحاول كل منها تثبت نفوذها وتفسح امامها مجالات واسعة للتوغل ، فحاولت أولا ان تتصل بالاهالي وتنفذ عن طريقهم الى التحكم في ماجريات الاحداث وبالفعل وجدت كل منها اسما تعطيه الحماية السياسية وتطلق يده في اعراض الناس واموالهم واعناقهم تشكلت من ذلك اقطاعات لاعيان في المدن والبوادي جثموا على صدر الشعب واعتبروه ملكا خاصا لهم .

وقد كان حظ مراكش من هذه الحمايات ثقيلا ، ثم وقع عقد الحماية فقويت شوكة الكلاوي الموالي لفرنسا واطلقت يده في البلاد كما تساقطت اطراف الدولة قطعة قطعة واقتسمها البزاة .

في هذه الفترة بالذات ومع اطلالة هذا القرن المحزنة طلعت اسرة السيد ابراهيم السراج على المدينة بميلاد صبي .

تـاريخيـا :

بمدينة مراكش مدينة تاريخية عريقة اسسها المرابطون ، وازدهرت الحضارة والحياة فيها على مدى ثلاثة قرون من الزمن ، رتبت اسواقها ، ونظمت ، وازدهرت بها الصناعات المختلفة ، وكانت مركز اشعاع ثقافي وحضاري طيلة هذه الفترة ، يمتد الى اواسط افريقيا ، والسودان ، ومصر ، ومجريط بالاندلس . وهي رقعة واسعة مكنت لهذه العاصمة ان تصير ملتقى حضارات متباينة هامة ، تتلقى تيارات الفكر الانساني من غابات افريقيا ، وصحاري الجنوب ، وواحات السودان ، وجبال الاطلس ، ومروج الاندلس ، كما اختلط العنصر البشري الوافد من كافة اقاليم الدولة التي تحمل تجارتها لمركز النشاط الاقتصادي للعاج والذهب والعطور والثياب وما اشبهها من

اعماق افريقيا والسودان . المنتوجات الفلاحية وصناعات الفضة من الجبال ومنطقة السوس ، والتمر والحناء من اراضي الصحراء ، وصناعات النحاس والفضة ووسائل الحياكة وللتاثيث المنزلي من الاندلس وافريقيا .

نظرا لهذا النشاط التجاري الهام فقد استوطنت بالمدينة سلالات من مختلف الجنسيات الغانية والغينية والسينغالية والسودانية والصحراوية والبربرية والاندلسية . وتلاقحت فيها الحضارات المختلفة واثمرت مدينة زاهية .

اقتصاديا :

اما اسواق مراكش فلا ازهى ولاانظر في ترتيبها ، وروتقها . وبهجة المعروضات فيها ، وطابعها الخلاب .

سوق السراجين احد اسواق هذه المدينة الزاهية ، يعمره صانعو السروج البهية الخاصة بالعروض الفنية والعاب الفروسية في الاعياد والمواسم ، والتي يستعملها السلاطين لركوبهم كما يستعملها علية القوم . كانت الجياد هي مراكب العصر وكل مهيب بهي الطلعة حسن الثياب الا ويتهادى فى السوق او فى الضيعة على بغلته عصر كل يوم الى البيت . وكل بيت يتبعه مربط للخيول او مستودع للعربة التي تجرها الخيول او « الكرويلة » كما كانت تسمى .

صناعة السروج كانت اذن رائجة تدر دخلا لاباس به يشكل من اربابب هذه المهنة طبقة متوسطة الى بورجوازية فى المدينة مع ذلك فهي لم تكن تامن على نفسها في مجتمع من هذا النوع . فقد كانت غالبية دكاكين الصناع والتجار باسواق مراكش في ملك موزع بين « اهل الوقت » من الاقطاعيين وكانت اهواء هؤلاء الملاكين تدعوهم الى سلب اموال هذا او اغلاق دكان ذلك او حبس الاخر او رفع سعر الكراء بشكل جنوني مفاجىء او اي شيء مما يمكن ان يكون نكاية مجانية خاضعة لاهواء عصابية هستيرية من طرف هؤلا الاقطاعيين ولاعتقادهم بسموهم على الناس فقد كانوا يثورون لاتفة الاسباب ويكفي ان يمر احدهم من منطقة ولا تهتز كلها لاستقباله ويتهافت اصحابها لتقبيل يديه وتقديم الهدايا الفاخرة له ، او ان يختلف صانع فى السوق مع

زبون له علاقة ما باحدهم ، تكفي اية هنة بسيطة تثير غضبة السيد لينتقم من هذا الصانع او التاجر انتقاما جهنميا . وكان لدى كل منهم غرفة مظلمة متعفنة يستعملها كمعتقل يسجن فيه خصومه وهو طبعا يتمتع بحماية اجنبية ويمثل سلطة فوضوية عنجهية جاطلة استعملته قوى الاستعمار بالذات ليقوم بمهمة اذلال الشعب وافقاره وتمريغ كرامته في التراب .

لذلك فقد كانت كافة الطبقات الشعبية تسعى لتجنب غضبهم وتبذل فروض الطاعة الضرورية لهم وتسع لايجاد وسيلة ما تحمي بها نفسها من بطشهم واهوائهم عن طريق ايجاد منفذ الى الحكام او الاتصال بشخص له مكانة عندهم او ما يمكن ان يحميهم ويحمي أموالهم في وقت الشدة ، والشدة حالة لا محالة .

اجتماعيا :

العلماء احدى هذه الطبقات ذات الارتباط الوثيق بالسلطة فهم كانوا المنظرين للدولة والموجهين لفكرها وحضارتها يؤدي لهم القواد فروض الاحترام والتقدير وينفرون اليهم كلما المت بدولتهم ملمة تحتاج الى راي او مشورة أو افتاء .

على رغم تبعيتهم الدائمة للبلاطات كدعاة للحكم القائم يمسكون له بزمام الشعب عن طريق مجالسهم ومواعظهم وفتواهم . ونظرا لقدرتهم على التحكم فى الراي العام ، ونظرا لسعة علمهم واطلاعهم فقد كانوا يحظون بمكانة خاصة واحترام من طر فهؤلاء الحكام .

لاجل هذا كان طموح كافة الطبقات ان يكون ابناؤها من العلماء والمحدثين والمدرسين بجامع ابن يوسف وكان الاطفال يعانون من هذا الطموح العنت الكبير ابتداء من فقيه المسيد الذي يطلب من ان يستعمل كافة الوسائل لتعليم الطفل بشعار الاباء البات (اقتل وانا ادفن) .

ولا شك ان السيد ابراهيم السراج الصانع التقليدي الذي يتعامل مع هؤلاء العلماء بالبيع والشراء ويعجب بطلعتهم ومكانتهم أيما اعجاب كان يتمنى

لا بنه ان يكون عالما يملك ذلك التاثيـر العجيب على النـاس وتوجيههم فى حلقاته بالمسجد اليوسفي فكان خلف الطفل خلال مراحل تعليمه علوم الفقـه والحديث واللغة في هذا الجامع العظيم .

خلال فترة تعليم الشاعر انفتحت امامه نافذة جديدة على الشعر والادب وهما فنان لهما وقع خاص في وجدان الشاعر وطفولته كما يبدو ، وانطلاقا مـن مؤثـرات خاصـة خضـع لهـا طفـلا وسـط الصنـاع والحرفييـن الـذي كانـت تنتمـي اليـه اسـرة الشاعـر ذات خصائص خاصة ، فهو مجتمع متآلف متقارب داخل السوق متعامـل باستمرار فيما بينه مما يشد الاواصر بين ابناء الحرفة ، رغم التفاوت الطبقي فيمـا بينهم ، فالصناعة تتطلب التعايش بين المعلم صـاحب الراسمـال ، والصانع الذي اكتسب المهارة في المهنة والمتعلم الجديد في الحرفة ، وليخلق هـؤلاء الحرفيون جوا من التسلية والمتعة ايام الجمعة يوم عطلتهم الاسبوعية فقـد كانوا يخرجون الى النزهة في البساتين الخصوصيـة او العموميـة احيانا بطنجيتهم المراكشية .

من الضروري ان نقف لحظة عند هذه النزهات لاستنشاق اجوائها التـي تفوح برائحة الطنجية والشاي المنعنع .

الماء والخضرة والوجه الحسن ، عناصر اساسية ليكتمل « الزهو »كما يقال . والمراة لم تكن داخلـة في النشاط العـام للمجتمـع ، كانـت محجبـة مصـونـة ، ومـن النساء من كن في احياء مخصصة للدعارة معروفة باسمائهـا وبمن يؤمونها من الناس ، ونظرا للمراقبة الاجتماعية على المراة وعلى الرجل معا ، ونظرا لقوة الوازع الديني الذي يحرم قيام اية علاقة غير شرعية بين المراة والرجل فقد كان الغلمان يمثلون هذا الوجه الحسن الذي يلعب دورا هاما في انس المجلس واضفاء المتعة عليه كما هو وارد في المثل الشعبي الشهير .

وجو من هذا النوع منحرف ينتبعه تناول انواع من الشرب وبعض انواع المخدرات الشعبية الشهيرة أحيانا لتكتمل الصورة وتتالق المتعة .

مؤثـرات خـاصـة :

افترض ان يكون الشاعر في صباه قد عاش مع ابيه مناخا من هذا النوع او شبهه ، او ان يكون خضع هو شخصيا لمثل هذه التجربة بحكـم ارتباطه بهذا الوسط . خاصة وان اباه كان يرعاه شخصيا ويرافقه في الغالب .

وافترض ان الشاعر كان جميل الوجه والطلعة كما تشهد على ذلك صورته امـــامنـــا .

وافترض انه لم يكن للام دور تلعبه في حياة الولـــد وتوجهه نحـــو الاستقرار والطمانينة العائلية كما تدل على ذلك شكواه الممضة الخارجة فـي اعترافاتـــه .

قضى الله ان ابقى بلا ولد ولا قريب ولا ام حنـــون ولا اهل

ونظرا لغياب امه من حياته غيابا حقيقيا ، او انها لم تكن تعطيه مـن اهتماما ما يحتاج اليه فانه لم يستطع ان يؤسس اسرة ولا ان يخلف عقبا ولا ان يرتبط بحياة الاستقرار والهناء لان الام هي وسيلة الرجل للحصول على زوجـــة صالحة في هذا المجتمع المتخلف .

وافترض انه كان يعاني من خلل في تكوين اسرته الصغيرة لان في هذه الفترة لم يكن من المعتاد ان تتشتت الاسرة ويستقل افرادها بمساكن خاصة كانت التقاليد تقضـي ان يظـل الاولاد جميعـا في بيـت يؤسسون اسرهـم واعقابهم تحت رداء الوالدين وتوجيههم ، وطبيعة الاوضاع الاجتماعية تقضي ان يظل الرجل الاعزب تحت رعاية اسرته الى ان يتزوج وتتسع عائلتـــه واولاده .

واكثر من ذلك ، فانه لم يكن مسموحا للرجل الاعـزب ان يسكـن فـي المدينة بين الجيران لاعتباره خطرا على اخلاق بنات وشباب الحي بسبب ما يمكن ان ياتيه من اهواء العزاب .

بالنظر الى هذه الافتراضات استنتج ان طفولة الشاعر قد عـانت مـن

التمزق العائلي نتيجة غياب الام ، وأخطاء غير واضحة تماما ارتكبها الاب ، وانقطاع صلات العائلة بالاهل وذوي الارحام ، مما جعل الشاعر يعيش وحيدا بلا اسرة ، وحيدا بلا اولاد ، وحيدا بلا اهل بلا أقارب لاهثا وراء الصبية والغلمان يبذل لهم كل ما يملك في سخاء ويتهافت عليهم ينشد التعويض عن اللذة والحنان .

اذا مروجه مشرق ورايته   يطير اشتياقا عند رؤيته عقلي
ويذهب طرفي في تعقب خطوه   وان كنت في شغل فياضيعة الشغل
وكم مر يوم كدت تبصرني به   وجسمي بلا ثوب ورجلي بلا نعل
وانسى الذي قد مربي من خصامة   فابذل فى زهد واسرف فى البذل

وهو نفسه يبرر السلوك الذي طبع حياته والتوجيه الذي اتجهه في الحياة بغياب الاستقرار العائلي .

وقضيت عمري هكذا في تناقض   اخو الهزل في جد وذو الجد في هزل
قضى الله ان ابقى بلا ولد ولا   قريب ولا ام حنون ولا اهل

ومرة اخرى يقول :

لاموا على الابناء في جهل بهم   ولو انصفوا لاموا على الاباء

لعل الحي الذي سكنه ان يكون له دور ما في شدة الى هذه الحياة . حي روض الزيتون ، حي طبقي فى حد ذاته تسكنه الطبقة البورجوازية كما يسكنه بعض اليهود من البورجوازيين وهو ممر استراتيجي بين حي عرصة موسا الحي الخاص بالدعارة وحي الملاح الخاص باليهود وهو مكان بيع الخمور وما اشبهها ، وساحة جامع الفناء قلب المدينة النابض بكل جديد وطريف وخاص جدا ،

عندما استقرت الحماية تاسست فيه فنادق صغيرة عصرية شيئا ما ينزل بها السياح من الامريكان والالمان والفرنسيين منحرفي الحرب.وقد

كانت هذه الفنادق املاكا للباشا الكلاوي او لبعض الاقطاعيين اشباهــه . وكانوا يحمون ما يمارس في هذه الفنادق من انحرافـــات جنسية .

ربما يكون لهذا الحي ايضا اثره كمربي ومسكن ، فيما تميزت به حياة الشاعر من اضطراب وقلق .

عـــالـــم مــاجــن :

بالفعل تميزت هذه الحياة بالاضطراب والقلق فقد تهيا لان يكون عالما فقيها واشتغل بالتدريس في الكلية اليوسفية منار الدين فــي مراكش يدرس بهــا الفقه والحديث واللغة

ولعل الشاعر سرعان ما واجه في اعماقه ازمة التناقض الحاد في حياته كعالم موجه يتراس حلقة ويعتلي منبرا داخل مسجد من اهم مراكــز العلــم يدرس الفقه والدين ، وبين ممارساته ورغباته التي تفرضها حياة اجتماعيــة قلقة ، فهو يحب الشرب ويسهر الليل ويتشبث بالاصحاب حتى يفروا منه في آخر الليل ويبكي وحدته وحياته واهله ويانس للفار ولخادمه الابله وقطط تهرب منه فصــار مزاجيا مضطربا لايمسك توازن حياته .

ربما يكون هذا هو السبب الذي جعله يقطع مادة التناقض المفروض عليه ويغادر التدريس في جامع ابن يوسف ليكون صادقا مع نفسه ويتفرغ لمتاعبها وهواجسها ورغباتها .

ولم يكن امامه اختيار آخر يمضي باتجاهه فهو منــذ البدء شاعــر رقيق الاحساس ، عاطفي الى درجة ان يترك منصبــه مــن اجل هــواه . موضوعــي فلا يتسع في نفسه ان يكون فقيها منحرفا ، انه فنان ابــن فنان والصنــاع فنانون يتميزون برقة الطبع ورهافــة الاحســاس ، وسحر الانامــل ، ودقــة الملاحظة ، وسرعة التاثر وقد عاش هو في جو فن السروج والزينة .

عايش فن السروج طفلا وعلق بفن الشعر شابا . وفن الشعر يزيد مــــن

تاجيج العواطف والجموح بالخيال والشعور ، لذلك قرر ان يعيش بصدق حياة الفنان البوهيمي ملتقيا ذلك مع شعراء بوهيمين معاصرين له في الغرب كبودلير في فرنسا،مخلص لاهوائه، غريب حتى داخل نفسه. متمزق في اعماقه يعاني تناقضا اساسيا مع المجتمع .

نظرية الارتزاق :

هناك من الفنون ما يغني لكونه يعرض في السوق ويدفع مقابل له كالفن الذي يمارسه ابوه . لكن فنه هو للاسف لايعرض في السوق ولايدر ربحا . فالثقافة شيء مقدس في المجتمع العربي ، والمثقف يحترمه الناس ويعتبرونه الها ، ثم يشغلونه بهمومهم ، ويوظفون طاقاته لفوائد اجتماعية، ويعرضونه للحرمان بتقديرهم .

والمثقف في المجتمع العربي يعتبر نفسه كما يعتبره الناس مسخرا لخدمة الجماهير ولا نقاذها ، يحسبونه تقديرا لفكره وعلمه اعلى من رغبات الدنيا ، لذلك لم يكن فقهاء المسيد ولا علماء المساجد يؤجرون على تدريسهم بل كانت اجورهم في شكل هدايا وصلات وتقربات وليست اجورا عن عمل التربية والتدريس .

هذه التقربات والهدايا غالبا ما تكون غير كافية للعيش ، اما الشاعر فيعرض بضاعة استثنائية لا يقبل عليها رجل الشعب كما يقبل على التدريس، انه يعرض الشعر ، والشعر ليست سوق اذا كان تعبيرا عن هوى النفس خاصة مع انعدام ظروف الطباعة وبيع الكتب وتوفير مردود للشاعر كما هو حاصل في الغرب .

هذا العامل جعل الافاق امام الشاعر تنغلق فهو يتوفر على بضاعة كاسدة لايجد لمن يعرضها لذلك تبرأ منها اصلا .

صنعة الشعر لقد عا فتك نفسي فاتركيني
ادبري عني بوجه والقفا منك اريني

ولــو انـــي رمـــت وصفـــا لشقـــاء لـــوصفتـــــك
اصـــرف الاحـــزان والاكـــد ارعـنـــي ان صـــرفـتـــك

قـــبـــح اللـــه زمـــانـــا عاش فيـــه الحـــر رقـــا
وتـــرى رب الـقـــوافـــي بسعـــد النـــاس ويشقـــى
فلنلـــذ بالصبـــر فـيـــه انـــه خـيـــر وابـــقـــى

وما يلبث ان يكتشف ان هذه الصنعة يمكن ان تدر عليه ربحـا ان هـو اتجه بها اتجاها آخر ، وهنا حدث التحول .

مـا عـــدا ان رمـــت وصفـــا لعـظـيـــم العظـمـــاء
اقـبـلـــي اذاك عـنـــي واشبهيـــه فـــي السخـــاء
درر الـقـــول امنحيـنـــي واغمـــريـنـــي بـالعطـــاء

والحقيقة ان هناك صنفا من الناس خاصا يشتري الشعور ويوظفه فى مهام جلى عندما تنغلق امام المثقف العربي الآفاق كان يلجا اليـها ، سـمى الناس ذلك منذ الماضي ارتزاقا بالشعر ، ولم يكن امام الشاعر من باب للرزق سواه ، غير ان « الحرة تجوع ولا تاكل من ثديها » كما يقول المثـل العربي لذلك فان المجتمع العربي يطلب من الشاعر ان يمتهن صناعة ما يعيش بها ، وان يتخذ الشعر رسالته الموازية الحرة المجردة عن اي تاثير او توجيه . ونسوا ان هموم العيش تشغل الشاعر عن وظيفتـه الاجتماعيـة والفكريـة ، وتقتل موهبته ، وتطمس قدرته . وبالفعل فقد قضى على اكثر من موهبة في ضجة الحياة اليومية ولم يخلد الا الشعراء الذين تفرغوا لصناعة الشعـر وامتهنوها ، واتخذوها وسيلة للعيش .

الشاعر ابن ابراهيم لم يكن امامه اكثر من اختيار يمكن ان يسير باتجاهه ، لقد كان امام اختيار واحد : انه فنان له نزواتـه الخاصـة ، يعيش احباطـا اجتماعيا خطيرا فشل في التوفيق بين نفسه ومنصبه العلمي ، يشعر بالعجز الكامل عن ان يؤدي عملا آخر بحكم طبيعة مزاجه .

ولا يمكن ان نغفل عاملا اساسيا فى الاعتبار ، هو ان طبيعة حياةالشاعر ومزاجه ومخالفاته المستورة كأن لازما ان تعرضه لقصاص السلطة وغضبة المجتمع ، فكان يشعر بالحاجة الى الحماية من ذوي السلطة ليامن علىنفسه ونـــزواتـــه .

وهو اضافة الى ذلك من وسط اعتاد التقية والخـوف والتقـرب ليحمـي نفسـه ومـالـه .

لهذا وذاك ارتمى في احضان الاقطاعي الجلاوي يمدحه :

— اذا المزن يهمي مرة بعد مـرة	فراحته اهمي دواما من المـزن
اليف العلا يهتز للمدح عطفه	كما حركت ايدي الصبا قامة الغصن

وينعته باشعاع الفكر .

بـــل أنا قـلـــت شـعـــرا	جئـــتـــه طـــالــــب درس
وتلـقـــانــــي بـــافكـــا	ر لهـــا اشعـــاع شمـــس
واغتنم ان حواك مجلس ادا	ب وعلم معه كنـوز اللئالى
فهو يغني عن الاغاني وعن تبـ	يين عمر وعن مآلي القالي
واذا جال في ميادين شعـر	فكجـولاتـــه غـــداة نـــزال

ومعروف أن الكلاوي لم يكن له حظ من علم او شعر .

رب تـــقـــوى رب نـجـــوى	رب حـلـــم رب عـلـــم
رب صـفـــو رب عـفـــو	رب حـــزم رب عـــزم
رب جـــود رب مـــجـــد	رب حسـم رب رحـــم
رب ســيــف رب ضـيــف	رب افحـــام لخصـــم
كـدت انســى منـــه ابـــدا	عه في ميـــدان نكتـــــه

وبديع النكت الطا رق للاذهان بغته
جهره طورا وطورا يودع النكتة صمته

صنعة الشعر امنحيني من يواقيت النظام
برصين القول جودي انه فخر الانام
وهمام من همام من همام من همام
غرر الشعر هيبتي اته الباشا التهامي

ولعلنا نضع ايدينا ببساطة على قيمة المدح الذي لايجد ما يقول ، فيكتفي بسرد عدد من الاوصاف سردا متتاليا . مقفي موزونا لا يزيد ولا ينقص لو يكرر « الهمام من همام » وليس فيه من الشعر مايشد او يروق . كما يصفه بجمال النكتة ولكنها النكتة الصامتة ، ولعله لايفوتنا فهم معنى النكتة الصامتة ، لان الصمت يجعل الصامت الذي يعجز عن الاجابة نكتة في حد ذاته ، وينتهي الى انه هو الباشا التهامي ، وهي حقيقة بسيطة للغاية واضحة تماما يؤكدها لنا كما لو انه يحذرنا من هذا الذي لايجد ما يقول فيه سوى انه الباشا الكلاوي الطاغية المعروف الذي هو مضطر ان يمدحه .

ولعله يشعر بعدم تجاوب الكلاوي مع شعره وعدم ادراكه له فحاول ان يكتب له نثرا جميلا يكون اقرب الى ادراكه وفهمه ، « سيدي كنت قبل اليوم شاعرك الفحل فحسب ، والان اني جنديك الشجاع وشاعرك الفحل . وخطيبك المصقع .

هات لي الجماهير لابث فيهم روح الحماسة بالخطب النارية والقصائد الملتهبة » .

« سيدي طالما تمنيت ان يتاح لى امر تلمس فيه مقدار تفاني في محبتك وولائك ، ثم لا اجد غير القوافي ارصعها واسكب فيها حرارة نفسي وذوب عواطفي ، وكل ذلك لا يبرد غلتي ويروي ظمئي ، ولكن لعل الظروف اوجدت لي الساعة التي ستلمس فيها اخلاصي ، ووفائي ما ثلا للعيان » .

اذا استعرضنا امداح الشاعر في الكلاوي وأضرابه نجدها تدور في رقعة محدودة للغاية مكررة المعاني والمفردات فهو يصفه بالعظيم الهمام بالجود والبذل ولطف المعشر وسعة الفكر والقوة وليس في كل هذه الصفات وامثالها ما هو جديد أو خاص او متميز مما يفيد ان الشاعر كان يصوغها لغاية خاصة وانه ليس لموضوعاتها أي ارتباط بنفسه ووجدانه وقناعاته .

مواقف وطنية :

في مقابل ذلك نجد الشاعر وهو تحت جناح الكلاوي قطب الحماية في منطقة مراكش لتطبيق سياسة الاستعمار حرفيا واضطهاد وتقتيل وتعذيب الوطنيين ، وهو في احضانه يكتب قصيدته في هجاء ابن البغدادي الذي لايعدو ان يكون طبق سياسة الاستعمار في فاس كما يطبقها الكلاوى في مراكش .

يسوس بفاس من بنيه كرامهم   فيقلبهم بطنا ويجلدهم ظهرا

واقل ما كان يفعل الكلاوي في مراكش ان يقلب الوطنيين بطنا ويجلدهم ظهرا . ومع ذلك فقد نشر ابن ابراهيم هذه القصيدة في الناس غير خائف ولا هياب .

ويزيد فيها القول :

ايا زائرى فاس اذا ما مررتما   بسجن حوى ابناءه خضعا مرا

فان بذلك الحبس اسدا تذوقوا   طعوم حياة الحر فاستعذبوا المرا

وسقوا على علم طريق زباهم   فما حبسوا قهرا وان حبسوا قهرا

حياة الفتى ادراك سر حياته   وما الموت الا جهله ذلك السرا

وكم من طليق عاش في السجن عمره   وساكن سجن بات في عينه قصرا

انه يتخذ موقفه الواضح من الظهير البربري ويتخذ موقفه الواضح من الحزب الوطني الذي قاد الثورة الشعبية في فاس ضد مناهج الاستعمار في تمزيق الشعوب ليسهل ابتلاعها .

موقف وطني واضح يناصر الثورة وينفث الجلد في الثوار ويدعوهم الى الصمود داخل السجن ويعتبر انهم اختاروا طريق الشرف بمحض ارادتهـــم بسبب تنور بصيرتهم مهددا عملاء الاستعمار .

فقل لطغاة طال بالجاه سكرهـم — هو الغد لا يبقي براسكم سكرا

احقـا بني فـاس بـان بنيكـم — لقوا من صروف الدهر ما اغضب الدهرا

فصبرا جميلا يا ابن فاس عن الردى — فحقك في الدنيا يقضي وفي الاخرى

سيلقي من الديان ما هو اهلـه — وبالخزى في الدنيا ستبقى له الذكرى

ويدفع للايـام جـل حسابهـا — اذا رنت الايام يومـا له شـزرا

ويهنى الشاعر الاستاذ علال الفاسي زعيـم الثـورة الشعبيـة وعـدو الاستعمار الاول وعدو عملائه قاطبة بالثورة هذه مؤكدا موقفه المتعاطف مع ثـورتـــه .

انادي رصيفا لي هنـاك و ننـي — احب رصيفي فوق حب الوردي طرا

اخـي كل مـالي دمعة واخالهـا — لمثلك مـن مثلـي تقـوم له عـذرا

اشاعر فاس دون سابق رؤيــة — عليك سلام الله من شاعـر الحمرا

واذا دل هذا الموقف على شيء فانما يدل على ان الشاعر لم يكن يستطيع ان يتخذ موقفا مباشرا من الاحداث وهو واقع في قبضة جلاده . لكنه بالتاكيد ذو حس وطني . هو لايتخلى عن قضاياه الوطنية او لكنه لايملك ان يتحدث عما هو ملتصق به او ما هو متصل بالواقع السياسي بمراكش ، وهـو واقـع ناتج عن ممارسات ممدوحه الطاغية بذلك فهـو يهرب مـن هـذه الموضوعات للحديث عن مشاكل مصر ومشاكل فاس .

كما ان له موقفا من عدد من القضايا الوطنية كقضية التعليم يحث الناس على تعليم ابنائهم وهي دعوة نابعة من الحزب الوطني الذي فتح المدارس الحرة ودعا الى التعليم لبث وعي الجماهير يقابل ما يمـارسه الاستعمـار مـن تجهيـل لابناء الشعب .

بني وطني ان الشعوب واهلهـا ... قد استيقظت طرا وانتم نوم

هو الوطن المحبوب يرجو من اهله ... سماعا لشكواه واهله انتم

مضى زمن الجهل الذميم زمانــه ... وهـذا زمـان آن فيـه التعلـم

فبالعلم شادوا في البحار مساكنا ... وفيها مع الحيتان عاموا وعوموا

وبالعلم سارت في السماء ركابهم ... وقد اسرجوا متن الرياح والجموا

وبالعلم ان كانوا جلوسا بمشرق ... وبالغرب من يبغى الكلام تكلموا

وبالعلم قد افنى الفريقان بعضهم ... وما اختلفت بين الفريقين اسهم

اتاكم زمان يطلب العلم منكـم ... بجدفان لم تطلبوا العلم تندموا

كذلك له موقف اخلاقي من عدد القضايا الاجتماعية مثلما كان شائعا في المجتمع المراكشي من مجالس الانس والطرب مـع اجـو ق من المطربات الخليعات يسمين ((العياطات)) .

امن شرف الانسان يدخل بيته ... عواهر من تنهاقهـا تتنغـم

يشاركهن الانس في بيت اهله ... وانه شيء يعـد اثـم مدمـم

بريك قل لي كيف تصبح من رات ... قرينتها بالامس تزهو وتنعم

عليها من التيجـان كـل مرصـع ... وفي جيدها العقد البديع المنظم

اما انها تصبو لفصـل قرينـــة ... ولو انها بين العقائـــق مرتـــم

وقد ابتليت بعض المجتمعات المراكشية آنذاك بعقد جلسات انس ليلية مع هؤلاء المغنيات الخليعات عناصرها الخمر والمجون والتفسخ المطلق يجري ذلك داخل البيت وعلى مراي من الزوجة والاسرة والاطفال كما لايرضى عـــن مظاهر اخرى مماثلة هي مظهر من مظاهر التخلف تجري في بعض المواسم كالمـــولـــد .

فـهل من دواء للعوائد انهـا ... اذا تركت في الجسم لاشك تعدم

اشـدخ رؤوس كلمـا حان موسـم ونهش افـاع نهشهـن محـرم

بل له موقف حتى من بعض القضايا الاسلاميـة والعربية كوعد بلفـور واحتلال القدس وقضايا سياسية عالمية كالمد النازي فى العالم .

ثم تحدث مظاهرات مراكش ضد الاستعمار بمناسبة زيارة وزير الاشغال العامة الفرنسي صحبة الجنرال نوكيس فاطلق الرصاص على المتظاهرين . واعتقل زعماء الحزب الوطني بالجنو بفتهيج الشاعر ليلتها ، ومزق ثيابـه من الغيظ ، وخرج ثملا الى الشارع فالتقى مخبرا فشتمه ممـا ادى بـه الى السجن ، لكنه لم يستنكف من ذلك بل يفخر بهذا الحدث فى حياته .

متى اخدرت الا الاسود الضراغم وهل اغمدت الا السيوف الصوارم

ومـا السجـن الا عالم متجـد ولـلـه في هـذا الوجـود عوالـم

دافع بهذا القول عن نفسه وعن اصدقائه الحميمين من الوطنيين الذيـن حجوا الى السجن بعد مظاهرات مراكش الصاخبة الاساتـذة : عـبد الـقادر حسن ـ وعبد الله ابراهيم ـ وغيرهما من الادباء والمناضلين ولا شك ان هذه الصداقة ان لم تستطع ان تخلق من الشاعر مناضلا في المواجهة فقد اثـرت في نفسه بالغ الاثر وهو يرى الفرق بين بطولتهم وجبنه ، وعزة انفسهـم وهوانه ، وجلدهم في الشدائد وخوره ، فحاول ان يلحق بهم في السجن ،

على ان لي في السجن متعة خاطر لقيت صحابا فيه من خيرة الصحب

شعورهم نحوى شعوري نحوهم واكلهم اكلي وشربهم شربي

ولربما يكون قد وضع فى سجن الوطنيين وعايش روحهم النضالية .

غير انه كان واقعا لاشك بين المد والجزر ، فلم يجد الشجاعة لاتخـاذ الموقف الحاسم بل يعود لمدح نفس الجلاد الذي يغضب من اعماله تسوقـه الحاجة اليه وما يزال مرجل الاستعمار يغلي وقوده المناضلون من ابناء هذا الشعب البررة يسامون من التعذيب والتنكيل صنوفا وينحدفعون الى النضـال من اجل تحرير الشعب المغربي بكل تفان وتضحية .

مجال الصفـــاء :

ويزور مصر في طريق عودته من الحج فيجد جوه المنشود ، ويتواجد في كل المحافل والمنتديات يشبع نهمه الى مثل هذه الاجواء التي كـان محروما منها بمراكش ويتوثب لاسماع صوته في كل مناسبة مستغلا كـل لحظة من وجوده في هذا الجو الممتع محاولا ان يثبت مكانتـه في قلـب الثقافة العربية .

عفوا اذا اكثرت مـن انشـادي	في كل ما من محفل او نـادي
ووقفت بيـن مصاقـع الخطبـاء والا	دباء موقف جائـع مـن زاد
كلا فما هـي بالقوافـي انمـا	اهات أعمـاقي وصـوت بـلادي

اما صوت بلاده فهو ما سياتي فيما بعد خلال القصيدة :

شهبندر الوطني الشهير بمشرق	بثبات مبدئه وصدق جهـاد
انـي اهنئكـم بنبـل عـزيمـة	بثباتها تربو علـى الاطـواد

والمفارقة الغريبة ان شاعريته استثيرت بثبات مبدء شهبندر في مجلس عابر ولم يثرها ثبات المناضلين مـن اصدقائـه المسجونين بمراكش ولم يثرها صمود الشعب المغربي في المذبحة الجماعية بعد مظاهرات مراكش.

كما انه يرسل قصيدته الى العقاد في سجنه بمصر ولايرسل الى احد من اصدقائه في سجنهم بمراكش او بالصحاري البعيدة باستثناء انته الحرى للزعيم علال الفاسي وصحبه من الوطنيين بفاس .

وتنطلق نفسه متوثبة تتصيد فرص القول وتتمتع بالجو الثقافي في مصر .

ليـس مصـر وطـنـالــي	غيـر ان القـلـب مصـري
نصـف شهـر مـر لـي فيهـا	فعمـري نصـف شهـر
ليت شعـري بعـدهـا كـيـ	ف اراني ليـت شعـري

يفسر انطلاقه في مصر اشياء .

1) غنى الجو الثقافي في مصر . والثقافة ليست مجالس الادب التي عرفها في مراكش فحسب والتي كان جوادها المفرد فشعراء مراكش اللامعون على رغم ما يربطه بهم من محبة عميقة صادقة يشوب علاقتهم شيء من التحفظ والفتور من حين لآخر بسبب اختلافهم العقائدي كزعماء للثورة ضد الاستعمار فيبقى في غالب الاحيان طائرا في غير سربه وفي مصر يعيش مجالس تضم من الفحول الانداد ويشعر بالتجاوب التام بين شخصه وبين الشعراء امثاله .

تريك من اعلام البيان بروضها اهازيج لو تشدو لأهازيج بالسحر
اذا هزت الاقلام في الطرس عطفها بايديهم تغني عن البيض والسمر
ومن سائس ان يدج ليل ملمة فمنهم وجود الراي تسفر عن بدر

ففيهم الشعراء والمفكرون والساسة زيادة على خصب أشكال الثقافة الاخرى من مسرح وغناء وما اشبهها .

وقد كتب قصيدة عن المطرب عبد الوهاب وقصيدة عن الممثلة فاطمة رشدي ، ولعله كتب غير هذا ايضا متجاوبا مع خصوبة مصر .

2) المكانة الادبية التي حظى بها فى مصر عززت ثقته فى نفسه وشاعريته عندما قارن مواجهة بينه وبين شعراء مصر الكبار فاكتشف انه لايقل مقدرة وتدفقا عنهم .

ولم الف من ابنائها غير سيد تالق وجها بالبشاشة والبشر

3) الحرية التي تمتع بها في مصر لاول مرة في حياته من وصاية الاب الى وصاية الكلاوي مستلبا في فكره مستلبا في روحه يفجر ثورته ضد شجانيه بالتفسخ الخلقي ولا يجد الشجاعة ان يرد السهم الى الصدور .

وتلخص قصيدته وداع مصر هذه العناصر كما يلي :

احن الى مصر وما انا من مصـر — ولكن طير القلب اعرف بالذكر

فلولا هوى مصر وحبـي لا هلهـا — لما كنت في قطر واصبحت في قطر

لي الله يامصر العزيـزة عنـدهـا — كفكف دمعي والقطار بنا يسري

كاني به تغلـي فراحل قلبـه — حنوقا ما أمسى الحنوق على غيـري

اانرك في مصر السعادة والهنـاء — واذهب اشقى حيث لااحد يدري

اانزح عن مصر واقصـد مغربـا — شقاء لعمر الحق للشاعر الحر

القبر حيـا ياعبـاد بموطني — نعم انه قبري نعم انه قبـــري

ولكم تؤلمني ياعباد هذه . ولكم يؤلمني « نعم انه قبري نعم انه قبري » يؤكدها بصبر وتوكل بعد شكواه يجاربها لكل عباد الله ان ينجدوه فيما هو مقبل عليه فى ارض المغرب .

سيبدو لنا التناقض خطيرا بين محاولته اسماع صوت المغرب في كل محافل مصر وهو داخل لهذا البلد .

المغرب الاقصـى اذكـروه كلمـا — كانت مدامعكم على استعداد

هو موطن الامجاد والانجاد من — اهليه يوم ندى ويوم طراد

ولسوف يرفع راسه ويصول مـا — بين الثعالب صولة الاســـاد

وقولـــــه :

هل انـا غير واحـد منكـم رو — حـا وقلبـا وغيـرة وطنيـة

واعتقـادا ومبدا ولسـانـــا — واعتــزازا بنخـــوة مضـريـة

بقدر ما اكد صوت المغرب داخلا مصر بقدرما تنكر له خارجا منها مغاليا في ذلك بالشكوى والالم . وهو يعطيك تفسيرا واضحا لذلـك . انه الضغـط والقهر من طرف الكلاوي الذي يعاني من اطباقه عليه حتى التمزق .

فما ثم قبر غيــر موت ووحشــة وانهما في عيشة الضغط والقهر
هوى مصر انساني هوى موطن غدا وفي هجره وصلي وفي وصله هجري
تسامي الى ان ابصر الغرب تحته ومد جناحيه ورفـرف كالصقر
ولكن كما شاء القضاء وكل مـا جرى به أمر الله في خلقه يجري
تراه تـدلى بيــن حيــن واخــر الى ان هوى والان قد حل في القعر
سكبت دموعي فوق صدري لاجله وليس بكاف سكب دمعي على صدري

هذا القهر الذي يعيش فيه والذي يتحكم فيه الموتورن كما سيسميهم ويعود لصيغة المفرد فيسميه الموتور وليس هذا الموتــور سوى ممدوحـــه الباشا الكلاوي بالذات ، واسياده الفرنسيين ، وامثاله من سدنة الاقطاع ، ممن يشكلون الجو القاتم للصورة والهم الجاثم على قلبها . هذا القهر لـــه ولوطنه ولبني وطنه لا يفعل تجاهه غير سكب الدموع . وهو فعل غير كاف يدل على العجز والخذلان ، كما لا يجهل هو ذلك بل يؤكـده تمامـا ويلتمس منالـه عـذرا .

غمضنا على مهد الغرور جفوننا ومـا اغمض الموتــور على وتــر
وقد حكموا احقادهم اذ تحكـموا فكانوا لئاما في التقاضي ذوي مكر
يعذبني مـن كان للشوق جـدوة فافزع للذكرى فتضرم من جمر

مع ذلك فهو مؤمن بحتمية انتصـار الثـورة الشعبيـــة ضـد الاقطـاع والاستعمار متعاطف معها ولسوف يرفع راســه ويصول بيــن الثعالب صولـة الاســـــاد .

على الرغم من تقربه من الكلاوي بامداحه فيه ، فقد يتوجس خيفـة منه ولا يامن منه على نفسه . وقد كان كما سبق طيب العواطف، ذا حس وطني ، يجعله متهما دوما امام الكلاوي،خاصة وله صداقة ادبية مع عدد من الشعراء الوطنيين اللامعين بل زعماء الوطنية بمراكش كالشاعر عبد القادر حسن والشاعر مبارك الفراس وآخرين،هذه الصداقة وحدها كانت كافية

لتجعله محط اتهام ، مع ذلك فانه لم يفرط فيها ولقد كان الوشاة يمشون الى الباشا بالاخبار عن اهاجيه فيه فتعرض مرة لتفتيش بيته مهاجمه يخشى ان يحادث نفسه بكراهية الكلاوي ويتحاشى اذاه بمدائحه زيادة على ما يحمله من مال يتعيش به وينفق منه على نزواته .

كان ممكنا ان يكتب قصائد سرية تعبر عن نفسه ومشاعره الصادقةوما يعانيه في الحياة وموقفه من جلاديه ومستعبديه ، قصائد ذاتية يحتفظ بها لنفسه كفنان بوهيمي له حياته الخاصة ، لكنه لم يكن يامن حتى على حياته الشخصية واسراره في ظل نظام الاقطاع والحمايات والاستعمار حيث جميع الناس املاك لكل قوى طاغية .

غلبت على امري وربي شاهد	وما حيلة المغلوب منه على امر
ولكنه كالبحر في الدهر صرفه	اذا طال مد البحر لابد من جزر
اخلاي عذرا منكم لي واعلموا	باني وحق الله اجدر بالعذر

وبعد :

فهل نعذره ، هل نعذر شاعرا كهذا فحلا قادرا على الذود عن وطنه بطاقة من الشاعرية دفاقة تسند ظهر الثورة اللاهبة وتعبىء الجماهير ، خاصة اذا جاءت من شاعر له مكانته وتقديره في المجتمع المراكشي بكافة طبقاته واوساطه مع ان نار الثورة ملتهبة والثوار الصامدون من مناضلينا مندفعون في تاجيجها حتى النصر لايتخاذلون بجلد ولا سجن ولا ابعاد وهو في قلب المعركة بشخصه واصدقاؤه هم اوراها فلا ينتصر لهم بل يرفع عقيرته بتبجيل الجلادين ومدحهم وهو موقف في صميم المعركة لكن في طرفها المقابل ضد الشعب والوطن بدل ان يكون بجانب الشعب والوطن يمجد جلاديه ويذود عنهم .

اذا لم نعذره نحن فقد عذره هؤلاء الاصدقاء الذين انتصر ضدهم وحافظوا على صداقته رغم كل شيء واحبوه كشاعر وعطفوا عليه كانسان وان كانوا اخذوه كمواطن ذى قدرة خاصة وكحامل لرسالة ، لانه شاعر .

شاعـر غنائـي :

لا احب ان امضي عن هذا الشاعر العظيم قبل ان القي طرفا الى جوانب عظمته أو شاعريته فقد اكن شاعرا عظيما ، لكن كيف ؟

الصـور الشعريـة :

اذا تصفحنا القليل من الشعر الموضوع بايدينا ، فاننا نلاحظ انه لا يعد وان يكون شاعرا يعبر عما يجده في طريقه عابرا كمن يتحدث بصوت مرتفع ينقل صورا امينة لمرئياته بعيدة فى الغالب عن التاثير المباشر فى النفس ، صورا حسية تدل على المهارة ولكنها لاتنبىء بالارتباط بالصورة والتاثر بها .

الحـب شـيء صعـب	والحـب مرغـوب
الحـب هـو الحـب	اللـه يـا خوانـي
الحـب منتـهـاه	تقبيـح مـا سـواه
والحـب مـا دواه	عنـدي سـوى التدانـي

ما عدا فى حالات الهجو والشكوى فتتجلى قصائده وصوره :

وذا الارعن المشدود بالحبل نصفه	متى ساس غير الضان جاز به وعرا

وقوله في قصيدة اخرى :

نواكس ابصار امامي فان اغـب	تطاول راس منهم وانبرى السب
ويضحكني منهم الـى تسابـق	ليخبرني خب بما قالـه خب
امـا يضحـك الكلب المهتم نابه	اذا هو عن انيابه كشر الكلب

وهي صور ذات حـدة وتاثير نفـاذ .

ونظرا لامتلاك الشاعر لناصية اللغة والموسيقى والقوافي،فقد كان يلقي شعره بيسر وسهولة كجرير ، يغرف من بحر تتميز اشعاره بغنائية طاغية

وموسيقى عذبة سيالة وكلمات هينة بسيطة ذات جرس لطيف يسايرها المتعلم البسيط ويطرب لها الرجل الشعبي ويتغنى بها الشعراء . انه يعبر عن افكاره بيسر وانسياب .

اللـغـة :

ويروقك في شعره نغمة خاصة جديدة على الشعر العربي نلاحظها من حين لاخر في تعابير من الدارجة الحلوة يدرسها في ابيات من قصائده كما يدل تعبيره .

فاصبح والشكوى الى الله وحده   وما المرتجي الاه أن يكشف الضرا

وتعبير الشكوى لله هو تعبير يدخل في لهجة النساء حال الشكوى من الم ما ، يدفعن بها ما يمكن ان تتصوره المستمعة من غيرة على سلامتها او مقارنة بين صحة الشاكية وسلامة المشتكي اليها فتقول لها في جملة اعتراضية :

اعاني ـ والشكوى لله ـ من كذا وكذا .

كما في قسمه « وحق الله » وهو قسم غير متداول في اللغه العربية بل هو تعبير دارج في :

اخلاي عذرا منكم لي واعلموا   باني وحق الله اجدر بالعذر

بل ان هذا اللفظ في القسم يرد خاصة في لغة النساء والاطفال يستعمله الرجال غالبا وانما يستعملون والله العظيم،او والله القسم او والله.

ومنها تعبير « غدا ننهيهم نهيا وامرهم امرا » الواردة فى اللهجة الدارجة .

وهل نكر مثـل الرعـاع تراهـم   غدا نهيهم نهيا وامرهم امرا

الموسيقـــى :

كما انه كان يختار من القوافي تلك السيالة الممدودة في الغالب كاللام الممدودة والراء

مع الايـام تلتئـم الجـــراح   وبعد الليل ينبلـج الصبـاح
فـلا تحـزن لحـادثـة تجلـت   فان الحزن يعقبـه انشـــراح

او كقوله في المـــدح :

للـه يومان تحكي غمض اجفان   من فرط بهجتها للـه يومـان
في منزل قد حوى كل المحاسن من   مني قلوب وابصـار واذان

وقـــولـــه :

في ذمة المولى العلـي الشـان   نم يا فقيـد العلـم والعرفـان
انا وقوف حول قبـرك خشـع   نبكي عليك بمد مع هتـــان

هذه قوافيه وجمال شعره وانسيابه ونصاعة لغته مادحا وراثيا ، فاحرى بـه حين يكون متغزلا او شاكيـا .

انا لا تطيب لـي الحيـاة بدونه   اسفي نطيب له الحياة بدوني
اه يا زيـد لقـد اضنيتني   وجمال وجهك كيـف لا يضنيـنـى

وقـــولـــه :

بما بيننا من حرمة ليها الصحب   دعوني وما يقوى على حمله القلب
الادع سعير الحقد يغلـي بقلبهـم   فان سعير الحقد في القلب لا يخبو

الغنـــي الفكري :

هذه العذوبة لايرافقها حظ من فكر او نظر مما يمكـن ان يغنـي النص بما يفيد او باراء يمكن ان تدل على منهج في الحياة او فلسفة خاصة يراها .

حتى وضعينه المضطربة لم يحاول ان يفلسفها او يعطيها تفسيرا كافيا خارج بيتين مفردين ربما كانا عفوا ولم يتقصد بهما شرحا وفلسفة للوضــع بـل يكتفي بتقبل نفسه على علاتها ، لا ينفذ الى افكاره وخلجاته ولايكون رايا عن الحياة ابدا ، وانما يعتبر الامور قضاء وقدرا ليس غير الزمن كفيـــلا بـاصـــلاحهـــا .

ولكنه كالبحر في الدهر صرفــة   اذا طال مد البحر لابد من جزر

يتوج بها لحظة التعب والالم النفسي الحاد الذي يعاني منهمه وهو مقبل على اتون الضغط والقهر في المغرب ولا يجد حكمة او تحليلا او نظرية ما يدلي بها عن الحياة والناس، والمجتمعات والبيئات، رغم قدرته في تلك اللحظة على مقارنة اوضاع الثقافة والحرية في مصر وبينهـا في المغـرب وفـي مراكـش بالذات ثم لاتجد تجاه وضعينه المقهورة ما ديا ومعنويا سوى :

فلنلـــذ بالصبـــر فـيــــه   انـــه خيـــر وابقـــــى

ولا يـــزيد على ان يسلم امره للقدر ويتذرع بالصبر ولا يتعب نفسه في التفكير باي شي كان ، حتى افكار قصائده لايصوغها مختارا وانما ياخذ هـا من الافكار العادية المتداولـــة .

التجربة الشخصية :

ولاعطاء فكرة عن تجربة. ما عاشه من احداث وتقلبات وآلام ، فاننا لا نعثر على صدى معاناتها في قصائده ، اذا بحثنا عما يهزنا من الآلام التي عاناهـا ومن التجربة الشقية التي مر بها على حدتها لا نجد منها في الغالب الاصورا باهتة منطفئة ولكنها رشيقة جذابة كقصيدة الفار وكاعترافاته التـي تلخص شخصيته ومواضعاتها وما خضعت له من مؤثرات وحتى عندمـا يتحدث فـي

الميتم الخيري عن البؤساء يبدو مستجديا عاديا ، يملأ قصيدته بالآهات لا اكثر ولا اقل ، ولا يؤثر كما يؤثر الرصافي الذي اتخذه نموذجا له في هذه القصيدة ، بهز المشاعر او تبكيت الضمير او التذكير باحدى نظريات فائض الانتاج حتى نظرية الاسلام التي لاشك يتقنها لم يستلهمها في هذه القصيدة :

هذا الضعيف امامكم مترحما	يرجو النوال فهل لديك نوال
هذا ابو الايتام خلفك سائلا	وابو اليتامي دابه التسآل
اه لارملة تقود صغارها	والدمع في اجفانهم هطال
اه لها اه لها اه لها	لو كان يجدى اه حين يقال
اه لا طفال تجود بنفسها	في حجرام دمعها سيال
اه لا شباح تفاني جسمهم	فكانهم لشحو بهم اطلال

لحسن الحظ ، فقد اصدر النقاد الحكم على امير شعراء مصر احمد شوقي . ومع ذلك توجوه على امارة الشعر ، فلا يجدر بنا الا ان نفعل مثلهم لنتوج شوقي مراكش شاعر الحمراء امير شعراء المغرب ، بيعة عبر عنها الاستاذ عبد المالك البلغيثي احد معاصريه من الشعراء المجيدين ، ولسنا سوى خلف امين .

ونحن نشرف على نهاية الحديث نجد انفسنا امام هذا التداعي الذي يفرض علينا نفسه في كل خطوة نخطوها في دراسة هذا الشاعر العظيم ، وفي موقفه من عصر النهضة ، في غرب البلاد العربية التي ترجع اصداء ما يجري في الشرق وتتلقى نتاجة ، وتتابع التيارات الثقافية والايديولوجية فيه كما تتابع ثورته وانتفاضاته .

لذلك سنقف وقفة تساعدنا على النظر في ثقافتين متقابلتين وشخوص متناظرة .

فمحمد بن ابراهيم حقا هو شوقي مراكش ، من طبقة بورجوازية مثلـه نهل من نفس منابع ثقافة شوقي ـ باستثناء فترة باريز ـ لكنه معذلكحاول ان يقلده فى كتابة المسرح الشعري،عندما كتب مسرحيته الشعرية عنالفرق بين القديم والحديث في جامعة ابن يوسف ، والتي وفق فيها الى حدما ، كما ان خصائص شعر كل من اميري الشعراء في مصر والمغرب متقاربة ، فأميـــر شعراء مصر كشاعر الحمراء : شاعر فياض ، باهت التجربة في الغالب ، مسلم قياد فكره ، واقع من قبضة الخديوى ، هاجمه صاحب الغربال ، وبايعه حافـظ بأمارة الشعـــر .

مـراكـش　　　　　　　　　　　　　　　　　　مالكـة العـاصمي

تاريخ بغداد
للمؤرخ ابن النجار البغدادي

د. بدري محمد فهد

بدات كتابة التاريخ عند العرب بجمع سيرة الرسول (ص) ثم تطورت فاصبحت تشمل انواعا من التواريخ بعضها يندرج تحت عنوان معين ، وبعضها يندرج تحت اكثر من عنوان واحد ، وقسم ثالث لا يندرج تحت عنوان انما يكون لكل كتاب فى هذا القسم الاخير لونه الخاص به . لهذا وجدنا التاليف فى التاريخ عند العرب والمسلمين بعضها فى سيرة النبي (ص) وهذا النوع من التاليف بدا عند ابناء الصحابة ابان بن عثمان، وعروة بني الزبير وغيرهما واستمر طوال العهود المتتالية ولما ينتهي بعد . وبعضها فى سيرة الحكام والمشهورين كالخلفاء والسلاطين والوزراء ورجال التصوف والفقهاء امثال سيرة عمر بن الخطاب (ض) ، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ، وسيرة ابراهيم بن المهدي لابن الداية ، وسيرة احمد بن طولون للبلوي وسيرة الوزير يحيى بن هبيرة لابن المارستانية وسيرة معروف الكرخي لابن الجوزي ، وسيرة الامام احمد بن حنبل لابن الجوزي ايضا وسيرة القاضي عياض التي كتبها ابنه . وبعضها فى تواريخ المدن مثل كتاب وفاء الوفاء باخبار دار المصطفى للسمهودي

والدرة الثمينة فى اخبار المدينة لابن النجار البغدادي . وبعضهـــا فى تواريخ الفتوح للواقدي . وكتاب فتوح البلدان للبلاذري . وكتب الانساب مثل انساب الاشراف للبلاذري وجمهرة انساب العرب لابن حزم الاندلسي، وسلسلة الذهب فى نسب سيد العجم والعرب لابن دحية الكلبي . ثـــم كتب تواريخ الدول سواء كانت متخذة الخلفاء والامراء محورا لها او سائرة على نظام الحوليات مثل أخبار المهدي بن تومرت وابتداء دولة الموحدين لابي بكر البيدق الصنهاجي ، والسلوك فى معرفة دول الملوك للمقريزي ، وتاريخ الخلفاء للسيوطي ، وكتب الحوليات وهي اما ان تكون مقصورة على الاحداث العامة السياسية تؤرخ لسنة بعد سنة ، ولعل من اشهرها تاريخ الامم والملوك للطبري او أن تجمع بين السنين والوفيات مثل تاريخ ابـــن الاثير ، وهناك نوع آخر من كتب التاريخ لا يندرج تحت عنوان كما اشرنا مثل كتاب نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة للقاضي التنوخي ، الذي حوى مادة تاريخية طيبة الا انه سار على اسلوب كتاب الف ليلة وليلة . وعلى منواله الف غرس النعمة الصابي كتابه الربيع وكذلك عمل المؤرخ ابن النجار البغدادي كتابا على طريقة النشوار قيل عنه انه التقطـــه من افواه الرجـــــال .

واخيرا كتب الرجال وهي أصناف وانواع ولعلها اوسع واكثر كتـــب التاريخ عند العرب والمسلمين . ومن انواعها كتب الطبقات ، وكتـــب الوفيات وتوابعها من ذيول ومستدركات . وكتب المشيخات والمعاجـــم والاثبات والفهارس ، ورجال المدن الاسلامية مثل تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ، وذيله تاريخ بغداد لابن النجار وتاريخ دمشق لابن عساكـــر وكتاب الكوكب الوقاد فيمن حل بسبتة من العلماء والصلحاء والعبـــاد للحضرمي . وكتاب جذوة الاقتباس فيمن حل من الاعلام مدينة فاس لابن القاضي ، فهذه الكتب تعد من كتب الرجال كما تعد من تواريخ المدن لما تحويه فى مقدماتها من معلومات عن نشاة هذه المدن وعن خططها .

ويطول بنا الامر لو ذكرنا كل انواع كتب التاريخ او مثلنا لها ونكتفي بما اوردنا ونقتصر على ابن النجار كلون من الوان كتب الرجال فنقول :

(أ) المؤلـــــــف

1 ــ نشأتـــــه وحياتـــــه :

محمد بن محمود بن الحسن بن هبة الله بن محاسن الحافظ الكبير محي الدين ابن النجار البغدادي المؤرخ الاديب الشافعي (1) .

ولد ابن النجار في ذي القعدة سنة 578 هـ ببغداد (2) ولم يذكـــر مترجموه بعد ذلك شيئا عن حداثته أو نشاته . الا أننا وجدناه يشير الى بعض الامور المتعلقة بحياته في اثناء تاريخه عرفنا منها انه عاش يتيما بعد ان فقد اباه وهو ابن سبع سنين وان اخاه علي بن محمود البزاز الامين هو الذي كفله ورباه ورعاه وكان يحمله معه الى الجامع في ايام الجمعة وايام العيدين ، وانه أخذه معه وهو ابن تسع سنوات الى الحج ومعهما والدتهما فكان يحمله على عنقه ويريه مناسك الحج ويطوف به حول المشاهد وهو الذي ادبه وثقفه فكان له نعم الاخ والاب معا . واذا علمنا ان اخاه هذا كان من المولعين بالعلم الهاوين له ومن البارعين في الرياضيات استطعنـــا أن ندرك تاثيره الكبير في نشاة ابن النجار فقد امدنا بهذه المعلومات عنه اثناء ترجمته فكان من جملة ما ذكره عن أخيه انه جمع كتابا جليلا في الفرائض « ذكر فيه كل فريضة تقع في الدنيا وقسمتها » الا ان هذا الكتاب قد فقد في جملة ما فقد من مال الرجل بعد قتله . وكان من جملة ما وصف بـــه أخاه أنه قرأ الفرائض والحساب حتى برع فيهما وصار اعـــرف زمانـــه بقسمة التركات اضافة الى معرفته بالجبر والمقابلة حتى انه كان يستخرج العويص من المسائل من غير أن يكتب بيده شيئا . وقد صحبه ابن النجار يوما الى شيخه ابي البقاء ابن العكبري وطلب من شيخه ان يسال اخـــاه مسائل رياضية عويصة فلما ساله الشيخ اجابه على من غير توقـــف ولا طول فكر مما اعجب الشيخ فطلب منه أن يفتي فيما يعرض عليـــه فكان يفتي الى ان مات .

1ـ2) ياقوت الحموي : معجم الأدباء 7 : 103 ، ابن القوطي : تلخيص مجمـــع الاداب في معجم الالقاب ج 5 ص 18 ، ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات 2 : 522 .

وكان ابن النجار يقرأ عليه مسائل رياضية سجلها عن بعض شيوخه (ابي بكر الأنصاري الحاسب المعروف بقاضي المارستان) ويخفي جوابها عنه فكان يفتكر قليلا ثم يجيبه الجواب الموافق لما كتبه ذلك الشيخ في كتابه ولم يكن ملما بالرياضيات والفرائض وحسب بل كان يحفظ كثيراً من الاناشيد والحكايات والاخبار وايام الناس والتواريخ . وقد جاءته هــذه المعرفة من كثرة اختلاطه بانواع من الناس من خــلال اسفاره الى الشام ومصــــر .

وقد سمع ابن النجار منه وعلق عنه كثيرا من الحكايات والاناشيــد والتواريخ ولم تكن هذه صفات الرجل فقط بل كان كثيرا الصوم والصلاة والذكر والقراءة للقرءان وايراد الاوراد في الليل والنهار كما كان كثيــر الصدقة . دائم المعروف محتاطا في اخراج الزكاة ، مسارعا الى قضـــاء حوائج الناس . محبا لأهل الخير ولهذا ترحم عليه اكثر من مــرة وسماه الشهيد . وقد جعلته اخلاقه الفاضلة هذه مشهورا في سوقه معروفـــا بعدالته وكان يبيع البز في دكان له في خان الصفة في سوق الثلاثاء في الجانب الشرقي من بغداد ولقد تسامع به ابو القاسم الدامغاني قاضــي القضاة فرتبه ناظراً في اموال الايتام ، ومن هنا لحقه لقب الامين . وقــد بقي في مركزه حتى عزل قاضي القضاة ، فقبض على علي وقتل . وقــد سكت ابن النجار عن ذكر تفاصيل هذه المسالة واكتفى بقوله متوجمــا « وعند الله يجتمع الخصوم » ثم ذكر سنة وفاته وهي سنة 611 هـ وانه صلى الله عليه بالمدرسة التاجية ودفن عند قبر والده بباب ابرز (3) .

وقد أشار ابن النجار الى جده لامه عند ترجمته لابي محمد عبد الله ابن احمد بن محمد بن قدامة المقدسي الجماعيلي المتوفي سنة 620 هـ بقوله « وكان جدي لامي قد آخذ منه الاجازة له ولاولاده » (4) . وهــذا كل ما عرفناه عن عائلة ابن النجار ولعل ظهور بعض اجزاء كتابه التي مــا

---

3) ابن النجار : تاريخ بغداد : ورقــة 36 ب .
4) ابن الفوطي : تلخيص مجمع الآداب ج 5 كتاب الميم ص 857 .

تزال مفقودة او ظهور مضان اخرى فيها اقتباسات عن ابن النجار سوف تمدنا بمعلومات اخرى عن حياته ونشاته وعن افراد عائلته .

اما ما يتعلق بدراسة الاولى فقد ذكرها صاحب كتاب الحوادث الجامعة بقوله انه ((حفظ القرءان المجيد وقرا علم النحو وسمع الحديث وبرع فى كتابة الحديث وقرا علم الادب وسافر ...)) (5) .

ويبدو ان ابن النجار لم يكن يمارس صنعة غير طلب العلم فى حداثته يوضح ذلك كثرة اسفاره وتنقلاته بين بغداد وعواصم العالم الاسلامي ومدنه . وقد ذكر ابن قاضي شهبة انه اول سماعه كان وهو ابن عشر سنين ، وطلب بنفسه سماع العلم من المشايخ وهو ابن خمس عشرة سنة (6) ثم ذكر مترجموه انه رحل رحلة عظيمة استمرت سبعا وعشرين سنة ، وقيل ثماني وعشرين سنة يطلب فيها العلم (7) وهذه الرحلة قد فاقت رحلة البخاري المشهور والتي دامت ست عشرة سنة (8) ولقد

صرح ابن النجار برحلاته الطويلة هذه فى اثناء كلامه على شيخه ابن سكينة البغدادي حيث قال : ((ولقد طبقت شرقا وغربا ورايت الائمة والعلماء والزهاد فما رايت إكمل منه ولا اكثر عبادة ولا احسن سمتا ، صحبته تقريبا من عشرين سنة ليلا ونهارا وتادبت به وخدمته وقرات عليه القرءان بجميع مروياته وقراءاته ، وسمعت منه اكثر مروياته ، وقرات عليه الكتب المطولات واستفدت منه كثيرا . وكان ثقة صدوقا حجة نبيلا وكان من اركان الدين والدنيا ، وعلما من اعلام المسلمين)) . فابن النجار يؤكد كثرة اسفاره الا ان السؤال المطروح على بساط البحث هو متى بدات تلك الاسفار ؟ وفى اى عهد من حياته ؟ الراجح انها بدات بعد وفاة شيخه ابن سكينة او قبلها بقليل وقد توفي الشيخ سنة 607 هـ . وعمر ابن

---

5) مجهول : الحوادث الجامعة والتجارب النافعة فى المائة السابعة : 205 .
6) ابن قاضي شهبة : طبقات الشافعية من شذرات الذهب 5 : 226 .
7) ياقوت الحموي : معجم الادباء 7 : 103 ، ابن شاكر 2 : 522 .
8) بروكلمان : مادة البخاري ـ دائرة المعارف الاسلامية 3 : 419 .

النجار تسع وعشرون عاما . وكلامه عن شيخه وطول مدة ملازمته يؤيد قول مؤرخيه انه بدأ بالسماع وهو ابن عشر سنين .

أما رحلات ابن النجار فكانت الى بلاد الشام وبيت المقدس ومصر والحجاز وقد جاور بمكة فترة من الزمن (9) وبخارا فيما وراء النهر (10) وزار من مدن خراسان الكبيرة مرو وهراة ونيسابور ، وزار بلاد الغور ، وأذربيجان . ومن بلاد الجبل زار اصفهان وهمدان ، وقد سمع في كل بلد دخله وقرية نزلها أو مر بها ولهذا اشتملت مشيخته على ثلاثة آلاف شيخ واربعمائة امرأة (11) وتؤيد نقوله عن اشياخه المنتمين لهذه البلدان وصوله اليها . ومع ان كتاب ابن النجار لم يصل الينا كاملا وما وصل منه كان أقله اضافة الى النقول عنه في المراجع المتاخرة ، لذا لم نجد رواياته عن مشايخه في بعض هذه البلاد كاليمن والغور واذربيجان .

وكانت حصيلة هذه الاسفار البعيدة والطويلة ان جمع ابن النجار مجموعات كثيرة تزيد على أربعين كتابا كان منها (تاريخ بغداد) .

أما تفصيل امر هذه الرحلة الطويلة فلم يتعرض لها أحد ممن ترجم له فيما وقع بايدينا من المصادر ، الا أن في هذا القسم المتبقي من كتابه اشارات الى حياته المعنا الى بعضا فيما سلف وفي بعضها الآخر اشارات تتعلق باسفاره وردت استطرادا منها قوله انه كان ببغداد في سنة 596 هـ وذلك في اثناء ترجمته لعبد المنعم بن علي بن نصر بن الصيقل الفقيه الحنبلي حيث قال : « قدم بغداد في صباه سنة 578 هـ طالبا للعلم ... وعاد الى حران .. وقدم علينا سنة 596 هـ فكان يسمع معنا على مشايخنا » . فابن النجار هنا كان ببغداد وعمره آنذاك ثماني عشرة سنة ، ولعله لم يكن قد سافر بعد . وفي سنة 601 هـ تراه ببغداد ايضا حيث

---

9) ابن الدبيثي : ذيل تاريخ مدينة السلام بغداد : مخطوطة مصورة في مكتبة كلية الآداب (للدراسات العليا) ورقة 139 (أ) ، مجهول : الحوادث 205 .

10) الصفدي : الوافي بالوفيات 4 : 394 .

11) مجهول : الحوادث : 205 .

يقول عند ترجمته لعبد المنعم بن عمر الغساني الجلياني الاندلسي : ((انه دخل الشام ثم بغداد في صفر سنة احدى وستمائة ، ونزل بالمدرسة النظامية ... وكتبنا عنه كثيرا من نظمه ... وسالت عبد المنعم عن مولده فقال في يوم الثلاثاء سابع المحرم سنة 531 هـ بالاندلس)) .
فابن النجار اذن كان ببغداد وقد اتصل بهذا الاندلسي وسمع منه وكتب عنه ، وساله عن مولده . ويفهم من هذه الترجمة انه لم يبق بعد هذا التاريخ ببغداد اذ نراه في السنة التالية بدمشق حيث يقول عند اتمامه لترجمة عبد المنعم الاندلسي بذكر وفاته ((وسالت ولده بدمشق عن وفاته فقال توفي في الثاني والعشرين من ذي القعدة سنة 602 بدمشق)) .
فهل ابتداء سفره اعتباراً من هذه السنة وباتجاه دمشق اولا ؟ هذا ما لا نستطيع البت به الا اننا نتابع اشاراته القليلة فنجده في سنة 607 هـ بالحجاز يؤدي فريضة الحج ففي اثناء ترجمته لعبد الملك بن محمد الصوفي البروجردي ((... ودخل بغداد وسافر الى بلاد الشام ... وقدم بغداد وسكن برباط المرزبانية عند شيخنا عمر بن محمد السهروردي ثم سافر الى مكة وحج معنا في سنة 607 هـ)) وتتابعه في اشاراته هذه فنجده ببغداد في سنة 609 هـ يلتقي بعلي بن بكتمش بن عبد الله التركي العمري النحوي الذي ولد ببغداد وتلقى العلم على يد رجاله فيها ، ثم سافر الى الشام ولبث فيها مدة ثم ((قدم علينا بغداد في سنة 609 هـ ورايته بها وقد كنت رايته قبل ذلك بدمشق)) ثم نجده بالموصل يدخل دار علي بن احمد ابن علي بن هبل البيع الطبيب المتوفي سنة 610 هـ ليقرأ عليه جزءاً كان قد سمعه من ابن السمرقندي . وليكتب بعد ذلك تاريخ ميلاده بسؤاله المباشر عنه ان ابن النجار لم يقل صراحة انه كان في سنة 610 هـ بالموصل بل ذكر المترجم وكيف انه طوف البلاد الاسلامية ثم استقر اخيرا بالموصل الى حين وفاته في السنة المذكورة . والارجح انه كان في هذه السنة في مدينة الموصل لانه يشير في موضع آخر انه خرج الى خراسان ولم يعد الى بغداد حتى سنة 612 هـ اي انه امضى سنتين في سفرته هذه فلعله بداها بالموصل ومن ثم عرج الى المشرق فهو في اثناء ترجمته لعلي بن احمد بن تطوشا ((.. قدم علينا في بغداد قبل رحلتي الى خراسان فسمع منه اصحابنا ، وتوفي قبل عودتي الى بغداد ... سنة

612 هـ » الا ان ابن النجار ما لبث ان غادر بغداد فوجدناه بعيدا عنهـــا سنة 617 هـ فعند ترجمته لعلي بن ابي بكـــر ابن سليمـــان المعلتـــاي « ... قدم بغداد حاجا فى صفر سنة 617 هـ وحدث بها عن ... وكنت اذ ذاك غائبا عن بغداد » ثم نراه بمصر سنة 621 هـ حيـــث يقول عنـــد ترجمته لعلي بن ابراهيم القرشي المخزومي الذي سمع من البوصيري « ولما دخلت مصر فى سنة 621 هـ صادفته هناك (اى البوصـــري) شيخا مهيبا يشهد عند الحكام فيقبلون شهادته » واخيرا استقر ببغـداد سنة 624 هـ وانصرف لكتبه وتلاميذه حتـــى اذا فتحـــت المدرســـة المستنصرية ببغداد سنة 637 هـ (12) عين فيها استاذا لعلم الحديـــث فاجاب الى ذلك واستمر على عمله حتى توفي (13) . وكان قبل وفاته قد اوقف كتبه للمدرسة النظاميـــة (14) .

ان هذه الاشارات القليلة عن حياته واسفاره التي وردت استطرادا خـــلال ترجماتـــه كانت من خـــلال استعـــراض الجـــزء العاشـــر والجزء الحادي عشر اللذين بقيا من كتابه على حد معرفتنا الحالية ، ولعل وصول بعض مؤلفاته الاخرى او قطعا اخرى من كتابه سترسم لنا صورة اوضح عن نشاطه العلمي ، وتجيب عن كثير مما يرد على بالنا من اسئلة تتعلق بحياته وطريقة حفظه وقراءته وكيف كان يحمل اوراقه ودفاتـــره يسجل بها مواد تاريخه الكبير خلال هذه الاسفار البعيدة .

مؤلفـــاتـــــــه :

لقد وردت اسماء مؤلفاته لدى الادباء والمؤرخين فى عهده او بعـــد وفاته وتداولتها الايدي ولهذا حدث بعض الاختلاف والتداخل فى اسمائها وقد جعلنا ما ورد عند ياقوت الحموي هو الاصل ثم اشرنا الى الاختلاف

---

12) انظر عن هذه المدرسة : ناجي معروف : تاريخ علماء المستنصرية .
13) مجهـــول : الحـــوادث : 205 .
14) ابن شاكر : فوات الوفيات 2 : 522 وتعود نشاة المدرسة النظامية الى همة الوزير السلجوقـــي ـ نظام الملـــك المتوفـــى 485 هـ .

بالنسبة لبقية المؤرخين ، واضفنا ما وجدناه عند غير ياقوت من المؤرخين فكان مجموعها اربعة وعشرين كتابا ، بينما يعدها صاحب الحوادث الجامعة بما يزيد على أربعين كتابا (15) .

1 ـ اخبار المشتاق باخبار العشاق ـ ذكره الصفدي باسم (اخبار العشاق) (16) .

2 ـ الازهار فى انواع الاشعار .

3 ـ تاريخ بغداد ـ وهو موضع بحثنا .

4 ـ جنة الناظرين فى معرفة التابعين .

5 ـ الدرة الثمينة في اخبار المدينة ـ وقد نشر مع كتاب (شفاء الغرام باخبار البلد الحرام) ج 2 لابي الطيب تقي الدين محمد بن احمد الفاسي المتوفي سنة 832 هـ ـ مصر الحلبي سنة 1956 م .

6 ـ روضة الاولياء فى مسجد ايلياء .

7 ـ الزهر فى محاسن شعراء العصر ـ ذكره الصفدي هكذا (انوار الزهر في محاسن شعراء العصر) (17) .

8 ـ سلوة الوحيد .

9 ـ الشافي في الطب .

10 ـ شرح حرز الاماني للشاطبي (18) .

---

15) مجهول : الحوادث : 205 .

16) الصفدي : الوافي بالوفيات 5 : 10 .

17) الصفدي : الوافي بالوفيات 5 : 10 .

18) البغدادي : هدية العارفين 2 : 122 .

11 ـ شـرح المفصـل للزمخشـري (19) .

12 ـ العقد الفائق في عيون اخبار الدنيا ومحاسن تواريخ الخلائق ـ ذكره الذهبي باسم (العقـد الفائـق) (20) .

13 ـ الفوائد العوالي والفوائد الغوالي ـ ذكر هذا الكتاب باسماء مختلفة

لدى المؤرخين ، فابن شاكر ذكره هكذا (غرر الفوائد) (21) كذلك ابن العماد الحنبلي نقلا عن ابن شاكـر . وقال انـه يقـع في ست مجلدات (22) وسماه الذهبي (العوالي) (23) وعده كتابا آخر غير كتاب (عيون الفوائد) الذي نقل اسمه عن ابن شاكر وقال انه يقـع في ست مجلدات (24) وسماه الصفدي (غرر الفوائـد) وقال انـه في ست مجلدات (25) . وورد عند البغدادي (عيون الفوائد) وانـه في سـت مجلـدات (26) .

وانه غير كتاب (غرر الفوائد) (27) ، وهناك كتـاب آخر ذكـره الصفدي باسم (مجموع غرر الفوائد ومنشور درر القلائـد) (28) ، ولا ندري ان كان هذا الكتاب هو نفسه الذي اختلف فيه المؤرخون ام انـه الكتاب رقم (18) الذي لم يذكر اسمه واكتفى بالقول انه « نحا فيه نحو نشوار المحاضرة ... » (29) .

19) ن. م.
20) الذهبي : تذكرة الحفاظ 4 : 1459 .
21) ابن شاكر : فـوات 2 : 522 .
22) ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب في أخبار من ذهب .
23) الذهبي : تذكرة الحفـاظ 4 : 1429 .
24) ن. م.
25) الصفـدي : الوافـي بالوفيـات 5 : 10 .
26) البغـدادي : هديـة 2 : 122 .
27) البغدادي : هدية العارفين 2 : 122 .
28) الصفـدي : الوافي بالوفيـات 5 : 10 .
29) نشوار المحاضرة واخبار المذاكرة ـ للقاضي التنوخي (ت 384 هـ) كتاب يجمع بين التاريخ والادب سلك فيه المؤلف أسلوبا خاصا قريبا من اسلوب الف ليلة وليلة وقد نحا نحوه غرس النعمة الصابي في كتابه الربيع ، والكتاب المذكور اعلاه هـو الثاني بعد كتاب الربيع على نهج النشوار .

14 ـ القمر المنير في المسند الكبير ـ ذكر فيه الصحابة الرواة وما لكل واحد من الحديث . قال الصفدي عنه انه « ذكر فيه كل صحابي وما له من حديث » (30) .

15 ـ الكمال في معرفة الرجال ـ كتاب جمع فيه رجال الكتب الستة (31) .

16 ـ كنز الانام في معرفة التسنين والاحكام ـ اورده الذهبي هكذا (كنز الامام في السنن والاحكام) (32) وتابعه الصفد (33) وذكره ابن شاكر هكذا (كنز الانام في معرفة السير والاحكام) (34) .

17 ـ المتفق والمفترق في نسبة رجال الحديث ـ جعله الذهبي كتابين الاول (المتفق والمفترق) والثاني (نسبة رجال الحديث الى الآباء والبلدان) (35) وكذلك تابعه الصفدي (36) وابن شاكر (37) والاشرف الرسولي (38) . وقال الصفدي واصفا الكتاب بانه « على منهاج كتاب الخطيب » (39) .

18 ـ مجموع نحا فيه نحو نشوار المحاضرة للتنوخي ، التقطه من افواه الرجال .

19 ـ المختلف والمؤتلف ـ ذيل به على كتاب الامير ابن ماكولا .

---

30) الصفدي 5 : 10 ، وكرر ذلك البغدادي : هدية 2 : 122 .
31) الكتاني : الرسالة المستطرفة : 208 .
32) الذهبي : تذكرة الحفاظ 4 : 1429 .
33) الصفدي : الوافي بالوفيات 5 : 10 .
34) ابن شاكر 2 : 522 .
35) الذهبي : تذكرة 4 : 1429 .
36) الصفدي : الوافي بالوفيات 5 : 10 .
37) ابن شاكر 2 : 522 .
38) الاشراف الرسولي : المسجد المسبوك .
39) الصفدي 5 : 10 .

20 ـ معجـــــم الشيـــــوخ .

21 ـ مناقــب الامــام الشافعــي .

22 ـ نزهة الطرف فى اخبــار اهل الظــرف .

23 ـ نزهة الورى فى اخبار ام القرى (40) ـ ورد عند الذهبي (نزهــة الورى فى ذكر ام القرى) نقلا عن ابن الساعي (41) ولعل نفســه الذي ورد فى الرسالة المستطرفة (تاريخ مكة وما جاء فيها مــن الآثار) . وورد عند ابن شاكر باسم (نزهــة الورى فى اخبــار القــرى (42) .

24 ـ نهــج الاصابــة فى معرفــة الصحابــة (43) .

يتضح من مؤلفات ابن النجار هذه انه تناول فى البحث السير حيث كتب عن الشافعي وعن رجال بعض المدن الاسلامية كبغداد ، وهــو مــا سنتناوله بالتفصيل وعن الحديث النبوي سواء ما يتصل باسنــاده او مصطلحه او رجاله ، او المتفق والمفترق ، او المختلف والمؤتلف او نهج الاصابة . ومن نافلة القول ان تاريخ بغداد وضع فى الاصــل لرجــال الحديث فهو يشترك مع هذه الكتب فى خدمة علم الحديث ورجاله . لهذا وصفه الذهبي فى تذكرة الحفاظ بقوله « جمع فاوعى وكتب العالي والنازل، وخرج لغير واحد ... » وتناول الطب بالبحث ايضا . والتاريخ العــام كما يفهم من كتابه العقد الفائق . وجمعت بعض مؤلفاته بين الادب والتاريخ مثل كتاب اخبار المشتاق والكتاب الذي نحا فيه نحو نشوار المحاضرة للتنوخي . ويبدو لي ان هذا الكتاب لو وصل الينا وسلم من عادية الزمن لأمدنا بمعلومات طيبة عن عصر ابن النجار خاصة وانه ماخوذ (من افواه

---

40) الاشراف الرسولي : المسجد المسبوك : ورقة 168 (ا) وفيات 643 هـ .

41) الذهبــي : تذكــرة 4 : 1429 .

42) ابن شاكر : فوات 2 : 522 ، الكتاني : الرسالة المستطرفة : 134 .

43) ن. م.

الرجال) كما ورد في عنوانه ، اي ان معلوماته غير مستندة الى المصادر المكتوبة بل من المشايخ المعاصرين له ومن مجالسه والمجالس التي كان يحضرها . وهذا ما فعله التنوخي في مشواره وقد كان لصاحب هـــذه السطور دراسة معمقة عن النشوار (44) كشفت عن مكنوناته التاريخيـــة واسلوبه الادبي الشيق . وتناول ابن النجار الفقه في دراساته ايضا يوضح ذلك كتابه كنز الانام . وتظهر ميله الادبي وولعه بالشعر فقد خصص لـــه كتابين الاول كتاب الازهار في انواع الاشعار . والثاني الزهر في محاسن شعراء العصر ، ولا عجب في ذلك فقد كان هو نفسه شاعرا . وقد وصف شعره ياقوت الحموي وقال عنه بانه كان « له شعر حسن » واورد له ثلاث مقطعات من شعره ولم تقتصر جهوده على التاليف فقـــط بـــل تنـــاول بالشرح بعض المؤلفات السابقة مثل شرح حرز الاماني للشاطبـي وشرح المفصل للزمخشري .

وابن النجار كغيره من المؤلفين السابقيـــن لـــه او المعاصريـــن والمتاخرين ايضا ممن يستريح الى الدعابة والظرف بعد العناء وتعب البحث المتزن فيؤلف فيها كما الف الخطيب البغدادي عن البخلاء (45) . وكما كتب ابن الجوزي عن الظراف والمتماجنين والحمقى (46) ولهذا وجدنا له كتاب نزهة الطرف في اخبار اهل الظرف .

فحصيلة هذه المؤلفات اذن جعلت ابن النجار فقيها اديبا محدثـــا مؤرخا ، فاذا اضفنا اليها كونه حافظا عرفنا مكانته في دنيـــا الثقافـــة في عصـــــره .

ب) تاريـــــخ بغـــــداد :

وصف الكتاب ، ان تاريخ ابن النجار لم يصل الينا كاملا كما اشرنا من قبل لا سيما جزءه الاول الذي يحمل اسمه واكتفى اغلب المؤرخيـــن

44) نشر باسم (القاضي التنوخي وكتاب النشوار) مطبعة الارشاد ـ بغداد 1966 .
45) نشر كتاب البخلاء للخطيب البغدادي بتحقيق الدكتور احمد مطلوب .
46) ونشرت كتب ابن الجوزي المشار اليها اكثر من مـــرة .

الذين ذكروه بتسميته بتاريخ بغداد او ذيل تاريخ بغداد فاقدم فى ذكره ياقوت الحموي البغدادي (ت 626 هـ) حيث قال فى اثناء تعداد كتب ابن النجار ((وله التصانيف المتعة ومنها تاريخ بغداد ، ذيل به على تاريخ مدينة السلام للحافظ ابي بكر احمد بن علي الخطيب البغدادي ، واستدرك فيه عليه ، وهو تاريخ حافل دل على تبحره في التاريخ وسعة

حفظه للتراجم والاخبار)) (47) . وكلام ياقوت هذا يدل على انه راى الكتاب عند صاحبه . وقد كانت له علاقة صداقة مع ابن النجار فقد عرفه بقوله ((صاحبنا الامام محب الدين ابن النجار البغدادي الحافظ المؤرخ الاديب ..)) . ووصفه بقوله ((كان اماما حجة حافظا مقرئا اديبا عارفا بالتاريخ وعلم الادب ، حسن لالقاء والمحاضرة . وكان له شعر حسن ....)) . ثم انه نقل عنه مبشرة ، حيث قال ((آنشدني لنفسه قال)) واورد له ثلاث مقطعات من نظمه (48) . وكثيرا ما نقل عنه فى معجم البلدان واصفا اياه بصديقنا (49) .

فتاريخ بغداد هذا كان موجودا عند مؤلفه قبل وفاته ياقوت فى سنة 626 هـ وسوف نرى ان ابن النجار استمر يضيف اليه ما يستجد من معلومات الى تراجمه من تواريخ وفيات المترجمين او سماعات جديدة منهم أو معلومات اخرى يرى ضرورة اضافتها حتى قربت وفاته . لذا فقول بعض الباحثين آن تاريخ ابن النجار لم يكمل الا قبل وفاته قول غير دقيق (50) .

وياتي بعد ياقوت مؤرخ اديب آخر هو ابن الشعار الموصلي (ت 654 هـ) فيذكر تاريخ ابن النجار فى كتابه عقود الجمان فيسميه

---

47) ياقوت الحموي : معجم الادباء 7 : 103 .
48) ن. م.
49) ياقوت الحموي : معجم البلدان ـ انظر الفهرست .
50) ن. م.
49) ياقوت الحموي : معجم البلدان ـ انظر الفهرست .
50) بشار عواد معروف : المنذري : 276 .

(التاريخ المجدد لمدينة السلام واخبار فضلائها الاعلام ومن وردها من علماء الانام) (51) . ويبدا ان المؤرخين تخففوا من الاطالة باختصار الاسم. وقد وجدنا اول الاسم على هذا الشكل الذي اورده ابن الشعار مكتوبا على آخر الجزء الحادي عشر ، وهو احد الجزئين الباقيين من الكتاب هكـــذا ((... آخر المجلد ... من التاريخ المجدد لمدينة الســـلام)) (52) . اما الجزء الآخر المتبقى من الكتاب فهو العاشر .

وممن ذكر الكتاب المؤرخ العراقي ابن الساعي (ت 674 هـ) الذي قراه على مؤلفه وسماه (ذيل ابن النجار) ووصفه بانه يقع فى ستة عشر مجلـــــــــدا (53) .

وذكره الذهبي (ت 748 هـ) فى اثناء ترجمته لابن النجار وسمـــاه صاحب (تاريخ بغداد) ولم يتعرض لوصف الكتاب ، بل وصف نتاج ابن النجار بشكل عام بقوله ((كتب ما لا يوصف ، وكان ثقة متقنا واسع الحفظ تام المعرفة بالفن)) (54) . ويبدو ان ابن العماد الحنبلي نقل عن الذهبي ما ذكره ابن الساعي آنفا فى وصف الكتاب وعدد اجزآئه (55) .

وممن ذكر الكتاب ابن الفوطي المؤرخ العراقي المتوفى سنة 723 هـ وقد افاد منه كثيرا وسماه فى كل موضع نقل عنه بتاريخ ابن النجار (57) ووصفه فى احدى المواضع بقوله ((وجمع تاريخ مدينة السلام ، وذيل به واستدرك على الخطيب ، وهو ثلاث مائة جزء)) (58) .

---

51) ابن الشعار : عقود الجمان ج 6 : ورقة 218 ـ 220 استانبول رقم 2323 الى 2330 نقلا عن ابن الدبيثي : ذيل تاريخ مدينة السلام بغداد : 20 .

52) يوجد هذا الجزء فى المكتبة الوطنية بباريس تحت رقم ARABE2131 وقد اعتمدت على نسخة مصورة عنها فى مكتبة الدراسات العليا بكلية الآداب بجامعة بغداد .

53) ويوجد فى المكتبة الظاهرية بدمشق تحت رقم 42 ـ وعنه نسخة مصورة فى مكتبـة المجمع العلمي العراقـــي .

54) الذهبـــي : تذكـرة الحفـاظ 4 : 1429 .

55) الذهبـــي : العبـــر 5 : 180 .

56) ابن العماد الحنبلي : شذرات 5 : 226 ـ 227 .

57) ابن الفوطي : تلخيص الآداب : مواضع كثيرة .

58) الذهبـــي : تذكـــرة 4 : 1429 .

وابن الدمياطي احمد بن إيبك بن عبد الله الحسامي (ت 749 هـ) الذي اختصر كتاب ابن النجار وسماه (المستفاد من ذيل تاريخ بغداد) وقد وصل هذا المختصر ومنه نسخة فى دار الكتب المصرية وعنها نسخة مصورة فى المكتبة المركزية التابعة لجامعة بغداد (59) . جاء فى مقدمته ((انتقاه كاتبه لنفسه ايبك بن عبد الله الحسامي عرف بابن الدمياطي)) وجاء بعد المبسملة ((اما بعد فان علم الحديث من اشرف العلوم ... وهذه تراجم وقع الاختيار عليها من ذيل تاريخ بغداد للحافظ محب الدين ابي عبد الله محمد ... المعروف بابن النجار ...)) ثم ذكر مولد ابن النجار وأشهر من التقى بهم من العلماء فى البلدان الاسلامية ، وبدأ بعدها بذكر تراجمه التي انتقاها بادئا بمن اسمه محمد ثم من اسمه ابراهيم حتى ينتهي بحرف الياء ، ثم ذكر بعد ذلك من اشتهر بكنيته وتلاه بذكر النساء وبدأ ببدر التمام .

فابن الدمياطي قد ذكر لنا اسم الكتاب اولا واعطانا صورة مصغرة لمنهجه حيث عرفنا طريقة ترتيبه فى بدايته ونهايته وهذا ما سنتناوله بتفصيل .

وذكر الكتاب ابن شاكر الكتبي (ت 764 هـ) وسماه التاريخ الذي ذيل به على تاريخ الخطيب ووصفه بقوله ((انه يقع فى ثلاثين مجلدا وانه دل على تبحره فى هذا الشان وسعة حفظه)) (60) .

وترجم الصفدي (ت 764 هـ) لابن النجار وتعرض لوصف كتابه فقال ((جمع التاريخ الذي ذيل به على تاريخ الخطيب البغدادي واستدرك على الخطيب ، فجاء فى ثلاثين مجلدا ، دل على تبحره فى هذا الشان وسعة حفظه ، وقد نقلت منه تراجم عديدة فى هذا الكتاب رحم الله مصنفه)) (61) ولقد تشابهت عبارتي ابن شاكر والصفدي وهما متعاصران

---

59) المكتبة المركزية بجامعة بغداد .
60) ابن شاكر : فوات الوفيات 2 : 522 .
61) الصفدي : الوافي بالوفيات 5 : 10 .

وعبارتهما باستثناء ذكر عدد الاجزاء هي نفس عبارة ياقـوت الحمـوي والراجح انهما عنه اخذا اما ما يتعلق بعدد الاجزاء فانهما اخذاها عن مصدر آخر ، وآخر من وصف الكتاب البغدادي صاحب هدية العارفين ((تاريخ مدينة السلام في الذيل على تاريخ الخطيب)) وذكر عدد اجزائه ، منهـا ثلثمائة جزء (62) وانه اعاد بذلك ما ذكره ابن الفوطي كما ورد في تذكرة الحفـاظ للذهبـي .

وما دام تاريخ ابن النجار ذيلا لتاريخ الخطيب البغدادي فلا بد اذن من القاء نظرة سريعة على تاريخ بغداد وما تلاه من ذيول حاولت ان تسد الفراغ في تاريخ رجال بغداد في العهود المتعاقبة . الـف الخطيـب البغدادي تاريخ بغداد او مدينة السلام وفاق فيه من سبقه او عاصره ممن كتبوا عنها . اذ قد عني بتاريخ بغداد منذ تاسيسها حتى منتصف القـرن الخامس الهجري اي قرب وفاة البغدادي نفسه (ت 463 هـ) وقد وضعه اساسا لخدمة علم الحديث بالذات فهو يعني بالتعريف برجال الحديـث وبيان حالهم من الجرح والتعديل ، ولهذا كان نصيب رجال الحديث خمسة آلاف ترجمة من مجموع 7831 ترجمة ضمهم تاريخ بغداد ، الا انه قـدم خلال تراجمه ـ بعد مقدمته الخططية عن بغداد ـ معلومات قيمة عن الحياة الثقافية ونشاط العلماء والوحدة الفكرية الاسلامية المتمثلـة بالصلـة الوشيجة بين المدن الاسلامية المختلفة رغم تباعد الشقة ، ثم قدم اخيرا قائمة بالمؤلفات التي وردت خلال التراجم ضمت 446 كتابا الفت جميعها خلال القرن الثالث والرابع والخامس وهي في موضوعـات شتـى (63) ولأهمية الكتاب ذيل عليه عدد من المؤرخين واختصره آخرون . وقد قدم لنا الصفدي (64) اولا اسماء المذيلين ، وتابعه السخاوي (65) فممن ذيل على الخطيب البغدادي :

---

62) البغـدادي : هديـة العارفيـن 2 : 122 .
63) الدكتور اكرم العمري : موارد الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد : 87 فما بعدها .
64) الصفـدي : الوافي بالوفيـات 1 : 47 .
65) السخاوي : الاعلان بالتوبيخ : 621 ـ 623 ضمن كتاب علم التاريخ لروزنتال .

1 ـ ابو سعد عبد الكريم بن محمد السمعاني (ت 562 هـ) (66) .

2 ـ والذيل عليه لابن المارستانية (ت 599 هـ) .

3 ـ والذيل عليه لابي عبد الله محمد بن سعيد الدبيثي (ت 637 هـ) وفيه ما لم يذكره السمعاني ممن اغفله او كان بعده (67) . وهـذا الذيل قام باختصاره المؤرخ الذهبي وسماه المختصر المحتاج اليـه (68) .

4 ـ والذيل عليه لابن القطيعـي (ت 634 هـ) .

5 ـ والذيل عليه لابن النجار (ت 643 هـ) موضوع بحثنا . وهو تاريخ لم يبدا من حيث انتهى الخطيب البغدادي بل حاول فيه مؤلفـه ان يذكر ما فات الخطيب ذكره وان تقادم عهد الترجمة الى اول عهـد بغداد ، ولهذا لم يكن كتاب ابن النجار جمعا لكتابي ذيل السمعاني وذيل ابن الدبيثي كما ذهب الى ذلك السخاوي (69) وتابعه الدكتور اكرم العمري (70) وان كانت عبارة السخاوي فيهـا شيء مـن المرونة بقوله « زاد وافـاد » .

6 ـ والذيل على تاريخ ابن النجار لابن الساعي (ت 674 هـ) .

7 ـ والذيل على كتاب ابن النجار لابن رافع السلامـي (ت 774 هـ) وقد سماه المختار المذيل به على تاريخ ابن النجار ، وهذا الذيـل

---

66) وصلت من هذا الكتاب قطعة موجودة في مكتبة كمبرج وعنها نسخة مصورة في مكتبة المجمع العلمي العراقي تحـت رقـم 51 ـ م .

67) لصاحب هذا البحث دراسة معمقة عن تاريخ ابن الدبيثي نشرت في مجلة المـورد العدد الثالث سنة 1974 وقد قام الدكتور بشار عواد بنشر المجلد الاول منه ببغداد سنـة 1974 .

68) نشره المرحوم الدكتور مصطفى جواد في ثلاث مجلدات .

69) السخـاوي : 622 .

70) الدكتور اكرم : مـوارد الخطيـب : 95 .

اختصره التقي الفاسي بانتخابه بعض تراجمه وقد سماه منتخب المختار (71) .

وكان عمل ابن رافع السلامي هو استدراك ما فات كلا من الخطيب البغدادي وابن النجار . وقد نقل لنا السخاوي من مقدمة المختار قول مؤلفه « اذكر فيه من دخل بغداد من العلماء والفقهاء والمحدثين والوزراء والادباء ومن فاتهما ـ اى الخطيب وابن النجار ـ » (72) .

هذه هي الذيول التي تتابعت لتاريخ الخطيب البغدادي وهي تعطي فكرة عن مجهود المؤرخين لاستكمال النقص الحاصل فى تراجم اهل بغداد من المحدثين او ممن يحفل بالحديث ، ومن الم ببغداد من بقية علماء المسلمين او تجارهم الذين عنوا بالحديث او بغيره من معارف عصرهم وتحدثوا به ، وهذا هو الذي وحد المسلمين فكريا وجعل نتاجهم متشابها واهتماماتهم متشابهة ، فتواريخ الرجال وذيولها المكملة لها لم تكن حكرا على بغداد وحدها بل يجدها المتتبع للتراث الاسلامي فى كثير من بلاد الاسلام .

2 ـ منهج الكتاب :

ا) تركيب الكتاب : ان مقدمة هذا الكتاب لم تصل الينا بعد ، ولم يشر احد من المؤرخين صراحة الى طريقة تصنيف ابن النجار للتراجم ، الا إنه من خلال كتابه ومن خلال مختصر ابن الدمياطي الذي سماه المستفاد من ذيل تاريخ بغداد يظهر جليا ان ابن النجار بداه بالمحمدين تيمنا باسم النبي (ص) على عادة بعض المؤرخين . نراه فى أثناء ترجمته لعبد الملك بن عبد الواحد بن الحسن بن منازل الشيباني القزاز يقول « اخو ابي غالب محمد المتقدم ذكره » فاسم محمد مقدم على الاسماء المبدوءة بالعين وقد كرر ذلك فى مواضع اخرى .

71) نشره عباس العزاوي ببغداد سنة 1938 م .
72) السخاوي : 591 ـ 592 .

وقد راعى ابن النجار الترتيب على حروف المعجم بالنسبة لثلاثة اسماء اى اسم المترجم واسم ابيه وجده ، ثم جعل فى آخر الكتاب من لم يعرف اسمه الاول واشتهر وعرف بكنيته (73) .

ان ابن النجار لم يبدا من حيث انتهى الخطيب البغدادي بل رجع احيانا الى بداية العهد العباسي ذاكرا من اخل بذكره الخطيب فى تاريخه لذلك رجع الى كتب المؤلفين من مؤرخين وادباء امثال احمد بن طاهر ابن طيفور (ت 280 هـ) ومحمد بن داود الجراح (ت 296) ومحمد بن جرير الطبري (ت 310 هـ) ومحمد بن يحي الصولي (ت 335 هـ) والمرزباني (ت 384 هـ) والمحسن بن علي التنوخي (ت 384 هـ) وهؤلاء كلهم سبقوا الخطيب البغدادي وتناولوا فى كتبهم تراجم بغدادية او بعض من عاش ببغداد من غير اهلها او ممن مر بها سامعا من اهلها او راويا فيها ، سواء كانت هذه التراجم لادباء او مؤرخين او محدثين او ممن روى شيئا او كان له شان .

كما ان ابن النجار ذكر فى كتابه من كان معاصرا للخطيب البغدادي من المؤلفين والادباء والمؤرخين والفقهاء ومن كانت وفاته بعد وفاة الخطيب ويدل على ذلك رجوعه للبرداني وابن البقال والبلخي والبندنيجي وابن البناء وابن سودة التكريتي ، والجيلي حيث ذكرت فى مؤلفات هؤلاء معلومات عن المترجمين المشار اليهم .

ثم ان ابن النجار ذكر من تلا الخطيب البغدادي بمدة طويلة ممن رآهم او جالسهم او قرا عليهم او رافقهم فى طلب السماع الى حين انتقاله الى الرفيق الأعلى عام 643 هـ وقد رجع خلال ذلك الى مؤلفات السمعاني والاسد آباذي والعماد الاصبهاني وابن الجوزي .

اما ترجماته فلم تكن متساوية فى الطول فقد اختلفت حسب مكانة المترجم له علميا واجتماعيا ، وحسب توفر المادة عنه فى الكتب او عن

73) انظر ترجمة عبيد الله بن محمد النحاس البغدادي ، وانظر ابن الفوطي : تلخيص مجمع الاداب 5 : 395 .

طريق الرواية الشفوية فلا تبلغ الترجمة احيانا الا سطرين او ثلاثة اسطر مثال ذلك ترجمة عبد الملك بن مسعود بن علي الدينوري واحيانا تزيد الترجمة على صفحة ونصف كما هو الحال بالنسبة لترجمة القاضي ((عبد الملك بن روح الحديثي)) وقد تصل الى ثماني صفحات كما هو الحال عند ترجمة عبد الملك بن صالح الهاشمي العباسي .

اما ترتيب التراجم فان ابن النجار التزم نظاما دقيقا مرهقا حيث راعى تسلسل الاسماء حسب حروف المعجم بالنسبة للمترجم ثم اسم ابيه وجده ، فاذا اختلفت الترجمات بسني الوفيات قدم الاقدم وراعى تسلسل الوفيات بدقة تدعو الى الاعجاب .

بعد ان خطط ابن النجار هندسة كتابه بالشكل الذي عرضناه ، التزم بنظام معين واحد في كتابة كل ترجمة على الشكل التالي : وهو ان يبدا بذكر الاسم الاول للمترجم ثم اسم أبيه وجده . ويستمر في ذكر نسبه وكنيته ولقبه ، ومذهبه الفقهي . ومن الجدير بالذكر انه ترجم لعلماء وادباء منتمين لمذاهب فقهية مختلفة فيهم الحنبلي والشافعي والحنفي والمالكي والشيعي . ثم انه بعد ذكره لمذهب المترجم يزيد في تعريفه وتوضيحه بذكر موضع سكناه مثال ذلك ترجمة ((لعبد الملك بن عبد الله ابن احمد بن رضوان ابو الحسن الكاتب باب المراتب ، وهو اخو ابي نصر احمد الذي تقدم ذكره)) كما أنه يعرف بعمله بعد ذلك . واذا انتقل المترجم من محلته التي كان يسكن فيها الى محلة أخرى من محال بغداد ذكر ذلك ونبه عليه مثال ترجمة ((عبد الملك بن المبارك بن ابي الغنائم بن ابي ياسر عبد الله بن ابي الحسن محمد بن احمد بن هارون البرداني ، ابو عبد الله ابن ابي محمد الصوفي من أولاد المحدثين . كان يسكن بدرب البصريين واصله من الحريم)) وترجمة ((علي بن أحمد بن محمد الواسطي من ساكني نهر القلائين انتقل الى درب السلسلة)) .

الارجح ان ابن النجار كان يفكر بمن سياتي بعده ويكتب تاريخ البغداديين ولكي لا يقع في الوهم اذا تشابهت الاسماء ذكر له اين كان

يسكن المترجم . والى اى محلة انتقل . ثم يذكر بعد ذلك عمن روى ومن سمع منه ان كان يروي الحديث اولا فان لم يكن من رواته وكان من اهـــل الادب ذكر على نفس الطريقة من روى عنه شيئا من النثر او الشعـــر . وذكر مؤلفاته او اشار اليها ان كان للمترجم تاليف او امال او ديوان شعر او كتاب تاريخ او مشيخـــة .

ولكي لا يعيد ويكرر الترجمات كان ابن النجار يشير الى ترجماتـــه السابقة عند ذكره لاقاربهم مثال ذلك ترجمة ((عبد الملك بن عبد الرزاق ابن عبد الله الطوسي النيسابوري)) اذ قال بعد الترجمة ((تقدم ذكر جده عبد الله وكان اخا للوزير نظام الملك)) .

ان كون ابن النجار من الحفاظ واهل البراعة فى هذا الفن ـ كمـــا قيل قديما ـ هو الذي ادى به الى معرفة المترجمين وتمييزهم بعضهم عن بعض ان كانوا اخوة او آبـــاء .

وكان يزيد فى التعريف بالمترجم فيذكر حالته العلمية والخلقيـــة لا سيما المعاصرين له الذين التقى بهم ، او سمع منهم ، وروى عنهم . ورايه فيهم مهم جدا اذ يعد من قبيل الجرح والتعديل او نقـــد الرجال . وعلم الرجال هذا علم قائم بذاته بالنسبة لعلوم الحديث وقد سبق ابـــن النجار اجيال من علماء هذا الشان كل تصدى لابناء زمانه او بعض من تقدم زمانه بعد ان تمت دراسة رجال الحديث الاوائل فى كتب مجاميع الحديث كالصحاح والمسانيد والموطأ . ومن امثلة نقد ابن النجار للرجال ما جاء فى ترجمة عبد الملك بن عبد العزيز بن هبة الله بن القاسم ابن البنـــدار فبعد قوله انه سمع فلانا قال ((كتبت عنه شيئا يسيرا وكان شيخا لا باس به)) . وقال عن آخر ((كان شيخا صالحا حافظا لكتاب الله تعالى متدينا حسن الطريقة مليح الشيبة على وجهه وضاء)) ثم اضاف ايضا ((كتبـــت عنه وكان صدوقا)) . واذا كان ابن النجار قد عدل بعض المترجمين فانه قد جرح آخرين مثال ذلك ما جاء عن عبد الواحد بن علي بن عبد الواحد بن محمد بن علي بن الصباغ ... من اهل الكرخ احد الشهود المعدلين ببغداد

من بيت القضاء والعدالة والرواية ... « كتبت عنه وكان سيىء الطريقة غير محمود السيرة ولا مرضي الأفعال في شهادته واحواله . عفا الله عنا وعنـــــه » .

ان علم ابن النجار بنقد الرجال جعله مصدرا فيما يرجع اليـــه في تعديل الرجال وجرحهم لا سيما المحدثون ولهذا اشار الى نقده المؤرخون المقتبسون عنه فابن خلكان (ت 681 هـ) نقل عنه رايه في ابراهيم الغزي الشاعر الكلبي بقوله « قال ابن النجار ... شاعر محســـن ... » (74) والذهبي (ت 784 هـ) ينقل رايه في شيخه ابن سكينة بقوله « قال ابن النجار : هو شيخ العراق في الحديث والزهد والسمت وموافقة السنة . كانت أوقاته محفوظة لا تمضي ... وكان يديم الصيام غالبا ... الـــى ان قال : وما رايت اكمل منه ، ولا اكثر عبادة واحسن سمتا » (75) وهنـــاك امثلة اخرى مما نقله الذهبي (76) وكذلك نقل راي ابن النجار المؤرخ ابن الفوطي (ت 723 هـ) (77) والسبكي (78) وابن رجب الحنبلي (79) .

وكان ابن النجار يروي عن المترجمين ما يختاره من مروياتهم ان كانوا من اهل الحديث المكثرين او المقلين او من غير اهل الحديث ويتم ذلك مباشرة عن طريق المشافهة او القراءة في كتبهم او مشيخاتهم . او بواسطة شيوخه عن المترجم . وفي هذه الحالة ايضا يتم النقل شفاها او من كتب اشياخه التي حصل على حق روايتها منهم . فاذا جمع المترجم شيئا من الادب اضافة الى الحديث فانه يختار من حديثه ومن ادبه بعض المقطعات من شعره . او حكاية من حكاياته فيرويها عنه . وفي حالات قليلة كان يقدم

---

75) الذهبـــي : العبـــر 5 .
74) انظـــر ابن خلكـــان : وفيـــات الاعيـــان .
76) ن. م. 130 – 140 – 155 – 198 .
77) ابن الفوطي : تلخيص مجمع الاداب 5 : 96 وانظر ص 193 – 210 .
78) السبكي : الطبقات الكبرى 7 : 29 ، وانظر ص : 34 – 63 – 64 – 72 – 73 – 182 – 189 – 215 – 228 – 275 – 287 – 292 – 297 ، ج 6 : 126 – 127 – 200 .
79) ذيـــل طبقـات الحنابلـة : مواضع كثيـرة .

ملومات عن المترجمين تتعلق باعمالهم الادارية وحياتهم اليومية بعد ان يعرف بهم ويذكر عمن رووا ومن سمعوا . ومن روى عنهم .

رتب ابن النجار مادته التي نقلها عن شيوخه بطريقة علمية اشبه ما تكون بطرق البحث الحديثة فهو لم يكدس معلوماته عن المترجمين حسب ما نقله عن كل شيخ بل راعى تركيب الترجمة بالدرجة الاولى فاذا نقل عن شيخ من شيوخه مادة كثيرة عن المترجم فانه يعمد الى توزيعهـــا حسب مراحل الترجمة فيستفيد منها فى التعريف بالمترجم ان كان فيها شيء من التعريف به . ويضع منها بعضا فى اثناء الكلام عن مروياته ومحفوظاته او مؤلفاته ثم يضع بعضا آخر فى تحديد سنة الميلاد أو الوفاة او مكان الوفاة. وهكذا تتخلل نقوله عن شيخ معين نقول اخرى لشيخ آخر لذلك ، كـــان يجزء ، نقوله عن الشيوخ حسب مراحل الترجمة كما اسلفت . وبذلـــك خالف كثيرا من المؤلفين الذين كتبوا معلوماتهم عن شيوخهم دفعة واحدة وتلوها بمرويات اخرى . تكرر احيانا نفس المعلومات وتذكر بعض الاختلاف انما بطريقة التكديس وليست بطريقة البحث المنسق .

وهناك حقيقة اخرى تبدو من خلال التمعن فى الترجمات وهي ان ابن النجار لم يعر اهتماما للاحداث العامة ، وان كان على علم بها او كانـــت مصادرها مهياة له ، فمثلا عند ترجمته لعبد الوهاب بن احمد بن عبـــد الوهاب الخراز الجيلي ابي الفتح قال « انه بغدادي سكن حـــران وولي القضاء بها » ... اختار الله له الشهادة على مدائن قريش العقيلـــي فى سنة 476 هـ عند اضطراب اهل حران على ابن قـــريش لما ظهـــر سب السلف بها» فهنا لو اراد الزيادة لامكنه ذلك لكنه اكتفى بالاشارة فقط . وعمل نفس الشيء بالنسبة لترجمة عبد الوهاب بن احمد الانصاري الواعظ من اهل البصرة ... « قدم بغداد سنة 532 هـ فى وفد من اهل البصرة مستغيثا من اميرها . ووردها نوبة اخرى سنة 534 هـ ... » ولم يعلق او يوضح سبب استغاثة اهل البصرة من اميرهم كما لم يذكر اسم هـــذا الاميـــــر .

ب) النقـــــد والتمحيــــص :

لم يكن ابن النجار حاطب ليل فقد كان عالما بالحديث متنا واسنادا وعالما بالرجال وله ذوق في الشعر كما وردت له تعليقات حول شعر بعض من تصدى لترجمتهم مثال ذلك ما جاء عن علي بن محمد المدائني الشاعر « ... ولم ارضى شعره ... ولم أر اسقاط ذكره من هذا الكتاب لكونه اتسم بمدحهما ـ اى الخليفتين المستظهر بالله والمسترشد بالله ـ ثـــم اورد قطعة من شعره في مدح المستظهر بالله تقع في 16 بيتـــا (80) . واثناء ترجمة علي ابن المقرب العيوني قال « وسمعنا منه كثيرا من شعره وكان عربيا جيد الشعر مليح المعاني ، فصيح العبارة من فحول الشعراء ». ثم اورد مقطعات من شعره (81) .

وقد تصدى للرد على بعض الروايات المخطوءة عن بعض التراجـــم واوردها في كتابه كي ينبه على خطاها ومخالفتها للواقع (82) .

ومن قبيل نقده ما ورد في ترجمة علي بن احمد بن يوسف القرشي الهكارى المتوفى سنة 486 هـ بقوله « وكان الغالب على حديثه الغرائب والمنكرات ولم يكن حديثه يشبه حديث اهل الصدق وفي حديثه متون موضوعة مركبة على اسانيد صحيحة » (83) .

اسلوب ابن النجار في الكتاب :

كان لابن النجار اسلوب في ترتيب منقولاته من حديث او ادب او غير ذلك من المواضيع ، يشبه اسلوب علماء الحديث ومؤرخي رجاله ، فقد اخذ بالنقل عن شيوخ او عن اقران معاصرين ممن التقى بهم اثناء التلقي عن

---

80) ابن النجـــار : ورقـــة : 36 (ا) .
81) ن. م. : ورقـــة : 44 (ب) .
82) ن. م. : ورقـــة : 52 (ب) .
83) ن. م. : ورقـــة : 226 (ا) .

الشيوخ أو أثناء الرحلة والرفقة في طلب الحديث ورجاله ، وكـــان هؤلاء المعاصرين الاقران يكتبون له الرسائل فيستند اليها او يجيزون له مروياتهم فيروي استنادا لذلك كتبهم اذا توفرت لديه . واما الشيوخ فانه قد ينقل اثناء قراءة الشيخ من كتابه ، أو ان ينقل من الكتاب ثم يقرأ ما نقلــــه على الشيخ وبذلك يحصل على الحق الشرعي في الرواية . وهنا تتنوع سبل نقل ابن النجار عن شيخه ، فقد ينقل مباشرة او بواسطة شيخ واحد ، او بواسطة شيخين ، او بواسطة ثلاثة شيوخ ، او اكثر من ذلك .

وكان يختار من روايات المترجم فياخذ بعضها ويترك البعض الآخر الا انه لم يذكر لنا سبب اختياره هل هو كيفي أم راجع لاعتبارات معينة مثل تنبه تكرار نفس الاحاديث ، او تفضيل شيخ على شيخ ممن يـــروي عنهم لوجود تفاضل بينهم من حيث الاتقان والضبط وجودة الاسناد ، أم للاختصار حيث ان غرضه أن يمثل للمترجم بمثال او اكثر مما يرويه مـــن حديث ، او ادب ولهذا وجدناه في الشعر يختار بعض المقطعـــات وفي حالات خاصة ذكر قصائد طويلة . الا ان المقطعات او الابيات القليلة هي الصفة الغالبة في الاختيار ، وكذا الحال بالنسبة للحديث .

وكان ابن النجار يجمع ويوحد الروايات المتشابهة من حيث المحتوى عند ذكره اسناد مرويات المترجم كما جمع اسناد الاخوين بركة بن نزار ، واخوه عبد الواحد بن نزار بقوله ((اخبرنا بركة بن نزار وعبد الواحد بن نزار قراءة عليهما قالا)) (84) .

وقد تتوفر لديه عدة روايات من طرق مختلفة عن المترجم فيختار منها المتشابه ويشير اليه في اسناد واحد ، وهذا الاسلوب لم يكن جديداً على عهد ابن النجار فجمع الروايات المتشابهة او اختيار سلسلة اسناد دون غيرها امر معروف استعمله المؤرخون كالمدائني والطبري والبلاذري كما استعمله المحدثون .

---

84) انظر ترجمة عبد الواحد بن نزا والمتوفى سنة 634هـ .

وقد ياتي برواية عن طرق متحددة بتحدد البلاد الاسلامية التي زارها تنتهي بشيخ واحد ثم سلسلة اسناده التي تنتهي بالمترجم ، وقد استعمل ابن النجار الفاظ مصطلح الحديث الشائعة قبل عهده .

كما اخذ بما شاع على عهده وقبل عهده بقليل من الاحتفاظ بخطوط الشيوخ على الاصول المقروءة عليهم او المسموعة عنهم وهي عادته استحدثها المحدثون من غير ايجاب لها . رغم افتاء بعض الفقهاء والمحدثين بجواز قراءة كتاب على احد الشيوخ على انه من سماعه ، وان لم يكن عليه خط يشهد به من شيخ (85) .

وكان رأى ابن النجار وابناء عصره ان الاحتفاظ بخطوط الشيوخ على الأصول هو من قبيل الاحتياط ممن يدعي سماع الحديث من رجل لم يره، او لم يدرك زمانه او كان صغيرا عند وفاة احد الشيوخ . ولهذا ميز ابن النجار ومعاصروه عند النقل ان كان الراوي يحدث من لفظه فقط او من لفظه واصله (86) .

ونتيجة لالتزام اهل الحديث في عصر ابن النجار بهذه القواعد ، لذا لا يستطيع ان يحدث من لم يكن حافظا للحديث اسنادا ومتنا او محتفظا بما سجله من سماع على أشياخه وعلى سماعه خطوط هؤلاء الشيوخ ، والا قلت الثقة بما يرويه او انعدمت . اما اذا كان صاحب الحديث قد فقد ما سجله ولم يكن حافظا له فانه لا يستطيع التحديث ويقال عندئذ انه سجل وطلب الحديث الا ان اصوله قد ضاعت (87) ويروي قليلا مما بقي مكتوبا عنده . فان كان معه شيء من الشعر او الادب روى ما عنده .

---

(85) ابن رجب : ذيل طبقات الحنابلة 1 : 41 (نقلا عن ابي الحسن ابن البناء في كتاب أدب العالم والمتعلم) .

(86) ابن النجار : ورقة 5 (أ) .

(87) انظر ترجمة عبيد الله بن سعيد بن الحسن الخوزي .

3 ـ مصـــــادر الكتـــــاب :

تعددت مصادر تاريخ بغداد وتنوعت نظرا لطول الفترة الزمنية التي تصدى لها ابن النجار بحثا عن البغداديين الذين فات ذكرهم الخطيـــب البغدادي ، ونظرا لسعة الرقعة الجغرافية التي ساح فيها ابن النجار متصلا بالمشايخ وحملة العلم يستكمل بما يلقاه عندهم من معلومات عن مترجميه حتى بلغ تعداد شيوخه ثلاثة آلاف شيخ وابعمائة امراة . وقد عرفنا مـــن شيوخه البغداديين وغير البغداديين ، وكان الاخيرون منهم موزعين على مدن اسلامية مختلفة متباعدة بعضها فى خراسان واخرى فى الحجـــاز وطائفة ثالثة فى مصر وهي حسب البلاد كالآتي :

اولا بلاد مصر : ومن مدنها القاهرة ، والاسكندرية .

ثانيا بلاد الشام : ومن مدنها مدينة حلب ، ودمشق .

ثالثا : بلاد الحجاز : ومن مدنها مكة المكرمة ، والمدينة المنورة .

رابعا : بلاد المشرق الاسلامي الاقصى : ومن مدنه ، مدينة اصفهان، ومرو ، وهراة ، ونيسابور ، وهمدان .

اما شيخانة فلم يرد من اسمائهن فى هذين الجزئين الباقين فى تاريخ بغداد سوى تسع شيخات بعضهن بغداديات والاخريات من الشام او من بـــلاد فـــارس .

ومن مصادره المعاصرون له ، وقد نقل عنهم ابن النجار وترجم لهم وكانت صلته بهم مختلفة فبعضهم رفقاؤه فى السفر والطلب ، وبعضهم ممن آجتمع به فى مجالس شيوخه ، فكان يسمع منهم او يسمعوا منه فى اثناء قراءته على شيخه فيسجل معلوماته عنهم .

وكان معاصروه علىدرجات متفاوتة من حيث التحصيل والرواية ، كما كانوا متفاوتين من حيث الاتقان والدراية ، والورع والصلاح ، الا ان

ابن النجار كان حريصا على ان يستوفي ذكرهم حتى لا يخلو كتابه من احدهم فيعتقد من ياتي بعده بانه قد اخل باحد او نسيه .

وكانت الاجازة المصدر الثالث الذي امد ابن النجار بمعلوماته حين استجاز بعض الشيوخ حتى يصبح لديه الحق فى رواية كتبهم او مروياتهم التزاما بخطة اهل الحديث ، وكانت هذه الاجازات على اشكال منها ما هو محدد بكتاب او حديث بعينه ومنها ما هو مطلق لكل ما الف المؤلف .

اما المراسلات فكانت النوع الرابع من مصادر معلوماته ، فقد كان بين ابن النجار وعلماء المدن الاسلامية الاخرى مراسلات مستمرة ، اذ كانت بينهم معرفة سابقة عن طريق اللقاء فى هذه المدن او فى بغداد . ويبدو ان امر هذه المراسلات بين علماء المسلمين فى عصر ابن النجار وقبله بقليل كانت مالوفة وهي على جانب من الاهمية حيث تغني عن السفر وتزود المؤرخين بمعلومات يطلبونها من علماء فى بلدان اسلامية اخرى لاكمال معلوماتهم عمن يترجمون حياته كذكر علم عالم ، او مؤلفاته ، ومروياته ، أو سنة ولادته او وفاته الا ان المراسلة وفق مقاييس اهل الحديث تبقى منزلتها دون منزلة الرحلة ومقابلة العلماء والاخذ عنهم ومذاكرتهم مباشرة .

وآخر هذه المصادر الكتب التي رجع اليها ابن النجار سواء اشار الى مؤلفيها الذين نص على اجازتهم فى بعض المواضع ، او الاقتباس منها على طريقة اهل الحديث فى اسناد اخبارهم الى قائليها او رواتها . وتبدو قيمة هذه المجموعة من الكتب اضافة الى اسماء المؤلفين التي وردت استطرادا فى كونها مكملة لفهرست ابن النديم الذي جمع ما توصل اليه من نتاج القرون الاربعة الاولى ، ولا ازعم انه استوعب كل ذلك النتاج ، ثم انها مكملة لجهود الخطيب البغدادي الذي اضاف على قائمة ابن النديم حوالي 300 كتاب (88) ، وأعتقد ان الكشف عن بقية تاريخ ابن النجار سيبذ سابقيه بكثرة ما يحويه من اسماء المؤلف .

88) الدكتور اركم العمري : المؤلفات الواردة فى تاريخ الخطيب .

4 ـ مـــــادة الكتـــــاب :

ان مادة تاريخ بغداد الرئيسة هي تراجم البغداديين سواء المقيمين منهم او الراحلين الى بلد اسلامي ، والملمين ببغداد من اقطـــار العالـــم الاسلامي المقيمين بها لفترة من الزمن ، او المارين بها مرور الكرام ولما كان اغلب الكتاب مفقودا فانه يصعب ان نعرف مقدار عدد التراجم الا ان ما جاء في وصف عدد مجلداته يعطينا فكرة عن عدد تراجمه لا سيما وانـــه استدرك على كتاب تاريخ بغداد للخطيب البغدادي الذي نشر باربعة عشر مجلدا . ومن خلال التراجم اعطانا تاريخ ابن النجار معلومات مختلفة منها ما يتعلق بالنشاط الفكري كالحديث عن المحدثين والفقهـــاء ، والادبـــاء والمؤرخين ، والقراء ، والنحويين ، ومنها ما يتعلق بالوظائف والدواوين كالكلام عن امين الحكم ، وحاجب الباب النوبي ، وشيخ رباط الزوزني وصاحب الشرطة ، وعن وظيفة السفارة ، والقضاء ووكـــلاء الخليفـــة ، والمدارس ، ومنها ما يتعلق بالمهن والصنائع كالكـــلام عن البزازيـــن والخبازين والورافين والتجار . كما لم يفت ابن النجار ان يذكر افـــراد العائلة العباسية كل حسب موقعه بين الاسماء فكـــان منهـــم خلفـــاء ، وامراء ومحدثون وفقهاء ، كما كان منهم من اصبح في عداد العامـــة .

واخيرا وليس آخرا فان كتاب تاريخ بغداد لابن النجار قد حـــوى معلومات تتعلق بخطط بغداد ، حيث كان يذكر مكان المترجـــم وفي اي جانب يقع من جوانب بغداد كما كان يذكر مواقع المساجد التي يرد اسمها خلال الترجمة وكذلك الاسواق والخانات والمقابر ، ولا يفوته ان يعلـــق عند ورود اسماء هذه الاماكن ان كانت قد اندثرت او جددت .

فاس   د. بدري محمد فهد

مصـــادر ومراجـــع البحـــث

1 ـ الاشرف الرسولـي : العسجد المسبوك ـ مخطوط مصورة فى مكتبة الدراسات العليا بكليـــة الآداب ـ جامعـــــة بغـــداد .

2 ـ اكـــرم العمـــري : موارد تاريخ بغداد للخطيب البغدادي .

3 ـ بدري محمد فهـــد : القاضي التنوخي وكتاب النشور .

4 ـ بـروكلمــــــــان : مادة البخاري ـ دائرة المعارف الاسلامية .

5 ـ بشار عواد معروف : المنــــــــــــذري .

6 ـ البغــــــــدادي : هديـــــة العارفيـــــن .

7 ـ ابـــن خلكـــــان : وفيـــــات الاعيـــــان .

8 ـ ابـــن الدبيتـــــــي : ذيل تاريخ بغداد ـ نسخة مصورة فى مكتبـــة الدراسات العليا بكلية الآداب ـ جامعة بغداد .

9 ـ الـــذهبـــــــــي : تذكرة الحفاظ . العبر فى خبر من غبر .

10 ـ ابـــن رجـــــب : ذيـــل طبقـــات الحنابلـــة .

11 ـ السبكـــــــــي : طبقات الشافعيـــة الكبـــرى .

12 ـ السخـــــــاوي : الاعلان بالتوبيخ ضمن كتاب علـــم التاريـــخ لـــروزنتـــــال .

13 ـ ابن شاكر الكتبـــي : فـــــوات الوفيـــــات .

14 ـ الصـــفــــدي : الوافـــــي بالوفيـــــات .

15 ـ العمـــاد الحنبلـــي : شـــــذرات الذهـــــب .

16 ـ ابـــن الفـــوطـــي : تلخيـــص مجمـــع الآداب .

17 ـ مجهـــــــــول : الحوادث الجامعة والتجارب النافعة .

18 ـ ابـــن النجـــــار : تاريخ بغداد ـ وهو موضوع بحثنا .

19 ـ ياقـــوت الحمـــوي : معجم الادباء . معجم البلدان .

د. ب. م. ف.

القصيدة العربية القديمة
بين الثورة والتجديد

د. ابتسام مرهون الصفار

اتخذت القصيدة العربية شكلا فنيا واضحا منذ العصر الجاهلي واستقرت خطوطها العامة ، ومساراتها ابتداء من افتتاح الشاعر القصيدة وتنقله بين إغراضها حتى انتهائه منها .

ومن المشهور ان ابن قتيبة هو أول من تنبه الى هذا الامر وحاول ان يستنبط قواعد فنية تعلل افتتاح الشاعر بالمقدمة الطللية وتعدد الاغراض في القصيدة الواحدة ، ونسب قوله الى احد معاصريه فقال : (سمعت بعض اهل الادب يذكر ان مقصد القصيد انما ابتدأ فيها بذكر الديار ، والدمن ، والآثار ، فبكى واشتكى وخاطب الربع ، واستوقف الرفيق ليجعل ذلك سببا لذكر اهلها الظاعنين عنها ... ثم وصل ذلك بالنسيب فشكا شدة الوجد ، وألم الفراق ، وفرط الصبابة ، والشوق ليميل نحوه القلوب ، ويصرف اليه الوجوه ، وليستدعي به اصغاء الاسماع اليه ، لأن التشبيب قريب من النفوس ، لائط بالقلوب ، فاذا علم انه قد استوثق من الاصغاء اليه ، والاستماع له عقب بايجاب الحقوق فرحل في شعره وشكا النصب ، والسهر ، وسرى الليل ، وحر الهجير ، وانضاء

الراحلة والبعير ، فاذا علم انه قد اوجب على صاحبه حق الرجاء ، وذمامة التامبل ، وقرر عنده ما ناله من المكاره فى المسير ، بدأ فى المديح) (1) .

وانطلاقا من هذا القول يقرر ابن قتيبة بان الشاعر المجيد هو من سلك هذه الاساليب ، وعدل بين هذه الاقسام ، فلم يجعل واحدا منها اغلب على الشعر .

هذا الشكل التقليدي الذي رست قواعده وافرت اصوله عند الشعراء، اقترن في اذهان الباحثين بدعوة ابي نواس الى نبذه ، والتخلص منه فى اشعار كثيرة متداولة مشهورة ، ويكاد معظم مؤرخي الأدب ونقاده يجمعون على انه اول من ثار على شكل القصيدة ، وانه كان يدعو فى اشعاره الى ثورة فنية راى فيها بعضهم شعوبية وطعنا على العرب واقتصرت عند البعض الآخر على الثورة الفنية الخالصة .

ودعوة ابي نواس هذه تستحق اعادة النظر والوقوف عندها وقفة تحليل ، وتامل لكي لا نندفع مع بعضهم فى رفع ابي نواس واعتباره اول مجدد للادب العربي ، لانه هو بالذات ليس بحاجة الى مثل هذا الدفاع او الانفعال ، اذ يكفيه اعجاب القدماء والمحدثين باسلوبه الشعري ، وترديدهم لأشعاره على مر العصور ، كما لا نريد من هذا المقال ان نحط من شانه باعتباره شاعر مجون وخمرة ، وباعتباره شعوبيا ينتقص من شانه العرب، فتلك تهمة تستوجب النقاش بعيدا عن التعصب والهوى ، وسوف نحاول صد الحركة الشعرية وما رافقها من تطور وتجديد قبل ابي نواس لنستطيع ان نتبين موقع دعوته او ثورته بين الشعراء ، واستنتاج حكم يعلل موقف ابي نواس ويحلل اشعاره التي اثارت نقاش الباحثين والنقاد .

وحركات التطور التي صاحبت القصيدة العربية كانت قبل العصر العباسي ... فمنذ ظهور الاسلام نجد بعض الارهاصات التي ربما هيات الأجواء لقبول تغيير طفيف فى القصيدة العربية .

---

(1) الشعر والشعراء ج 1 / 74 .

فالدعوة الاسلامية وما اقتضته ظروف الجهـــاد بين المسلميـــن والمشركين جعلت الرسول الكريم (ص) تتخذ الشعر وسيلة مهمة من وسائل الدفاع عن الدعوة . اذ نرى شعراء المسلمين بتشجيـــع الرسول صلى الله عليه وسلم يردون عن الاسلام كيد المشركين ، وينافحون عن دينهم باشعارهم فكانت حركة النقائض التي قامت بين شعراء مكة وشعراء الأنصار من المسلمين . هذه الظروف الجديدة دفعت بعض الشعراء الى اعادة النظر فى طريقة نظمهم لأشعارهم ، فحسان بن ثابت مثلا لم يجد فى بعض الظروف الحرجة التي اقتضتها المعارك الفكريـــة والسياسيـــة المستمرة بين المسلمين والمشركين ، لم يجد مكانا للمقدمة الطللية فى بعض قصائده أو مقطوعاته . اما المقطوعات فقد يقول قائل بأن قصـــر ابياتها لا يسمح للشاعر ان يمهد لموضوعه بمقدمة ، او ربما نقول بأن هذه المقطوعات ما هي الا بقايا لقصائد طويلة ضاع معظمها . ومن بين ما ضاع مقدماتها . ولكن المرجح ــ عند قراءتها ــ آن يكون حسان قد قالها اصلا مقطوعات قصيرة لأن موقفا ما اقتضى منه ان يرد على أحـــد خصـــوم الرسول (ص) شعرا ، مثل ابياته فى معركة بدر او أحد او الخندق (2). ومن هنا وجب علينا ان نتتبع قصائد شاعر الدعوة لنعرف مدى التزامـــه بالشكل الفني للقصيدة ، خاصة وانه فى قصائده الجاهلية سار مسيرة شعراء زمانه فى ذكر الديار والبكاء على الحبيبة .. (3) .

وفى قصائد حسان الاسلامية التي التزم بها بالشكل الفني للقصيدة العربية نجد لمحات خاطفة تشير الى شعوره بعدم جدوى هذه الافتتاحية مع تعوده عليها ، والتزامه بها من قبل . فنراه يبدأ القصيدة ببيتيـــن أو ثلاثة سرعان ما يساوره بعدها شعور حاد بضرورة الالتزام بموضوعـــه الهادف ، فيحيد عن المقدمة بأسلوب الردع الذي استعمل له لفـــظ دع فى جميع الأمثلة التي نشير اليها . يقول فى معركة بدر :

عرفت ديـــار زينـــب بالكثيـــب   كخط الوحي فى الورق القشيب

(2) انظر ديوان حسان ص 25 ــ 41 ــ 46 ــ 60 ــ 61 ــ 62 ــ 63 ــ 64 ــ 69 ــ 72 ــ 77 / ومواضـــع اخـــرى .

(3) انظـــر ديوانـــه ص 34 ــ 111 ــ 137 ــ 162 ــ 134 .

تعاورها الرياح وكل جون　　　من الوسي متهم سكوب

فامسى رسمها خلقا وامست　　　يبابا بعد ساكنها الحبيب

فدع عنك التذكر كل يوم　　　ورد حزازة الصدر الكئيب

وخبر بالذي لا عيب فيه　　　بصدق غير اخبار الكذوب

بما صنع الاله غداة بدر　　　لنا فى المشركين من النصيب

فالشاعر هنا ـ وان لم يرفض المقدمة الشكلية ـ يشعر بان الالتزام بها فى هذا الموضع بالذات عيب ؟ يدعو نفسه الى الانصراف عنا وذكر ما لا عيب فيه وهو خبر الانتصار ببدر (4) .

وفى معركة الخندق يقول مناشدا الديار الدارسة ببيتين وسرعان ما يقتطع المناشدة ليدخل الى موضوعه مباشرة فيشكو الى الله اجتماع الأحزاب وتالبهم لغزو الرسول (ص) والمسلمين :

هل رسم دارسة المقام يباب　　　متكلم لمحاور بجواب

ولقد رايت بها الحلول يزينهم　　　بيض الوجوه ثواقب الاحساب

فدع الديار وذكر كل خريدة　　　بيضاء آنسة الحديث كعاب (5)

ولحسان فى فتح مكة قصيدتان مشهورتان ، الأولى تعتبر من أروع قصائد الحماسة فى الشعر الاسلامي حين يهدد المشركين بالغزو والحرب الطاحنة ويوم ينصر الله فيه المسلمين ، ان لم يسمحوا لهم بالعمرة ودخول مكة ، ويفخر فى هذه القصيدة بنصر قومه للرسول (ص) ويهجو ابا سفيان ورهطه من مشركي قريش ، هذه القصيدة اطال فيها حسان المقدمة الطللية نسبيا اذا قسنا ذلك بما تقدم من شعره الاسلامي . يقول فى هذه المقدمة التي شملت تسعة أبيات :

---

(4) ديوان حسان ص 14 ـ 18 .
(5) ديوان حسان ص 11 ـ 14 .

عفت ذات الأصابع فالجـــواء الى عـــذراء منزلهـــا خـــلاء

ديار من بنـي الحسحاس قفـــر تعفيهـــا الروامس والسمـــاء

ويستمر فى تذكر صاحبته والتغزل بها حتى يصل الى تشبيه ريقها بالخمر التي حرمها الله على المسلمين ، ويفخر بشربه وقومه لها لأنهـــا تتركهم ملوكا وقت السلم ، أسودا ساعة الحرب . هذه المقدمة تبـــدو منقطعة عن الموضوع الذي قال فيه الشاعر قصيدته ، وتبـــدو النقلـــة مفاجئة دون أن يكون هناك حسن تخلص ـ كما هو معهود عند الشعراء ـ من الغزل الى التهديد حين يقول :

عدمنا خيلنـــا ان لم تروهـــا تثير النقع موعدهـــا كـــداء

يباريـــن الأعنـــة مصعـــدات على اكتافهـــا الأسل الضمـــاء

ولذلك نرانا مضطرين الى القول بان حسانا قالها تقليدا لما اعتاده هو وغيره من الشعراء دون ان يعني الفخر الحقيقي بشرب الخمـــر ، او ربما يكون قد نظمها فى العصر الجاهلي مع أبيات اخرى ضاعت ولم تصل الينا ، واعاد ذكرها هنا تقليدا عند انشاده لأبيات القصيدة .

اما القصيدة الثانية فى فتح مكة فانها تنسجم مع النمـــاذج التـــي ذكرناها سابقا فى قطع حسان فكرة الغزل وذكرى الاطلال واقتصاره على بيتين أو ثلاثة أبيات يتجاوزها بشيء من العنت أو الشعور بعدم جدواها

وهناك عدد من قصائد الديوان الطويلة دخل فيها الشاعر مباشرة الى موضوعه مثل قصائده فى هجو أبي سفيان بن حرب ، وهند بنـــت عتبة (6) ، وقصيدته في الرد على الزبرقان (7) ، واخرى فى هجاء سهم ابن عمرو بن هصيص ، وعمرو بن العاص (8) .

(6) ديـــوان حسان ص : 229 .
(7) ن . م . ص : 242 .
(8) ن . م . ص : 226 .

وهناك بعض القصائد الطويلة فى ديوان حسان ابتداها الشاعر بمقدمات تعتبر نماذج جديدة واصيلة . لوحدة الموضوع فى القصيدة العربية . فالمقدمة الطويلة التي افتتح بها حسان قصيدته فى رثاء الرسول (ص) هي مقدمة طللية لانها تبكي الديار ، وتتبع الآثار والمعالم ، ولكنها ليست رسوما تقليدية اصابها البلى او تعاورها الرياح ـ كما جرت عادة الشعراء على ذلك من قبل ـ ولكنها رسوم ما تزال باقية بطيبة المدينة التي عاش فيها الرسول (ص) سنين دعوته بعد الهجرة حيث فيها قبره وداره ، والمسجد والمصلى ، والحجرات التي كان ينزل وسطها :

بطيبة رسم للرسول ومعهد	منير ، وقد تعفو الرسوم وتهمد
ولا تنمحي الآيات فى دار حرمة	بها منبر الهادي الذي كان يصعد
وواضح آيات وباقي معالم	وربع له فيه مصلى ومسجد
بها حجرات كان ينزل وسطها	من الله نور يستضاء ويوقد
معالم لم تطمس على العهد آيها	اتاها البلى فالآي فيها تجدد
عرفت بها رسم الرسول وعهده	وقبرا به واراه فى الترب ملحد(9)

والشاعر فى تتبعه لهذه المواقف يستعيد صورة الرسم والطلل البالي فيضفيها على قبر الرسول الكريم حيث ينتقل بعد ذلك الى رثائه وتابينه :

ظللت بها ابكي الرسول فاسعدت	عيون ومثلاها من الجفن تسعد
تذكر آلاء الرسول وما ارى	لها محصيا نفسي فنفسي تبلد
اطالت وقوفا تذرف العين جهدها	على طلل القبر الذي فيه احمد(10)

---

(9) ديوان حسان ص : 90 .
(10) ن . م .

هذه النماذج تعتبر بداية للشعر الداعي الى الخروج على المقدمة الطللية، وحسان وان لم يدع دعوة صريحة لذلك ، ولكنه تخلى بتطبيق فعلي عن الالتزام بها فى معظم قصائده الاسلامية ، او اكتفى بابيات قليلة حين يجد نفسه مقلدا بلا شعور منه نهج القصيدة الجاهلية وهو موقف غير صادر عن ازدراء للمقدمة ، أو اقلال من شانها مطلقا ، بل فيه شيء من النظرة الواقعية الملتزمة بمادة القصيدة التي هي ليست مديحا خالصا او هجاء تقليديا ، انما هي جزء من معركة شاملة شملت المجتمع المدني المسلم فى مواجهة عنف المشركين .. وربما لم يدع حسان الى هجر المقدمة صراحة لأن ذلك لم يخطر بباله حقيقة ، ولم يتضح فى ذهنه وهو مشغول بامر الدفاع عن الدين الجديد .

اما دعوة ابي نواس فيما بعد فقد كانت متفرغة لهذا الامر ، لا يشغلها عنه شاغل الا الخمرة وشربها ، وهو الدافع الاساسي الذي دفعه الى تصريحه بدعوته كما سنرى فيما بعد . ولم يلتفت الباحثون الى هذه الظاهرة فى شعر حسان ولم يعيروها اي اهتمام بسبب عدم تصريحه بدعوته وبسبب عودة الشعراء الى نهج القصيدة الجاهلية مرة اخرى بمجرد انصرام العهد الذي اقتضى بعض التغيير فى الشعر الاسلامي .

ونكتفي بشعر حسان ممثلا لشعر الدعوة الاسلامية ، لان الشعراء — كما قلنا — عادوا بعده الى الشكل الفني والمثل الأعلى للقصيدة العربية المتمثل بالقصيدة الجاهلية ويتساوى فى هذه العودة الشعراء والممدوحون حين راوا جميعا ضرورة موازنة الشاعر بين اجزاء قصيدته واقسامها من مقدمة وتمهيد ، ثم انتقال الى الموضوع الاساسي الذي عقد الشاعر النية للقول فيه . فاذا وجد من يزيد فى طول التشبيب على حساب المديح مثلا فانه يكون هدفا للنقد . فهذا بعض الرجاز يدخل على نصر بن سيار والى خراسان لبني امية فيمدحه بقصيدة تشبيبها مائة بيت ، ومديحها عشرة ابيات ، فقال نصر : والله ما ابقيت كلمة عذبة ولا معنى لطيفا الا وقد شغلته عن مديحي بتشبيبك فان اردت مديحي ، فاقتصد فى النسيب فاتاه فانشده :

هل تعرف الدار لام الغمر   دع ذا وحبر مدحة فى نصر

فقال نصر : لا ذلك ، ولا هذا ، ولكن بين الامرين (11) .

ولكن رسوخ هذا الذوق الأدبي لا يعني ركـــود حركـــة التجديـــد واستمرار الشعراء النظم على منوال القصيدة الجاهلية ، لأن المطلع على دواوين الشعر الاموي يجد نماذج طيبة لتجديد الشعراء فى أساليـــب قصائدهم ومطالعها بالذات ... ونعرض عن شعراء النقائض على اعتبـــار ان مادة النقائض جاهلية فى قوالبها وشكلها ، مع ما فيها من روح العصر المتمثل بالعصبية القبلية الجديدة ... لنتخذ من العصر الأموي شاعراً آخر نموذجا للتجديد والتطور فى القصيدة العربية ، ذلك هو الشاعر ذو الرمة الذي طور فى معاملته للفكرة ذاتها فكرة الاطلال والديار ، واسترسل فى الحديث عنها حديث المحب العاشق لها الذي يرى فيها روح الحبيب، ويشم انفاسه ، ويتنسم روحه ، فالاطلال الصماء الموحشة التـــي كان الشعراء يقفون عندها وقفة حزينة باكية تغيرت صورتها عند ذي الرمـــة وتحولت فى بعض قصائده الى ما يقربها من الكائنات الحية حيث نبـــذت وحشتها ، وجمودها ، ودبت فيها الحياة فهي جميلة محببة الى نفسه ، يسلم عليها ، ويتعاطف معها ، ويبكيها ويخاطبها ، ويدعو لها بالسقيـــا ، فتنفعل احجارها وملاعبها وتطارحه هي الاخرى الاشواق والمودة يقول :

وقفت على ربع لميـــة ناقتـــــي ... فما زلت ابكي عنده واخاطبـــــه

واسقيه حتى كاد ممـــا ابثـــــه ... تكلمني احجـــاره وملاعبـــه (12)

وبعد هذا ينتقل الى وصفها ، وخلوها من الناس والعمران حتـــى غدت النيران تعتاده ، وتتمشى فيه ، ومع ذلك فما تزال هـــذه الديـــار محببة الى نفسه فترابها تنبعث منه رائحة رائعة كانها سحيق المسك :

به عرصات الحي قوبن متنـــــه ... وجرد أثباج الجراثيم حاطبـــه

تمشي به النيران كـــل عشيـــة ... كما اعتاد بيت المرزبان مرازبـــه

(11) الشعـــر والشعـــراء 1 / 75 .
(12) ديـــوان شعـــر ذي الرمـــة ص : 39 .

كان سحيق المسك ريـا ترابـــه   اذا هضبته بالطلال هواضبه (13)

وكما يالف الخل خليله ، ويهتف شوقا للقائه ، وفرحا برؤيته كذلك شبه ذو الرمة ديار الحبيبة بالكائن الحي ، فاذا كانت هذه الديار في كثير من قصائده صماء لا تجيب فانها في بعضها الآخر تشاركه مشاعره وتكـاد تهتف لمجرد سماع صوته يقول :

وقفنا وسلمنا فكادت بمشـــرف   لعرفان صوتي دمنة الدار تهتف (14)

اما رسومها الداثرة التي تبعث الأسى والحزن في النفوس فانهـــا تحولت في بعض قصائده الى لوحة فنية جميلة يتحير في وصفها فهـــي تارة كالوشي او كالبرود او الثياب الجميلة تارة أخرى (15) .

كان رسومه بسطـت عليهـــــا   ثياب الوشي او لبس النمار (16)

وذو الرمة حين يجدد في هذه القصائد نراه يكرر ما قاله الشعراء من قبل في قصائد اخرى ، ونجده في ضرب ثالث من اشعاره يصرح بعدم جدوى مخاطبة الديار لأنها لا تعرف كم حل بها أهلها ، ولا متى ارتحلوا

الم تسال اليوم الرسوم الدوارس   بحزوى وهل تدري القفار البسابس

متى العهد مما حلها ام كم انقضى   من الدهر قد جرت عليها الروامس (17)

وفي قصيدة اخرى يقرر الشاعر بعد السلام على الديار بان سلامه غير مجد ايضا ، ولكن شغفه بمن كان فيها يجعله يشغف بها حتى بعـــد رحيل اهلها عنها ، وبدلا من لوم صاحبه له على ذكره لمحبوبته نراه يلومه على الحاجة في السلام على اطلال الديار :

---

(13) ن . م .
(14) ديـــوان شعـــر ذي الرمـــة ص : 272 .
(15) م . ن . 194 ، 283 ، 342 .
(16) ن . م . ص : 194 .
(17) ن . م . ص : 211 .

فقال اما تفشى لمية منــــــزلا		من الأرض الا قلت هل انت رابــع
وقل الى اطلال مــــي تحيــــــة		تمنى بها أو أن تــرش المدامـــع
الا ايها القلب الذي برحــت بــــه		منازل مي والعراق الشواســـع
أفي كل أطلال لها منك حنــــــة		كما حن مقرون الوظيفين نازع(18)

وهكذا لم تعد الديار مجرد تقليد ومحاكاة بشكل القصيدة الفنيـــة بل اصبح جزء موحداً مع غزل الشاعر يضفي عليه احاسيسه ومشاعره .

وننتقل من ذي الرمة الى بشار بن برد ، الذي يعد فى اشعاره اقرب الى الدولة الاموية ، وشعره فى مدتها اكثر كما يقول محقق الديوان (19).

واذا اردنا ان نتتبع شكل القصيدة عنده نجده فى الغالب ينهج نهج الشكل التقليدي المتمثل بالمقدمة والرحلة وما الى ذلك ، الا اننا لا نعدم بوادر تجديدية طريفة توسع فيها من بعده وتتمثل فى افتتـــاح بعـــض قصائده بالغزل الرقيق المترف الذي تشم منه عطر الحاضرة المتمدنـــة وحياتها الوادعة الوارفة دون ذكر لديارها المهجورة او اطلالها الحزينة ، ونجد مع رقة لغته وجمال الفاظها ، اصالة التعبير العربي وجزالته .. فبشار جمع بين الجزالة ورصانة اللفظ وبين الرقة والخفة فى الالفـاظ والمعاني مازجا ذلك كله بشيء غير قليل فى المحسنات اللفظية ممـــا حبب شعره الى معاصريه وجعله قدوة يحتذيه الشعراء المولدون .

ونقف على نموذج واحد ـ هنا ـ من قصائده التي حاول فيها بشار ان يتخلص من بعض شكليات القصيدة العربية القديمة ، حين استبـــدل الناقة بالسفينة ، وهو شكل فى ظاهره جديد ، الا اننا من خلال تحليلنـــا له سنجد انه ما يزال متشبثا بقواعد القصيدة العربية القديمة ، لم يستطع التخلص منها مع اقحامه شكلا جديدا يمثل حياة العصر ، وما شاع فيه من استعمال السفن والزوارق وسيلة للتنقل بين حواضر العراق المطلـــة

(18) ديـــوان شعـــر ذي الرمـــة ص : 333 .
(19) ديـــوان بشـــار ـ المقدمـــة ج 1 / 36 .

على دجلة والفرات . وقصيدته هذه اموية قالها فى العصر الأمـــوي فى مديح يزيد بن هبيرة الذي كان يلقب بشيخ العرب ، والذي ولي العــراق زمن مروان بن محمد سنة 128 هـ .

يبتدىء بشار القصيدة باربعة ابيات فى السلام على اطلال سعدي ويستوقف الركب على رسمها :

سلم على الدار بذي تنصـــــب   فشط حوضي فلوى قنعـــــب

واستوقف الركب على رسمهـــا   بل حــل بالرسم ولا تركـــب

وبدلا من أن يخاطب صاحبه ـ على عادة الشعراء ـ ليقفمعهويسعيد ذكر الاحبة ، ويعينه على البكاء فان بشاراً يصفه لنا بانه قوي البنيـــة صلب الارادة ، لم تستهوه البيض ، ولم يبك على الديار ، وانه حين وثق من صداقته له ، اخذ يحدثه عن ذكرياته مع صاحبته سعدى وعن حبـــه لها الذي لم يعقب الا السهد والالم والنحول ، وان حبها كان حلما كاذبا ، ولاجل ذلك ينتقل الشاعر فجاة لوصف السفينة التي تنقله من حلمـــه الكاذب الى الممدوح الذي يمثل الواقع الحقيقي بالنسبة للشاعر . يقول واصفـــا السفينـــة :

وملعب النـــون يرى بطنــــــه   من ظهره اخضر مستصعـــــب

عطشان ان تاخذ عليــه الصبـــا   يفحشن على البوصي او يصخب

ويستمر فى اوصافها مبتدئا بسيرها الصاخب حين تهب الريـــح فيزداد صخب الموج ، فلا يجد بشار تشبيها مناسبا الا بذكر اصـــوات الجنادب ، تلك الاصوات التي كثيرا ما تصاحب رحلة الناقة فى الصحراء الـــى الممـــدوح :

كـــان اصـــواتـــا بارجائــــــه   من جندب فاض الى جنــــدب

ركبـــت فى اهوالـــه ثيبـــــا   اليك او عذراء لـــم تركـــب (20)

---

(20) ديـــوان بشـــــار 1 : 145 .

ثم يستمر في وصفها فتتملكه صورة الناقة القوية السريعة التي تطوي المسافات ولا تتعب ، فالسفينة هي الأخرى يقودها ربانها القوي ، فلا تشكو الاين ولا تمل السرى فيسير بها من مسرب الى مسرب ، وهي ما تزال نشيطة قوية .

وهكذا تبدو القصيدة بداية تجديد ياخذ به ابو نواس منها بعد الى حيز اوسع وتجربة اشمل ... ثم ان بشارا في مدائحه الأخرى تنوعت أساليبه بتنوع ممدوحيه ، فتارة تبدو أعرابية مغرقة في بداوتها واخرى يتخلى فيها عن الابتداء باي مقدمة مثل قصيدته في مدح أخ له (21) والقصيدة التي مدح بها خداش بن يزيد بن مخلد (22) وقد ابتداها بمقدمة حكيمة ، فالقصيدة التي مدح بها يعقوب بن داود (23) وقصائد اخرى بداها بمقدمات خمرية مثل القصيدة التي مدح بها ولي العهد موسى الهادي (24) .

واضفى بشار على غزله مسحات تجديد طريفة عادت بذاكرتنا الى غزل عمر بن ابي ربيعة ، حيث نجده يكرر أسماء صاحباته ، ويصف مغامراته معهن بأسلوب يظهر فيه شيئا من البطولة والاعتداد بالنفس حين يصورهن العاشقات لا المعشوقات الساعيات خلفه لا الساعي خلفهن . وقد يتحدث عن غرامه ، ويتغزل باحداهن باسلوب رقيق يكاد ينسينا برقته وعفته ما شاع في بعض أشعاره من فحش وغزل ماجن ؟ !

وفي هذا التنوع الفني والأشكال الفنية التي وجدت في ديوانه يكمن تجديده ، وكونه راس الشعراء المحدثين والمجددين « وخاتمة الشعراء » كما نسب القول الى الأصمعي (25) ، وفضله الجاحظ على جميع المحدثين (26) ، ووصفه ابن المعتز بانه راس الشعراء المحدثين

---

(21) ديوان بشار 1 : / 303 .
(22) ن . م . 2/ 59 .
(23) ن . م . 1/ 304 .
(24) ن . م . 2/ 40 .
(25) الأغاني : 2 / 69 .
(26) الحيوان : 4 / 146 .

والمجددين (27) ، كما وصفه بانه حسن للمولودين ان يقتفـوا آثاره ، ويلحقوا غبـاره (28) .

وأخيرا نختم جولتنا هذه بوقفة عند شعر أبي نواس حيث تبيـن لنا من خلال هذه الجولة ان دعوته التي بولغ في تجسيدها وتعظيمهـا أو بولغ في الحط من شأنها واتهام صاحبها نجد أن دعوته هذه تبدو منسجمة مع المسار الطبيعي الذي سارت عليه القصيدة العربية . لذلك نرانـا مضطرين الى مناقشة بعض الآراء التي قيلت في شانه قبل الافاضة في تحليل شكل القصيدة في ديوانه .

يرى الدكتور طه حسين بأن منصب ابي نواس التجديـدي ليس منهبا شعريا تجديديا بل كان يذم القديم لا لأنه قديم ، بل لأنه قديم ولأنه عربي ، ويمدح الحديث لا لأنه حديث بل لأنه حديث وفارسي . فهو اذن مذهب تفضيل الفرس على العرب ، مذهب الشعوبية المشهور (29) .

وحمل الأستاذ محمد نبيه حجاب حملة شعـواء على ابي نـواس باعتباره راسا من رؤوس الشعوبية وأن (ثورته على القديم باسم التجديد لم تخل من نزعة شعوبية هدامة ولو تم لها النجاح لعصفـت بالتـرات الأدبـي الخالـد) (30) .

وسنرى أن هذين الرايين يبتعدان عن الساحة الأدبية بعد أن نقوم بتحليل دعوة ابي نواس من خلال اشعاره ويتبين لنا بان اصحاب هـذا الراي قد اصدروا حكمهم على ابي نواس بعيدا عن دعوته الشعرية ، وان احكامهم كانت مسبقة لانهم قرنوها بالشعوبية .

اما الدكتور شوقي ضيف فقد راى في هذه الدعـوة ثـورة على الموضوعات الشعرية وليست دعوة الى التجديد في شكـل القصيـدة

---

(27) انظـر ديوانـه ص 37 .
(28) انظـر ديوانـه ص : 37 .
(29) حديث الأربعاء 2 / 410 والى قريب من هذا الراي ذهب المرحوم العقاد في كتابه (أبو نواس : 146) وعبد الرحمن صدقي في (أبو نواس قصة حياته وشعره ص 116)
(30) مظاهـر الشعوبية في الأدب العربي 300 .

العربية ، وانه لم يكن يريد بها الاطلال من حيث هي ، وانمـــا كان يريــد موضوعات الشعر القديمة من مديح وهجاء ، وما يندمج في ذلك مــن اطلال وغير اطلال ، اذ كان أبو نواس يخصص نفسه بالخمريات وغـــزل الغلمان ، وكان يرى ان هذين الموضوعين اللذين يصوران حياته وحياة غيره من الشعراء الماجنين احق بان يعني بها الشاعر ، وان يقصر نفسه عليها غير ملتفت الى موضوعات الشعر القديمة ، فهو اذن يرمز بدعوته الى نبذ الوقوف على الاطلال لموضوعات الشعر القديمة كلها اذ كان يريــد للشعراء ان يهجروها الى هذا الشعر اليومي الذي يعبـــر عن حياتــه وحيـــاة غيـــره (31) .

ويرى الدكتور حسين عطوان بأن دوافع أبي نواس هي دوافع فنية خالصة ، وان كان يهدف الى الصدق الفني ، فقد لاحـــظ ان شعــــراء الجاهلية كانوا يفتتحون قصائدهم بوصف الاطلال ، والبكاء على الديـــار كما كانوا يصفون بيئتهم وما فيها من قفار واشجار وحيوان دون ان ينكر ذلك عليهم بانهم كانوا يصورون بيئتهم الطبيعية ، واحوالهم الاجتماعية ، وما قامت عليه من الرحلة المستمرة ، والتنقل المتواصل ، وهالـــه ان يغض معاصروه من الشعراء انظارهم عن بيئتهم وتراثهم الفني) (32) ، وربط بعضهم دعوة ابي نواس بطبيعة المولدين الذين لا تربطهم بمعالـــم الحياة العربية الجاهلية عاطفة ما (33) .

وسوف نجد بعد قليل بان ابا نواس لم يدع الى هجر الموضوعات القديمة من مدح وهجاء لانه ادلى فيها بدلوه ، كما لم تكن دعوته عامة لكي نقول عنها بانها دعوة الى الصدق الفني وان ابا نواس لم يرفض نهائيا فكرة الديار ووصف الصحراء كما سنرى بعد قليل :

لقد احصيت قصائد الديوان انطلاقا من كونه المـــادة الشعريـــة الأساس التي يجب ان نبحث من خلالها عن افكار الشاعر وآرائـــه .. ان

---

(31) الفن ومذاهبه في الشعر العربي 112 .
(32) مقدمة القصيدة في العصر العباسي 113 .
(33) اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري 150 .

دعوة ابي نواس لنبذ الوقوف على الاطلال ، او الثورة على شكل القصيدة، كما سماها بعضهم ، لم تكن دعوة عامة تشمل كل ميادين القول الشعري ، بل هي مقتصرة على الخمرة . ومراجعة الديوان تؤكد هـــذا الرأي ... اذا ما وجدنا ابا نواس ينعي على الشعراء عادة البكاء على الاطلال الا في خمرياته .. اما الاغراض الفنية الاخرى فقد سار فيها مسيرة شعـــراء زمانه مع اضفائه عليها مسحاته التجديدية التي تعتبر جزءا من ابي نواس ومهجتـــــه .

ابو نواس شاعر خمر ومجون ، ولهو ومتعة عابرة ، وحين يريد ان يعبر عن لحظات المتعة التي كان يعيشها بين الخمرة والحان ، لم تكن نفسه مهيأة الا لتصوير ذلك دون ان يجد مبررا لاشغالها ، او بعثرة انفعالها بما اعتاد عليه الشعراء من افتتاح قصائدهم بالبكاء على الاطلال ، لانه لو شغل نفسه بهذا فان انفعاله السريع لتصوير متعته العابرة لا بد ان يصيبـــه الخفوت او ان يتشتت في افكار هو في غنى عنها ساعتئذ . ونلحظ هذا في كل قصائده التي تمثل بها الباحثون . يقول في وصف رحلته الى خمار :

دع الربع ما للربع فيك نصيـــب ... وما ان سبتني زينـب وكعـــوب
ولكن سبتني البابليــة انهــــا ... لمثلي في طول الزمان سلوب (34)

ثم يستمر في وصفه للخمرة ورحلته الى بيت خمارها باسلـــوب قصصي تسمع خلاله تحيته للخمار ومحاورته له ، ثم وصف لداره ووصف الساقي والمغني ... الخ . ويقول في قصيدة أخرى مشهورة :

عاج الشقـي على رسم يسائلــه ... وعجت اسال عن خمارة البلــد
لا يرقىء الله عين من بكى حجـــرا ... ولا شفى وجد من يصبو الى وتد
قالوا ذكرت ديار الحي من أسـد ... لادر درك قل لي من بنو أســـد
ومن تميم ومن قيس ولفهمــــا ... ليس الأعاريب عند الله من احد
دع ذا عدمتك واشربها معتقـــة ... صفراء تعتق بين الماء والزبد (35)

(34) ديوانـــــه ص : 111 .
(35) ديوانـــــه ص : 46 .

فالبيت الثالث يؤكد بان دعوته الى الخروج على شكل القصيدة لم تكن عامة ، وسخريته بالوقوف على الاطلال ليست سخرية لذات الاطلال ، وانما سخريته قائمة في وجوب ذكرها عند تغنيه بالخمرة لأن البيت المذكور يؤكد بانه سبق لابي نواس أن قال وتغنى بديار بني أسد فلما ذكر بهذا وهو في موقف التغني بالخمرة والمتعة العابرة فسخر بما كان قد تغنى هو به من قبل ! وبهذا نستطيع أن نفسر جميع أبياته التي حملها البعض اكثر من تحمل ، واعتبروها شعوبية حينا وسخرية بالعرب جميعا حينا آخر وليست هي في شيء من هذا ولا ذاك . هذا في باب الخمريات ، أما فيما سواه فلا نجد ذكرا لدعوته ولا نجد سخرية بالشكل التقليدي للقصيدة العربية مما يؤكد لنا بان الشاعر ميز في دعوته هذه بين الاغراض الشعرية او فلنقل بأن دعوته حصرت في باب الخمريات ، اما ما سواها فقد انطلق فيها الشاعر انطلاق غيره ، ولناخذ المديح ـ وهو أوسع أبواب الشعر العربي آنذاك ـ مادة لتحليلنا واستنتاجنا .

وقبل كل شيء نود ان نؤكد بان ما قاله بعض الباحثين من عزوف أبي نواس عن المديح (36) فكرة مغلوطة ، لأن باب المديح من الابواب التي اكثر ابو نواس القول فيها . فالغرضان اللذان تصدرا الديوان هما الخمريات والغزل وقد شملا 395 صفحة فيها قصائد ومقطوعات بالخمر وبالغزل بالمذكر والمؤنث ... ويليه باب المديح ويشتمل على 221 صفحة ، فاذا أخرجنا قصائد الغزل ، وابقينا الخمريات وجدنا المديح والخمر متضارعين في الكثرة والغزارة .

واذا حاولنا دراسة قصائد هذا الباب وجدناها منوعة غير ملتزمة باسلوب واحد ، منوعة باختلاف الممدوحين واختلاف ظروف انشادها . فهي في كثير من الاحيان تقليدية يسير فيها الشاعر مسيرة غيره من الشعراء سواء من ناحية الشكل أو اللغة والاصاف والافكار (37) .

---

(36) انظر جلال الخياط : المديح والتكسب ص : 39 وقد نقل راي ادونيس في الادب العربي المعاصر ص : 173 .

(37) انظر مثلا ص 446 ، 432 في وصف الصحراء وهو في رحلته الى الفضل بن الربيع.

وفى احيان اخرى نجده يسير فيها سيرة نواسية بخفة الالفاظ ورشاقتها ، ولطف المعاني وطرافتها ، وقد يبدأها بغزل رقيق يدعوه الى وصف المرأة لينتقل بعد ذلك الى الممدوح (38) ويبدأها بذكر الشباب الذي يستدعي بعده ذكر غرامياته أو مغامراته ثم الرحلة والممدوح (39) . اما قصائده التقليدية فلا يمكن القول بأن الشاعر اجبر على قولها او الالتزام بها لأن الخليفة فرض عليه ذلك ، لماذا ؟ لأننا وجدناه يلتزم بهذه الشكلية مع كثير من ممدوحيه لا لشيء الا لانه وهو يمتدح متمالك لنفسه وروحه الشعري ـ على خلاف شعره الخمري ـ وبذلك فهو أقرب الى التامل والصنعة ويميل الى التقليد الفني لانه يعرف بانه يمثل مثلا فنيا جيدا فى نظر الشعراء والممدوحين على السواء . اما خمرياته فلم يكن يريد بها اعجاب احد او عطاءه ، وكل ما كان يريده هو التعبير عن شعره بشرب الخمر ، ومتعته باللهو لذلك لا نجد الا بيت شعر واحد فى باب المدح يرفض فيه ابو نواس عادة الشعراء فى الوقوف على الاطلال دون ان يقرن ذلك بسخرية او دعوة لغيره ولكنه يصنع البديل الشكلي مكانها وهو الغزل بالمذكر ، وذلك امر ما كان يجرا عليه الشعراء من قبل خاصة ، وان المقطوعة التي ورد فيها البيت هي فى مدح الفضل بن أبي الربيع يقول :

يا ربع شغلك اني عنك فى شغل	لا ناقتي فيك لو تدري ولا جملي
علي عين واذن من مذكرة	موصولة بهوى اللوطي والغزل
كلاهما نحوها سام بمهجته	على اختلافهما في موضع العمل

ثم ينتقل بعد ذلك الى الممدوح فيقول :

يا فضل غاية خلق الناس كلهم	اذا ضربنا بجود غاية المثل (40)

وفى بعض اماديحه يكون البديل الشكلي لقصيدته عن البكاء على الأطلال بديلا ينسجم ايضا مع حياته وسلوكه فلا نراه يتحرج وهو يمتدح

---

(38) ديوانه ص : 466 .
(39) ن . م .
(40) ديوانه ص : 499 .

الأمين من ان يبدأ قصيدته بالتغزل بالخمرة ووصف ساقيها (41) وهـــذا ايضا ينفي ما قيل من ائتماره بامر الخليفة في قصائده التقليديـــة وفي مقطوعة اخرى يقسم بشارب الخمر ، وقد صحبـــه جلاسه ، ولعبـــت الخمرة برأسه حيث يسقيه ساق فاتر العينين يقسم بان الممدوح ما سمي عباسا لجوده انما هو عباس بباسه ، اما فضله فمقـــرون بالفضـــل على النـــــاس (42) .

ونحاول ان نقف الآن على بعض اشعاره المادحة التي نـــزع فيهـــا التجديد ـ اضافة الى ما ذكرناه ـ والذي يواكب روح العصر من جهة ، وينسجم مع نفسية أبي نواس من جهة اخرى تاركين قصائده التي افتتحها بمقدمات تقليدية سواء ما نهج فيها نهج الشعراء القدماء ، لغة وأسلوبا ، أو تلك التي استبدلها بأسلوبه الخفيف الراقص ، وصوره الحضرية المترفة أو اضفى عليها روحه التي تحسها في بعض قصائده التقليدية . ويتجلـــى تجديد أبي نواس في مديح الامير لأن العلاقة بينهما لم تعد بحاجـــة الى اشكال فنية بل هي تكاد تقرب من العلاقة بين شعر الخمر ونفسية ابـــي نواس ، لأن كلا الرابطتين هما الحب والانفعال السريع . لقد احب أبـــو نواس الخمر ، وولج ميدان القول فيها دون ان يقدم الى ذلك واجب الامين، وربطته به رابطة الصداقة فلم يجد بعد حرجا من أن يرسل القول ارسالا فيقـــــول :

وجيـــه محمـــد شمـــــس	وملـــك محمـــد عـــــرس
وكفـــــاء تجـــــودان	بمـــا لا تامـــل النـــــفس
فمـــا فـــي جـــوده مـــــن	ولا فـــي بذلـــه حـــبس
شهيـــد اي على مـــا قلـــت	فيه الجـــن والانـــس (43)

وتتضخم مع هذه الابيات مقطوعات عديدة نرجح ان يكون ابو نواس قد قالها ارتجالا ، لذا خصها بفكرة واحدة عن الممدوح ولم تتجاوز ابياتها المقطوعة الى القصيدة .

---

(41) ن . م . ص : 417 .
(42) ن . م . ص : 466 .
(43) ديـــوان أبـــي نـــواس ص : 418 .

وفى قصائد ومقطوعات نجد ابا نواس يتخذ من بعض مظاهر الحضارة وسيلة يمدح بها الامين ولكنها ليست كالخمرة مقدمة انما هي جزء لا يتجزأ من الممدوح . فقد عرف عصر الامين بتطور الزوارق والسفن النهرية والتغني بها بشكل يعطينا صورة طريفة للحضارة العباسية التي شملت جميع مظاهر الحياة حتى وسائل الركوب والتنقل .

فالزوارق لم تعد وسيلة للرحلة فحسب بل هي وسيلة للمتعة والترف ، ابدع صانعوها وعمالها فى تطور اشكالها ، فزورق على شكل ليث وآخر على صورة نسر ، وثالث على صورة عقاب ، ورابع على صورة دلفين :

الا ترى ما اعطى الامين	أعطى ما لم تره العيون
ولم تكن تبلغه الظنون	الليث والعقاب والدلفين
ولي عهد ما له قرين	ولا له شبه ولا خدين
استغفر الله بلا هارون	يا خير من كان ومن يكون
الا النبي الطاهر الميمون	ذلت بك الدنيا وعز الدين (44)

وفى قصيدة أخرى يخص ابو نواس طريقا خاصا فى السفن بالوصف الدقيق الاول صمم على شكل أسد باسط ذراعيه ، واسع الشدق انيابه كالحة ، يجري فى النهر بقوة وجبروت ، ولا يحتاج الى لجام او سوط أو غمز بارجل كما يفعل ممطى الدابة ، ولا عجب في ذلك لأنه أسد والأسد سيد نفسه يقول :

سخر الله للأمين مطايا	لم تسخر لصاحب المحراب
فاذا ما ركابه سرن برا	سار فى الماء راكبا ليث غاب
اسدا باسطا ذراعيه يعدو	أهرت الشدق كالح الأنياب
لا يعانيه باللجام ولا السو	ط ولا غمز رجله فى الركاب

(44) ديوانه ص : 413 .

ثم يصور اعجاب الناس بهذه السفينة السريعة في جريها فيلفت انظارنا الى ضرب آخر من السفن ويتساءل عن اعجاب الناس كيف يكون أن رأوا الممدوح عليها :

عجب الناس اذا راوك على صو ... رة ليث يمر مر السحاب

سبحوا اذا راوك سرت عليه ... كيف لو ابصروك فوق العقاب

ثم يستمر بوصفها وصفا دقيقا تتجلى فيه روعة الصفة الفنية فيقول :

ذات زور ومنسر وجنا ... حين تشق العباب بعد العباب

تسبق الطير في السماء اذا ما اسـ ... ـتعجلوها بجيئة وذهاب

بارك الله بالأمين وابقاه ... وابقى له رداء الشباب (45)

ويكفينا في ابي نواس هذه الصورة الرائعة التي سجلها في ديوانه ، ويكفينا من باب المديح ايضا ما قدمه ابو نواس من صورة تاريخية عن احد جوانب الحياة الحضرية في العصر العباسي ، وهو امر قلما نجد تفصيله في بطون كتب التاريخ والحضارة ... كما أن عرض أبي نواس يمثل من الناحية الفنية وحدة موضوعية بين الممدوح وأحد مظاهر الحضارة والعصر التي اقترنت به ، وهو امر يختلف كما قلت ـ عن المقدمات الخمرية التي افتتح بها الشاعر قصائده ـ وقد سبقه الى هذا غيره من الشعراء لأنه في هذه الحالة يحتاج الى حسن تخلص ينقله من وصف الخمر الى الممدوح . اما في هذه الصور فانه لا يحتاج الى نقلة فكرية ، لأن الممدوح والموصوف شيئان متلازمان . وبذا مثلت قصيدة المديح هذه وحدة موضوعية ... وبذا ايضا يضيف ابو نواس تجديدا مختلفا عن تجديد بشار حين استبدل الناقة بالسفينة ولم يستطع ان يتخلص من صورها واوصافها ، فاضفاها على البديل ، فجاءت سفينة مقرونة باوصاف الناقة ...

---

(45) ديوانه ص : 414 .

ومع كل مظاهر التجديد التي تتبعناها في شعر ابي نواس ، فانهـــا تبقى مظاهر لتطور الشعر العربي بصورة عامة ، وشكل القصيدة منه بصورة خاصة ، وهي في اطارها العام منسجمة مع خط التطور الذي سار عليه بعض الشعراء من قبله ، فهي اذن لا تشكل ثورة فنية ، لأن مفهوم الثورة هو قلب المقاييس والأنظمة ، وابو نواس في تجديده لم يدع الى قلـــب شكل القصيدة العربية عموما ، أو تغيير مقاييس القـــول فيها بل دعـــا ، وطور في بعض جوانبها ، وبعض أغراضها .

فـــاس — د. ابتسام مرهون الصفار

حول تحقيق

كتاب التعازي

لأبي الحسن المدائني

محمد الديباجي

يعتبر علي بن محمد بن عبد الله، المعروف بابي الحسن المدائنـــي (152ـــ225 هـ) من اكبر شيوخ الادب والرواية في تاريخ الادب العربـــي. وكان يقال : « من اراد اخبار الجاهلية فعليه بابـــي عبيدة ، ومن اراد اخبار الاسلام فعليه بكتب المدائنـــي » .

وحينما نتتبع قائمة كتبه الوارد ذكرها في كتب التراجم مثل «فهرست» ابن النديم و « معجم الشعراء) لياقوت وكتاب « الاعـــلام » للزركلي وغيرها من كتب التراجم القديمة والحديثة ، يخيل الينا ان المدائني لـم يترك فنا من فنون الأدب والرواية الا الف فيه .

ولكن جل هذه الكتب قدضاع،معالاسف الشديد . ولم يصلنـــا منها ـــ وما اكثرها ، ـــ الا كتيبان صغيران : اولهما « كتاب المردفات من نساء قريش » ، وهي رسالة قصيرة في عشر ورقات . حققهـــا الاستاذ عبـــد السلام محمد هارون ، ونشرها في سلسلة « نوادر المخطوطات » والكتاب الثانـــي ـــ وهو ما يهمنا هنا ـــ « كتاب التعازي » . على ان هذا الكتـــاب

لم يصلنا كاملا ، وانما وصلنا منه الجزء ان الاولان فقط ، ويقعان فى اربع وعشرين ورقة ، حفظا بالمكتبة الظاهرية بدمشق . وتعتبر هذه المخطوطة فريدة ، لا ثانية لها . وقد نشرها الأستاذان العراقيان ابتسام مرهـــون الصفار وبدري محمد فهـــد .

ولقد ابتهجنا ايما ابتهاج لظهور هذا الكتاب الذي ((ساعدت جامعة بغداد على طبعه) ، ولكن ابتهاجنا لم يلبث ان انقلب اكتئابا حينما تبين لنا ان الكتاب جاء مليئا بالتصحيف والتحريف ، وان الاخطاء المختلفة طغـــت على النص وبخسته حقه وقيمته .

واننا لندرك ان تحقيق المخطوطات عمل شاق وعسير ، وانه لا يخلو او لا يكاد يخلو من الخطأ والنقص ، ولكننا نعتبر الاخطاء الواردة فى هذا الكتاب قد بلغت من الكثرة والفداحة حدا لا يمكن التغاضي عنه . لذلك ارتاينا ان نكتب مقالا مختصرا نبين فيه اهم هذه الاخطاء ، ونصوبها ، ونرد بذلك بعض الاعتبار لهذا الكتاب القيم .

وقد مهد السيدان المحققان للكتاب بمقدمة فى اربع ورقات ، تحدثا فيها عن المدائنـــى وكتابه وعما الف فى فن التعازي .. ولا نريد ان نتحدث بتفصيل عن هذه المقدمة اذ كانت غايتنا هي التنبيه على الاخطاء التـــي لحقت النص عند التحقيق . لذلك نكتفـــي بضرب بعض الامثلة على ما ورد فى هذه المقدمة نفسها من اخطاء . فمن ذلك قولهما : ((فانه ـــ اي المدائنى ـــ لا بد ان يكون قد استفاد من معاشرته لاسحاق الموصلي فوائد جمـــة حيث ان اسحاق الموصلى عرفت عنه رواية الشعر والمآثر)) (ص 6) . فهذا تعبير غير سليم لان ((حيث)) وردت فى غير مكانها . وقد تكرر الخطا نفسه فى الصفحة الثامنة عند قولهما : ويعرض [المؤلف] موضوعا واحدا يدور كله حول التعازي والمراثى حيث يورد الاخبار ...))

وننتقل بعد هذا الى النص . ففي صفحة 14 ((ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لان اقدم فرطا احب الى من ان ادع مئة مسالة)) .

فالكلمة الاخيرة محرفة وصوابها : « مستلئم » (1) . ومما يستغرب لــه هنا ان الكلمة وردت في المخطوطة واضحة لا غبار عليها ولا اشــكال في قراءتها . على أن الغرابة تزول حينما نرى مثل هذا الخطا يتكرر مرات كثيرة متعددة .

ونقرا بعد هذا الخبر — في الصفحة نفسها — « ان رسول اللــه صلى الله عليه وسلم وضع ابنه ابراهيم في حجره وهو يجود بنفسه فقال : لولا انه وعد صادق ووعد جامع ... فكلمة « وعد » الاولى محرفة ، وصوابها « موعــد » .

وفي الصفحة 17 : « نالوا الفوز وحاموا الذمار » . وعلق المحققان في الهامش على هذ ه العبارة بقولهما : « في الاصل : (وحاطوا الذمار) . والصحيح ما هو مثبت » . والحقيقة ان ما اثبتاه هو الخطا ، وما خطـاه هو الصواب . ولو تكلفا عناءالرجوع الى معجم من معاجم اللغة لتبين لهما ذلــك .

وفي الصفحة 19 : « حدثنــي يزيد بن عياض بن جعدية » والصحيح انه « ابن جعدبة » بالباء لا بالياء ، وبضم الجيم والباء معا ، .

ونقرا فيالصفحة نفسها : « قال ابو الحسن عن على بن خالد بــن يزيد بن حر ، قال : لما مات عبد الملك بن عمر دخل عليه عمر حين مات فنظر اليه وخرج... » ولنا على هذا الخبر ملاحظتان :

— اولهما أن كلمة « حر » محرفة عن كلمة « بشر » . وهو تحريف مؤسف لأنه تشويه للنص من جهة ، ولأن الكلمة ، من جهة اخرى ، وردت في المخطوط واضحة كل الوضوح .

— وثانيتهما أن الخبر مضطرب وغامض . ولا شك ان عبارة « حين مات » مقحمة على النص .

---

(1) المستلئم : لابس اللامة ، وهي الدرع .

ونقرأ في الصفحة نفسها : « قام عمر (1) على قبر ابنه عبد الملك فقال : رحمك الله يا بنـــي ، فقد كنت سارا مولودا ، وبارا ناشئا ، وما احسب إني دعوتك فاجبتني » . وجاء في التعليق على عبارة « مـــا احسب » : « في الاصل (احب) والصحيح كما هو مثبت اذ هكذا ورد في العقد » . وليس هذا هو الصحيح . بل الصحيح هنا ايضا هو ما حرفاه ، والمحرف هو ما اثبتاه . ولقد اشكلت عبارة « ما احب » (على وزن مـــا افعل —) على السيدين المحققين فقرآها بضم الهمزة والباء فلم يجد لهـــا معنـــى ، فحرفاها بعبارة « ما احسب » .

وفي الصفحة 20 : « فليعلم ذوو النهى انهم صائرون الى قبورهم مفردون باعمالهم » . وعلقا في الهامش على كلمة « مفردون » بقولهما : « في الاصل : مفروورون » . ولم ترد الكلمة هكذا في الاصل ، بل ما ورد فيه هو « مفرودون » .

وفي الصفحة 20 و 21 « ان عمر بن عبد العزيز قال لابـــي قلابة — وقد ولي غسل ابنه عبد الملك بن عمر : اذا اغسلته وكفنته فاذنني قبـــل ان تغطي وجهه . فلما غسل نظر اليه فقال : رحمك الله يا بني وغفر لك ». وعلقا في الهامش على قولهما : « فلما غسل » بتعليقين :

— في الاصل : فغسل

— في الاصل : الى (كذا) .

وعندما نعود الى المخطوطة لنتبين هذا الخبر ، يتضح لنا انه حرف تحريفا قبيحا وان ما جاء في المخطوطة هو : « فاذا غسلته وكفنته فآذني قبل ان تغطي وجهه ، ففعل . فنظر اليه فقال : رحمك الله يا بني ... » .

ونقرأ في الصفحة 21 : « قال رجـــل لعمـــر بن عبـــد العزيـــز وهو في قبر ابنه : آجرك الله يا امير المومنين ، واشار الرجل بشماله .

---

(1) هو عمر بن عبد العزيز

فقال له عمر : يا عبد الله ، اشر بيمينك . فقال الرجل : سبحان الله ، اما في موت عبد الملك ما يشغل عني نصيحة المسلم » . والخبر في هذا السياق الذي ورد فيه ـ محرف ومبتور ـ وصوابه كما جاء في المخطوطة : « اما فيموت عبد الملك ما يشغل عن هذا ؟ فقال : لا ، ليس في موت عبد الملك ما يشغل عن نصيحة المسلم » .

وفي الصفحة نفسها : « وقد وصل اليكم من الله كثير ان شاء الله». وفي العبارة بتر ايضا ، وصوابها « وقد وصل اليكم من الله خير كثير ..».

وفي الصفحة 22 : « ان الله عز وجل لم يجعل المحسن ولا المسيء في الدنيا خالدا » . والعبارة محرفة ، وصوابها : « ان الله لم يجعل لمحسن ولا لمسيء في الدنيا خلدا ».

وعلق المحققان على هذا البيت (ص 22) :

تعز امير المومنين فانه « لما قد ترى يغذي الصغير ويولد بقولهما : « في الاصل : يا امير المومنين » ، وليس هذا في الاصل ، وقد ورد البيت في المخطوطة دون زيادة : « يا » .

وفي ص 23 : «ودخل عمر بن عبد العزيز على ابنه في وجعه فقال : ... يا بني لأن تكون في ميزاني احب الي من ان اكون في ميزانك ، فقال ابنه : وانا يا ابه لأن يكون ما تحب احب الي من ان اكون بما احب ». والتحريف هنا واضح لمن يفهم مبادىء اللغة العربية . وصوابه : « وانا يا ابتي ، لأن يكون ما تحب احب الي من ان يكون ما احب » .

وفي ص 26 : « مات الحسن بن الحصين ، ابو عبد الله بن الحسن ـ وعبيد الله يومئذ قاض على البصرة وامير ـ فكثر من يعزيه ، فتذاكروا ما يبين به جزع الرجل من صبره ، فاجمعوا على انه اذا ترك شيئا كان يصنعه فقد جزع » . وفي الخبر تحريف صوابه : « فكثر معزيه ، فتذاكروا ما يتبين به ....»

وفي ص 27 : « قال ابو الحسن : وجاءه صالح المري يعزيه ، فعزاه فقال له : يا هذا ان كانت مصيبتك احدثت لك عظة في نفسك ، والا فمصيبتك بنفسك اعظم من مصيبتك بابنك » .

وفى الخبر غموض واضطراب وتحريف . وذلك راجع الى ان المحققين لم يكلفا نفسهما قراءة ما كتبه الناسخ فى هامش الصفحة ليتدارك به النقص ويصحح الخبر . والصواب هو : «... فعزاه فقال له : يا هذا ان كانت مصيبتك فى ولدك احدثت لك عظة فى نفسك فنعم المصيبة مصيبتك . وان كانت لم تحدث لك عظة فى نفسك فمصيبتك بنفسك اعظم من مصيبتك بابيك » (لا « بابنك » لان المتوفى هو الحسن بن الحصين ، والمعزى عنه هو ابنه ابو عبيد الله بن الحسن بن الحصين)

ونقرا فى الصفحة نفسها : « ان عمر بن الخطاب قال للخنساء : «ما اقرح عينيك ؟». والعبارة مبتورة . وصوابها كما جاء فى المخطوطة : « ما اقرح مآقي عينيك » . فلعل كلمة « مآقي » اشكلت على السيدين المحققين فاضربا عنها .

وفى ص 30 : « فقالت لها [اي قالت الخنساء لابنتها وهى تجهزها]: يا حمقاء والله لانا احسن منك عرسا ، واطيب منك ورسا ، وارق منك فعلا » . فالكلمة الاخيرة محرفة ، والصواب « وارق منك نعلا » .

ونقرا فى ص 31 : « فغضب سفيان وقال : « جددت لى حزنا ، قال : « أصلح الله الامير ، فليسل عنك ما تجد من ذلك العمر فانك غير باق » . واعتقد ان التحريف فى هذا الخبر واضح لأن الكلام لا معنى له هنا . ويستقيم الخبر ويتضح المعنى اذا قرانا : « فليسل عنك ما تجد من ذلك الغم انك غير باق ».

وفى ص 32 : « عزي السائب بن الاقرع عن ابن له فقال السائب : هكذا الدنيا تصبح لك وتمسى عليك متنكرة . ثم تمثل :

الا قد ارى ان لا خلود وانه « سينعق فى داري غراب مجلجل»

وفى هذا الخبر نقص وتحريف . اما النقص ففى اسقاط كلمة «سارة» من قوله : « هكذا الدنيا تصبح لك سارة ، وتسمى عليك متنكرة » ،

واما التحريف ففي كلمة ((مجلجل))،فهي محرفة عن ((يحجل)) (مضارع حجل)) . فصواب البيت الن :

((سينعق فى داري غراب ويحجل))

وفى كتاب ((فقه اللغة)) الثعالبـــي : ((الفرس يجرى ، والبعيـــر يسير ، والغراب يحجل)) (1)

وفى ص 33 : قال عامر بن عبد الله بن الزبير : مات ابى ، فما سالت الله عز وجل قولا الا العفو عن ابى)) ؟ فكلمة ((قولا)) محرفة ولا معنـــى لها هنا . وصوابها ((حولا)) .

وفى ص 34 : ((قال عبد الكريم المازنـــى لعبد الله بن عبد الله بن الاهتم : ((كيفه كان حزنك على اهل بيتك ؟ قال : ما ترك الغذاء والعشاء فى قلبـــى حزنا على احد)). ففى الخبر نقص ، وتتمته وصوابه كما ورد فى المخطوطة : ((ما ترك حب الغذاء ؟)) ـــ ثم وجدنا المحققين بعد هذا يعلقان فى الهامش على ((عبد الله بن عبد الله بن الاهتم)) بقولهما : ((لعله عبد الله ابن الأصم العامري)) . وهذا خطأ كبير لأن ابن الاهتـــم علم مشهور ، وهو الذي يقول فيه الجاحظ : انه ((من الخطباء المفوهين ، من بنى منقر ، ولى خراسان ووفد على الخلفاء وخطب عند الملوك ؟ وكان ابوه ـــ عبد الله بن الأهتم ـــ خطيبا ذا مقامات ووفادات)) (2) .

وفى الصفحة 39 ورد هذا البيـــت :

اذا مات من خلف امرىء وامامـــه   واوحش من جيرانه فهو ساتـــر

فشكل المحققان ((خلف)) بفتح الخاء واللام معا وكسرا الفاء ، وشكلا ((امامه)) بكسر الميم الثانية والهاء . وهكذا كسرا البيـــت كسرا وافسدا معناه افسادا ، ولو تريثا قليلا لادركا ان ((خلف)) و ((امام)) هنا ظرفا مكان ولاوردا البيت صحيحا مستقيما .

---

(1) فقه اللغة للثعالبى ص 283 (ط القاهرة ـــ الحلبى 1357 هـ)
(2) البيان والتبيين 355/1

وفي ص 40 : دخل زياد بن عثمان بن زياد على سليمان بن عبد الملك . وقد توفي ابنه ايوب فقال : يا امير المؤمنين ، ان عبد الرحمن بن ابي بكر كان يقول : ((من احب البقاء فليوطن نفسه على المصاب)). ففي هذا الخبر تحريفان ، اولهما ان ((عبد الرحمن بن ابي بكر)) محرفة عن ((عبد الرحمن بن ابي بكرة)) (1) . وثانيهما أن ((المصاب)) محرفة عن ((المصائب)) كما ورد في المخطوطة .

وفي ص 41 ((ان الحجاج لما جزع على ابنه محمد قال للذي ولي غسله : اذا فرغت من غسله فاعلمني . وهنا نجد المحققين يتبرعان على النص بزيادة ما ليس فيه . فكلمة ((لما)) زائدة ، لم ترد في النص ، وما جاء فيه هو ((ان الحجاج جزع على ابنه محمد وقال ــ)) (بالواو)

ونقرا في ص 42 : ((اصبح رجل من بني نهشل وقد ماتت له عدة اباعر وشاء فقال : ((والله لئن كانت المنية باتت تحوطني وتطيف بي ثم اصبحت وقد زالت عني شياتي وبعيري ثم جزعت اني اذن لجزوع)) . وعلق المحققان في الهامش على ((ماتت)) بقولهما : ((في الاصل: موتت)) . وهذه الكلمة هي الصحيحة ، وهي المناسبة لسياق النص ، ولكنهما لم يفهماها ولم يكلفا نفسهما عناء البحث عنها في المعاجم . ولو رجعا الى ((اللسان)) لوجدا فيه : ((اماته الله وموته ، شدد للمبالغة . وموتت الدواب : كثر فيها الموت)) (2) . وفي الخبر تحريف آخر ، وهو : ((زالت عني شياتي وبعيري)) ، وصوابه ((وزالت عني [اي وزالت عني المنية] الى شاتي وبعيري)).

---

(1) فالاول هو عبد الرحمن بن أبي بكر بن الخطاب ، توفي سنة 53 هـ (انظر في ترجمته « سير أعلام النبلاء) 338/2) . والثاني هو عبد الرحمن بن ابي بكرة الثقفي . وهو من اعيان التابعين . توفي سنة 96 هـ (انظر « الاعلام » 73/4) .

(2) اللسان ــ مادة : موت

وفي ص 49 : « جزع رجل على ابن له فشكا ذلك الى الحسن فقال له الحسن : هل كان ابنك يغيب عنك ؟ قال : نعم ، كان مغيبه عني اكثر من حضوره . قال : (فاتركه) غائبا ، فانه لم يغب عنك غيبة الاجر لك فيها اعظم من هذه الغيبة » ، وعلق المحققان في الهامش على كلمة « فاتركه » بقولهما : « في الاصل : فانزله ، والارجح ما جاء في العقد ». ولو تريثا قليلا لوجدا ان الارجح هو ما ورد في النص ، ولابقيا على الخبر كمـــا اورده صاحبه لانه اعلم باللغة منهما ومن صاحب « العقد » نفسه .

وفي ص 53 : « مات ابن لشريح فلم يشعر بموته احـــد لم يصرخ عليه ، فغدا قوم الى شريح ليسلوه عن ابنه ، فقالوا له : كيف اصبح مريضك يا ابا امية ...؟» فكلمة « ليسلوه » محرفة وصوابها « ليسالوه ».

وفي ص 58 « ان الحجاج راى كان عينيه ذهبتا . فلما طلقت هنـــد بنت اسماء وهند بنت المهلب ظن انها تاويل رؤياه » . وقد اورد المحققان الخبر ناقصا ومبتورا بالاضافة الى ما وقع في بعض كلماته من تحريف ؟ وصوابه وتتمته كما جاء في المخطوطة : « فلما طلق هند بنت اسماء ، وهند بنت المهلب ظن انها تاويل رؤياه ، فلما مات ابنه محمد واتاه موت اخيه محمد قال : هذا تاويل رؤياي » . ولست ادري ما الذي حجب تتمة الخبر عن السيدين المحققين .

والاكثر من هذا عجبا وغرابة انهما اوردا الخبر الذي يلي هذا ناقصا ايضا ومبتورا ! ففي ص 58 و 59 : « لما مات محمد بن الحجاج جزع عليه الحجاج ... فقيل اتق الله واسترجع ، فقال : انا لله وانا اليه راجعون ، اولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة » . وتصويب الخبر وتتمته كما جاء في المخطوطة : « فقال : انا لله وانا اليه راجعون » وقرا : الذيـــن اذا اصابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون ، اولائك عليهم صلوات من ربهم ورحمة »

وفي ص 62 اوردا هذا البيت هكذا :

الى لباكٍ على ابنَ يوسفَ فمريَ   ومثـــل هلكهمـــا الـــذي يبكينـــي

والبيت مكسور ومحرف ، وتصويبه :

اني لباك على ابن يوسف عمـــري ومثل هلكهما للديـــن يبكينـــي

وفي ص 64 : ((سمع على بن الحسين رضوان الله عليه (داعية) في بيته ، فنهض الى بيته فسكنهم ثم رجع الى مجلسه ، فقيل له : امر حدث؟ ما كانت الناعية ؟ قال : نعم . فعزوه وتعجبوا من صبره (ثم) قال : انا اهل بيت نطيع الله فيما يحب ، ونحمده فيما نكر ه)) . وعلقا في الهامش على كلمة ((داعية)) بقولهما : ((في الأصل ، واعية)) وعلى ((ثم)) بقولهمـــا : ((زيادة ليست في الاصل)) . وهكذا نجد السيدين المحققين يتصرفان في النص تصرفا قبيحا ، فيحرفانه ويشوهانه . ولو اكتفيا بمجرد تصوير النص عن الاصل الذي ورد فيه لاحسنا للنص ولصاحبه ولمن تتوق نفسه لقراءة هذه النصوص الجميلة . ولنرجع للخبر ، فصوابه كما جـــاء في المخطوطة ((سمع علي بن الحسين رضوان الله عليه واعية في بيتـــه ، فنهض الى بيته فسكتهم ، ثم رجع الى مجلسه ، فقيل له : أمن حدث كانت الواعية ؟ قال : نعم . فعزوه وتعجبوا من صبره ، فقال : انا اهل البيت ...))

ونقرا بعد هذا الخبر في الصفحة نفسها : ((لما استشهد مجزاة بن ثور لم يجزع شقيقه ...)) فالكلمة الاخيرة محرفة ، وصوابها : ((شقيق)) اي لم يجزع اخوه ((شقيقبن ثور)) .

وفي ص 65 : ((اخبرنا ابو الحسن : مات اخ لمطرف بن عبد الله بن الشخير وامراته فلبس حلة وتبخر وقال :((كرهت ان استكين)) وواضح ان الخبر محرف ومبتور . وصوابه : ((ومات اخ لمطرف بن عبد الله بـــن الشخير او لامراته ...))

وفي ص 68 نجد المحققين يتصرفان من جديد في النص تصرفا يشوهه ويبخس قيمته ، فيوردان هذا الخبر بهذا الشكل : ((قال الحسن لرجل عزاه عن ابنه : ((انما يستوجب على الله (الاجر) من صبر (على) ما لحقه، فلا تجمع بين ما اصبت به من الفجيعة بالاجر)) ، ثم علقا على لفـــظـــة

« الاجر » بقولهما : « زيادة ليست فى الاصل » . اما (علي) التي وضعاها بين قوسين فلم يعلقا عليها بشيء ــ نعم ، ان لفظة « الاجر » لم ترد فى المتن ، ولكن الناسخ استدرك النقص فكتب فى الهامش : « وعد » . وهى الكلمة الناقصة من الخبر . ولو وقف الامر هنا لهان ، ولكن الخبر كله محرف والصواب هو : « قال الحسن لرجل عزاه عن ابنه : انما استوجــب على الله وعده من صبر لحقه ، فلا تجمع الى ما اصبت به الفجيعة بالاجر ».

وفى ص 68 ورد خبر هكذا : « وقال آخر : ان صبرت خيرا مما فجعت به من الرزية ». وواضح ان الخبر هنا محرف ايضا ومبتــور . وصوابه كما جاء فى المخطوطة : « وقال آخر : ان فيما عوضك الله من الاجر ــ ان صبرت ــ خيرا مما فجعت به من الرزية » .

وفى ص 69 : « المصيبة واحدة ، فان جزع صاحبها منها اثنتان » والصواب : « فهما ثنتان » . وتتمة الخبر : « وما من مصيبة الا معهــا اعظم منها : ان صبر فالثواب ، وان جزع فسوء الخلق » . وقد كتــب المحققان الكلمة الاخيرة بالقاف وبضم الخاء واللام ، وهو تــحــريف ، وصوابه : « الخلف » بالفاء ، وبفتح الخاء واللام .

وفى ص 70 ورد بيت هكذا :

لتبــك الــبــاكيــات ابا حبيــب   لريــب الدهــر او لنائبــة تنوب

والشطر الثانــي مكسور ، ولا يستقيم به الوزن ، ولعل صوابه :

« لريب الدهر نائبة تنــوب »

وفى ص 73 : « شكا ربيع بن ابــى راشد الى محارب بن دثار ابطاء خبر اخيه فقال : « قد ابطا على خبر جامع » . وقد شكــل المحققان الكلمتين الاخيرين بضم آخريهما كان الثانية منهما نعت للاولى . والصحيح ان « خبر » مضاف ، و « جامع » مضاف اليه ، اي شكا اليــه خبر اخيه المسمى « جامع » .

وفى ص 83 : انماالجزع قبل المصيبة فاذآ وقعت المصيبة فاله عما فاتك . وقد شكل المحققان كلمة ((فاله)) بضم الهاء ، اعتقادا منهما انها فعل امر من ((لها يلهو لهوا)) . وهي ليست كذلك بل هي امر من ((لهي يلهى لها)). وفى ((الكامل)) للمبرد : ((لهيت عن الامر الهى اذا اضربت عنه . ولهوت الهو : من اللعب)) .

وشبيه بمثل هذا ما وقع فى ص 90 : ((ان اهل هذه الدار سفر)) وشكل المحققان ((سفر)) بفتح السين والفاء ، وهو خطا ، وصوابه ((سفر)) بفتح السين وتسكين الفاء ، ((والسفر جمع سافر كما يقال شارب وشرب ـ والسفر والمسافرون بمعنى)) .

وفى الصكحة نفسها : ((ولا تعم فيضر بك العمى وتتوهك الجاهلية)) وقد شكل المحققان ((تتوهك)) بفتح التاء الاولى وضم الثانية . وهو خطا، وصوابه : ((تتوهك)) (2) بضم التاء الاولى وفتح الثانية ، وتشديد الواو . كما ان لفظة ((الجاهلية)) محرفة عن ((الجهالة)) .

وبهذا ينتهي تتبعنا لما نشره المحققان الاستاذان ابتسام مرهون الصفار وبدري محمد فهد ، من كتاب ((التعازي)) لابى الحسن المدائنى .

وقد وددنا ان يخرج الاستاذان هذا الكتاب فى احسن صوره واجمل حلله لانه كتاب نفيس حقا . ومما يدل على نفاسته انه من تاليف ابي الحسن المدائنى . وفى هذا ـ لمن يعرف مكانة المدائنى ـ ما يغنى عن الشرح والتفصيل . اضف الى ذلك ان مؤلفه يسوق فيه منتخبات رفيعة من ادب التعازي والمراثى ، شعرا ونثرا . وقد ادرك القدماء قيمة المراثى فافردوا لها ـ من دون اغراض الشعر وفنونه ـ تآليف خاصة كما هو الشان فى هذا الكتاب ، او وضعوا لها فصولا فى تآليفهم الجامعة كما فعل

---

(1) اللسان ـ مادة : سفر

(2) توهه : اهلكه ، اللسان ، مادة توه

المبرد فى « الكامل » (1) و « الفاضل » (2) وابن قتيبـــة فى « عيـــون الاخبار » (3) وابن عبد ربه فى « العقد الفريد » (4) .

ولهذه الاعتبارات ــ ولغيرها مما لا يسمح المجال بذكره هاهنا ــ وددنا ان يخرج السيدان المحققان « كتاب التمازي » فى احسن صوره . ــ ولكنهما استعجلا ــ مع الاسف ــ تحقيقه فاساءا الى هذا النص الجميـــل فى كثير من الاحيان .

وقد دفعتنا غيرتنا على هذا النص الى ان نقوم بعض ما جاء فيه من تحريف وتصحيف واضطراب . ونقول « بعض » ذلك لان غرضنـــا ليس هو محاسبة المحققين ، وانما هو تقويم اهم الاخطاء الواردة فى النص ، ولذلك ايضا اغمضنا عن الاخطاء البسيطة واعتبرنا الكثير منها من اخطاء المطبعة .

وبعد ، فاننا نشكر الاستاذين مرهون الصفار وبدري محمد فهد على نشرهما لهذا الكتاب القيم ونتمنى ان يتسلحا فى المستقبل اذا مـا ارادا تحقيق كتاب من صميم التراث العربـــى بالاناة والصبر وان يديما النظــر فى كل كلمة فى المخطوطة قبل نقلها ، وان يدركا ان الرجوع الى المظـــان ومعاجم اللغة شيء لا غنـــى عنه لمن يتصدى لتحقيق كتب التراث .

الربـــاط محمد الديباجـــي

---

(1) الكامل : 1186 وما بعدها (ط. الحلبي 1937)
(2) الفاضل : 59 ــ 68 (ط. دار الكتب المصرية 1956)
(3) عيون الاخبار 3 / 52 (ط. دار الكتب المصرية)
(4) العقد 3 / 228 (لجنة التاليف والترجمة والنشر 1948) .

عرض كتاب :

رحلة أحمد بن طوير الجنة

تحقيق : هـ . ت نوريس
عرض : محمد المنصور كلخة

صدرت في بريطانيا خلال سنة 1977 ترجمة لرحلة أحمد بن طوير الجنة الواداني الشنجيطي والمعروفة لدى الاوساط الادبية المغربية (1) . وتكتسي « رحلة المنى والمنة » أهمية خاصة بالنسبة لتاريخ المغرب ، فالمرابط الواداني الذي استغرقت رحلته نحو خمس سنوات (1245 ـ 1250 هـ / 1829 1834 م . » قد توقف بالمغرب سواء عند ذهابه الى الديار المقدسة أو عند رجوعه منها ، وضمن رحلته من الملاحظات والانطباعات عن المغرب ما لم يخصصه لبلاد أخرى من البلدان التي زارها . والتقى بالسلطان مولاي عبد الرحمان وقدم له بيعته ، وقبل عودته الى وادان أسس له بمراكش زاوية ارادها ان تكون رابطة بين المغرب وبلاده وصلة وصل بينه وبين سلطان المغرب واحفاده .

(1) حقق الرحلة وترجمها الى اللغة الانجليزية وقام بنشرها الاستاذ هـ. ت. نوريس ، وهو استاذ بمعهد الدراسات الشرقية والافريقية التابع لجامعة لندن .

H.T· Norris, The pilgrimage of Ahmad, son of the little bird of paradise, aris and Phillips Ltd, warminster, England, 1977

مؤلف الرحلة ليس مجهولا عند المغاربـة ، ولا رحلتـه . فصاحـب دليل مؤرخ المغرب الاقصى يذكر المؤلف ويذكر له تاليفا اسمه « فيض المنان في الرد على مبتدعة هذا الزمان » (2) ، لكنه لا يذكر الرحلة ، ويعطي أحمد بن طوير الجنـة نسبـة « المراكشى » مع انه لم يقم بمراكش مدة طويلة تضفى عليه هذه الصفة . ويحتمل ان يكون وجود خلوة له بمراكش هو الذي خلق اعتقادا بمراكشيته(3). اما صاحب الاعلام بمن حل مراكش واغمات من الاعلام فيذكر المؤلف تحت اسم احمد ، ويشير الى رحلته الحجازية ، لكنه لم يترجم له ، وبقى وعده بتقديم ترجمة له تحت حرف الطاء وعدا لم يكتب له أن يرى النور ، سواء فى الاجزاء الخمسة المطبوعة أو فـــى الجزئين المخطوطين المحفوظيـن بالخزانة العامة فى شكل ميكرو فيلم (4) .

الرحلة التى نحن بصددها تحمـل اسـم « رحلة المنـــى و لمنة » ، قام بتحقيقها ونشرها الاستاذ نوريس بناء على مخطوط موجـود بوادان . والرحله رغم كونها معروفه بشنجيط والاقطار المجـــاورة الا أن النســخ المتوفرة منها تعتبر قليلة (5) .

ولد احمد بن طوير الجنة حوالى سنة 1202 هـ / 1787 م . بادرار بـوادان حيث قضى معظم حياته ، والتى لم يغادرها على ما يظهر الا لفتـــرة الخمس سنوات التى استغرقتها حجته (1829 ـ 1834 م) .

(2) « فيض المنان في الرد على مبتدعة هذا الزمان » هو مؤلف صغير لا يتعدى 29 ورقة حرره احمد بن طوير الجنة اثناء طريق عودته من الحج . وقد انتصر فيه للفكـــرة السلفية وهاجم الفرق المبتدعة الذين يتخلون دينهـم رقصا ولهـوا ، وخاصة اولئك الذين يزعمون رؤية النبي (ص) ويدعون حضـوره معهـم اثنـاء حلقـات الذكـر . انظـــر ميكروفيلـــم رقـــم 1083 بالخزانة العامـــة .

(3) ذكر عبد السلام بن سودة انه توفي فى العشرة الثالثة وثلاثمائة والف ، وهذا بالتاكيد سبق قلم اذ توفي صاحب الرحلة سنة 1266 هـ ، وكان سنه عند قيامه بالرحلـــة (1245 ـ 1250) يناهز الستين سنة حسب تقدير جريدة le Moniteur Algérien (عدد فاتح دجنبر 1832) .

(4) ميكروفيلـــم رقـــم 167 بالخزانـــة العامـــة .

(5) كان المستشرقون الفرنسيون بالسينغال على علم بوجود الرحلة لكنهم لم يتمكنوا منهـا على ما يظهر . وتتوفر الخزانة العامة على ميكروفيلم من الرحلة ، الا أن النص المصور مبتور الاول وتنقصه عدة صفحات بالوسط خاصة تلك التي يتحدث فيها المؤلف عن لقاءه الاول مع مولاي عبد الرحمن والذي قدم له فيه بيعته . كما ان ترتيب الصفحات وترقيمها يحتاج الى مراجعة (انظر ميكروفيلم 1534) .

وقد بلغ درجة من الزهد جعلته يحتل مركزاً مرموقا فى بلده كمرابط يعتقد ان له مكانة حاصة عند الله. ولعل هذه المكانه التي كان يحتلها بين اهل بلاده هي التي جعلته يحظى بالتقدير والتعظيم اينما حل سواء بالمغرب او تونس او الجزائر المحتلة او جبل طارق .

ان مروره بالمغرب يكاد يكون من باب الصدفة. فهو عندما غادر وادان كان يقصد اللحاق بركب الحجاج الذي ينطلق الى المشرق من سجلماسة،لكن الخظ لم يسعفه ففاته الركب واضطر من أجل ذلـــك الى التوجه شمالا عله يلحق بالركب المنطلق من فاس أو يركب سفينة باحـــد الموانـــىء المغربيه. لكن رياح القدر شاءت أن تسوقه الى حيث لم يكن يتوقع،فهو لم يكن يدري انه سيمثل امام سلطان المغرب وانه سيحصص استقبال الاعيان والامــــــراء .

في حضـــرة السلطـــان :

ما كاد مولاي عبد الرحمان يسمع بوجود المرابط الشنجيطي بمراكش حتى بعث فى طلبه واحضره اليه واستفسره عن احوال بلاده،عن حالة الامن فيها ، عن الغلال الزراعية وعن الحركة العلمية . وبالغ فى تكريم ضيفه الذي تاثر بحفاوة الاستقبال والتواضع الذي طبع سلوك مولاي عبد الرحمان اذ وجده جالسا على الارض ومسندا ظهره للحائط «على احسن صورة التواضع» وكم من مرة نهى السلطان ضيفه عن مخاطبته بعبارة «مولاي» و « سيدي». واراد احمد بن طوير الجنة. قبل اداء فريضة الحج ان يؤدي ما عليه من دين لله ويضع فى عنقه بيعة شرعية تطهر نفسه من رجس الجاهلية،فطلب من مولاي عبد الرحمان ان يمد اليه يديه وهو يردد حديث الرسول «من مات وليس فى عنقه بيعة فقد مات ميتة جاهلية » ، فادى بيعته ودعا للسلطان بالنصـــر والتاييد ثم انصرف لمتابعة سفره .

فـــي بـــلاد الكفـــار

سافر احمد بن طوير الجنة الى المشرق عن طريق البحر،وكانت السفينة التي تقله ملكا لاحد تجار فاس المقيمين بمدينة « الكرنة » Livourne (

الايطالية فاضطر الى التوقف بهذه المدينة ليجد نفسه تحت حكم الكفـــار وقهرهم.وقد تجلى ذلك قبل كل شيء فى الكرنتينة المفروضة على الحجاج المسلمين ، ((وسبب ذلك اعتقادهم الفاسد أن الموت لا يكون الا بالعدوى لا بانقضاء الاجل كما هو معتقد أهل السنة)). وهذا التشريع لم يقتصر على بلاد النصارى بل تعداها الى بلاد المسلمين التي مر بها احمد بن طوير الجنة كتونس وطرابلس ومصر ، وذلك راجع، فى نظر المؤلف ، الى ضعف الاسلام بهذهالديار ((لان الامر فيهن بيد النصارى لا بايدي المسلمين، ولا تمييز فيهن بين النصراني واليهودي والمسلم لان زيهم فيهن واحد لا فرق بينهم فى ذلك. . .بخلاف الغرب نصر الله سلطانه واصلح الله به العباد والبلاد وسخر الله به العباد والبلاد، اذ ليس للنصارى ولا لليهود فيه شأن ما،بل هم فيه تحت الاقدام وتحت الذمة فلا تكاد ترىفيه نصرانيا ولا يهوديا الا ميزته عن المسلم)) (6).ورغم كل ما شاهده المرابط الوادانيمن مظاهر حضارة الغرب المتمثلة فى المباني المزخرفة والشوارع المرصفة فان ذلك كله لم يكن ليؤثر فى نفسه او يغريه بجمال الدنيا ، وتذكر حديث الرسول ومعنى قوله عليه السلام : ((الدنيا سجن المومن وجنة الكافر)) .

لقد استغرقت رحلة احمد بن طوير الجنة حواليخمس سنواتانتهزها فرصة لزيارة قبور الانبياء والاولياء ولقاء العلماء والامراء.وخلالتنقلاته كان يحضر مجالسالعلم والادب،ولا يغفل ان ينقل لنا الاشعار والنوادر، الادبية، وقصص كرامات الاولياء الذين التقى بهم او سمع عنهم ، بالاضافـــة الى مجموعة من الاساطير اثقلت رحلتـــه .

وبعد اداء فريضة الحج وزيارة الديار المقدسة قفل راجعا الىبلاده،مارا بمصر وطرابلس وتونس.وتشاء الاقدار انتقوده الى الجزائر الحديثةالعهد بالاحتلال،والتي وجد فى حكامها الفرنسيين العناية والترحابالذين لقيهما طوال رحلته.ولما اراد السفر عين له حاكم الجزائر سفينة تنقله الى المغرب، وعلى متنها سافر معه اصحابه من الحجاج المغاربة. وعند توقفه بجبل طارق لقى حفاوة بالغة سواءمنطرف قنصل المغرب السيد بينولبيل الذياستضافه

(6) ميكروفيلـــم الخزانـــة العامـــة رقـــم 1534 ، ص 10 - 11 .

في بيته او من طرف السلطات البريطانية التي خصصت له استقبال الامراء فاطلقت على شرفه عشرين طلقة مدفعية ، وأقامت له الحفلات والعروض العسكرية البديعه ، وخصصت جريد Gibraltar Chronicle) مقالا قصيـرا لزيارة«ملك شنجيط»واعربت فيه عن اعتقادها بان الحفاوة التي خص بها احمد بن طوير الجنه تشكل بادرة حسنة تجاه مولاي عبد الرحمان الذي وصفته الجريده بالصديق والحليف الوفي (7). وكانت بريطانيا في هذه الفتره بالذات التي تلت احتلال الجزائر تسعى جاهده للتقرب من المغرب وتعزيز مكانتها لديه بهدف الحفاظ على نوع من التوازن بمنطقة غرب المتوسط بين القوى الاوربية الكبيرة ، وهو اتجاه سيطبع السياسة البريطانية طيلة القرن التاسع عشر.

الرجـوع الـى المغرب :

كان بامكان المرابط الواداني ان يتوجه من جبل طارق لبلاده عن طريق السينغال، وكان رباط السفينة الفرنسية التي أقلته من الجزائر يحمل تعليماته بانزاله بأي ميناء ، اما بالمغرب واما بالسينغال ، لكنه أصـــر على النزول بطنجة والمرور بالمغرب ، وذلك لزيارة ضريح مولاي عبد السلام بن مشيش من جهة ، ولوصل الرحم مع مولاي عبد الرحمان من جهة ثانية .

وما كاد احمد بن طوير الجنة يضع قدمه فوق ارض المغرب حتى وجه له السلطان فرسا يركبه وكتب له يهنيه بسلامة العودة ، كما كتب الى قائده بطنجة يوصيه خيرا بالضيف الوداني . ولما وصل مدينة مراكش استقبله السلطان وأسكنه بمكتبته الخاصة المعروفة بدويرة الكتب، وهو مكان لم يكن ينزل به حسب المؤلف الا كبار العلماء والاولياء .

وامر له بالخدم واهدى له الكتب النفيسة، بل زوده بالمال وارسله لمدينة فاس لاقتناء ما يريده من الكتب. وكان لهذه الحفاوة بالغ الاثر في نفس المرابط الواداني ، فلهج لسانه بشكر السلطان ورأى فيه مثالا للاخلاق الفاضلة وعنوانا للصلاح والاستقامة والزهد في حطام الدنيا. او ليست قصة خلافة اسطع دليل

(7) جريـــدة Gibraltar Chronicle ، عدد 14 ينايـــر 1833 .

على طهارة نفسه وعلو همته؟ان هذهالقصة تبرهن حسب المؤلفعلىالمكانة الريفية التي كان يحتلها مولاي عبد الرحن لدى عمه مولاي سليمان الذي اعتبره كفءا للمسؤولية فقدمه على كافة ابناءه (8) .

ومر المرابط الشنجيطي بالمغرب فى وقت كان يشن فيه مولاي عبد الرحمان حملة تطهيرية ضد بعض الزوايا المتمردة،وبالاخص زاوية الشرادي باحواز مراكش(9).وقد ايد احمد بن طوير الجنة سياسة مولايعبد الرحمن فى قمع ((المبتدعين)) واطلعه على مؤلفه ((فيض المنان فى الرد على مبتدعة هذا الزمان)) فاستحسنه فى وقت هو اشد ما يكون فيهالىالدعمالمعنويفىمواجهة خصومه الطرقيين . وامر مولاي عبد الرحمن بقراءة المؤلف بجامع القرويين، باضافة الى مؤلف عمه مولاي سليمان(10)،كما امر بانتساخ حوالي عشرة نسخمن ((فيض المنان)) وتوزيعها على اهم مساجد البلاد.وقد اثار هذا حقد بعض المتصوفة على المرابط الوادانى،وتنباوا بانه لن يخرج سالما من فاس نظرا لما اقدم عليه من معاداة اولياء الله والتعرضلهمبالاذاية بلسانه وقلمه:

---

(8) كان بود المؤلف ان يورد نص وصية مولاي سليمان لابن اخيه مولاى عبد الرحمان لكنه لم يتمكن من ذلك فترك بياضا فى مسودة الرحلة ونبه الناسخ الى ترك ذلك البياض حتى يتم العثور على نص الوصية ؛ فتضاف حينئذ فى المكان المخصص لها . نص الوصية اثبته الناصري فى كتاب « الاستقصا » ؛ الجزء الثامن ، ص 165 ـ 166 .

(9) رغم ذكر الشرادي بالاسم فى الرحلة فانه فات الاستاذ نوريس ان يتحقق من الظروف التاريخية التى كان يعيشها المغرب خلال مروره ببلادنا ؛ فترجم « الشرادي » بكلمة « المنحرف » او « الشارد » ؛ وصارت « زاوية الشرادي » فى الترجمة الانجليزية « زاوية المنحرف » ! وتساءل الاستاذ نوريس فى تعليقه باي زاوية يتعلق الامر ، وخلص الى القول بان الاحداث التى يشيرها صاحب الرحلة قد يكون لها علاقة بالصراع التقليدي القائم بين المخزن ومرابطي الاطلس (ص. 109 من الترجمة الانجليزية) . ولو رجع الاستاذ نوريس الى تاريخ المغرب خلال الفترة التى تهم الرحلة لما غابت عنه كذلك الاسباب التى دفعت بمولاي عبد الرحمان الى الاهتمام بالمرابط الشنجيطي وغيره من علماء شنجيط مثل الشيخ سيدنا الكبير (1775 ـ 1868 م) . اما احتمال تفكير مولاي عبد الرحمان فى غزو وادان (ص. 19 من الترجمة الانجليزية) فهو امر غير وارد على ما يظهر . حول احداث زاوية الشرادي . انظر كتاب « الاستقصا » ؛ الجزء التاسع ، ص. 17 ـ 24 .

(10) لا يذكر احمد بن طوير الجنة اسم المؤلف السليماني ؛ ولعل الامر يتعلق بخطبته الشهيرة فى المواسم ؛ او مؤلفه فى الغناء الذي حرره له العلامة محمد بن الحاج الرهوني والذي يفضح فيه بعض الطرق واساليبها المنافية للسنة .

تاسيس الزاوية والرجوع الى وادان

حاول مولاي عبد الرحمان بشتى الوسائل اقناع احمد بن طوير الجنة بالمكوث فى المغرب ، لكن دون جدوى . وبعد التفكير اتفقا على ان يؤسس المرابط الواداني زاوية له بالمغرب تكون بمثابة رباط روحي ووصل « بيننا وبينه وبين اولاده لما تحققنا من محبته ايانا فى الله ومحبته لاقامتنا معه فى الغرب » . وهذا ينسجم تماما مع سياسة مولاي عبد الرحمان التي كانت تهدف الى تدعيم نفوذ المغرب بالاقاليم الجنوبية ولجنوبية ـ الشرقية عن طريق استعمال الزوايا (الوزانيون فى توات مثلا) ، وبذلك يتمكن من المحافظة على روابط دينية وروحية مع هذه الاقاليم فى الوقت الذي تعوزه الوسائل لاثبات وجوده عسكريا واداريا ، وفى الوقت الذي بدا الاستعمار يتهدد المغرب بكيفية مباشرة سواء من الشرق عن طريق الجزائر أو من الجنوب عن طريق السينغال.

واختار احمد بن طوير الجنة مدينة مراكش، مقر السبعة رجال، لتاسيس زاويته واشترى له السلطان دارا لهذا الغرض، وتم تدشين الزاوية باقامة حفل حضره عدد من رجال الدولة وممثلون عن بعض الزوايا. ولم يسافر احمد بن طوير الجنة الى لاده الا بعد ان انتهى من تنظيم الزاوية وترتيب شؤونها .

خاتمة :

اننا مدينون للاستاذ هـ. ت. نوريس بنشر هذه الرحلة التي تسلط بعض الاضواء على تاريخ بلادنا ، والتي يحتل فيها المغرب ورجاله اكثر مما تحتله اي بلاد اخرى ، كما تلقي الاضواء على علاقة المغرب ببلاد شنجيط ورجالها قبيل الاحتلال الاوربي ، وهي لذلك جديرة بان يعرف بها وبترجمتها الانجليزية لدى الاوساط الثقافية المغربية .

سلا — محمد المنصور كلخة

الحرب المغربية الإسبانية
على لسان انجلس

محمد الخطيب

المقـــدمــــــــــة :

لم يكن حظي موفورا هذه المرة فى العثور على الجديد من المراجع عندما قمت اخيرا بزيارة لمدريد ، والتي اعتدت استغلال الوجود بهـــا لمحاولة العثور على المراجع القديمة التي ارضى بها نهم التوفر على مـــا يمكن من الكتب التي تبحث فى فترة من تاريخ بلادي وعلاقاتها باسبانيـــا خـــلال ازيد من خمسة قـــرون .

فقد زرت مدريد هذه المرة ، واذا ما استثنيت زيارة واحدة لمكتبة قديمة ـ وكانت زيارة قصيرة ـ ، فاني لا استطيع ان اقول بكوني ارضيت رغبة اكيدة احسها كلما طوحت بي المقادير لطرا باب العاصمة الاسبانية .

ولعل ذلك راجع لعدة عوامل ، فيها الناحية النفسية ، وهي وحدها كافية لأسباب لا حاجة لذكرها هنا ، فضلا عما كان من قلة ما بين اليد من اسباب مادية جعلتني ابتعد مكرها عن ارضاء رغبة اكيدة من رغباتي .

لذا فان البحث الذي اقدمه اليوم للقارىء ، والمصدر الذي اعتمده هنا ، لم يكن من حصيلة ما توفرت عليه من هذه الرحلة ، وانما كان من العطاءات المحلية لما حصلت عليه من طرف احد الاصدقاء ـ شاكرا فضله فيما تكرم به علي من كتاب لماركس وانجلس حول « الثورة في اسبانيا ». فكان من نصيب الكتاب ان احتوى على مجموعة من المقـــالات لمؤسسي الحزب الشيوعي يوم كانا يعملان مراسلين لصحيفة امريكية كبرى ضمنها الكتاب . ومنها ثلاث مقالات عن الحرب المغربية الاسبانية او « حـــرب تطوان » كما يسميها البعض ، فاحببت ترجمتها وتقديمها للقراء المغاربة كي يقفوا على راي ووجهة نظر في تلك الحرب التي لم يكتب عنها باللغة العربية حتى الآن بما يلزم من التحليل الواقعي والأسلوب التاريخي .

واهم ما في نظري بالنسبة لما جاء في تلك المقالات زيادة عن كونها تحليلا لاحداث يهمنا جدا ان نعلمها ونطلع عليها ، انها كتبت براي قطبين من اقطاب التاسيس بالنسبة للحزب الشيوعي . وفي هذا ما فيه زيادة على ناحية الاطلاع طرافة تتعلق بالدلالة على ما كان لتلك الحرب من اهداف وابعاد قد لا يقدرها الكثيرون منا مثلما لم يكن يقدرها المشرفون عليها من الجانب المغربي الا من رحم ربك ممن اوتي حسن التبصر وادراك الابعاد الحقيقيـــة للأمـــور .

لم تكن عناية انجلس وماركس بشؤون الحرب المغربية الاسبانيـــة ناتجا عن مجرد اعتباط ، او انه جاء عفوا نظرا لاهمية ذلك الحادث فحسب، بل ان ظروفا خاصة ساعدتهما على ذلك .

فقد كان انجلس خلال سنـــة 1858 و 1859 مراسلا لجريـــدة « دايلي تربون » الامريكية في مدريد ، يمارس عمله خلال الخمسينات من القرن الماضي ، فكتب كثيرا عن اوضاع اسبانيا ، وخاصة عن الانقلاب الذي قام به الجنرال ادونيل فكتب عن ذلك احد عشر مراسلـــة . وتلـــك مراسلات شارك في البعض منها نفس انجلس الذي كـــان ذا اهتمـــام خاص بالناحية العسكرية ، وسعى لتقديمها طبقا للبلاغات الرسمية . وذلك ما اريـــد اثباتـــه هنـــا .

وبقدر ما يتعلق الامر بفترة من الفترات التاريخية بالنسبة لاسبانيا خلال القرن الماضي وقبل ازيد من مائة سنة ، فهو هنا يتعلـــق كذلـــك بتاريخ المغرب في جزء من حياته وفي حادث من اكبر الاحداث التـــي عاني منها خلال تلك الفترة .

والجدير بالتنبيه هنا ان هذه المقالات قد حررت بعد سنـــة 1848 وهي السنة التي صدر فيها البيان الشيوعي الذي يعتبر وثيقـــة اولـــى بالنسبة لتلك الحرب . اي ان الراي فيها صادر عن شخصين كانا متشبعين بالفكرة والمذهب الشيوعيين ، مثلما هي صادرة في السنة التي افـــاض ماركس في شرح مبدئه الشيوعي وحول ما يخص مذهبه الاقتصادي السياسي الذي انكب على تبيانه ودراسته ما بين سنتي 1854 و 1855 . اذ انـــه منذ سنة 1850 انكب على دراسة المذهب بالتعاون مع انجلس بعد هجرته الى لندن وربط العلاقات مع هذا الاخير .

والذي يزيد في اهمية المراسلات المذكورة انها قد حـــررت في وقت قيام المعركة . فهي راي وان لم يكن صادرا عن المشاهدة والحضور فهو متاثر الى حد كبير بنظرته الخاصة في الامور .

واذا ما اكتفيت اليوم بنشر مراسلة واحدة من المراسلات الثلاثة ، فذلك لمجرد ضيق المقام ، حيث ساعود لاتمام العمل في كتابة قادمـــة آتي فيها على المقال الثاني والثالث لتعلقهما بوصف الحالة التي كانـــت تعيشها تطوان ابان الاحتلال الاسباني . اذ بالرغم لما بين المراسلات من ارتباط فاننا نستطيع تجزءتها بهذه الطريقة وفاء بالمراد من هذا البحث .

المقـــــــــال الأول

لقد طال انتظارنا لوقوع اي تحرك من طرف الجيش الاسبانـــي في المغرب ، حتى يكون التحرك نهاية لفترة البداية والاستعـــداد . لكنـــه على ما يظهر ان الجنرال اودونيل لم يكن مستعجلا في مغادرة معسكره في بليونش فكان ذلك منا شعوراً بالعبث في الانتظار . لكننا كنا مضطريـــن لمرافقته في العمليات العسكرية بالرغم من كونها كانت لا تزال في البداية .

ففي اليوم الثالث عشر من شهر نوفمبر (سنة 1858) ابحرت من الجزيرة الخضراء الفرقة الاولى التابعة للجيش الاسباني بقيادة الجنرال اشاكوي . وبعد ايام نزلت تلك الفرقة بميناء سبتة . ثم غــادر الجنرال اشاكوي يوم سابع عشر من الشهر المدينة ونزل في بليونش او كان يطلق عليه بالبيت الأبيض على بعد ميل ونصف من سبتة قبالة الشواطىء السبتية . وتلك اراض جبلية وعرة المسالك ، فهي بالتالي تساعد على الحرب الغير نظامية لاجل الانطلاق منها . وبنزول الجيش الاسباني بها اضطر المغاربة في الليلة نفسها للتراجع عن مواقعهم نظراً لعجزهم عن استرجاع المكان المذكور ، وبذلك شرع الاسبانيون في تشييد حصونم على اعتبار جعلها قاعدة للانطلاق في العمليات المقبلة .

وفي اليوم الثاني والعشرين قام جماعة من الانجريين وهم مــن سكان القبيلة التي تحيــط بمدينــة سبتــة بمهاجمــة الحصــون المذكورة ، وتلك كانت بداية للهجوم من طرف المغاربة تبعتها سلسلة من معارك عقيمة شملت الميدان الحربي كله . وكان قصد المغاربة احتــلال تلك التحصينات بواسطة معارك ضارية قاموا بها مستعملين عنصر المفاجاة مرة وعنصر التحايل مرة اخرى سعيا لتحقيق رغباتهم ، لكنهــم كانــوا يتراجعون طبقا لكل الاستخبارات نظراً لعدم توفرهم على سلاح المدفعية. وحسب الروايات الاسبانية فان المغاربة لم يكونوا يقومون باي عمل بالنسبة لمن كان داخل تلك الحصون الاسبانية . فكانت كل الحملات التي يقومون بها مصدراً لهلاكهم . ففي اليوم الاول قام بالهجوم الف وستمائــة مــن المغاربة ، ثم عادوا لذلك في اليوم الثاني بعدما حصلوا على نجدة مكونة من اربعة آلاف من الاشخاص . فكانت جميع المعارك عبارة عــن تراشق بالرصاص استمر يومي 22 و 23 من الشهر . وكانت الحملة الكبرى التي شنها المغاربة ضد الجيش الاسباني يوم 25 فزحفوا بقواتهم حيث جرت معارك شديدة جرح خلالها نفس الجنرال اشاكوي .

وكان هجوم المغاربة عنيفا انزعج له نفس قائد الحملة الجنــرال اودونيل الذي فكر في مغادرة الحصون واصدار اوامره لرئيس الفرقــة الثانية الجنرال ثبالا ورئيس الفرقة الاحتياطية بقيادة الجنرال بريم لمغادرة

المكان وركوب البحر الى سبتة التي انتقل اليها هو نفسه . وبذلك اصبح الجيش الاسباني كله يوم 27 يرابط بالمدينة نفسها ، وقد تكرر هجـــوم المغاربة يومي 29 و 30 من الشهر ، فاحس الاسبانيون انهم قد اصبحوا محاصرين فى مراكزهم ، ففكروا فى فتح طريق لتطـــوان التي تبعـــد عن سبتة باربعين ميلا وعن البحر اربعة محاديا البحر وشرعوا فى تطبيق ذلك فلم يبد المغاربة اية مقاومة خلال فترة ما قبل اليوم التاسع من شهر ديسمبر واكتفوا بالقتال أثناء النهار حيث غادروا ميدان المعـــارك مساء وعادوا للهجوم يوم ثاني عشر على المراكز الاسبانية التي تبعد اربعة اميال. فابرق اودونيل يوم عشرين من الشهر المذكور مخبرا بان المغاربة قـــد عادوا للهجوم على قاعدتين من القواعد الاسبانية وانهم تكبدوا الهزيمة فى الحملتين اللتين قاما بهـــا .

فالوضع لم يكن يوم عشرين ديسمبر قد تغير عما كان عليه يوم 20 نوفمبر وتلك فترة كان الاسبانيون خلالها يكتفون بالقيـــام بالمدافعـــة بعد الذي كانوا قد اعلنوه بعد مرور خمسة عشر وعشرين يومـــا مـــن كونهم لم يحققوا اى تقدم حربي .

كان عدد الجيوش الاسبانية يوم ثامن ديسمبر قد اصبح يتراوح بين ثلاثين واربعين الفا من الجنود . فكان استعمال ثلاثين الفا منهم امرا ممكنا للقيام بالهجوم نظرا لكون هذا العدد من الجيوش كان فى استطاعته احتلال مدينة تطوان ، لكن الطريق اليها كان متعذرا نظرا لعدم امكـــان تمويـــن الجيش الذي كان لازما ان ينتقل من سبتة . وهنا يجب التساؤل حول ما فعلته القيادة الفرنسية العليا بالجزائر والقيادة الانجليزية فى الهنـــد فى مثل هذه الحالة ؟ ذلك من جهة ، ومن ناحية أخرى فان البغال والخيول الاسبانية لم تكن متعودة الا على اجتياز الطرق التي كانت معبدة فى بلادها فكانت تمتنع عن السير فى الاراضي المغربية . وبالرغم من التبريرات التي كان الجنرال اودونيل يبرر بها هذا الامر ، فان عدم القيام باى عمل لم يكن له مبرر ، اذ كان باستطاعة الاسبانيين تجميع القوات الكافية التي كان ممكنا استعمالها فى تلك الحرب فيما عدا اذا كانت هناك معاكسات حربية غير منتظرة من شانها ان ترغم على القيام بمجهودات فوق العادة . الا ان الانتظار كان لصالح المغاربة الذين كان عددهم يتزايد كل يوم .

لقد اصبح عدد الجنود المغاربة يوم ثالث ديسمبر والذي كان يشرف عليه الحاج عبد السلام امـــام الخطـــوط الاسبانيـــة يبلـــغ ثلاثـــة فرق تتكون من عشرة آلاف جندي ، زيـــادة على ما يمكننـــا احصـــاؤه بالنسبة لعدد جيوش حامية المدينة في تطوان .

اما المعسكر الثاني والذي كان يشرف عليه مولاي العباس فقد كان موجودا بمدينة طنجة . وهذا المعسكر كانت تصل اليه كل يوم نجدات جديدة من الداخل .

لقد كانت هذه الاعتبارات جديرة بان تجعل اودونيل يقـــوم بشن الهجوم عندما يسمح له الوقت بذلك . غير انه بالرغم من كل ذلك لم يبد اى حراك . وليس من شك فى ان تردده يرجع الى كونه قد وقف على ان الأمر اقل مما كان ينظر به للمغاربة من احتقار . وليس هنـــاك شك فى كون المغاربة قد مارسوا كل شهامة فيما قاموا به من المعارك . والدليل على ذلك ما تعوده الاسبانيـــون مـــن الشكـــاوي حـــول مـــا كانـــت الجيوش المغربية تحصل عليه من المنافع لصالحها بسبب وعورة الاراضي الموجودة قبالة سبتـــة .

يقول الاسبانيون ان المغاربة ذوو باس شديد عندما يقومون بحروبهم ملتجئين الى الاجمات والخنادق زيادة على كونهم يعرفون تلك الاراضـــي شبرا شبرا ، لكنهم عندما يرغمون على النزول للسهول يلجؤون الى التقهقر والفرار نظرا لعدم توفرهم على الجيوش النظامية . وهذه قولـــة مشكوك فيها ما دامت ثلاثة ارباع الوقت بالنسبة للجيوش الاسبانيـــة تصرف فى عمليات التراشق وفى اراض وعرة المسالك . وقد مرت ستة اسابيع وهم موجودون قبالة سبتة حيث انهم لا يعرفون عن طبيعة تلك الاراضي مـــا يعلمه المغاربـــة .

ان من الواضح ان الاراضي المنعرجة تعتبر اكثر صلاحيـــة مـــن السهول بالنسبة للجيوش الغير نظامية . غير انه بالرغم من ذلـــك فان عدد المشاة بالنسبة للجيوش النظامية يلزم ان يكون متفوقا على الجيوش الغير نظامية اذا كان للقوات النظامية سند وكان لها القـــدر الكافي مـــن

الاحتياطي على طول الخط وفي امامية الجيوش ، وكانت تحركاتها عادية ولها امكانيات السيطرة على الجنود وتنظيمهم بحيث يساند بعضهم البعض في اتجاه هدف معلوم ، فذلك كله من شانه ان يشعر الجيوش النظامية بتفوقها على العصابات الغير نظامية التي يظهر عجزها في الاراضي الصالحة للعمل وان توفرت على اضعاف المعدات التي تحتاج اليها .

ان الاسبانيين يعتبرون اكثر عددا . وهم بالرغم من ذلك لا يستطيعون مطلقا القيام باية مناوشة . والتفسير الوحيد لهذا الامر ان الجيش الاسباني لا يعرف القيام بالمناوشات ويعوض شعوره باللادونية غير مسالة الانضباط والتدريب المتعود عليها . ويظهر ان الاشتباكات بالخناجر والحراب تتكرر كثيرا . اذ عندما يصبح الاسبانيون قريبين من المغاربة فهؤلاء الآخرين يقومون الانقضاض عليهم حاملين الخناجر في اليد مثلما يفعل الاتراك ذلك . وليس هذا بالامر اليسير بالنسبة للجيوش الحديثة مثل الجيوش الاسبانية . لكن تكرر الاشتباكات من هذا النوع من شانه ان يجعل الامر مالوفا بالنسبة للاسبانيين فيصبحوا متعودين على الطريقة التي يستعملها المغاربة في حروبهم وكيفية قيامهم بالمجابهة . اننا عندما نرى ان القيادة مترددة وانها تسعى للحفاظ على مراكز الدفاع ، فاننا لا نستطيع ان نكون فكرة سامية عنها .

وطبقا لما يظهر ، فان الخطة الاسبانية في هذه المعركة تنحصر في الانطلاق من سبتة واعتبارها قاعدة لذلك وجعل تطوان هدفا للهجوم . فالقسم المغربي المقابل للشواطىء الاسبانية يكون شبه جزيرة تتكون من ثلاثين او اربعين ميلا عرضا وثلاثين ميلا طولا . واهم مدن شبه الجزيرة هذه هي طنجة وسبتة وتطوان والعرائش . وباحتلال هذه المدن الأربعة انطلاقا من جعل سبتة قاعدة لذلك فان الاستيلاء على شبه الجزيرة يصبح امرا ميسورا ، وهي بدورها تكون قاعدة للانطلاق نحو احتلال فاس ومكناس .

وينحصر الهدف الاول للاسبانيين على ما يظهر في احتلال شبه الجزيرة هذه . ولن تكون تطوان غير الهدف الاول في هذا العمل . والخطة السابقة الذكر معقولة على ما يظهر ، وان العمليات الحربية

تقتصر على منطقة محدودة يحف بها البحر من ثلاث جهات ونهران هما نهر تطوان ونهر التركي من الناحية الرابعة . وهي منطقة يعتبر احتلالها اكثر سهولة من الاراضي الواقعة جنوبا . فلو ان الهدف كان هو التوغل في الصحراء لكان جعل الصويرة او الرباط قاعدة للعملية امرا ضروريا ، ولوجب تاجيل العمليات الحربية بالقرب من اسبانيا التي لا يفصلها عن المغرب غير مضيق جبل طارق . ومهما كان الامر فان الانتفاع من الخطة يكون غير مفيد اذا لم يقع الشروع في تنفيذها عاجلا ، واذا ما استمر اودونيل فيما هو عليه ، فانه سيلحق العار بنفسه وبالجيش الاسباني رغم الاسلوب الرفيع الذي يستعمله في بلاغاته .

نيويورك « دايلي تربون » 19 يناير سنة 1860 .

تطوان — محمد الخطيب

الإعلام الثقافي

جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله يعين الأستاذ الحاج محمد اباحنيني وزيرا مشرفا على تربية أصحاب السمو الملكي الأمراء والأميرات

استقبل صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني صباح الاربعاء 20 صفر 1400 الموافق 9 يناير 1980 بالقصر الملكي العامر بمراكش الاستاذ الحاج محمد ابا حنيني وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية وعينه وزيرا مشرفا على تربية أصحاب السمو الملكي الامراء والاميرات.

وبهذه المناسبة ألقى جلالة الملك حفظه الله كلمة توجيهية قال فيها :

لقد قررنا ان نعين للاشراف على تربية ولي العهد وأخيه الامير مولاي رشيد وبناتي الاميرات وزيرنا في الثقافة واستاذنا الحاج امحمد ابا حنيني.

ان الاطوار التي يمر بها كل شاب وبالاخص ولي العهد تلك الاطوار تقتضي تنويع طرق التربية والتثقيف والتكوين، حينما أقول تنويع لا أذكر النوعية، ولكن اعني بهذا كيفية التلقين والتبليغ.

هذا واننا بهذه المناسبة لا يمكننا الا أن نشكر وزيرنا السابق في هذا المنصب السيد محمد عواد، على ما قام به من جهود مخلصة خالصة، الا ان الوعكة القلبية التي اصابته خلال السنة الماضية استوجبت منا ان نضفي عليه شيئا من الراحة والا نقلقه ونتعبه بمشغل كمشغل تكوين وتربية الامراء.

هذا ورغم هذا كله فان المغرب ليس في غنى عن كفاءة واخلاص كالكفاءة والاخلاص اللتين يتحلى بهما السيد محمد عواد وسوف نجد له من المهام ما يلائمنا ويلائم مؤهلاته وامكاناته.

اننا قررنا ان نتبع في طريق تلقين العلم والمعرفة لفلذات كبدنا منهجا لا أقول جديدا، ولكن ربما سيظهر غريبا، ذلك ان على الاقل في المواد العربية الاصلية والتي نعتبرها كركائز لكل تثقيف وتكوين كالادب واللغة والشعر والتوحيد والفقه والنحو والصرف ومعرفة الافكار وتيارات الافكار الاسلامية.

كل هذا يكون هيكلا انبنت دائما عليه الاصالة المغربية والثقافة المغربية.

ذلك هو الذي جعل الوفود المغربية بكيفية خاصة كلما تحركت في بلد من البلاد العربية كانت من احسن الوفود نطقا وفهما وتبليغا للغة العربية بنحوها وصرفها واشتقاقاتها.

وكان من الحرام علينا الا نمتع ولدنا بما استمتعنا به من المعرفة والعرفان في هذا الاطار العام والدقيق للتكوين والمعرفة باللغة العربية، فلذا قررنا ان يلقن هذه المواد التي ذكرت آنفا على الكيفية الاصيلة ذلك على يد علماء مشاركين، كلما جاءت أمام النحوي قاعدة فقهية الا وسردها، كلما جاء امام الاديب ظرف للاستشهاد بآية من القرآن او حديث من الاحاديث الا واتى بها.

كلما تمكن استاذ من هؤلاء الاساتذة ان يضيف الى معلوماته التي يدرس معلومات يقتنيها التلميذ مثل الطائر الذي يأكل من هنا وهناك، الا وتمكن ذلك التلميذ حينما يرجع طالبا ان يبقى حافظا لما تلقاه ومحتفظا على ما تلقاه.

تلك هي الطريقة التي نريدها بجانب المواد الاخرى واللغات الاجنبية ان يسير عليها تثقيف ولي العهد وتثقيف الامير مولاي رشيد، وتثقيف الاميرات.

ولنا اليقين انني ساجد في وطنيتكم اولا وفي ضميركم ثانيا وفي روحكم المسلمة ثالثا ما يجعلني مطمئنا على مصير ابنائي الذين هم قبل كل شيء ابناء المغرب وخدام المغرب.

وهنا نريد ان نركز على نقطتين :

ان ولي العهد ليس وحده خادم المغرب بل اخوه مولاي رشيد كذلك وبناتي كلهن خادمات لهذا البلد.

فكونوا رعاكم الله اوفياء في مهمتكم وامناء على الوديعة التي بين ايديكم لانها هي البذرة التي اريد ان تبقى في هذا البلد، بذرة الوثنية، بذرة التعلق بالبلاد تعلقا لا يفوقه الا الايمان بالله والتشبث بالعقيدة الاسلامية.

اعانكم الله على ما سوف تقومون به من عمل، ولي اليقين ان سفينة عهدت الى الحاج امحمد ابا حنيني، ان يسير بها الى مرسى النجاح لابد ان تصل في سلامة ويمن ونجاح، ولا سيما ان حوله ثلة من الاساتذة والمعينين على راسهم الاستاذ شفيق الذي لا زال يتمتع بثقتنا التامة وتشجيعنا الكامل.

لي اليقين ان المركبة ستصل بيمن وسلام الى الاهداف التي نريد ان تصل اليها .

والسلام عليكم

الثقافة في مجلس النواب(*)

بسم الله الرحمن الرحيم

سيدي الرئيس

حضرات السادة النواب المحترمين.

ان الثقافة ما زالت الى يومنا هذا حديث الجار والجارة ولم ينته المفكرون والعلماء والادباء المنتشرون في مشارق الارض ومغاربها منذ اخذوا يبحثون عن تعريف للثقافة، إلى مفهوم تلتقي حوله الأفكار ويتم عليه الاتفاق. فهذه الظاهرة الاجتماعية، أو هذا العنصر الملحوظ المرموق من عناصر الحضارة ما فتىء موضوع أخذ ورد، وتطارح وتدارس تحاول فئات ينتمون إلى مدارس مختلفة وأرباب تفكير ينتسبون أو لا ينتسبون إلى تيارات واتجاهات معينة، ان يحددوا المعالم والملامح الأساسية بدقة ووضوح ويحيطوا بالمضمون احاطة شاملة تضع الاتفاق موضع الاختلاف وتقر ما هو مكتمل جميع بديلا لما هو متفرق شتيت.

● خطاب معالي الأستاذ الحاج محمد أبا حنيني وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية في الجلسة المخصصة لدراسة ميزانية وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية 1980، بمجلس النواب.
(يوم الاربعاء 5 صفر 1400 ـ 25 دجنبر 1979).

وما دام هذا المنصر تتداوله النصال التي تتهشم على النصال ويتطاير بين الكاسر والمكسور، وما دامت الثقافة ببلادنا تعنى بشؤون متعددة تواضعت الأفكار على اعتبارها داخلة في مفهوم الثقافة، وقررتها نصوص قانونية كمحاور لعمل معرف موصوف فلا مناص من الاستناد إلى واقع ممارس لا جدال فيه والاعتناء بهذه الشؤون المتعددة واختصاصها بالعمل الدؤوب سعيا وراء تحقيق الأغراض المعينة والمقاصد المبينة.

وهذه الأغراض وهذه المقاصد تستوجب ان تتوافر للمسؤول عن بلوغها وادراكها الوسائل المادية والبشرية التي لا غنى عنها لكل ممارسة تستهدف تناول تلك الشؤون بالفاعلية المستمرة الضامنة لازدهارها في كل نحو وكل مجال.

فهل يا ترى تتوافر الوسائل والأسباب التي لاسبيل بدونها إلى عمل ثقافي مذكور ؟.

ان هذه الوسائل والأسباب سبق ان وصفتها فيما يتصل بوزارة الشؤون الثقافية بالنحافة والضمور، ولم أصفها بهذين الوصفين المطلوبين في عصرنا هذا لاستحقاق نعت الخفة وسمة الرشاقة اطراء أو ثناء، وإنما استعرتهما دليلين على القلة والنزارة والضعف والهزال، وها أنا اليوم وان ظفرت بدعم يسير توالى على مر سنوات ونلت حظا غير كثير من تعزيز تلاحق بتلاحق القوانين المالية، أمسك لسبب تدركونه، عن ذكر نسبة ميزانية الثقافة إلى مجموع نفقات الدولة، ولعلكم تستغربون هذا الأمر وتستنكرون ضئالة الوسائل المبذولة ليقينكم بأن للثقافة دورا هاما يجب أن تضطلع به الدولة ولا تقضون العجب من قناعة وزير الثقافة بالاعتمادات القميئة، العجفاء، بيد ان استغرابكم لا يلبث أن يتراجع

ويرعوي وتعجبكم سرعان ما يرتد وينطوي إذا ذكرتم كما أذكر تارة بعد أخرى قول أبي الطيب المتنبي :

وإني لممنوع المقاتل في الوغى   وإن كنت مبذول المقاتل في الحب

ان الظروف التي تجتازها بلادنا - سيدي الرئيس، حضرات السادة النواب المحترمين - ظروف ألجأتنا إلى اختيار، وساقتنا إلى إيثار، وقد ءاثرنا ان نحمي الذمار وننود عن السيادة ونصد المطامع عن الديار ونكافح من أجل الوحدة التي نريدها تامة حصينة، خالصة من الأوضار.

وان اختيارنا هذا لخليق بكل عطاء واسترخاص وجدير بكل سخاء وتضحية.

وهذا السياق يتحكم بطبيعة الحال في السياسة الثقافية التي تسلكها الوزارة إلا أنها سياسة واضحة المعالم جلية القسمات وقد أتيح لي مرات أن أفيض القول فيما تتوخاه هذه الوزارة من مقاصد وأهداف، وها أنا أؤكد أن الأهداف المطلوبة تتلخص في المحافظة على التراث وفي البحث عما يفيد تاريخ بلادنا القديم منه والحديث وفي تشجيع القراءة والتأليف والإبداع وفي التعريف بما تقوم عليه أصالتنا وتتجلى من خلاله شخصيتنا وذاتيتنا، وفي الحضور الدائب المسترسل داخل المغرب وخارج حدوده سواء كان ذلك عن طريق التعليم والعرض وتحريك القرائح وشحذ الهمم وحفز المواهب أو كان بالتبادل الثقافي الذي يتيح لنا من جهة تقديم التليد والطريف من مبتكر العقل ووليد الاحساس وبديع اليد الصناع وجميع ما يزيح النقاب عن وجه حضارتنا ويتيح لغيرنا من جهة أخرى أن يظهرنا على ضروب من ابداع فكره ووجدانه وأصناف مختلفة من ماضيه الغابر وحاضره الراهن، وعلى هذا النحو وغيره من لقاءات وندوات دولية وأحاديث ومحاضرات تسير المدارك إلى نمو وءافاق

المعرفة إلى اتساع.

ولاكن هذا كله لا يقي من أذى ألسنة حداد ولا يفهم كمجهود له ما بعده وعمل متبوع بأعمال.

ذلك ان وزارة الشؤون الثقافية تتعرض الفينة بعد الأخرى لانتقادات ومواخذات، وهذه الانتقادات والمواخذات كثيرا ما تصدر عن المام طفيف باختصاصات وزارة الشؤون الثقافية أو بما أنجزته وتنجزه أو بما ينفرد به الكتاب والمؤلفون والمبدعون دون سواهم. وأود هنا أن أشير تصحيحا لبعض الأخطاء، إلى أن الوزارة ليس لها أن تقوم مقام الشاعر أو الناشر أو الفنان التشكيلي والفنان الموسيقي أو الكاتب المسرحي، فليس من الصواب في شيء أن يعزى إليها ما يظنه المنتقدون نقصا أو تقصيرا في هذا المجال أو ذاك لأن إهتمام الوزارة مصروف فيما يتصل بالمفكرين والمؤلفين والفنانين إلى إيلاء الرعاية وبذل السند والدعم والتشجيع وتيسير الفرص ومد الوسائل والأسباب التي تساعد على حث الهمم والقرائح وظهور المواهب والملكات في ساحة الثقافة. فالمؤلفون والكتاب والشعراء والفنانون على اختلاف أهوائهم وميولهم ومشاربهم احرار فيما ينقطعون إليه من ممارسات لا يخضعون لوصاية ولا يصدر لهم توجيه ولا يباشر عليهم ضغط، وليس هناك من قيود أو حدود تحصر أعمالهم في النطاق المقبول إلا ما تفرضه أحكام القانون.

أما المقترحات التي يقدمها السادة النواب المحترمون في حظيرة مجلسكم الموقر هذا أو في حظيرة لجنتكم الخاصة بشؤون الإعلام والثقافة فان منها ما أخذ بعين الاعتبار ونفذ، ومنها ما نوقش مناقشة مطبوعة بطابع الصراحة والحوار البناء، ومنها ما هو موعود بالاعتبار

والتنفيذ في المدى القريب أو المدى البعيد بحسب ما يتيسر من أطر ويكفل للشؤون الثقافية من اعتمادات.

ومهما يكن من أمر فإن المسؤول عن هذه الشؤون يرحب بكل ملاحظة وكل اقتراح يردان عليه من السادة النواب المحترمين ويعرب مرة أخرى عن استعداده للحوار وتبادل الرأي إلى أن يقضي في تلك الملاحظة وذلك الاقتراح بما يعين على مواصلة السير على متن المحجة البيضاء ويحقق المصالح التي يتطلع إليها الوطن والمواطنون.

والله الموفق للصواب

المركز الثقافي الاسلامي بمدينة العيون.

قامت وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية بتسلم المركز الثقافي الاسلامي بمدينة العيون، من وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية، في حفل كبير رأسه السيد عامل المدينة المذكورة، وبحضور رجال السلطة المحلية، وعلماء المدينة واعيانها ومنتخبيها، بالاضافة الى عدد كبير من الأساتذة والمثقفين، وذلك في يوم الثلاثاء 4 ربيع الأول 1400 (980.1.12).

وقد زودت وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية خزانة المركز المذكور بمجموعة قيمة من الكتب يبلغ عددها 2121 كتابا.

وسيدشن هذا المركز في يوم 3 مارس الحالي، بمناسبة عيد العرش المجيد.

مشاركة المغرب
في الملتقى العربي الأول للأدب الشعبي
بتونس

انعقد بمدينة قفصة (الجمهورية التونسية) الملتقى العربي الاول للأدب الشعبي أيام 28 ـ 29 و30 نوفمبر 1979، بمبادرة من تونس وبحضور مشاركين من الاقطار العربية التالية :

1 ـ دولة الامارات العربية

2 ـ دولة البحرين

3 ـ الجمهورية التونسية

4 ـ الجمهورية الجزائرية

5 ـ المملكة العربية السعودية

6 ـ المملكة المغربية

وانتظم بنفس المدة والمكان المهرجان السادس عشر للشعر الشعبي التونسي، والمهرجان الثاني للأغنية الشعبية التونسية.

وقد ألقيت في هذا الملتقى عدة عروض، كان من بينها عرض قدمه الدكتور عباس الجراري عن بعض «قضايا الأدب الشعبي»، تناول فيه :

1 ـ مفهومه

2 ـ أشكاله

3 ـ علاقته بالأدب المعرب

4 ـ قيمته وأهميته

وبعد تداول الرأي بين الباحثين والمشاركين في أعمال الملتقى، اتفق جميعهم على :

أولا : تشكيل تنظيم (رابطة أو اتحاد) عربي يعنى بشؤون الأدب الشعبي جمعا ودراسة وانتاجا، باعتباره تراثا عربيا أصيلا ينبغي الاهتمام به والتعاون على جمعه ودراسته وتقريب أساليبه ولغته الى اللغة الأم، حتى يكون عامل توحيد لغوي وقومي بين الشعوب العربية، وموضوعا متكاملا، تاريخيا وعلميا للدارسين.

ثانيا : تكوين لجنة تحضيرية تقوم بإعداد مشروع قانون اساسي لهذا التنظيم وتتولى الاتصالات مع المعنيين والعاملين بالأقطار العربية في مجالات الأدب الشعبي، انتاجا ودارسة واهتماما، سواء على المستوى الرسمي أو مستوى الهيآت والأفراد؛ وذلك تمهيدا لعقد المؤتمر التأسيسي.

ثالثا : تتكون اللجنة التحضيرية من السادة :

1 ـ الدكتور احمد أمين المدني (الامارات العربية)
2 ـ الأستاذ حسن يوسف مطر (الامارات العربية)
3 ـ الأستاذ عبد الرحمن رفيع (دولة البحرين)
4 ـ الأستاذ صالح المهدي (الجمهورية التونسية)
5 ـ الأستاذ محمد المرزوقي (الجمهورية التونسية)
6 ـ الأستاذ أبو القاسم محمد كرو (الجمهورية التونسية)
7 ـ الأستاذ محمد الأخضر السايحي (الجمهورية الجزائرية)
8 ـ الأستاذ حسن عبد الله القرشي (المملكة العربية السعودية)
9 ـ الدكتور عباس الجراري (المملكة المغربية)

رابعا : تكون تونس المقر المؤقت للجنة

خامسا : يتم إعداد مشروع القانون، والدعوة الى المؤتمر التأسيسي خلال 1980

سادسا : يتولى الأستاذ المرزوقي (من تونس) متابعة المراحل التحضيرية والاتصالات الضرورية مع الجهات المعنية في البلاد العربية، ويساعده في ذلك جميع أعضاء اللجنة.

سابعا : يحدد القانون الأساسي أهداف الرابطة على أن يتضمن مبادىء أساسية ترمي الى جعل الأدب الشعبي عامل ترقية لفنون القول الشعبية العربية وأداة توحيد بين الشعوب العربية وتطويرها وتقريب اللهجات العربية صعودا بها الى اللغة الأم.

ثامنا : يحدد القانون الأساسي اسم التنظيم وشروط عضويته

تاسعا : لكل قطر عربي لم يشترك في هذه اللجنة أن يشارك في الاجتماعات التحضيرية أو التأسيسية القادمة بممثل واحدا أو أكثر على أن يكون لكل قطر صوت واحد.

بلاغ من وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية حول نتيجة جائزة المغرب لسنة 1979

بناء على البلاغ الصادر عن وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية التي أعلنت فيه عن «جائزة المغرب» لسنة 1979، وتبعا للاجتماع الأول لأعضاء اللجنة الموكول اليها اختيار المستحق أو المستحقين لجائزة المغرب لهذه السنة، اجتمعت اللجنة من جديد بجميع أعضائها ولجانها الفرعية بمقر وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية، وقررت النتيجة الآتية :

- منح جائزة المغرب في العلوم الانسانية والاجتماعية لكتاب «فاس و باديتها من 1549 الى 1637 - مساهمة في تاريخ المغرب السعدي «لمؤلفه السيد محمد مزين».

- منح جائزة المغرب في العلوم والرياضيات لكتاب «الطب التقليدي وعلم التسمم في المناطق الصحراوية الغربية» لمؤلفه السيد جمال بالاخضر.

- الاحتفاظ بجائزة المغرب في الآداب والفنون.

وكانت لجنة التحكيم تتألف من السادة :

الدكتور عبد اللطيف بربيش، الدكتور محمد حصار، الدكتور الطيب الشكيلي، الدكتور ادريس بن يحيى، الدكتور محمد حجي، الاستاذ محمد ابن تاويت، الدكتور عباس الجراري، الاستاذ عبد الكريم غلاب، الاستاذ عبد الرحمن الفاسي، الدكتور محمد زنيبر، الدكتور عبد الهادي التازي، الاستاذ عبد الله عديل، الدكتور عبد الكريم الابيض، الدكتور ابراهيم دسوقي أباظة، الدكتور رشدي فكار، الاستاذ محمد ميكو، الدكتور محمد ابن شقرون، الاستاذ محمد المنوني، الاستاذ أحمد عواطف ، الاستاذ محمد عيدون.

بلاغ من وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية حول اجتماع أعضاء اللجنة التي عينها صاحب الجلالة المؤيد المنصور بالله الخاصة بتقييم الأبحاث المرشحة لجائزة الحسن الثاني لأحسن دراسة وأكملها في موضوع: "كيفية ادراج الزكاة في النظامين الاقتصادي والجبائي وطرق تحصيلها واستيفائها."

انعقد عشية يومه برئاسة السيد الحاج محمد أبا حنيني وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية وبمقر الوزارة، اجتماع أعضاء اللجنة التي عينها صاحب الجلالة المؤيد المنصور بالله الخاصة بتقييم الأبحاث المرشحة لجائزة الحسن الثاني لأحسن دراسة وأكملها في موضوع «كيفية ادراج الزكاة في النظامين الاقتصادي والجبائي وطرق تحصيلها واستيفائها».

وبعد أن رحب السيد الوزير بجميع أعضاء اللجنة المذكورة، وشكرهم على حضورهم، ونص على ما يعلقه صاحب الجلالة نصره الله من أهمية بالموضوع الآنف الذكر، وبأعمال اللجنة دارت المداولة حول عدة مسائل متصلة بالجائزة،

كمسطرة العمل، وتكوين اللجان الفرعية، وطبع الأبحاث، وتعيين مقرر عام يقوم بالتنسيق بين مختلف اللجان.

الخميس 6 ربيع الاول 1400

(24 يناير 1980)

مشاركة المغرب في الذكرى الخمسينية للاتحاد العالمي لمسرح العرائس ببلجيكا

انعقدت ببلجيكا خلال الفترة المتراوحة ما بين 1979/3/26 الى غاية 1979/4/4 الذكرى الخمسينية للاتحاد العالمي لمسرح العرائس والتي توجت بمهرجان عالمى لمسرح العرائس ذات التقاليد الشعبية.

ولاهمية هذا المهرجان أوفدت وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية السيد محمد السملالي مدير المسرح الصغير لحضور هذه التظاهرة الثقافية بصفته عضوا في الاتحاد وممثلاله داخل المغرب.

وخلال هذا اللقاء عقدت جلسات عمل لاعضاء المجلس واللجنة التنفيذية والامانة العامة، حيث عرضت الامانة العامة الانشطة والاشواط التي قطعها الاتحاد منذ تأسيسه الى الآن، كما رحبت بالدول التي انضمت الى الاتحاد.

وقد تناولت جلسات العمل المواضيع التالية :

- تكريم لاعبي العرائس القدامى
- النظر في اقامة المهرجانات
- ميزانية الاتحاد ومقرها الجديد
- الاعتناء بهواة فن العرائس

وبعد ثلاثة أيام من العمل أسفرت النتيجة عما يلي :

ـ تحويل مقر الامانة العامة من بولونيا الى أمريكا. نظرا لكون امريكا قدمت مشروعا لامداد الاتحاد بكل امكانيات التسيير اداريا وتقنيا متحملة نصف الميزانية العامة. وبعد نقاش تمت الموافقة المبدئية شريطة أن لا تتم بصفة نهائية الا بعد موافقة الجمع العام للمجلس واللجنة التنفيذية للاتحاد، وسماح وزارة الثقافة البولونية بذلك بصفتها الممول الاداري للامانة العامة. كما تقرر :

ـ اقامة مهرجان في اليابان ثم امريكا.

ـ اصدار توصية بالاعتناء بهواة فن العرائس الصغار منهم والكبار، وذلك باقامة تداريب محلية لهم حتى يستطيعوا كتابة مسرحيات وتشخيصها وتصميم عرائسها بأنفسهم.

الاحتفال بالذكرى الألفية لميلاد المفكر الكبير ابن سينا

أصدرت وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية ووزارة التربية الوطنية وتكوين الاطر البلاغ التالي :

تنفيذا لقرار منظمة اليونسكو، التي دعت الى اقامة احتفال ـ بمناسبة الذكرى الالفية لميلاد المفكر الكبير ابن سينا ـ خلال السنة الحالية، وانطلاقا من الاهتمام العربي والاسلامي بهذه الشخصية العظيمة، فقد تقرر أن يشارك المغرب في هذا الاحتفال.

ولهذا الغرض، تألفت لجنة وطنية مغربية ستعقد أول اجتماعها غدا الخميس 4 ربيع الثاني 1400 (21 ـ 2 ـ 1980).

كتاب
الأدب العربي في المغرب الاقصى

قامت وزارت الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية باعادة طبع الكتاب المذكور لمؤلفه المرحوم الاستاذ الكبير السيد محمد ابن العبلي القباج.

ومن المعروف أن الطبعة الاولى منه، صدرت في جزئين سنة 1347 هـ 1929 م.

والكتاب يضم تراجم عديدة لشعرائنا المغاربة الذين اشتهروا في تلك الحقبة، كما يضم منتخبات من شعرهم، ويعد مصدرا مهما عن الادب المغربي، استفاد منه كثير من الدارسين والباحثين في المغرب والمشرق، ومازال بعضهم يستفيد منه لحد الآن.

والاستاذ القباج من الأدباء والمفكرين المغاربة المعروفين الذين خدموا الادب المغربي خدمة واسعة، وبذلوا جهودا مشكورة في اثرائه واغنائه والتعريف به.

رحم الله أديبنا الكبير رحمة واسعة، وأسكنه فسيح جنانه وانا لله وانا اليه راجعون.



تصنيف

محمد بن العباس القباج

﴿ الجزء الاول و الثاني ﴾

تمت اعادة طبع هذا الكتاب بمبادرة من وزارة الدولة
المكلفة بالشؤون الثقافية بمطابع فضالة ـ المحمدية ـ